رواية

إيان ماك إيوان

الكفّارة



دار الآداب

إيان ماك إيوان

الكفّارة

ترجمة

الدكتور محمّد درويش

رواية

دار الآداب ـ بيروت

الكفّارة

إيان ماك إيوان/ روائي إنكليزي

الطبعة الأولى عام 2012
ISBN 978-9953-89-215-3



دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
rana.adab@hotmail.com
Website: www.adabmag.com

في تقريظ الرواية

حائزة جائزة دبليو إج سمث الأدبيّة.

حائزة جائزة بيبول بوكر برايز.

حائزة جائزة أدباء الكومنولث لأفضل كتاب في بريطانيا.

رُشّحت لجائزة بوكر برايز.

رُشّحت لجائزة رواية العام التي تمنحها مؤسّسة ويتبرير.

أفضل كتاب رشّحته غلوب آند ميل.

ـ إنّ قراءة رواية الكفَّارة تبعث على متعة هائلة، والأكثر من هذا أنّها كتاب عظيم.

صحيفة ذا غلوب آند ميل

ـ مدهشة... عمل أدبي رائع أنجزه أحد أفضل روائيّي إنكلترا.

صحيفة ناشيونال بوست

ـ لقد جعلتني رواية الكفَّارة، بما تنطوي عليه من أهداف جادّة ولغة مذهلة، متفائلاً مرّة أخرى بالإنابة عن إمكانات الأدب التي تصلح لطبيعة البشر.

صحيفة لوس أنجلوس تايمز

ـ متألّقة... جميلة... أُبّهة... منجزة إنجازًا رائعًا.

صحيفة ذا بوسطن غلوب

ـ عمل يتّسم بعمق مدهش وطابع إنساني. . . ومن النادر أن يشعر ناقد ما أنّ لديه ما يبرّره لاستعماله مفردة «تحفة»، لكنّ رؤية الكفّارة تستحقّ حقًّا أن توصف بهذه الصفة.

مجلّة الإيكونومست

ـ يصل ماك إيوان أعلى مراحل قوّته من الناحية التقنيّة، ويمكنه، بشكل أو بآخر، أن يحقّق أيّ شيء يرغب فيه في مجال الشكل الروائي.

ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس

ـ لرواية الكفّارة سطوة ومكانة رفيعة ترغم القارئ على أن يستمتع بقراءتها.

ذا غازيت (مونتريال)

ـ بانوراما روائيّة جميلة ومهيبة.

مجلّة ذا نيويوركر

ـ رواية مدهشة. . شهيّة ومزدحمة بالشخصيّات، فيها واحد من أكثر المشاهد الجنسيّة إثارة للدهشة في الرواية الحديثة. . . إنّها رواية لن تنساها.

صحيفة شيكاغو تريبيون

ـ آسرة. . . استثنائيّة. . . دالّة على طموح. . . لقد خلق ماك إيوان عالمًا روائيًّا مشوّقًا يستحوذ على الاهتمام بفضل بصيرته

النفسانيّة وتمكّنه من سرد التفاصيل الحسِّيّة والتاريخيّة.

صحيفة ذا وول ستريت جورنال

ـ تحوّل رواية الكفَّارة جزءًا محدّدًا من الموروث الأدبي البريطاني إلى القرن الحادي والعشرين.

صحيفة الغارديان (المملكة المتّحدة)

ـ رواية أخّاذة وإعتاقيّة... إنّها أكثر رواياته كمالاً وإثارة للحنان حتى اليوم.

ذا نيويورك تايمز بوك ريفيو

ـ أفضل روايات ماك إيوان حتى اليوم... ستفطر فؤادك.

صحيفة تورنتو ستار

ـ تحفة في البحث الأخلاقي... جميلة وموجعة.

مجلّة نيويورك

ـ رؤية مذهلة... لا تُنسى... مشوّقة... إنّ ماك إيوان يضطرّ قرّاءه إلى تقليب الصفحات برهبة وترقّب، أكبر، ربّما، من أيّ كاتب أدبي آخر يشتغل باللغة الإنكليزيّة اليوم.

مجلّة ذا أطلانطيك مونثلي

ـ يوحي المدى الاستثنائي لرواية الكفَّارة بأنّه لا يوجد شيء

لا يتمكّن ماك إيوان من عمله.

صحيفة ذا كريستيان ساينس مونيتور

ـ قراءتها ساحرة... إنّ ماك إيوان لم يظهر من قبل قطّ أنّه متعاطف مع هشاشة قلب الإنسان.

صحيفة ذا صاندي تايمز (المملكة المتّحدة)

ـ عظيمة... محتشدة بالترقّب، ذكيّة في جانبها النفساني، ومنشّطة عقليًّا.

صحيفة نيوزداي

ـ لم يسبق لأيّ أديب منذ القرن التاسع عشر أن دخل عقول شخصيّاته وخرج منها بمثل هذه الثقة المطلقة.

ذا كليفلاند بلين ديلر

ـ رواية استثنائيّة... قويّة... وفي الوقت نفسه غريبة ومرهقة وسامية.. إنّها أروع كتاب يؤلّفه أديب ذو مهارات هائلة... فيها فقرات آسرة وجميلة تتسارع معها نبضات القلب.

ذا واشنطن بوست بوك وورلد

ـ تحفة رائعة... رواية تنطوي على ذوق فنّي رائع، وعلى قوّة وصدق تضعها كلّها بين أعظم الأعمال الروائيّة التي صدرت في العقد الماضي من الزمان... إنّها، باختصار، تحفة أدبيّة عظيمة.

صحيفة ذا بالتيمور صن

ـ رواية ساحرة.. قصّة حبّ، قصّة حرب، وقصّة عن القصص، وبهذا تأسر الفؤاد والعقل وأعماق الإنسان... إنّ ماك إيوان مقنع إلى أبعد الحدود، وعندما يكتب، وهو في أفضل حالاته، فإنّه يصبح لا مرئيًّا ولا يفتقر أبدًا إلى الدقّة والرشاقة... إنّ رواية الكفَّارة عمل من إنجاز روائي في أوج قوّته.

صحيفة ذا نيويورك أُبزرفر

ـ لا يمكن للمرء أن يطرح رواية الكفَّارة جانبًا بعد أن يكون قد اختارها... إنّ ماك إيوان يكتب كأنّه ملاك ويصمّم الحبكة كأنّه شيطان... وفي وسعه أن يتفوّق على معظم أقرانه من الروائيّين الذين يكتبون باللغة الإنكليزيّة اليوم.

صحيفة ذا ويكلي ستاندرد

الإهداء

إلى آنالينا

المؤلّف

شكر وتقدير

إنّني مدين بالشكر والتقدير إلى موظّفي قسم التوثيق في المتحف الحربي الإمبراطوري، لسماحهم لي بالاطّلاع على رسائل غير منشورة وصحف ويوميّات كتبها جنود وممرّضات خدموا في الحرب سنة ١٩٤٠.

كما أنّني مدين بالشكر أيضًا للمؤلّفين والكتب الوارد ذكرها أدناه: الهدف دنكرك لغريغوري بلاكسلاند، ومعجزة دنكرك لولتر لورد، ولا وقت للحبّ للوسيلا أندروز.

وأعبّر عن خالص شكري لكلّ من كلير تومالين، وكريغ راين، وتيم غارتون ـ آش لما أبدوه من ملاحظات واضحة ومفيدة، وقبل هذا كلّه لزوجتي آنالينا ماك آفي لكلّ ما أظهرته من تشجيع وقراءة ثاقبة مدهشة.

إيان ماك إيوان

مقدّمة المترجم

إيان ماك إيوان: عبثيّة الحياة والموت

إيان ماك إيوان روائي يحلو له أن يضع القارئ أمام شخصيّاته المتنافرة، المتفلسفة فكريًّا، والمتصارعة نفسيًّا، المعقّدة داخليًّا والبسيطة سطحيًّا، الغارقة في أحلام اليقظة، والمبالغة في حدّة سلوكها وتصرّفاتها، فلا تجد أمامها من يفهم بواعث أفعالها، ولا ما يجول في أذهانها: إنّها شخصيّات مرسومة على نحو يتعمّد فيه الروائي أن يكون رسمه إيّاها بالغ التعقيد من جهة، وغاية في البساطة من جهة أخرى، فلا الشخصيّات المقابلة لها تُحسن فهمها، ولا القارئ الاعتيادي يُدرك السبب الذي يدفع المؤلّف إلى اختيار مثل هذه النماذج البشريّة لتؤدّي أدوارًا مركزيّة في رواياته التي يتوالى تعقيد أجوائها القصصيّة، حتى يحار القارئ النمطي وهو يتوغّل في سياقات النصّ، لا يدري إنْ كان الذي يقرأه نصًّا روائيًّا ينتمي إلى عصر ما بعد الحداثة، أو عصر ما بعد الاستعمار، أو عصر ما بعد التفكيكيّة، وهي عصور يتّضح مدى تأثّر إيان ماك إيوان ببلاغاتها وخطاباتها النقديّة الصارمة في معظم رواياته، لا سيّما منها «الحديقة الإسمنتيّة» و«المستغرق في أحلام اليقظة» و«كلاب سود» و«الحبّ الخالد» و«يوم السبت» و«أمستردام» (التي صدرت

مؤخّرًا عن دار الآداب أيضًا بترجمتنا، وفازت بجائزة بوكر للرواية)... بل إنّ هذه الروايات، ورواية «الكفّارة» واحدة منها أيضًا، إن لم تأت في مقدّمتها، تكشف أيضًا عن عمق قراءات المؤلّف في روايات القرون الماضية التي مهّدت لفتوحات كبرى في الكتابة الروائيّة: فكرةً، وأسلوبًا، وتقنيةً، وموضوعًا، ومعالجةً، ولا سيّما مؤلّفات ڤرجينيا وولف (وروايتها: الأمواج، بوجه خاصّ)، وتوماس هاردي (في روايته: جود الغامض)، وهنري جيمز (في روايته: الطاس الذهبي)، وجين أوستن (في روايتها الكبرى: دير نورث آنجر)، وصاموئيل ريتشاردسن (في روايته المدوّية: كلاريسا)، وفلاديمير نابوكوف (في أشهر رواياته: لوليتا). كما لا يغيب عن ذهن القارئ الأدبي مدى تأثّر كتابات ماك إيوان بأعمال شكسبير المسرحيّة، وبخاصّة «هاملت» و«ماكبث» و«العاصفة» و«الليلة الثانية عشرة».

لغته الأدبيّة، في مجمل رواياته، تذكّر القارئ بالأدب الروائي الذي شهدته القرون السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرون، ويتّضح هذا، بأجلى صوره، في أسلوبه الأدبي المتقدّم الذي ينحو منحى أسلوب أساطين الرواية الروسيّة والأوروبيّة والأميركيّة، فهو يستطرد على هواه، خدمةً للأفكار التي يريد أن يوصلها للقارئ، لكنّه سرعان ما ينتقل إلى أخرى غيرها، قد يشعر معها هذا القارئ نفسه أن لا صلة لها بما سبقها، لكنّ السياق العامّ للسرد يبيّن ضرورة مثل هذه الانتقالات السريعة، سواء في الجملة الواحدة، أو الفقرة الواحدة.

لكنّ هذا كلّه لا يعني أنّ إيان ماك إيوان يظلّ أسير الأدب الروائي الكلاسيكي، على اختلاف أنماطه ومبدعيه، بل نرى أنّ أسلوب الصحافة المقتضب (التلغراف، إنْ شئت) واضح المعالم بين صفحات ما يكتبه. فهناك الجمل القصيرة، والعبارات المبتورة، والكلمات المنفردة التي طالما يلجأ إليها ليعبّر عن حالة معيّنة يمرّ بها البطل أو البطلة. ويبدو هذا جليًّا عند استغراق أبطاله في أحلام اليقظة، والأفكار البعيدة عن أرض الواقع، وخير

دليل على هذا ما يجول من أفكار في مخيّلة أبطاله في رواية «الكفّارة»، لا سيّما بريوني ولولا وسيسليا (وكلّهنّ من الإناث، وهذه ليست مصادفة غريبة) خاصّة عندما ينفردن بأنفسهنّ ويسترسلن في التفكير بأحوالهنّ وأحوال من يعيش معهنّ أو يرتبط بهنّ ارتباطًا قدريًا، مصيريًا، لا سبيل إلى الفكاك منه، فترى كلّ هذه الأفكار، عندئذٍ، وقد تحوّلت إلى مفردات وكلمات متقاطعة، بل متسارعة على صفحات الرواية، كلّ كلمة، وكلّ مفردة لها خصائصها التي لا يمكن للنصّ أن يستغني عنها. صحيح أنّ إيان ماك إيوان يبدو في بعض الأحيان وقد أثقل نصّه التعبيري باستطرادات تُحلّق بالقارئ بعيدًا عن الفكرة التي ينسج من حولها بقيّة الأفكار التي تستبدّ بأبطاله وبطلاته وبقيّة شخوص رواياته، إلاّ أنّه بتقنيّته الروائيّة يُعيد ربط هذا النسيج ربطًا متماسكًا، وحيويًا، ومشحونًا بدلالات وعلامات تتّضح تدريجيًا في بنية النصّ ومتنه.

ويبدو للقارئ أنّ الفكر التشاؤمي، كما مثّله أصدق تمثيل فلاسفة الغرب، من مثل كيركغارد ونيتشه وشوبنهاور، والفكر الوجودي الذي وضع سارتر بصماته الأخيرة عليه، والاتّجاه العبثي في الأدب والمسرح الذي أبدع في تصويره صاموئيل بيكيت وكافكا وآيونسكو، يغور عميقًا في جذور أدب ماك إيوان لا سيّما روايته هذه (الكفّارة). وإلاّ فكيف نفسّر ما حلّ بروبي، اين الخادمة التي تعمل في منزل بريوني، التي اتّهمته بأنّه هو الذي اغتصب ابنة خالتها لولا في عتمة البيت، دون أن تتبيّن ملامحه، فتزجّه الشرطة في السجن لثلاثة أعوام، في حين أنّ الفاعل هو بول مارشال، صديق شقيقتها ليون، الذي أتى به لقضاء بعض الوقت وإيّاه في البيت، ولم يطلق سراحه إلاّ شريطة أن يلتحق بالخدمة العسكريّة في جبهة الحرب.. ويُساق إلى دنكرك حيث يلقى مصرعه هناك.. ولا تدرك بريوني غلطتها الكبرى إلاّ في القسم الثالث من الرواية، وتتذكّر أن بول مارشال هو الذي اغتصب قريبتها، وإنْ كان بملء إرادتها، وتحاول التكفير عن ذلك الخطأ بأن تبدأ، بعد أن تبلغ من الكبر عتيًا، بكتابة رواية تُعيد فيها الاعتبار إلى روبي ولولا، وبدلاً من أن تجعل روبي يلقى

مصرعه في جبهة الحرب، فإنّها تُنهي قصّته بأن تجعله، خلافًا لما جرى على أرض الواقع، يتزوّج بلولا ويحيا وإيّاها حياة سعيدة، علمًا أنّ حياة لولا تنتهي بدورها نهاية عبثيّة في رواية ماك إيوان هذه، إذْ تلقى مصرعها إثر انفجار قنبلة تدمّر مشروع الماء والغاز في إحدى محطّات قطارات الأنفاق.

كما تتجلّى عبثيّة الموت والقهر في عمل بريوني في المستشفى، أثناء الحرب العالميّة الثانية، بعد أن تقرّر الالتحاق بمهنة التمريض لمعالجة جرحى الحرب، بدلاً من إكمال دراستها في جامعة كمبردج.

إنّ مشاهد الموت بالجملة تشير، كما يريدنا ماك إيوان أن نفهم، إلى مدى هشاشة الوضع البشري وضعف الإنسان في مواجهة قدره ومصيره، بل إلى عدم قدرته على إيجاد الحلول البديلة لمشكلاته الدنيويّة، بصرف النظر عن مدى خطورتها وقدرتها على تدمير الإنسان وتحطيم منجزاته الحضاريّة والمادّيّة. وتبدو المقارنة واضحة بين عمل بريوني في المستشفى وما كانت تقوم به سيّدة المصباح فلورنس نايتينغيل من دور مشابه في تمريض الجنود وتضميد جراحاتهم إبّان حرب القرم. كما أنّ مشاهد الموت والدمار والرعب التي يراها روبي بأمّ عينيه أثناء الانسحاب من دنكرك ليست إلاّ دليلاً آخر على عبثيّة الحياة نفسها، بعد أن يطال الموت، إبان الانسحاب، عددًا كبيرًا من رفاقه الجنود وأصدقائه، فضلاً عن المدنيّين الذين لا ناقة لهم في تلك الحرب ولا جمل.

كما أنّ عبثيّة الحياة والموت تطارد بريوني حتى في أدقّ تفاصيل عملها؛ فعندما تطلب منها إدارة المستشفى أن تهتمّ برعاية أحد الجنود الفرنسيّين المصابين إصابة خطرة، نجدها تطمئنه على حاله وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فيتصوّر الجندي أنّها فتاة إنكليزيّة أرادت منه والدته أن يتزوّجها فيسألها: «أتحبّينني؟»، فتردّ على الفور «نعم»، فيموت.. وعندئذ تستغرق بريوني في أحلام يقظة مريرة تتصوّر فيها حياتها، وكيف ستكون لو أنّها تزوّجت بالجندي الفرنسي الجريح.

وقبل هذا كلّه نجد جاك تاليس، وهو والد بريوني وسيسليا وليون، يعمل ساعات طويلة موظّفًا حكوميًّا في لندن، ولا يزور أفراد أسرته في مقاطعة ساري، الإنكليزيّة، إلاّ نادرًا، بل يصل به الأمر إلى معاشرة إحدى النساء بلندن، على حين يظلّ أطفاله الصغار في انتظار عودته بترقّب انتظار ڤلاديمير وأستراجون منقذهما غودو في مسرحيّة (بيكيت) المعروفة «في انتظار غودو»، ولكن من دون أمل.

كما أنّ بريوني، الابنة الصغرى في الأسرة، تطالعنا في مستهلّ الرواية (سنة ١٩٣٥)، وقد بلغت سنّ الثالثة عشرة، تحاول تأليف مسرحيّة صغيرة، لكنّها تفشل في حثّ أقربائها صغار السنّ على المشاركة في تمثيلها، فتنتظر (غودو آخر؟) حتى موعد الاحتفال بعيد مولدها السابع والسبعين في ١٩٩٩، فيمثّل فيها عدد كبير من أحفادها، علمًا أنّ بريوني كانت تهدف، من وراء تأليفها تلك المسرحيّة، تلقين شقيقها ليون الشابّ الطائش معنى الحبّ الحقيقي الملتزم، وأن يكون جادًّا في حبّه.

ولا ينبغي أن يغيب عن ذهننا أنّ إيان ماك إيوان لا ينسى، في تلافيف حبكته الروائيّة المتقنة، عبثيّة الوضع الاجتماعي الذي كان يعيش فيه روبي، فعلى الرّغم من أن ربّ الأسرة جاك تاليس كان تعهّد بالإنفاق عليه لإكمال تعليمه المدرسي والجامعي، وإنّه كان يريد له أن يصبح طبيبًا يُشار إليه بالبنان، إلّا أنّ بريوني، المحرّك الأساس لأحداث الرواية، ما كانت لتعترف بكلّ ما سيحصل عليه من امتيازات، لأنّه، بحسب رأيها، ابن خادمة المنزل التي تسهر على راحتهم، وأنّ وضعه الاجتماعي سيظلّ عقبة كأداء أمام محاولاته الخروج من شرنقة الطبقة التي كان ينتمي إليها، لكن خروجه، كما أسلفنا، كان كارثيًّا وعبثيًّا، إذ لقي مصرعه في حرب لم يكن مهيّأً لها أصلاً.

بقي أن نشير إلى أن رواية «الكفّارة» رشّحت لنيل عدد كبير من الجوائز، بل نالت بعضًا منها. فعلى سبيل المثال، رُشّحت الرواية لنيل جائزة بوكر سنة ٢٠٠١، وكذلك لنيل جائزة جيمزتيت بلاك ميموريال برايز لسنة

٢٠٠١، وجائزة ويتبريد بوك أوارد للرواية لسنة ٢٠٠١، وفازت بجائزة الرواية عن صحيفة لوس أنجلوس تايمز لسنة ٢٠٠٢، وجائزة ناشيونال بوك كريتيكس سيركل أوارد للرواية سنة ٢٠٠٢، وجائزة دبليو أج سمث الأدبيّة لسنة ٢٠٠٢، وجائزة بويكا لسنة ٢٠٠٢، وجائزة سانتياغو للرواية الأوروبيّة لسنة ٢٠٠٤.

وفي العدد الألفي من مجلّة إنترتينمنت ويكلي الأسبوعيّة جاء تسلسل الرواية الثاني والثمانين في قائمة تضمّ أفضل مئة كتاب للسنوات الخمس والعشرين الماضية، أمّا مجلّة التايم فقد أشارت إليها بوصفها أفضل عمل روائي خلال عام، وأدرجتها ضمن قائمتها عن أعظم مئة رواية، تمامًا مثلما ذكرت صحيفة الأوبزرفر اللندنيّة أنّ «الكفّارة» هي واحدة من أفضل مئة رواية كُتبت حتى الآن.

كما اقتبست الرواية للسينما في شريط أخرجه جو رايت عن سيناريو أعدّه كريستوفر هامتون وأنتجته شركة ووركنغ تايتل فيلمز في أيلول ٢٠٠٧، وكان من تمثيل جيمز ماك أفوي، وكييرا نايتلي، وفانيسا ريدغريف.

د. محمد درويش

بغداد/ خريف ٢٠١٠

«عزيزتي الآنسة مورلاند. فكّري في الطبيعة الرهيبة للشكوك التي تراودك، على أيّ شيء يستند حكمك؟ تذكّري البلد والعصر الذي نحيا فيه. تذكّري أنّنا إنكليز، وأنّنا نصارى. فكّري جيّدًا، وفكّري في ما هو محتمل، وفكّري في ما يدور من حولك. هل تُعدُّنا تربيتنا لمثل هذه النزاعات؟ هل تتغاضى قوانيننا عنها؟ أيمكن أن تُدبَّر دون علم أحد في بلد كبلدنا، حيث التعامل الاجتماعي والأدبي بمثل هذه الدرجة من القوّة، وحيث يحيط بكلّ رجل مجموعة من الجواسيس المتطوّعين، وحيث الطرقات والصحف تكشف عن كلّ شيء؟ عزيزتي الآنسة مورلاند: ما الأفكار التي تُقرِّين بها؟».

وصلتا نهاية القاعة. فما كان منها إلاّ أن اندفعت مسرعة إلى حجرتها وهي تجهش بالبكاء من شدّة العار.

عن رواية «دير نورث أنجر» ـ لجين أوستن

القسم الأوّل

الفصل الأوّل

كتبت بريوني المسرحيّة ـ التي صمّمت لها الملصقات الإعلانيّة والبرامج والتذاكر، وأقامت لها كشك المبيعات من خلال شاشة تُطوى ثُبّتت إلى جانبه، واستعملت أشرطة من الكريب الأحمر زينة لصندوق التبرّعات ـ بنفسها في يومين عاصفين من التأليف، حتى إنّها فاتها أن تتناول طعام الإفطار والغداء. وعندما اكتملت الاستعدادات لم يبق لديها ما تفعله إلاّ التفكير في النسخة النهائيّة من المسرحيّة وانتظار مجيء أقربائها من الشمال البعيد. ولن يكون أمامها سوى يوم واحد من التمرينات قبل وصول أخيها. كانت المسرحيّة الفاترة أحيانًا، والمفعمة بالحزن أحيانًا أخرى، تحكي قصّة القلب الذي كانت رسالته المرسلة بتوطئة مقفّاة تتمثّل في أنّ الحبّ الذي لا يبني قاعدته على تفكير سليم يكون مصيره الإخفاق. ويكون عقاب أرابيلاّ لحبّها الطائش تجاه كونت أجنبي شرّير متمثّلاً في حظّ سيّئ، إذ تُصاب بمرض الكوليرا أثناء اندفاعها القوي صوب إحدى البلدات الساحليّة برفقة خطيبها. وتكتشف، بعد أن تخلّى عنها الآخرون كلّهم تقريبًا وأضحت طريحة الفراش، في غرفة عِلّيّة، أنّها تتمتّع بحسّ الفكاهة. ويشاء الحظّ أن يوفّر لها فرصة ثانية بهيئة طبيب ضربه الفقر ـ الحقّ أنّه كان أميرًا متنكّرًا انتُخب للعمل مع المحتاجين. وتختار أرابيلاّ هذا الوقت بحكمة بعد أن ساعدها على الشفاء،

وتكون ثمرة ذلك إعادة المياه إلى مجاريها مع أسرتها، وزواجها بالأمير الطبيب في «يوم ربيعي مشمس وعاصف».

قرأت السيّدة تاليس الصفحات السبع من محاكمات أرابيلاّ في غرفة نومها قرب منضدة زينتها، تُحيط بها ذراع المؤلّفة طوال الوقت. أمعنت بريوني النظر في وجه والدتها بحثًا عن أيّة علامة تشير إلى تحوّل في عواطفها، في حين بدت على إميلي تاليس نظرات ذعر، وضحكت ضحكات مكبوتة تنمّ عن جذل وحبور، وفي نهاية المطاف ابتسمت ابتسامات تشي بالامتنان وأومأت إيماءة حكيمة مؤيّدة. تلقّت ابنتها بذراعيها وأجلستها في حضنها ـ آه، ذلك الجسد الصغير الدافئ الأملس الذي تذكّرته منذ الطفولة ولم يغب عنها منذئذٍ، لم يغب بعد ـ وقالت إنّ المسرحيّة «مذهلة»، ووافقت على الفور وهمست في قوقعة أذن الفتاة الضيّقة بأنّ في الإمكان الاستشهاد بهذه الكلمة في الملصق الإعلاني الذي سيوضع على مسند عند مدخل القاعة، بجانب كشك التذاكر.

لم تكن بريوني تعرف شيئًا عن المسرحيّة في أوّل الأمر، لكنّها باتت الآن في أعلى درجات تحقيق الذات في المشروع، ولم يقترب أيّ شيء منها في إحساسها بالرضى، وكان كلّ ما عداها أحلامًا وإحباطًا. ثمّة لحظات في وقت الغروب، أيّام فصل الصيف، كانت تسكن فيها إلى ظلّ سريرها اللذيذ، فيخفق فؤادها بفانتازيّات مشرقة ملؤها الحنين، بمسرحيّات صغيرة يمثّل ليون في كلّ واحدة منها. وفي إحدى هذه المسرحيّات تغضَّن وجهه الكبير، الذي ينمّ عن سريرة طيّبة، بالحزن، في حين استسلمت أرابيلاّ للوحدة والقنوط. وفي مسرحيّة أخرى وُجد حاملاً بيده كأسًا من شراب كوكتيل في حانة مرموقة من حانات المدينة وهو يتباهى أمام مجموعة من أصدقائه: نعم يا أختي الأصغر سنًّا، يا بريوني تاليس الأديبة، لا شكّ أنّك سمعت بها. وفي مسرحيّة ثالثة يضرب بقبضته الهواء منتشيًا، بينما أسدلت الستارة نهائيًّا، على الرّغم من عدم وجود أيّة ستارة، ولا حتى احتمال بوجود ستارة. لم تكتب مسرحيّتها من أجل أقربائها، بل من أجل أخيها احتفاءً بعودته، ولإثارة إعجابه وإبعاده عن

سلسلة من الفتيات المتهوّرات باتّجاه زوجة صالحة تقنعه بالعودة إلى الريف، وتلتمس بكلّ رقّة من بريوني أن تكون وصيفتها في الزواج.

هي واحدة من الأطفال الذين استبدّت بهم رغبة في أن يكون العالم على هذا الشكل. ففي حين كانت غرفة أختها مأوًى لكتب مفتوحة، وثياب غير مطويّة، وفراش غير مرتّب، ومنافض مليئة برماد سكائر، كانت غرفة بريوني محرابًا لشيطانها المهيمن: كانت المزرعة النموذجيّة تتهادى من وراء حافّة نافذة واسعة، وكانت تتألّف من الحيوانات المألوفة، إلاّ أنّها كانت تتّجه وجهة واحدة ـ نحو مالكها ـ كأنّها توشك أن تطلق عقيرتها بالغناء. وحتى الدجاج كان يتمترس في قنّه في الفناء على نحو دقيق. الحقّ أنّ غرفة بريوني كانت الغرفة المرتّبة الوحيدة في الطابق العلوي من البيت، ويبدو أنّ لعبها ذوات الظهور المستقيمة في غرف المنزل المتعدّدة كانت تخضع لتعليمات صارمة تُمنع بموجبها من لمس الجدران. أمّا الأشكال المختلفة التي لا يتجاوز طولها الإبهام، والمنتشرة فوق منضدة زينتها ـ رعاة البقر وغوّاصو البحار العميقة والفئران الشبيهة بالبشر ـ فكانت توحي بانتظام صفوفها والمسافة الفاصلة بينها وكأنّها جيش ينتظر الأوامر.

كان الهوى بالمصغّرات وجهًا من وجوه روح منظّمة. أمّا الوجه الآخر فتمثّل في الولع بالأسرار: خزانة ثمينة لامعة، ودرج سرّي يفتح بدفع مفصل يشبه ذنب حمامة دفعًا معاكسًا لعروق الخشب، كانت تحتفظ فيه بمفكّرة ودفتر دوّنت فيه ملاحظات مشفّرة ابتكرتها بنفسها، واحتفظت أيضًا، في خزانة تفتح بستّة أرقام، عددًا من الرسائل والبطاقات البريديّة، كما أخفت صندوقًا معدنيًّا قديمًا وجميلاً يشبه صناديق حفظ النقود تحت لوح خشبي متحرّك في أرضيّة الغرفة، وتحت سريرها مباشرة، وكانت تضع فيه كنوزًا ترجع إلى أربع سنوات خلت، إلى عيد ميلادها التاسع عندما وضعت فيه جوزة بلّوط مزدوجة وغريبة الشكل، وذهب غير حقيقي ورُقْية تصنع المطر، اشترتها من مدينة الملاهي، وجمجمة سنجاب خفيفة مثل ورقة شجر.

غير أنّ الأدراج الخفيّة والمفكّرات التي تحتفظ بها داخل علب مقفلة، والأنظمة المشفّرة، لم تتمكّن من إخفاء حقيقة بسيطة عن بريوني وهي أنّها لا تمتلك أيّة أسرار، إذْ حرمتها رغبتها، من أجل عالم منتظم ومتناغم، من احتمالات طائشة للقيام بأعمال شرّيرة، وكان إلحاق الأذى بالآخرين والتدمير عملين فوضويّين لا ينسجمان وذوقها. كما أنّ طبعها نفسه لا ينطوي على أيّة قسوة. وكانت مكانتها المؤثّرة بوصفها الطفلة الوحيدة، وعزلة منزل آل تاليس النسبيّة، قد أبعداها، في الأقلّ أثناء إجازات الصيف الطويلة، عن المشاكسات التي تتّصف بها الفتيات مع صديقاتهنّ. ولم يكن في حياتها ما هو مُثير بدرجة كافية أو يدعو إلى الإحساس بالعار كي تعمد إلى التستّر عليه، فما من أحد يعرف عن جمجمة السنجاب تحت سريرها، وإنْ لم يكن أحد يرغب في الاطّلاع عليها.

هذه الأمور كلّها لم تمثّل لها أيّ أسًى على وجه الخصوص، أو على نحو أدقّ، بدت هكذا عند تذكّرها إيّاها، وبعد أن تكون قد وجدت حلاًّ لها.

كانت قد كتبت قصّتها الأولى وهي في سنّ الحادية عشرة، وأدركت في وقت لاحق أنّ القصّة لم تكن سوى حكاية ساذجة، على نهج عديد القصص الفولكلوريّة، وتفتقر إلى المعرفة التامّة بما يدور في العالم، ممّا يحثّ القارئ على الاحترام. غير أنّ هذه المحاولة الخرقاء الأولى أظهرت لها أنّ الخيال نفسه هو منبع الأسرار: إذْ ما إن تبدأ بكتابة قصّة حتى تجد نفسها عاجزة عن روايتها. فالادّعاء باستخدام الكلمات غير نهائي وضعيف ويثير الإرباك، فلا ينبغي إطلاع الآخرين عليه، بل إنّ كتابة (قالت) و(بعدئذٍ) جعلتها تجفل وتشعر بالغباء لتظاهرها بأنّها خبيرة بعواطف الشخصيّات المتخيّلة. إنّ الكشف عن الذات كان حتمًا اللحظة التي وصفت فيها ضعف شخصيّة من الشخصيّات، ومن شأن القارئ أن يخمّن أنّها كانت تصف نفسها. أيّة سلطة أخرى يمكن لها أن تتمتّع بها؟ عندما تقرّر مصائر الأبطال وتصل القصّة نهايتها وتُختتم

الأحداث، وتغدو شبيهة، في الأقلّ من هذه الناحية وحدها، بأيّة قصّة أخرى مكتملة من قصص العالم، عندئذٍ تشعر أنّها قويّة، وأنّها على استعداد لأن تثقب حافّات الورق وتربط الفصول بخيط وترسم لوحة أو صورة تخطيطيّة للغلاف، ثم تحمل العمل الذي فرغت من تأليفه إلى والدتها، أو إلى والدها إذا كان حاضرًا في المنزل.

حظيت جهودها بالتشجيع. الحقّ أنّ تلك الجهود لقيت ترحيبًا عندما بدأ آل تاليس يدركون أنّ طفلة الأسرة تمتلك عقلاً غريبًا، وقدرة على استعمال الكلمات.

أنفقت أوقات ما بعد الظهر الطويلة وهي تقلّب المعاجم، ومنها معجم ثيسوراس الذي كان يضمّ تراكيب لغويّة غير ملائمة، لكن هكذا كان أمرها، فالنقود التي يخفيها وغدٌ داخل جيبه كانت نقودًا مقصورة على فئة قليلة. أمّا قاطع الطريق الذي قُبض عليه وهو يسرق سيّارة فبكى بكاءً «بريئًا دون حياء»، في حين قامت البطلة بجولة ليليّة «خاطفة» على ظهر جوادها الأصيل، وكان حاجب الملك المقطّب علامة تدلّ على امتعاضه. لقيت بريوني التشجيع لقراءة قصصها بصوت عالٍ في المكتبة، واستبدّت الدهشة بوالديها وشقيقتها الأكبر منها سنًّا عندما سمعوا ابنتهم الهادئة وهي تقرأ بصوت عالٍ، وتطلق إشارات كبيرة بذراعها الأخرى وتُقوّس حاجبيها، وترفع بصرها من على الورقة لبضع ثوانٍ أحيانًا أثناء قراءتها، لتنظر مليًّا في الوجوه، واحدًا تلو الآخر، وتطلب، دونما مبرّر، اهتمام أسرتها التامّ وهي تطلق سحرها السردي.

وحتى لو لم تحظ بريوني بالاهتمام والثناء والسرور الظاهري، فإنّ ما من شيء كان يمكن أن يحول بينها وبين التأليف. على أيّة حال لقد اكتشفت، مثلما اكتشف عديد الأدباء من قبلها، أنّ الاعتراف بها ليس كلّه مفيدًا، فعلى سبيل المثال بدا حماس سيسليا مبالغًا فيه إلى حدٍّ ما، وربّما اعتراه قدر من التكرّم والتفضّل، بل والتطفّل أيضًا. لقد أرادت شقيقتها الكبرى أن تصنّف كلّ قصّة بعد تجليدها، وأن توضع فوق رفوف المكتبة بين مؤلّفات رابندرانات

طاغور[١] وكوينتوس ترتليان[٢]. وإذا كان يفترض أنّ في هذا الكلام مزحة فإنّ بريوني تجاهلته. فقد مضت في طريقها الآن ووجدت لها رضًى على مستويات أُخر، فتأليف القصص لا يتضمّن الغموض والأسرار حسب، بل كان يمنحها كلّ لذّات تصغير الأشياء، إذْ في الإمكان اختزال العالم كلّه في خمس صفحات، كما أنّ التأليف أكثر متعة من مزرعة عصريّة. وفي الإمكان أيضًا سرد طفولة أمير مدلّل في نصف صفحة. وكان ضوء القمر المندفع صوب القرى الغافية يشكّل جملة توكيديّة قدر ما يتعلّق الإيقاع بها، وكان في المستطاع الكتابة عن الهوى بكلمة واحدة ـ بنظرة. بدت صفحات قصّة مكتملة حديثًا تهتزّ في يدها بكلّ ما فيها من حياة، وكانت تشعر بالرضى أيضًا بسبب حبّها للترتيب، لأنّ في الإمكان ترتيب العالم الذي لا يمكن السيطرة عليه، ويمكن أيضًا جعل أزمة في حياة البطلة تتزامن مع العواصف المصحوبة بالبرد والرعد والزوابع الهوجاء، في حين يُحتفى بالأعراس بالنسمات الناعمة والضوء الحسن. كما شكّل حبّ النظام أيضًا مبادئ العدالة حيث يكون الموت والزواج أساس التدبير المنزلي. وإذا كان الموت يُترك تمامًا للذين يثيرون الشكوك أخلاقيًّا، فإنّ الزواج يكون جائزة لا تسلّم إلى صاحبها إلاّ في الصفحة الأخيرة.

كانت المسرحيّة التي كتبتها احتفاءً بعودة ليون إلى البيت هي أوّل رحلة لها في عالم الدراما، ووجدت هذا التحوّل هيّنًا، إذْ شعرت بالارتياح وهي غير مضطرّة إلى أن تكتب (قالت) أو أن تصف الطقس أو مجيء الربيع أو وجه بطلتها ـ واكتشفت أنّ الجمال لا يحتلّ إلاّ مساحة ضيّقة. بالمقابل، فإنّ البشاعة كانت تأخذ أشكالاً لا حدود لها.

---

(١) رابندرانات طاغور (١٨٦١ ـ ١٩٤١)، شاعر هندي من أعلام الأدب العالمي، امتاز شعره بروح التديّن والوطنيّة. له (ذكريات) و(قربان الأغاني) و(أغاني الصباح) و(رسوم وأناشيد)، حاز جائزة نوبل سنة ١٩١٣ (المترجم).

(٢) كوينتوس ترتليان (١٦٠؟ ـ ٢٣٠؟) لاهوتي نصراني قرطاجي قال بأنّ الإيمان الأعمى هو السبيل الأوحد للخلاص (المترجم).

وكان الكون الذي يُختزل إلى ما يعرف في داخله إنّما هو نوع من النظام حقًّا إلى حدّ البطلان.

وللتعويض عن كلّ ذلك، فإنّ كلّ عبارة تنطق بمبالغة في المشاعر، أو في أيّ شيء آخر، تكون علامة التعجّب ضروريّة، لا غنى عنها، ربّما كانت محاكمات أرابيلاّ مسرحيّة ميلودراميّة لكنّ على مؤلّفتها أن تستمع إلى هذا المصطلح الجديد. ولم تكن المسرحيّة تهدف إلى خلق الضحكة، بل الهلع والارتياح والتوجيه، بهذا التسلسل، فكان أن جعلت منها تلك القوّة البريئة التي انطلقت بها بريوني في مشروعها ـ الملصقات الإعلانيّة والتذاكر وكشك المبيعات ـ ضعيفة تخشى الفشل. كان في ميسورها أن ترحّب بقدوم ليون بقصّة أخرى من قصصها، لكنّ الأخبار التي أفادت بأنّ أقرباءها الساكنين في الشمال آتون للمكوث وإيّاها هي التي عجّلت بهذه الطفرة نحو شكل تعبيري جديد.

كان ينبغي لبريوني أن تتأثّر أكثر لأنّ لولا، البالغة من العمر خمسة عشر عامًا، والتوأمين جاكسون وبياروت لاجئون من حرب أهليّة طاحنة. سبق لها أن سمعت أمّها تنتقد سلوك أختها الأصغر سنًّا، هيرميوني[١] المتهوّرة، وتتأسّى على حال الأطفال الثلاثة، وتُدين سلوك زوج أختها سيسل المراوغ والخنوع والذي هرب بحثًا عن الأمان في كلّيّة كلّ الموتى بأوكسفورد[٢]. وكانت بريوني قد سمعت والدتها وأختها وهما تحلّلان آخر مستجدّات

---

(١) هيرميوني Hermione بطلة مسرحيّة شكسبير المعروفة حكاية الشتاء وزوجة ليونتس (المترجم).

(٢) كلّيّة كلّ الموتى All Souls College هي إحدى كلّيّات جامعة أوكسفورد البريطانيّة أسّسها العام ١٤٣٨ رئيس أساقفة كانتربيري هنري شيشليه وهنري السادس، وكان الهدف من بنائها أن تكون كنيسة وقف يدرس أعضاؤها ويصلّون من أجل أرواح هنري الخامس وهنري السادس والذين قُتلوا أو قد يُقتلون أثناء حروبهم ضدّ الفرنسيّين. كان عليها قيّم وخمسون تابعًا يُقيم بعضهم فيها، وكانت فريدة من نوعها من حيث إنّها لم تكن تضمّ فيها دراسات أوّليّة حتى عقد الستّينيّات من القرن العشرين (المترجم).

الانحراف والهيجان والاتهامات المضادّة، وكانت تدري أنّ زيارة أقربائها ستكون مفتوحة، وقد تطول حتى موعد الفصل الدراسي، وسمعت أيضًا أنّ المنزل يمكنه أن يستوعب الأطفال الثلاثة بكلّ يسر وسهولة، وأنّ آل كوينسي باستطاعتهم البقاء أطول مدّة تحلو لهم، شريطة أن يُبقي الوالدان، في حال زيارتهما في الوقت نفسه، شجارهما بعيدًا عن أسرة تاليس. كُنست غرفتان على مقربة من غرفة بريوني، ووُضعت لهما ستائر جديدة، ونُقل إليهما أثاث من غرف أخرى. منطقيًا، كان ينبغي لها أن تُسهم في هذه الترتيبات، لكن صادف وقتها نوبة الكتابة التي ألمّت بها في ذينك اليومين وبدايات بناء واجهة المنزل. لم تعرف أنّ الطلاق بلاء إلاّ معرفة واهية، لكنّها لم تنظر إليه على أنّه موضوع مناسب، لهذا لم تفكّر فيه، ذلكم هو حلّ دنيوي لا يمكن تغييره. ولهذا السبب لم يوفّر أيّة فرصة لراوي القصّة: إنّه ينتمي لعالم الفوضى. كان الزواج، أو الزفاف على وجه أدقّ، هو القضيّة، هو وكلّ ما فيه من الأناقة الشكليّة للفضيلة التي نالت استحقاقها، والإثارة التي ينطوي عليها الحمل والاحتفال، والوعد باتّحاد يدوم طول العمر. كان الزفاف الجيّد تجسيدًا غير معترف به بنعيم الجنس الذي لا يزال بعيدًا عن التفكير، وقد وصل أبطالها وبطلاتها في ممرّات الكنائس الريفيّة وكاتدرائيّات المدينة الكبيرة إلى ذراهم البريئة، واحتاجوا للذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك، وعلى مرأى من مجاميع كبيرة من أفراد الأسرة والأصدقاء الذين استحسنوا فعلتهم.

وإذا كان الطلاق قدَّم نفسه على أنّه النقيض الخسيس لهذا كلّه، فإنّه كان يسهل تحويله إلى الكفّة الأخرى من الميزان، مع الخيانة والمرض والسرقة والتحرّش والكذب، لكنّه عوضًا عن ذلك أظهر وجهًا قبيحًا من التعقيد المثير للسأم والخصام المتواصل. وكما هو شأن إعادة التسلّح والقضيّة الأثيوبيّة والبستنة فإنّه، ببساطة، ليس موضوعًا. وبعد انتظار طويل، صباح يوم السبت، سمعت بريوني أخيرًا صوت العجلات فوق آجرّ الطريق من تحت نافذة غرفة نومها، فالتقطت أوراقها بعجالة وهبطت السلالم واجتازت المدخل

وخرجت إلى ضوء منتصف النهار الساطع، ولم يكن الافتقار إلى الإحساس بل الطموح الفنّي المركّز تركيزًا عاليًا هو الذي دفعها إلى أن تهتف بالزوّار الصغار الذين احتشدوا معًا وسط حقائبهم:

ـ لقد كتبت أدواركم، كلّ شيء مكتوب، وسيكون العرض الأوّل يوم غدٍ! وستبدأ التمرينات في غضون خمس دقائق!

وعلى الفور، حضرت والدتها وأختها لتعلنا عن جدول زمني أفضل وأُرشِدَ الزوّار ـ وكانوا، هم الثلاثة، من ذوي الشعر الأحمر ويغطي النمش وجوههم ـ إلى غرفهم، ونقل داني بن هاردمان حقائبهم إلى الطابق العلوي. وبعد أن احتسوا شرابًا منعشًا في المطبخ قاموا بجولة في أنحاء المنزل، وسبحوا في المسبح، وتناولوا طعام الغداء في الحديقة الجنوبيّة تحت ظلّ الكروم. في هذه الأثناء ظلت إميلي وسيسليا تاليس تهذران ممّا حرم الضيوف من راحة البال التي كان يفترض أن يتمتّعوا بها. كانت بريوني تعلم أنّها لو سافرت مسافة مائتي ميل إلى بيت غريب وقيل لها بمائة أسلوب مختلف إنّها حرّة في الاختيار، لأدّى ذلك إلى شعورها بالحزن والغمّ، إذْ لم يكن معلومًا على وجه العموم أنّ أكثر ما كان يرغب فيه الأطفال هو أن يُتركوا وشأنهم.

على أيّة حال، بذل آل كوينسي كلّ ما في وسعهم متظاهرين بأنّهم مسرورون أو متحرّرون ممّا كان له فأل حسن على مسرحيّة محاكمات أرابيلاّ: لقد كان الثلاثة يتمتّعون بالقدرة على الظهور بخلاف حقيقتهم، كما يبدو، لم يكونوا يشبهون الشخصيّات التي سيؤدّون أدوارها إلاّ قليلاً. تسلّلت بريوني قبل تناول الغداء إلى غرفة التمرينات الخالية وسارت جيئة وذهابًا فوق الألواح الخشبيّة الملوّنة تفكّر في خيارات الأدوار.

من الناحية الظاهريّة لم يكن مرجّحًا أن تكون أرابيلاّ ذات الشعر الأسود الفاحم الشبيه بشعر بريوني سليلة أبوين يعلو وجهيهما النمش، أو أن تهرب مع كونت أجنبي يعلو وجهه النمش أيضًا، وتستأجر غرفة عِلّيّة من صاحب نزل يكسو وجهه النمش وتغرم بأمير غزا النمش وجهه، وتتزوّج على

يدي قسّ يعلو وجهه النمش، وأمام جمهور يكسو وجهه النمش أيضًا. لكنّ هذا أمر لا بدّ منه. فلون بشرة أقربائها مشرقة ومفعمة بالحيويّة أكثر ممّا ينبغي ـ تشعّ كأنّها مصباح ـ ولهذا يصعب إخفاؤها. وأفضل ما يمكن قوله هو أنّ افتقار أرابيلاّ للنمش كان هو العلامة الفارقة عندها، وفي وسع بريوني أن تكتب بأنّها كالعلامة الهيروغليفيّة، ولن يكون نقاء روحها موضع ريبة، على الرّغم من أنّها تنقّلت في عالم تشوبه الشوائب. ثم هناك مشكلة أخرى بخصوص التوأمين اللذين لا يتيسّر للغريب أن يفرّق بينهما، وهل من الصواب أن تجعل الكونت الشرّير يشبه شبهًا تامًّا الأمير الوسيم، أم ينبغي أن تجعلهما كليهما يشبهان والد أرابيلاّ والقسّ؟ وماذا لو أدّت لولا دور الأمير؟ يبدو أنّ جاكسون وبياروت كانا حبيبين صغيرين متحمّسين، ومن المحتمل أن يفعلا ما يؤمران به، لكن هل تقبل شقيقتهما أن تؤدّي دور رجل؟ إنّها ذات عينين خضراوين ووجنتين بارزتين وخدّين غائرين، وتوحي قلّة كلامها بإرادة قويّة ومزاج يسهل تعكيره.

إنّ إعطاء الدور إلى لولا قد يُثير أزمة، ثم هل في وسع بريوني أن تمسك بيديها أمام المذبح، في حين يتلو جاكسون الأبيات من كتاب الصلوات؟

لم تتمكّن من توزيع الأدوار، إلّا في الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم. كانت قد رتّبت ثلاثة مقاعد في صفّ واحد، في حين جلست هي فوق كرسي قديم عالٍ خاصّ بالأطفال ـ تلك لمسة بوهيميّة أضفت عليها مزية تشبه مزية الحكم في لعبة كرة المضرب. وحضر التوأمان من المسبح على مضض حيث كانا أمضيا ثلاث ساعات هناك دون استراحة. كانا حافيين ويرتديان قميصين تحتانيّين وبنطالين قصيرين ويقطران بالماء فوق ألواح الأرضيّة الخشبيّة، كان الماء يقطر أيضًا من شعر رأسيهما نحو رقبتيهما، وكانا يرتجفان ويهزّان ركبهما ليحافظا على حرارة جسديهما. ازدادت بشرتاهما بياضًا إثر بقائهما طويلاً تحت الماء، وتغضّنتا فبدا النمش الذي يعلوهما وكأنّه نقاط سود

تحت النور الباهت في الغرفة. أمّا أختهما التي جلست بينهما، وقد وضعت ساقها اليسرى فوق ركبتها اليمنى، فكانت، على العكس منهما، ثابتة الجنان معطّرة ومرتدية سترة قطنيّة خضراء اللون تنسجم مع ألوانها، وكشف صندلها عن خلخال يطوّق أحد كاحليها وعن أصابع قدميها المطليّة بلون قرمزي، فمنح هذا المشهد بريوني إحساسًا قابضًا في صدرها وأدركت على الفور أنّها لا تستطيع أن تطلب من لولا أداء دور الأمير.

استقرّ الجميع في أماكنهم، وكانت المؤلّفة المسرحيّة توشك أن تبدأ إلقاء كلمتها القصيرة لتلخّص فيها حبكة المسرحيّة ولإثارة الحماس للتمثيل أمام جمهور من البالغين، مساء يوم غد في المكتبة، لكن بياروت هو الذي بادر بالكلام إذْ قال:

ـ إنّني أكره المسرحيّات وكلّ ما يشبهها.

وقال جاكسون:

ـ وأنا أكرهها أيضًا، مثلما أكره الظهور بثياب معيّنة.

كانت بريوني قد شرحت، أثناء الغداء، أنّ التوأمين سوف يتمّ التمييز بينهما بقطعة اللحم الصغيرة المفقودة من إحدى أذني بياروت بسبب عضّة كلب سبق له أن عذّبه عندما كان في الثالثة من عمره.

أشاحت لولا بنظرها جانبًا، في حين قالت بريوني بحكمة:

ـ كيف يمكنكما أن تكرها المسرحيّات؟

هزَّ بياروت كتفيه وهو يتفوّه بحقيقة واضحة:

ـ إنّها ليست سوى مباهاة.

أدركت بريوني أنّ كلامه منطقي، ولهذا السبب كانت تهوى المسرحيّات، أو مسرحيّاتها في الأقلّ. سوف يُعجب بها الجميع. وعندما نظرت إلى الصبيّين اللذين كان الماء يتجمّع من تحت كرسيّيهما قبل أن يتسلّل

بين الفتحات القائمة وسط ألواح الأرضيّة الخشبيّة، وأدركت أنّهما لن يفهما طموحها، ولهذا اكتسبت لهجتها مسحة من التسامح:

ـ أتظنّان أنّ شكسبير كان متباهيًا؟

رمق باروت أخاه جاكسون بنظرة من فوق حضن أخته. كان هذا الاسم الحربي غير مألوف، بما فيه من أثر مدرسي ويقين يتّصف به البالغون، غير أنّ التوأمين استمدّا الشجاعة بعضهما من البعض الآخر.

ـ الجميع يعرفون ذلك.

ـ مؤكّد.

وعندما تكلّمت لولا التفتت أوّلاً إلى بياروت، وفي منتصف المسافة عادت بجملتها لتنهي تعليقًا على كلام جاكسون، ففي أسرة بريوني لم يكن لدى السيّدة تاليس ما تعبّر عنه وتقوله مباشرة لكلتا الابنتين. والآن لاحظت بريوني كيف سار الحديث.

ـ ستؤدّي دورك في المسرحيّة وإلاّ فسوف أضربك، وبعدئذٍ سأكلّم والديك.

ـ إذا ما ضربتنا فسنكلّم والدينا.

ـ ستؤدّيا دوريكما وإلاّ سأكلّم والديكما.

لم تخفت حدّة التهديد على الرّغم من أنّ النقاش ظلّ يدور من حوله بهدوء. وهنا مصَّ بياروت شفته السفلى وقال:

ـ لماذا ينبغي لنا أن نمثّل؟

كان كلّ شيء مسلّمًا به في سؤاله. أمّا لولا فحاولت أن تنفش شعره الدهني.

ـ أتذكر ما قاله الأبوان؟ نحن ضيفان في هذا المنزل وعلينا أن نجعل من أنفسنا ـ ماذا نجعل من أنفسنا؟ هيّا ماذا نجعل من أنفسنا؟

ردّد التوأمان معًا بشقاءٍ وهما يتلعثمان:

ـ مطيعين.

التفتت لولا نحو بريوني وابتسمت وقالت:

ـ أخبرينا عن مسرحيّتك من فضلك.

الوالدان. مهما كانت القوّة المؤسّساتيّة التي ينطوي عليها هذا المصطلح، فإنّ من شأنها أن تتحطّم، أو لعلّها تحطّمت توًّا، أمّا الآن فلا يمكن الإقرار بذلك، وكانت الشجاعة مطلوبة حتى من أصغر الحاضرين. وشعرت بريوني، على حين غرّة، بالخجل جرّاء ما أبدته أوّلاً من بداية أنانيّة، إذْ لم يخطر ببالها أنّ أقرباءها ما كانوا يرغبون في تمثيل أدوارهم في محاكمات أرابيلاّ. لكنّ ثمّة محاكمات، وكانت كارثيّة بالنسبة لهم، والآن تراهم يعتقدون، وهم الضيوف في منزلها، أنّهم مضطرّون، والأسوأ من ذلك أنّ لولا أوضحت أنّها هي شخصيًّا سوف تمثّل لأنّها لا تقوى على الاعتراض. لقد أُكره آل كوينسي الضعفاء على هذا الأمر، لكن على الرّغم من ذلك بذلت بريوني أقصى ما في وسعها كي تفهم الفكرة الصعبة: ألا ينطوي هذا الفعل على استغلال؟ أليست لولا تستغلّ التوأمين للتعبير عن شيء ما بالإنابة عنها، شيء مدمّر أو عدواني؟ شعرت بريوني بالضرر كونها أصغر سنًّا من الفتاة الأخرى بسنتين، وأنّ هناك ثقلاً يمتدّ لسنتين من التهذيب تنوء به، والآن تبدو مسرحيّتها أمرًا تعيسًا ومربكًا.

نأت بنفسها عن أنظار لولا التي كانت تحدّق بها، وبدأت توضح الحبكة حتى في الوقت الذي بدأ فيه غباؤها يسيطر عليها، إذْ لم تعد تملك ما يكفي من الشجاعة لأن تبتكر لأقربائها عنصر الإثارة الذي تنطوي عليه ليلة الافتتاح.

وما إن فرغت من كلامها حتى قال بياروت:

ـ إنّني أريد أن أمثّل دور الكونت، إنّني أريد أن أكون الرجل الشرّير.

أمّا جاكسون فقال بكلّ بساطة:

ـ إنّني أمير، أمير دومًا.

كان في وسع بريوني أن تجذبهما نحوها وتقبّل وجهيهما الصغيرين، لكنّها قالت:

ـ لا بأس إذًا.

أنزلت لولا ساقها من فوق ركبتها الثانية وعدّلت من ثوبها، ونهضت كأنّها توشك على الانصراف، لكنّها تكلّمت وهي تتنهّد تنهيدة ملؤها الحزن أو الإذعان وقالت:

ـ أعتقد أنّ ذلك سببه هو أنّك أنت التي كتبت المسرحيّة وستمثّلين أنت دور أرابيلاّ...

قالت بريوني:

ـ آه، لا، لا، أبدًا.

قالت: لا، لكنّها كانت تعني نعم، من المؤكّد أنّها سوف تؤدّي دور أرابيلاّ. لكنّ اعتراضها كان يستند إلى السبب الذي طرحته لولا، فهي لن تؤدّي دور أرابيلاّ ما دامت هي التي كتبت المسرحيّة، بل ستؤدّي الدور. إذ ما من احتمال آخر مرَّ بذهنها، ولأنّ ليون سيراها على ذلك النحو، ولأنّها هي أرابيلاّ.

لكنّها قالت لا، وها هي لولا الآن تقول بعذوبة:

ـ في تلك الحالة، أتمانعين إن مثّلتُ أنا دورها؟ أظنّني قادرة على أداء الدور أداءً جيّدًا جدًّا. الحقّ، أنّني... ثم توقّفت عن الكلام، في حين حدّقت فيها بريوني وهي لا تقوى على إخفاء مشاعر الهلع التي ارتسمت على محيّاها، ولا تقوى على الكلام أيضًا. كانت تعلم أنّ العبارات تخونها، لكنّها لا تستطيع التفكير في شيء تتفوّه به.

وفي خضمّ الصمت الذي أطبق على بريوني مرّرت لولا رسالتها:

ـ داهمني المرض مدّة طويلة في العام الماضي، ولهذا يمكنني أن أمثّل ذلك الدور تمثيلاً جيّدًا أيضًا.

أيضًا؟ لم تتمكّن بريوني من مجاراة الفتاة الأكبر سنًّا منها، وهيمنت على أفكارها تعاسة الوضع المتعذّر اجتنابه. قال أحد التوأمين متفاخرًا:

ـ كما أنّك مثّلت في مسرحيّات المدرسة.

كيف يمكن لبريوني أن تقول لهم إنّ أرابيلاّ ليست فتاة يكسو وجهها النمش؟ كانت بشرتها بيضاء وشعرها أسود وأفكارها هي أفكار بريوني نفسها، لكن كيف يمكنها أن ترفض ابنة خالتها التي كانت تعيش بعيدًا عن البيت وكانت حياة أسرتها محطّمة. كانت لولا تقرأ ما يدور في ذهنها لأنّها لعبت الآن ورقتها الأخيرة، ورقة الآص التي يتعذّر رفضها.

ـ قولي نعم، وسيكون هذا هو الشيء الوحيد الحسن الذي صادفني منذ شهور.

نعم، ولمّا لم تستطع بريوني أن تتفوّه ببنت شفة فقد أومأت برأسها لا غير، وشعرت، وهي تومئ، برعشة تواطؤ مدمّر للذات تسري في جسدها ثم تخرج منه فينتشر الظلام في الغرفة. أرادت أن تخرج، أرادت أن تستلقي بمفردها، وجهها على سريرها فتتجنّب تفاهة حدّة تلك اللحظة وتراجع الأسطر التي تحتوي على النتائج المتفرّعة بكلّ تفاصيلها قبل أن يبدأ الدمار، كانت بحاجة إلى أن تفكّر، بعينين مغمضتين، بثراء ما فقدته وما أعطته وأن تنتظر النظام الجديد. لم يكن أمامها التفكير في ليون وحده، بل في الثوب القديم المصنوع من قماش الأطلس بلون الخوخ والأبيض الحليبي الذي كانت والدتها اختارته لها لزفاف أرابيلاّ أيضًا. سوف تعطي ذلك الثوب الآن إلى لولا. كيف يمكن لأمّها أن ترفض الابنة التي أحبّتها كلّ هذه السنين؟ ولمّا شاهدت بريوني الثوب يبدو متكاملاً ومناسبًا جدًّا لابنة خالتها، ورأت ابتسامة أمّها القاسية، أدركت عندئذٍ أنّ الخيار المعقول الوحيد أمامها هو الهروب

والعيش تحت الشُجيرات وتناول ثمار العلّيق وعدم تجاذب أطراف الحديث مع أيّ إنسان، إلى أن يعثر عليها حطّاب ذو لحية، فجر يوم من أيّام الشتاء وقد تكوّمت عند جذع شجرة بلّوط عملاقة، جميلة وميّتة، عارية القدمين، أو ربّما منتعلة حذاء الباليه مع أشرطة ورديّة.

كان الإحساس بالشفقة على الذات بحاجة إلى كلّ اهتمامها، ولم يكن في وسعها أن تنفخ الحياة في التفاصيل المؤلمة إلاّ وهي في عزلة، لكن في تلك اللحظة التي وافقت فيها ـ كيف يمكن لهزّة رأس أن تغيّر حياة! ـ التقطت لولا كومة مخطوطة بريوني من على الأرض، ونزل التوأمان من فوق كرسيّيهما ليلحقا بشقيقتهما صوب الفراغ في وسط الغرفة التي نظّفتها بريوني قبل يوم واحد. ألديها الجرأة على الانصراف الآن؟ كانت لولا تذرع ألواح الأرضيّة الخشبيّة، واضعة إحدى يديها على حاجبها وهي تقلّب صفحات المسرحيّة الأولى وتتمتم بالأسطر المكتوبة في المقدّمة. وقالت إنّ ما من شيء سيضيع إذا ما ابتدأت بالبداية، ووزّعت الأدوار على شقيقيها اللذين سيؤدّيان دور الأبوين، ووصفت الاستهلال لهما، وبدت كأنّها تعرف كلّ ما تنبغي معرفته عن المشهد. كانت هيمنة لولا قاسية وبدا الإشفاق على الذات عديم الفائدة، أم ترى ذلك كلّه سيكون لذيذًا على نحو ساحق؟ إذْ إنّ بريوني لم تمنح حتى دور والدة أرابيلاّ، والمؤكّد أنّ الوقت الآن هو وقت الخروج من الغرفة والاضطجاع على وجهها في ظلمة سريرها، لكنّ حيويّة لولا وعدم اكتراثها بأيّ شيء خارج حدود عملها وثقة بريوني بأنّ مشاعرها لن تسجّل ولن تُثير أيّ ذنب، هي التي زوّدتها بالقوّة على المقاومة.

في أجواء الحياة التي تبعث على المسرّة وتحظى بالحماية الجيّدة على وجه العموم، لم تواجه أيّ إنسان من قبل. أمّا الآن فقد رأت أنّ الأمر يشبه الغوص في حوض سباحة في بواكير شهر حزيران، كلّ ما عليك هو أن تغوص. وفيما هي تنهض عن كرسيّها وتتّجه إلى حيث تقف قريبتها، بدأ قلبها يدقّ دقّات غير منتظمة، في حين تقطّعت أنفاسها.

أخذت المسرحيّة من بين يدي لولا، وقالت بصوت منقبض وأعلى من المعتاد:

ـ إذا أردت أن تكوني أرابيلاّ فسوف أكون أنا المخرجة. شكرًا جزيلاً، وسوف أقرأ المقدّمة.

وضعت لولا يدها المبقّعة على فمها وهتفت:

ـ آ آ آ آسفة! كنت أحاول أن أبدأ لا أكثر.

لم تكن بريوني متأكّدة من كيفيّة الردّ، ولهذا التفتت نحو بياروت وقالت:

ـ إنّك لا تبدو شبيهًا بوالدة أرابيلاّ تمامًا.

حدث تحوّل في ميزان القوّة إثر إبطال قرار توزيع لولا للأدوار، والضحكة التي انتابت الصبيّين، فهزّت لولا كتفيها النحيلتين هزَّةً مبالغًا فيها وتوجّهت لإلقاء نظرة وراء النافذة، لعلّها كانت بدورها تقاوم إغراء الخروج من الغرفة.

على الرّغم من أنّ الصبيّين انطلقا في مباراة للمصارعة، وعلى الرّغم من أنّ أختهما شعرت بأنّ الصداع بدأ يهاجمها فإنّ التمرينات بدأت.

ساد صمت يشوبه التوتّر عندما بدأت بريوني تقرأ المقدّمة.

هذه هي حكاية أرابيلاّ العفويّة

التي هربت برفقة صديق طارئ

فحزن والدها لرؤية مولودتهما الأولى

تغادر منزلها وتذهب إلى إيستبورن[١] دون إذن. . .

---

(١) إيستبورن Eastbourne بلدة بريطانيّة على القنال الإنكليزي، ومنتجع سياحي لا يتجاوز عدد سكّانها الثمانين ألف نسمة (المترجم).

وقف والد أرابيلاّ، وزوجته إلى جانبه، عند بوّابات ضيعته الحديديّة يطلب متوسّلاً من ابنته أن تُعيد النظر في قرارها، ثم أمرها يائسًا أن لا تذهب. وقفت البطلة الحزينة والعنيدة في آن واحد قبالته وإلى جانبها الكونت وجواداهما المربوطان إلى شجرة بلّوط قريبة. كان الجوادان يصهلان ويضربان الأرض وقد ضاق ذرعهما لتأخّر الرحيل، وكان يفترض بأرقّ المشاعر التي اختلجت في صدر الأب أن تجعل صوته يرتجف وهو يقول:

يا عزيزتي، أنت شابّة رائعة

لكنّك قليلة التجربة، وإن ظننت

أنّ العالم تحت قدميك،

ففي وسعه أن ينهض ويدوس عليك.

رتّبت بريوني دورها، فأمسكت بذراع جاكسون، في حين وقفت لولا وبياروت على مسافة بضعة أقدام متشابكي الأيدي. وعندما التقت عيون الصبيّين انتابتهما نوبة من الضحك، ولكنّ الفتاتين أسكتتاهما.

لقد حدث ما يكفي من المتاعب حتى الآن، بيد أنّ بريوني لم تدرك الفجوة بين فكرة ما وتنفيذها إلاّ عندما بدأ جاكسون يقرأ في ورقته بصوت رتيب، كأنّ كلّ كلمةٍ اسمٌ مدوّن في قائمة تضمّ أسماء الموتى، ولم تكن لديه المقدرة على لفظ الكلمتين «قليلة التجربة» على الرّغم من أنّها قيلت له عديد المرّات، وترك الكلمتين الأخيرتين من أبياته: «في وسعه أن ينهض ويدوس عليك». أمّا لولا فقد نطقت بأبياتها نطقًا سليمًا، وإن كان دون اكتراث، وابتسمت أحيانًا ابتسامات غير ملائمة عند بعض الأفكار التي استبدّت بها، وعزمت على أن تظهر أنَّ عقلها الراشد إلى حدٍّ ما كان في مكان آخر.

وهكذا استمرّ الجميع، الأقرباء من الشمال، على مدى نصف ساعة كاملة، يحطّمون بعناد ما أبدعته بريوني، لهذا فقد حلّت الرحمة عندما جاءت أختها الكبيرة لترافق التوأمين إلى الاستحمام.

الفصل الثاني

هرولت سيسليا تاليس كونها شابّة وكون اليوم كان رائعًا من جهة، ولحاجتها المتزايدة إلى سيكارة من جهة أخرى، حاملة بيدها زهورًا على امتداد الممشى المحاذي للنهر، والمجاور لبركة الغوص القديمة ذات الجدار القرميدي الذي تعلوه الطحالب، قبل أن تنعطف بعيدًا وسط غابة البلّوط. كما أنّ السبب الآخر الذي جعلها تسرع في طريقها هو الخمول المتراكم الذي مرّت به في أسابيع الصيف منذ الامتحانات النهائيّة، لقد باتت حياتها ساكنة منذ عودتها إلى البيت، كما أنّ يومًا رائعًا كهذا اليوم جعلها نافدة الصبر، توّاقة.

كان ظلّ الأشجار العالي والبارد مبعث ارتياحها، وكانت التفاصيل المنحوتة على جذوع الأشجار تخلب اللبّ، وما إن اجتازت بوّابة القبلة الحديديّة ومرّت بالزهور الورديّة من تحت السياج الغائر في التربة حتى قطعت رحبة أرض مفتوحة ـ بيعت لفلاّح من أهالي المنطقة ليربّي عليها أبقاره، ووصلت إلى ما وراء النافورة وجدارها الذي يحافظ عليها، والنسخة المصغّرة لتمثال تريتون لبيرنيني[١] الموجود في ميدان باربريني في روما.

---

(١) لورنزو بيرنيني (١٥٩٨ ـ ١٦٨٠) فنّان إيطالي أنجز قبّة القدّيس بطرس وبنى ساحتها. له عدّة تماثيل أشهرها انخطاف القدّيسة تريزيا. يُعدّ من روّاد فنّ الباروك (المترجم).

كان بوسع التمثال المفتول العضلات، والجالس جلسة مريحة فوق قاعدته، أن ينفخ من خلال أذنه طائرة نفّاثة مسافة بوصتين لا غير، فقد كان الضغط واطئًا جدًّا والماء يسقط على رأسه وينساب فوق خصلات شعره الصخريّة، وينحدر نحو عموده الفقري الصلب، تاركًا من ورائه لطخة لامعة ذات لون أخضر داكن. كان في هذا المناخ الشمالي الغريب بعيدًا جدًّا عن منزله، لكنّه كان جميلاً تحت نور الشمس الصباحيّة، شأنه شأن الدلافين الأربعة التي تسند القاعدة ذات الحافّة المتأرجحة التي يتربّع فوقها، نظرت إلى القشور على الدلافين وعلى فخذي تريتون، وأخيرًا باتّجاه المنزل، كان أسرع طريق إلى غرفة الاستقبال يمرّ بالعشب والشرفة ثم الباب الزجاجي، غير أنّ صديق طفولتها ورفيق الجامعة روبي تيرنر كان جاثيًا على ركبتيه يقلع الأعشاب عند الشجيرات الواطئة، ولم تشعر برغبة في تجاذب أطراف الحديث وإيّاه، أو في الأقلّ في هذه اللحظة. منذ أن جاء إلى هذا المكان أصبحت البستنة هوايته ما قبل الأخيرة، وجرى الآن حديث عن كلّيّة الطبّ، وهو حديث ينطوي على ادّعاء بعد حيازة شهادة في الآداب، كما أنّه بدا حديثًا جريئًا ما دام والدها هو الذي سيضطرّ إلى دفع أجور الدراسة.

أنعشت الأزهار بغمرها في حوض النافورة الذي كان مملوءًا وباردًا، وتجنّبت روبي بأن أسرعت خطاها من حولها واتّجهت صوب واجهة المنزل ـ وفكّرت بأنّ لديها العذر في البقاء خارج المنزل لبضع دقائق، ولم يتمكّن نور الشمس الصباحي ولا أيّ نور آخر من إخفاء بشاعة منزل تاليس ـ الذي لا يتجاوز عمره الأربعين عامًا، وشُيّد بالقرميد البرتقالي البرّاق والمؤطّر بألواح من الرصاص على الطراز القوطي[١] إلى أن جاء اليوم الذي انتقده مقال كتبه بيفستر، أو أحد أعضاء فريقه، ووصفه بأنّه مأساة من فرص هُدرت

---

(١) قوطي Gothic: خاصّ أو متّسم بخصائص الطراز القوطي في فنّ العمارة الذي نشأ في شمالي فرنسا وانتشر في أوروبا الغربيّة من منتصف القرن الثاني عشر إلى أوائل القرن السادس عشر الميلادي (المترجم).

في حين قال أديب شابّ ينتمي إلى المدرسة الحديثة إنّه «يفتقر إلى الجمال إلى حدّ كبير» وكان قد شُيّد في هذا المكان بيت وفق طراز آدم[١]، وظلّ شاخصًا حتى أتت عليه النيران في أواخر ثمانينيّات القرن التاسع عشر، ولم يبق منه سوى بحيرة اصطناعيّة وجزيرة يمتدّ فوقها جسران حجريّان يسندان الطريق الخاصّ الذي يتفرّع عن الطريق العامّ، فضلاً عن معبد مزخرف بالجصّ، آيل للسقوط يقع عند حافّة الماء. وكان جَدُّ سيسليا، الذي نشأ وترعرع في دكّان حدّاد وحقّق ثروة لأسرته بسلسلة من براءات اختراع الأقفال والمزالج ومشابك الأبواب، قد فرض على البيت الجديد ذوقه على كلّ ما هو صلب وآمن وعملي. ومع هذا فإذا ما ولّى المرء ظهره المدخل الأمامي ورمق الطريق الفرعي بنظرة، متجاهلاً حشدًا من الناس المتجمهرين تحت ظلال أشجار متباعدة، فإنّ المشهد يبدو جميلاً إلى حدّ كبير، موحيًا بهدوء لا نهاية له، هدوء لا يعكّره أيّ شيء، ممّا جعلها متأكّدة، أكثر من أيّ وقت مضى، أنّ عليها التحرّك بأسرع وقت إلى الداخل.

دخلت المنزل واجتازت مسرعة الردهة ذات الأرضيّة المفروشة بالقرميد الأبيض والأسود ـ بخطواتها المألوفة التي يتردّد صداها والتي تُثير الانزعاج ـ وتوقّفت لتلتقط أنفاسها عند مدخل غرفة الاستقبال. انزلقت بكلّ برود على قدميها، وهما داخل الصندل، مجموعة غير منتظمة من الأعشاب والزهور التي جعلت ذهنها في حالٍ أفضل من السابق. كانت الزهريّة التي تبحث عنها قد وُضعت فوق منضدة من خشب الشيري الأميركي إلى جانب الباب الزجاجي الذي كان مفتوحًا قليلاً. كان مظهر الباب الجنوبي الشرقي قد سمح لأشعّة الشمس الصباحيّة بالتسلّل فوق السجّادة ذات اللون الأزرق. تباطأت دقّات قلبها، فيما ازدادت رغبتها بتدخين سيكارة، ولكنّها تردّدت في الدخول عند الباب وقد استبدّ بها كمال المشهد ـ ثلاث أرائك باهتة الألوان من طراز

---

(١) طراز آدم Adam - style طراز معماري من الفنّ الكلاسيكي المحدث في البناء الخارجي والداخلي ابتكره الأخوان آدم ولا سيّما روبرت آدم (١٧٢٨ ـ ١٧٩٢) (المترجم).

تشستر فيلد[١] صُفّت من حول مستوقد حديث نسبيًا شُيّد على الطراز القوطي وفيه مجموعة من خشب البردي الشتوي، وإلى أحد الجانبين آلة البيانو القيثاري التي لم يعزف عليها أحد، والحوامل الموسيقيّة المصنوعة من خشب الورد، والتي لم تُستعمل من قبل أيضًا، وإلى الجانب الآخر، الستائر المخمليّة الثقيلة المفتوحة إلى الجانبين، والتي يثبّتها حبل بلونين أزرق وبرتقالي، مؤطّرة بذلك مشهد السماء الصافية والشرفة المرقّشة باللونين الأصفر والرمادي والتي نما بين صدوعها نبات البابونج وزهر الأقحوان. وثمّة مجموعة من الدرج تؤدّي نزولاً إلى العشب حيث كان روبي ما يزال يشتغل عند حافّته، ويمتدّ إلى نافورة تريتون التي تبعد مسافة خمسين ياردة.

هذه الأشياء كلّها ـ النهر والورود، الركض الذي قلّما مارسته في هذه الأيّام، العروق الدقيقة في جذوع أشجار البلّوط والغرفة ذات السقف العالي وهندسة الضوء ونبض أذنيها الخافت وسط الهدوء ـ بعثت البهجة والسرور في أعماقها وكأنّ ما هو مألوف تحوّل إلى شيء غريب ولذيذ. غير أنّها شعرت وكأنّ هناك من يوبّخها بسبب سأمها البيتي. لقد عادت من مدينة كيمبردج وهي تحمل فكرة غامضة بأنّ أسرتها مدينة لها برفقة متواصلة غير منقطعة. غير أنّ والدها ظلّ في البلدة، في حين بدت والدتها بمنأى عنها وغير ودّيّة، في حال لم تكن تهتمّ بداء الشقيقة الذي يداهمها. كانت سيسليا قد حملت صواني الشاي إلى غرفة والدتها ـ التي كانت غرفة قذرة مثل غرفتها ـ معتقدة أنّ حديثًا لطيفًا قد تتجاذبه الاثنتان. على أيّة حال، لم تكن إميلي تاليس ترغب في أيّ شيء سوى مشاركة الأسرة في لحظات الاهتياج، أو أن تستند إلى الوسائد وهي جالسة، تصعب قراءة ملامح وجهها في العتمة، وتفرغ محتويات كوبها في صمت سقيم غير مُجدٍ. تاهت بريوني وسط فانتازيّات كتابتها ـ فالهواية التي بدت لها أوّل الأمر عابرة غدت الآن هوسًا يتطوّر أكثر فأكثر.

---

(١) تشسترفيلد Chesterfield أريكة كبيرة الحجم، نسبة إلى إيرل أوف تشسترفيلد، تمتاز بمساندها المرتفعة (المترجم).

كانت سيسليا قد شاهدتهم على السلالم في ذلك الصباح: أختها الأصغر سنًّا وهي تقود ابني خالتها، مساكين لم يصلوا إلاّ يوم أمس ليصعدوا إلى الطابق الأعلى للتمرين على المسرحيّة التي كانت تريد بريوني أن تعرضها في ذلك المساء عندما يصل ليون وصديقه. لم يبق إلاّ وقتٌ قصير جدًا، وكان أحد التوأمين قد حبسته بيتي في حجرة غسل الأطباق بسبب سوء أفعاله. لم تكن سيسليا عازمة على تقديم يد العون ـ فالطقس حارّ جدًّا، كما أنّ كلّ ما قد تفعله سيجعل المشروع ينتهي إلى إخفاق شامل لأنّ بريوني امرأة كثيرة المتطلّبات ولا يستطيع أيّ فرد، ولا سيّما الأقرباء، مجاراة رؤيتها الجنونيّة.

كانت سيسليا تعلم جيّدًا أنّها لا تستطيع الاستمرار في هدر أيّامها في فوضى غرفتها غير المرتّبة، مستلقية على سريرها وسط سحابة دخان، وذقنها يستند إلى يدها، وإحساس كوخز الإبر والدبابيس يسري في ذراعها وهي تقرأ رواية كلاريسّا[١] لريتشاردسن[٢]. كانت قد بدأت فاترة العزيمة في وضع شجرة العائلة، لكن من جهة الأب، في الأقلّ إلى أن فتح والد جدّها دكّانه

(١) كلاريسّا هارلو Clarissa Harlowe رواية الكاتب الإنكليزي صاموئيل ريتشاردسن (١٦٨٩ ـ ١٧٦١)، صدر الجزآن الأوّل والثاني منها في ١٧٤٧، على حين صدرت الأجزاء الخمسة الباقية في ١٧٤٨، وقد ارتأى المؤلّف أن يكتبها بصيغة الرسائل على لسان بطلته كلاريسّا إلى صديقتها الآنسة هاو، وعلى لسان بطل الرواية روبرت لافليس إلى صديقه جون بيلفورد. يغوي البطل البطلة فتهرب وإيّاه لتموت بعدئذٍ بسبب العار الذي لحق بها، في حين يلقى البطل حتفه في مبارزة مع قريب كلاريسّا، العقيد موردن (المترجم).

(٢) صاموئيل ريتشاردسن Samuel Richardson (1689 - 1761): كاتب إنكليزي لم يحظ إلاّ بقسط قليل من التعليم، فأنشأ له مطبعة في لندن. أعدّ بناء على مشورة اثنين آخرين من أصحاب المطابع مجلّدين من الرسائل يستمتع بقراءتهما قرّاء الأرياف، على حدّ تعبيرهما فكان صدور روايته الأولى باميلا بجزأين في ١٧٤٠ ـ ١٧٤١ وأعقبها برواية كلاريسّا هارلو التي فاقت الرواية الأولى في النجاح الذي حظيت به. وفي ١٧٥٣ ـ ١٧٥٤ صدرت له رواية بعنوان «سير تشارلز غرانديسون» التي تحمّس لها القرّاء والنقّاد، وإن كانت أقلّ أهمّيّة من روايتيه السابقتين. وكان للروايات الثلاث، على وجه العموم، أبلغ الأثر في الأدب الروائي داخل إنكلترا وخارجها، سواء من حيث الحبكة ورسم الشخصيّات أو المعالجة الروائيّة والتعمّق في نفوس البشر (المترجم).

المتواضع لبيع الأدوات الثقيلة، كان الأجداد غارقين في مستنقع العمل الزراعي الذي تغيّرت معه الأسماء والألقاب وتبدّلت تبدّلاً مثيرًا للشكوك والإرباك وسط الرجال، فضلاً على أنّ الزيجات المبنيّة على العرف والتقاليد لم تسجّل في سجلاّت الأبرشيّة. إنّها لا تستطيع البقاء في هذا المكان، وكانت تعلم أنّ عليها وضع الخطط، ولكنّها لم تفعل شيئًا. ثمّة احتمالات مختلفة، لكنّها كلّها لا تُثير الحماس، كان لديها مقدار قليل من المال يكفيها للعيش عيشة متواضعة على مدى عام أو نحوه. لقد دعاها ليون باستمرار لقضاء بعض الوقت وإيّاه في لندن، كما عرض عليها الأصدقاء في الجامعة مساعدتها في إيجاد عمل لها، عمل مملّ على وجه التأكيد، لكنّها تريد أن تكون مستقلّة تمامًا، لديها أخوال وخالات يُثيرون الاهتمام ويبتهجون دومًا لرؤيتها، بمن فيهم هيرميوني والدة لولا والصبيّين، والموجودة حاليًّا في باريس برفقة عشيق يعمل في الإرسال اللاسلكي.

ما من أحد يكبح جماح سيسليا، وما من أحد سيهتمّ إن رحلت. لم تكن البلادة هي التي أبقتها، فهي دومًا قلقة، حادّة الطبع، وراقها أن تشعر بأنّ هناك من يمنعها من المغادرة، وأنّ هناك من هو بحاجة إليها. وبين حين وآخر كانت تقنع نفسها بأنّها بقيت لأجل عيني بريوني، أو لمساعدة والدتها، أو لأنّ هذه الفترة هي آخر مدّة تقضيها في المنزل، وأنّها سوف تدرك حقيقتها. الحقّ أنّ فكرة توضيب حقيبة سفر وركوب القطار الصباحي لم يثيرا فيها أيّ اهتمام، إنّه سفر من أجل السفر، فالتسكّع في هذا المكان والإحساس بالسأم والراحة شكل من أشكال العقاب الذاتي الذي لا يخلو من قدر من اللذّة أو توقّع اللذّة، فلو انصرفت لربّما يحدث أمر سيّئ، بل الأسوأ من هذا قد يحدث أمر حسن، أمر لا يمكنها أن تجعله يفوتها، ثم هناك روبي الذي أثار سخطها وغضبها بتكلّفه معاملتها معاملة فاترة وبخططه الكبيرة التي ليس من شأنه أن يناقشها إلاّ مع أبيها. كان أحدهما يعرف الآخر مذ كانا، هي وروبي، في السابعة من عمريهما، وكان ممّا يُثير انزعاجها أنّهما كانا يرتبكان عندما

يتكلّمان. وعلى الرّغم من أنّها كانت تشعر أنّ الخطأ خطأه إلى حدّ كبير ـ هل يا ترى استوعب هو خطأه الأوّل؟ ـ فإنّها كانت تدرك أنّ عليها أن تُنهي هذا الموضوع قبل أن تفكّر في الرحيل.

اخترقت الباب الزجاجي رائحة روث البقر، وهي رائحة تنتشر في المكان دومًا، إلّا في الأيّام الشديدة البرودة، ولا يتنبّه لها إلاّ أولئك الذين كانوا بعيدين عن المكان.

وضع روبي المالج جانبًا، ووقف يلفّ سيكارة، وتلك عادة من عاداته لازمته منذ أن كان في الحزب الشيوعي، تلك الهواية التي هجرها أسوة بطموحه في دراسة الأنثروبولوجيا والسفر مجّانًا من بلدة كاليه إلى إسطنبول. ومع هذا كانت سكائرها الخاصّة بها في الطابق العلوي، وفي واحد من تلك الجيوب المتعدّدة.

تقدّمت ودخلت الغرفة ووضعت الزهور في الزهريّة، وكانت ذات يوم ملكًا لعمّها كليم الذي تتذكّر جيّدًا جنازته أو دفنه للمرّة الثانية في أواخر الحرب، فقد وصلت العربة التي تحمل نعشه إلى باحة كنيسة البلدة، وكان النعش مغطّى بعلم الكتيبة، فيما انتصب السيفان والبوق عند حافّة القبر، وكان أكثر ما تذكّرته، وهي طفلة في الخامسة من عمرها، والدها الذي كان يجهش بالبكاء. كان كليم أخاه الوحيد، أمّا كيف وجد الزهريّة فتلك حكاية وردت في إحدى الرسائل التي كتبها الملازم الشابّ إلى أهله. فقد كان في مهمّة ارتباط في القاطع الفرنسي، وبدأ في اللحظة الأخيرة إخلاء بلدة صغيرة غربي فردون[1] قبيل قصفها، ربّما كان عدد الذين أنقذهم يصل إلى خمسين فردًا من النساء والأطفال وكبار السنّ. وفي وقت لاحق اصطحب عمدة البلدة وبعض المسؤولين فيها العمّ كليم إلى البلدة مرّة أخرى واتّجهوا صوب المتحف، الذي دُمِّر تدميرًا شبه كامل، وأخذوا الزهريّة من صندوق زجاجي مهشّم

(١) فردون Verdun مدينة تقع في شمال شرقي فرنسا على نهر موز، اشتهرت بمقاومتها الزحف الألماني سنة ١٩١٦ (المترجم).

وقدّموها له هديّة، عرفانًا لما قام به. لم يرفض، وإن كان يبدو من غير الملائم خوض الحرب وهو يضع قطعة من خزف ميسين[1] تحت أحد إبطيه. وبعد مرور شهر واحد تُركت الزهريّة في بيت بإحدى المزارع، وعبر الملازم تاليس النهر من أجل استعادتها، وعاد سالكًا الطريق نفسه عند منتصف الليل ليلتحق بوحدته. وفي الأيّام الأخيرة من الحرب أُرسل في مهامّ للقيام بأعمال الدوريّة، وسلّم الزهريّة إلى أحد أصدقائه ليحتفظ بها أمانةً لديه، وببطء وجدت الزهريّة طريقها ثانية إلى مقرّ الكتيبة، وأُرسلت إلى منزل تاليس بعد مرور بضعة أشهر بُعَيد دفن العمّ كليم.

ليست هناك فائدة من محاولة تنظيم زهور بريّة، إذْ تبعثرت واتّخذت لها نسقًا خاصًّا بها، كما أنّ التوزيع المتساوي بين زهور السوسن والدِّفْلى الأُرجوانيّة الزهر سوف يُفسد الأثر المرجوّ منها. أمضت بعض الوقت وهي تجري بعض التعديلات لتحقيق مظهر فوضوي طبيعي، وفيما كانت تفعل ذلك فكّرت في الذهاب إلى روبي الذي يوفّر لها عناء ارتقاء السلالم مسرعة إلى الطابق العلوي، غير أنّها شعرت بالقلق والحرّ، ورغبت في أن تُلقي نظرة تتفحّص فيها مظهرها أمام المرآة اللاّمعة الكبيرة المثبتة فوق رفّ المدفأة. لكن إذا ما التفت ـ إذْ كان يقف وهو يدخّن موليًا ظهره المنزل ـ فسوف تقع أنظاره على داخل الغرفة. أخيرًا فرغت من عملها ورجعت ووقفت إلى الوراء. ربّما سيظنّ پول مارشال، صديق شقيقها، أنّ الزهور أُلقي بها في الزهريّة بعدم الاهتمام نفسه الذي التقطت به. كانت تعلم أن لا فائدة تُرجى من ترتيب الأزهار قبل وضع الماء في الزهريّة. لكنّ الماء موجود. ولم تستطع مقاومة تحريك الزهور في مكانها، فليس كلّ ما يفعله الناس يمكن أن يكون على وفق نظام صحيح خاضع للمنطق، وبخاصّة عندما يكونون وحدهم. كانت والدتها تريد وضع الزهور في غرفة الضيوف، وكانت سيسليا سعيدة وهي ترضخ للأمر. المكان الذي يمكنها أن تذهب إليه لجلب الماء هو المطبخ، لكنّ بيتي

(١) ميسين Meissen بلدة في الجزء الجنوبي الشرقي من ألمانيا على نهر الألب (المترجم).

كانت تعدّ العدّة لطبخ وجبة العشاء، وكانت في حالة مقرفة، ولم يكن الصبي الصغير جاكسون أو بياروت وحدهما يرتعدان، بل ارتعد معهما من جاء ليقدّم العون من القرية. إذْ كان يتناهى إلى الأسماع، حتى من غرفة الضيوف، انطلاق صرخة مكتومة تنمّ عن طبع حادّ المزاج، أو صوت قدرٍ ترتطم بجانب الموقد بقوّة غير طبيعيّة. ولو أنّ سيسليا دلفت الآن لاضطرّت إلى التوسّط والتقريب بين تعليمات والدتها الغامضة وحالة بيتي العقليّة النشيطة، ومن المؤكّد أنّ الأفضل هو الخروج وملء الزهريّة بالماء من النافورة.

في يوم ما من أيّام مراهقتهما، جاء أحد أصدقاء والد سيسليا، وكان يشتغل في متحف ڤكتوريا وألبرت، لإلقاء نظرة إلى الزهريّة وقال إنّها سليمة، وإنّها مصنوعة من خزف ميسين الأصلي، وإنّها من عمل الفنّان الكبير هورولدت الذي زيّنها بالرسوم في سنة ١٧٢٦، وكانت على وجه التوكيد مُلكًا للملك أُوغسطوس. وعلى الرّغم من الاعتقاد بأنّها أثمن من القطع الأخرى في منزل تاليس، وهي قطع رديئة في معظمها جمعها جدُّ سيسليا، فإنّ جاك تاليس أراد أن يضع الزهريّة موضع الاستعمال إكرامًا لذكرى شقيقه وعدم تركها حبيسة داخل صندوق زجاجي. وكان منطقه هو أنّها ما دامت قد نجت من ويلات الحرب فإنّ في وسعها أن تظلّ في مأمن عند آل تاليس، لكنّ زوجته لم تؤيّده في رأيه، وكانت الحقيقة، بصرف النظر عن مدى قيمتها العظيمة وبصرف النظر عن رمزيّتها، هي أنَّ إميلي تاليس لم ترقها الزهريّة كثيرًا، فقد بدت لها الشخصيّات الصينيّة الصغيرة المرسومة عليها، وهي تجلس من وراء مائدة في الحديقة، شديدة العناية بالتفاصيل، قابضة للصدر بما فيها من نباتات منمّقة وطيور لا تحتمل التصديق. كانت الزخرفة الصينيّة تُثير ضجرها، أمّا سيسليا فلم يكن لديها رأي محدّد، على الرّغم من أنّها فكّرت أحيانًا بمقدار المبلغ الذي يمكن أن تحصده في مزاد ساوثبي[1]، وقد حظيت الزهريّة باحترام

(١) ساوثبي: صالة مزاد علني في شارع نيو بوند ستريت بلندن، تباع فيه الكتب واللوحات الفنيّة (المترجم).

وتقدير لا بسبب لغز طلاء المينا المتعدد الألوان الذي لجأ إليه هوورولدت، أو بسبب استخدامه الشفرة والزخرفة الورقيّة باللونين الأزرق والذهبي حسب، بل بسبب العمّ كليم أيضًا والأفراد الذين أنقذ حياتهم والنهر الذي عبره في منتصف الليل، ووفاته قبل أسبوع واحد من إعلان الهدنة[1]. وبدت الزهور، خاصّة إن كانت زهورًا بريّة، ملائمة تمامًا للتعبير عن الاحترام والإجلال.

أمسكت سيسليا قطعة الخزف الباردة بيديها وهي واقفة على قدم واحدة، فيما دفعت بقدمها الثانية الباب الزجاجي وفتحته على مصراعيه، وفيما هي تخرج نحو الشمس المشرقة شعرت برائحة الحجارة الدافئة كأنّها عناق صديق، ورأت طائرين من طيور السنونو منشغلين بالغزل فوق النافورة، على حين صدحت في الهواء الطلق أغنية من بين وحشة قويّة منبعثة من شجرة سدر لبنانيّة. تمايلت الأزهار مع هبوب نسمة عليلة داعبت وجهها وهي تجتاز الشرفة وتخطو فوق الدرجات الثلاث المؤدّية إلى الممشى المرصوف بالحصباء، وعلى حين غرّة التفت روبي لدى سماعه صوت خطواتها وهي تقترب.

بدأ كلامه موضحًا:

ـ كنت مستغرقًا في أفكاري.

ـ هلاّ لففت لي واحدة من سكائرك البلشفيّة[2].

وضع سيكارته جانبًا وأمسك بالعلبة المعدنيّة التي كانت مرميّة فوق سترته على العشب، وسار بمحاذاتها صوب النافورة. لزما الصمت بعض الوقت.

أطلقت تنهيدة وهي تقول:

---

(١) ويقصد بالهدنة التي أعلنت بعد هزيمة ألمانيا (المترجم).

(٢) البلشفيّة: نسبة إلى البلاشفة وهم الأعضاء في الجناح المتطرّف من الحزب الديموقراطي الاجتماعي الروسي الذي قاد الثورة الاشتراكيّة (١٩١٧ ـ ١٩٢٠) (المترجم).

ـ يوم جميل.

كان ينظر إليها نظرة ارتياب تبعث على الضحك. شيء ما يكمن بينهما. أمّا هي فاضطرّت إلى الإقرار في أعماقها بأنّ عبارتها عن الطقس كانت غير مناسبة.

ـ كيف حال كلاريسّا؟

سألها وهو ينظر إلى أسفل نحو أصابعه التي تصنع لفافة التبغ.

ـ مثيرة للملل.

ـ لا ينبغي أن نصفها بهذه الصفة.

ـ أتمنّى أن تنجح في مسعاها.

ـ ستنجح، وستكون في حال أفضل.

أبطأ الاثنان في سيرهما، ثم توقّفا كي يتمكّن هو من وضع اللمسات الأخيرة على صنع اللفافة.

قالت:

ـ الأفضل قراءة رواية لفيلدنغ[١] في أيّ يوم.

وهنا شعرت أنّها تفوّهت بعبارة ساذجة. كان روبي ينظر بعيدًا صوب الجهة الأخرى من المتنزّه، إلى ما وراء الأبقار حيث غابة البلّوط التي تحاذي وادي النهر، وهي الغابة التي ركضت فيها في ذلك الصباح. لعلّه يفكّر بأنّها تتكلّم معه كلامًا مشفّرًا، تنقل إليه عن طريق الإيحاء ذوقها في القضايا الحسّيّة

(١) هنري فيلدنغ (١٧٠٧ ـ ١٧٥٤) Henry Fielding روائي إنكليزي درس في إيتون وفي لندن، وكان يُعيل نفسه في العاصمة لندن بكتابة المسرحيّات الهزليّة التي كانت أشهرها مسرحيّة «مأساة المآسي» (١٧٣٠) وذلك قبل أن تصدر روايته الرائعة «توم جونز» في ١٧٤٩، أعقبها برواية «إميليا» في ١٧٥١، سافر إلى البرتغال في رحلة بحريّة لكنّه توفّي فيها بعد أن كتب «يوميّات رحلة إلى البرتغال» التي صدرت في كتاب بعد وفاته (المترجم).

والشهوانيّة. تلك غلطة بطبيعة الحال. كانت مرتبكة، ولم تكن لديها أدنى فكرة عن كيفيّة تصحيحه. وفكّرت بأنّ عينيه تروقانها، ذلك المزيج من اللونين الأخضر والبرتقالي الذي بدا محبّبًا أكثر تحت أشعّة الشمس، كما راقها أيضًا طول قامته السامقة. إنّه لمزيج مثير للاهتمام أن يكون الرجل ذكيًّا وضخمًا. أخذت سيسليا في هذه الأثناء السيكارة، فيما انهمك هو بإشعالها لها.

قال وهما يسيران بقيّة المسافة التي تفصلهما عن النافورة:

ـ أعرف مغزى كلامك. إنّ فيلدنغ يتّصف بحيويّة أكبر، لكنّه يبدو فجًّا من الناحية السايكولوجيّة، مقارنة بريتشاردسن.

وضع الزهريّة إلى جانب الدرجات غير المستوية التي كانت تؤدّي إلى حوض النافورة الحجري. كان آخر شيء تتمنّاه هو جدلاً من جدالات طلبة الدراسات الجامعيّة الأوّليّة عن أدب القرن الثامن عشر، فهي لم تؤمن البتّة بأنّ فيلدنغ كاتب فجٌّ، أو أنّ فيلدنغ عالم نفساني من طراز رفيع. على أيّة حال، هي لن تسمح لنفسها بالانجرار إلى مثل هذا الكلام لتدافع أو توضح أو تهاجم، لقد تعبت من هذا كلّه، أمّا روبي فكان متشبّثًا برأيه.

لكنّها قالت:

ـ ليون آتٍ اليوم، ألا تعرف بذلك؟

ـ سمعت شائعة، هذا مدهش.

ـ سيأتي برفقة أحد أصدقائه ويدعى بول مارشال.

ـ المليونير البنّي بلون الشوكولا. آه، لا. وهل ستقدّمين له الورود؟

ابتسمت. أتراه يتظاهر بالغيرة كي يخفي حقيقة أنّه غيور فعلاً؟ إنّها لم تعد تفهمه، فقد انفصلا منذ أن درسا في كيمبردج، وكان من الصعب عمل أيّ شيء آخر سوى الانفصال. وهنا غيّرت دفّة الحديث.

ـ يقول العجوز إنّك ستصبح طبيبًا.

ـ أفكّر في هذا الأمر.

ـ لا بدّ أنّك تعشق حياة الطلبة.

نظر بعيدًا ثانية، لكنّ نظرته لم تدم سوى ثانية أو أقلّ من الثانية، وعندما التفت إليها ظنّت أنّها شاهدت مسحةً من الانزعاج. هل بدت في كلامها متعاطفة وإيّاه؟ رأت عينيه ثانية، ألق برتقالي وأخضر أشبه بكرة زجاجيّة يلعب بها الأطفال. عندما كان يتكلّم كان كلامه يبعث على السرور إلى حدّ كبير.

ـ أعرف أنّ مثل هذه الأشياء لا تروقك. فهمت؟ لكن كيف يمكن للمرء أن يصبح طبيبًا؟

ـ هذا ما أعنيه. ستّ سنوات أخرى، لماذا تنفقها هكذا؟

لم يشعر بالإهانة. كانت هي التي تبالغ في التفسير، وكانت هي المذعورة وهي معه، كانت في أعماقها منزعجة من نفسها، كان يأخذ سؤالها على محمل الجدّ، وانفجر عندما عنَّت على خاطره فكرة:

ـ ما من أحد سيمنحني عملاً أشتغل فيه بستانيًّا، أنا لا أريد ممارسة التعليم، ولا أريد وظيفة حكوميّة، كما أنّ الطبّ يستهويني... انظري، لقد وافقت على أن أسدّد ديني لوالدك، هكذا هي الخطّة.

ـ ليس هذا ما كنت أرمي إليه.

استبدّت بها الدهشة عندما علمت أنّه يفكّر بأنّها تُثير موضوع النقود، إنّها حقارة منه. لقد ساعد والدها في تعليم روبي طوال حياته، فهل اعترض أحد ما على ذلك؟ فكّرت أنّها كانت تظنّ به الظنون، لكنّها في حقيقة الأمر كانت على حقّ ـ ثمّة ما هو مزعج في سلوك روبي مؤخّرًا، إذْ كان يملك أسلوبًا خاصًّا به لمضايقتها، متى ما وجد إلى ذلك سبيلاً. فقبل يومين ضغط على جرس الباب الأمامي ـ وهو تصرّف غريب منه لأنّه كان دائمًا يتمتّع بحرّيّة الدخول إلى المنزل. ولمّا هبطت السلالم إلى الطابق السفلي وجدته يقف

خارج الباب ويسأل بصوت مجرّد، لا أثر للانفعال فيه، إن كان في وسعه أن يستعير كتابًا. وكما هو معروف كانت بولي تجثو على يديها وركبتيها وهي تنظّف بلاط مدخل الردهة، وبذل روبي مجهودًا متكلّفًا لنزع حذائه الثقيل، الذي لم يكن أصلاً قذرًا، ثم بدأ بخلع جوربيه وسار على أطراف أصابع قدميه سيرًا هازلاً مبالغًا فيه، واجتاز الأرضيّة المبلّلة. كان يهدف من وراء كلّ ما يفعله إلى إبعادها عنه، كان يمثّل دور ابن سيّدة المنزل النظيف الذي يأتي في مهمّة. ذهبا معًا إلى المكتبة، وعندما عثر على الكتاب الذي ينشده طلبت منه أن يبقى لتناول فنجان قهوة، فكان رفضه العصبي حجّة وذريعة. كان واحدًا من أكثر الناس مدعاة للثقة ممّن صادفتهم في حياتها. كانت تدرك أنّها موضع سخرية واستهزاء، لهذا غادرت الغرفة بعد أن رفض طلبها وارتقت السلالم إلى الطابق العلوي واستلقت على سريرها، وبدأت تقرأ في رواية كلاريسّا، دون أن تستوعب كلمة واحدة منها، بعد أن شعرت أنّ انزعاجها وارتباكها قد ازدادا ازديادًا كبيرًا. أدركت أنّها تعرّضت للازدراء، أو أنّها تلقّت عقوبة ـ ولم تدرك أيّهما الأسوأ. عوقبت لأنّها كانت ضمن مجموعة مختلفة في جامعة كيمبردج، إذ لم تكن لديها خادمة تعمل نهارًا لخدمة الأمّ، كانت موضع ازدراء لأنّ شهادتها كانت بائسة ـ وليس لأنّهم كانوا يمنحون الشهادات للإناث على أيّة حال.

كانت لا تزال تمسك بسيكارتها، ولهذا أمسكت الزهريّة بارتباك، ووضعتها فوق حافّة حوض النافورة. الأفضل لو أنّها أخرجت الزهور منها أوّلاً، لكنّها كانت غاية في الانزعاج. كانت يداها حارّتين وجافّتين، وتعيَّن عليها أن تشدّ من قبضتها على قطعة الخزف. ظلّ روبي ملتزمًا الصمت، ولكنْ، كان في وسعها أن تقرأ ملامحه ـ وهي الملامح التي نَمّتْ عن ابتسامة مصطنعة لم تفارق شفتيه ـ كان نادمًا على ما تفوّه به من كلام، بيد أنّ هذا لم يهدّئ من روعها، فهذا هو ما كان يحدث بينهما عندما كانا يتحدّثان في تلك الأيّام، إذْ لا بدّ أن يكون أحدهما مخطئًا بشكل أو بآخر. هكذا حاولت أن

تستعيد آخر ملاحظة. لم يكن حديثهما سهلاً، ولم يكن متوازنًا أيضًا، لا أمل في الاسترخاء، بل كان عوضًا عن ذلك حديثًا كلّه أشواك وفخاخ ومنعطفات حرجة، كانت سببًا في جعلها تكره نفسها بالقدر نفسه الذي كرهته فيه، على رغم أنّ الشكّ لم يساورها في أنّه هو الملوم في معظم الأحيان. لم تتغيّر، لكنّه، هو الذي تغيّر بلا أدنى ريب. كان يضع مسافة بينه وبين الأسرة التي كانت منفتحة عليه الانفتاح كلّه ومنحته كلّ شيء، ولهذا السبب ـ وحده توقّع رفضها واستياءها المسبق ـ لم توجّه له الدعوة لتناول العشاء في تلك الليلة. ما دام يريد الابتعاد فليكن له ذلك.

من بين الدلافين الأربعة التي كانت أذنابها تسند القاعدة التي يجثم عليها تريتون، كان الدلفين الأقرب إلى سيسليا فاغرًا فاه وقد امتلأ بالطحالب والأشنات، كانت مقلتا عينيه الكرويّتين الصخريّتين، اللتين يقدّر حجمهما بحجم تفّاحتين كبيرتين، خضراوين متقزّحتين، واكتسب التمثال كلّه من حول سطوحه الشماليّة غشاءً أخضر مائلاً إلى الزرقة. لهذا بدا تريتون المفتول العضلات من بعض الأوجه، وفي ظلّ ضوء خافت، كأنّه تحت سطح البحر بمائة فرسخ، لا بدّ أنّ هدف بيرنيني من وراء ذلك كلّه هو أن يجعل الماء ينساب انسيابًا موسيقيًّا من القاعدة العريضة ذات الحافّات غير المنتظمة ليصبّ بعد ذلك في الحوض القائم من تحته، لكنّ الضغط كان في منتهى الضعف، ولهذا، وبدلاً من ذلك، انساب الماء انسيابًا هادئًا بلا أدنى صوت على امتداد جانب القاعدة حيث كانت قد علقت مادّة لزجة في بعض النقاط وكأنّها أعمدة ستالكتايت في كهف من الكهوف ذات الحجارة الكلسيّة، أمّا الحوض نفسه فكان نظيفًا، عمقه أكثر من ثلاثة أقدام، أمّا قاعه فكان مصنوعًا من حجارة بيضاء اللون انعكست عليها أشعّة الشمس وتداخلت فيما بينها.

كانت تفكّر في الانحناء من فوق الحاجز، وأن تمسك بالزهور وهي في الزهريّة وتغمرها بالماء. لكن في هذه اللحظة حاول روبي أن يمدّ لها يد العون في محاولة منه لإصلاح ذات البين بينه وبينها.

قال وهو يمدّ يده لها:

ـ دعيني أمسك بها، وسوف أملأها لك، أمّا أنت فأمسكي الزهور.

كانت قد أمسكت بالزهريّة وقرّبتها من الماء وقالت:

ـ في وسعي تدبير ذلك، شكرًا لك.

لكنّه استأنف كلامه قائلاً:

ـ انظري! لقد أمسكت بها.

وكان قد أمسك بها حقًّا، بين سبّابته وإبهامه.

ثم أضاف:

ـ سوف تُصاب سيكارتك بالبلل. خذي الأزهار.

كانت لهجته آمرة. حاول بها أن يمارس سلطة رجوليّة طارئة، وكان ردّ فعل سيسليا إزاء ذلك متمثّلاً في أنّها شدّت قبضتها.

لم يكن لديها وقت، ولا حتى أيّة فكرة في أن توضح له أنّ غمر الزهريّة والأزهار بالماء سوف يساعدها في ظهور الأزهار بالمظهر الطبيعي الذي كانت تسعى إليه من خلال ترتيبها. شدّت قبضتها أكثر من ذي قبل، ولوت جسدها مبتعدة عنه، لكنّه لم يكن من النمط الذي يتزعزع بسهولة، فانكسر جزء من حافّة الزهريّة في يده وانقسم إلى قطعتين، كلّ واحدة منهما مثلّثة الشكل، وسقطتا في الماء وهوتا نحو القاع بحركة متأرجحة متعاقبة واستقرّتا فيه تبعد إحداهما عن الأخرى مسافة بضع بوصات يطويهما ضوء منكسر.

تسمّرت سيسليا وروبي في مكانيهما، والتقت عيونهما، ولم تجد في مزيج لون عينيه الأخضر والبرتقالي ما يوحي بالصدمة، ولا حتى الإحساس بالذنب، بل وجدت نوعًا من التحدّي، أو حتى النصر. كانت لا تزال تملك من حضور الذهن ما يكفي لوضع الزهريّة المكسورة ثانية فوق الدرج، قبل أن

تسمح لنفسها بمواجهة مغزى الحدث. أدركت أنّ هناك شيئًا تصعب مقاومته، شيئًا لذيذًا لأنّه كلّما ازداد الموقف صرامة وجدًّا، ازداد سوءًا على روبي، سواء عمّها المتوفّى، شقيق والدها العزيز، والحرب التي لا طائل من ورائها، وعبور النهر الذي كان محفوفًا بالمخاطر، والقيمة التي تتجاوز أيّ مال، البطولة والخير، كلّ السنوات تمتدّ من وراء تاريخ الزهريّة وصولاً إلى عبقريّة هورولدت، بل إلى ما ورائه، إلى عظمة أولئك الذين أعادوا ابتكار الخزف.

ـ أيّها الأبله! انظر إلى ما فعلت!

نظر إلى الماء، ثم نظر إليها ثانية، وهزَّ رأسه لا أكثر وهو يرفع يده ليغطّي فمه بهذه الإشارة. أراد الافتراض بأنّه يتحمّل المسؤوليّة كاملة، لكنّها كرهته في تلك اللحظة لأنّ ردّ فعله لم يكن مناسبًا. نظر إلى الحوض وتنهّد، وفي لحظة من الزمان ظنَّ أنّها سوف ترجع إلى الوراء حيث وضعت الزهريّة، فرفع يده وأشار دون أن يتفوّه ببنت شفة، بل عمد عوضًا عن ذلك إلى فكّ أزرار قميصه، فأدركت على الفور بغيته. شيء لا يُطاق، لقد حضر إلى المنزل وخلع حذاءه وجوربيه ـ حسنًا سوف تريه الآن. خلعت صندلها وفكّت أزرار قميصها وخلعته ثم خلعت تنّورتها واتّجهت صوب جدار الحوض. وقف واضعًا كلتا يديه على خصره وحدّقَ بها وهي تصعد فوق الجدار بثيابها الداخليّة لا غير. كانت عقوبتها له متمثّلة في حرمانه من فرصة تقديمه المساعدة ومن احتمال التوصّل إلى أيّة تسوية. إنّ عقوبته تتمثّل في الماء المتجمّد الذي جعلها تشهق، أمسكت عن التنفّس وغاصت في الماء وشعرها يتطاير فوق السطح. إنّ غرقها في الماء هو العقوبة التي يستحقّها.

وعندما ظهرت من تحت الماء بعد بضع دقائق حاملة كلّ كسرة خزف بإحدى يديها، أدرك جيّدًا أنّه لا ينبغي له مدَّ يد العون لها وهي تخرج من الماء. وضعت الحوريّة البيضاء الرقيقة، التي كان الماء يقطر منها أكثر ممّا كان يقطر من جسد تريتون الضخم، قطعتي الخزف بجانب الزهريّة وارتدت ثيابها بعجالة وهي تجد صعوبة في إدخال ذراعيها المبلّلين في كمّي قميصها

الحرير، وحشرت قميصها المفتوح الأزرار في تنّورتها، وحملت صندلها ووضعته تحت إبطها، واحتفظت بالكسرتين في جيب تنّورتها، وأخذت الزهريّة من فوق الدرج. كانت حركاتها وحشيّة، ولم تحاول النظر إلى عينيه، إنّه غير موجود، إنّه مُلغى، وهذه عقوبة أيضًا. ظلّ واقفًا في مكانه، صامتًا، فيما ابتعدت هي عنه وسارت حافية القدمين نحو الجهة الأخرى من العشب. راقب شعرها الداكن وهو يتمايل بقوّة من فوق كتفيها مبلّلاً قميصها، ثم استدار ونظر إلى الماء علّه يجد كسرة نسيتها، لكنّه وجد صعوبة في التأكّد من ذلك، لأنّ سطح الماء كان لا يزال مضطربًا ويحتاج إلى وقت كي يعود إلى سكينته، لأنّ اضطرابه كان ينبعث أساسًا من روحها الهائجة التي لا تزال تحوم في المكان. بسط راحة كفّه فوق سطح الماء كأنّما يريد تهدئته، أمّا هي فقد توارت عن الأنظار داخل المنزل.

الفصل الثالث

استنادًا إلى الملصق الإعلاني المثبت في مدخل الردهة فإنّ تاريخ العرض الاستهلالي لمسرحيّة محاكمات أرابيلاّ كان بعد يوم واحد من التمرين الأوّل، لكن لم يكن سهلاً على المؤلّفة ـ المخرجة إيجاد الوقت الكافي لعمل مركّز، وكما حدث في فترة ما بعد الظهيرة السابقة، كانت المشكلة تنحصر في إعداد أدوار الممثّلين، ففي الليل بلّل والد أرابيلاّ الساخط، الذي يؤدّي دوره جاكسون، فراشه، حاله حال صغار الصبيان المرتبكين البعيدين عن منازلهم، واضطرّ، بحسب النظريّة الرائجة، إلى رفع ملاءته وثياب نومه وأخذها كي يغسلها بنفسه بيده تحت إشراف بيتي التي أُعطيت لها تعليمات بأن تظلّ حازمة وعلى بعدٍ منه. لم يكن هذا الإجراء عقوبة للصبي، بل كانت الفكرة تتلخّص في أن يتمّ إرشاد عقله الباطن إلى أنّ مثل هذه الأفعال سوف ينجم عنها مستقبلاً إزعاج وعمل شاقّ، لكنّه كان مضطرًّا إلى الإحساس بأنّ ذلك تأنيب له عندما وقف أمام حوض الغسيل الحجري الكبير الذي كان على ارتفاع يصل إلى مستوى صدره، فيما علت رغوة الصابون ذراعيه العاريتين، وبلّلت كمّي قميصه المشدودين إلى أعلى وثقلت عليه الملاءة المبلّلة وكأنّها كلب ميّت، فيما راوده إحساس عامّ بحدوث مصيبة شلّت من إرادته. كانت بريوني تهبط إلى الطابق السفلي بين حين وآخر، لتتأكّد من أنّه ماضٍ في عمله، وكان

ممنوعًا عليها مدَّ يد العون لجاكسون الذي لم يغسل شيئًا بنفسه طوال حياته، واستغرقت عمليّة الغسيل التي قام بها مرّتين والمرّات العديدة التي شطف فيها من رغوة الصابون، والدقائق الخمس عشرة التي أنفقها مضطربًا في الجلوس بعد ذلك من حول المائدة في المطبخ، يتناول الخبز والزبد والماء، استغرقت كلّها ساعتين من وقت التمرين.

عندما جاء هاردمان قادمًا من وسط حرارة ذلك الصباح لتناول كأسه من الجعة، أخبرته بيتي بأنّه يكفي أن تعدّ وجبة عشاء تتألّف من لحم الروست خصّيصًا في مثل هذا الطقس، وأنّها تظنّ أنّ المعاملة كانت قاسية جدًّا، وأنّها كانت لتكتفي بضربه على قفاه بضع مرّات وتغسل الملاءة بنفسها. من شأن هذا الفعل أن يرضي بريوني لأنّ الصباح كان يمرّ بسرعة، ولمّا هبطت والدتها السلالم إلى الطابق الأرضي كي تتأكّد بنفسها من أنّ العمل أُنجز، فالمؤكّد هو أنّ إحساسًا بالارتياح راود المشاركين، وراود السيّدة تاليس شعور بذنب لا سبيل إلى الإقرار به، ولهذا السبب عندما طلب جاكسون بصوت خفيض إن كان يُسمح له الآن النزول إلى المسبح، وإن كان بوسع شقيقه أن يرافقه، فإنّه لقي استجابة على الفور، في حين ضُربت اعتراضات بريوني عرض الحائط وكأنّما هي التي تفرض العقوبات الظالمة على صبي صغير لا حول له ولا قوّة. وهكذا كانت هناك سباحة، وكان لا بدّ من وجبة غداء أيضًا من بعدها. استمرّت التمرينات بغياب جاكسون، لكن ممّا يضرّ كثيرًا بالتمرينات عدم تمثيل المشهد الأوّل المهمّ وهو مشهد رحيل أرابيلاّ، تمثيلاً يصل حدّ الكمال، وكان بياروت غاية في التوتّر بسبب ما حلَّ بشقيقه في أحشاء البيت؛ فكلّ ما حدث لجاكسون من شأنه أن يكون مستقبل بياروت أيضًا. وبين الحين والآخر يتوجّه نحو المرافق الصحّيّة الكائنة في نهاية الممرّ. عندما رجعت بريوني من إحدى زياراتها لمكان الغسيل سألها بياروت:

ـ هل عوقب بالضرب؟

ـ لا، لم يُعاقب بعد.

كان بياروت، شأنه شأن شقيقه، يملك القدرة على أن يجعل كلامه خاليًا من أيّ معنى، فكان يناغم مجموعة من الكلمات:

ـ أتظنّ أنّ في وسعك الهروب من قبضتي؟

لكنّ بريوني قاطعته:

ـ إنّه سؤال، ألا تفهم؟ لا بدّ من أن ترفع صوتك في نهاية السؤال.

ـ ماذا تعنين؟

ـ هه! لقد تفوّهت بذلك. ابدأ بداية بطيئة ثم ارفع صوتك، إنّه سؤال!

ازدرد ريقه بصعوبة، وأخذ نفسًا عميقًا، وبذل محاولة أخرى رافعًا صوته:

ـ في النهاية، ارفع صوتك في النهاية.

كانت لولا قد جاءت إلى غرفة الحضانة في ذلك الصباح متنكّرة بزيّ راشد، ظنّت معه أنّه في أعماق قلبها. كانت ترتدي بنطالاً قطنيًّا ذا ثنيّات ينتفخ عند الردفين ويتّسع عند الكاحل، وكنزة قصيرة الأكمام مصنوعة من الكشمير. ومن بين المؤشّرات الأخرى على نضوجها لفاع مخملي ذو لآلئ صغيرة، وخصلات شعر حمراء اللون، تجمّعت في مؤخّر عنقها وثبّتت بماسكة شعر خضراء اللون، كما وضعت في معصمها ثلاث أساور فضّيّة اللون وواسعة، وكانت حيثما تسير تجد الهواء عابقًا برائحة ماء الورد. كانت كياستها التي تحافظ عليها هي أهمّ شيء، وكانت ردود أفعالها على مقترحات بريوني هادئة، تتفوّه بالعبارات الخاصّة بدورها التي يبدو أنّها حفظتها أثناء الليل على نحو دقيق، فيما واصلت تشجيع شقيقها الصغير بلطف دون أن تتجاوز سلطة المخرجة. بدا الأمر كأنّ سيسليا، أو الوالدة، قد وافقت على تزجية بعض الوقت مع الصغار، وذلك بأداء دور في المسرحيّة، مع الإصرار على عدم ترك أيّ أثر من آثار السأم والملل. الشيء الغائب هو إظهار حماسة الأطفال؛ فعندما أطلعت بريوني أقرباءها على كشك المبيعات وصندوق

التبرّعات في المساء الماضي، تشاجر التوأمان، كلّ واحد منهما يسعى إلى الحصول على أفضل الأدوار في الواجهة، لكنّ لولا شبكت ذراعيها وعبّرت عن شكرها وهي تبتسم ابتسامة واهية، تصعب معها ملاحظة أيّ أثر للسخرية فيها.

ـ مدهش! يا لك من ذكيّة يا بريوني إذْ فكّرت في ذلك. هل هذا كلّه من صنعك أنت وحدك؟

راود الشكّ بريوني في أنّ هناك هدفًا مدمّرًا يكمن من وراء سلوك ابنة خالتها الأسنّ منها. لعلّ لولا تعتمد على التوأمين في تحطيم المسرحيّة على نحو برِيء، وإنّها ليست بحاجة إلاّ إلى أن تتنحّى جانبًا وتراقب. كانت هذه الشكوك التي يتعذّر إثبات صحّتها، واحتجاز جاكسون في حجرة الغسيل، وأداء بياروت السيّئ، وحرارة الصباح الهائلة، ثقيلة الوطأة على بريوني. زد على ذلك أنّها انزعجت عندما لاحظت داني هاردمان يُراقب من المدخل. كان لا بدّ من أن تطلب منه أن ينصرف إلى شؤونه، ولم تستطع التغلغل في استقلاليّة رأي لولا ولا أن تنتزع من بياروت ما يحذفه عمومًا من كلمات أثناء كلامه يوميًّا. لهذا شعرت بارتياح كبير عندما وجدت نفسها وحيدة في غرفة الحضانة، وكانت لولا قد ذكرت بأنّها مضطرّة إلى إعادة النظر في تسريحة شعرها، كما أنّ شقيقها سار على غير هدًى إلى نهاية الممرّ، إلى المرافق الصحِّيّة أو إلى أبعد منها.

جلست بريوني على الأرض مولية ظهرها إحدى الخزانات الكبيرة المثبتة على الجدار، والمخصّصة للعب الأطفال، وبدأت تهوّي وجهها مستخدمة الأوراق التي دوّنت عليها مسرحيّتها. كان الصمت مطبقًا في أرجاء البيت، ـ ما من أصوات أو وقع خطوات في الطابق السفلي، ولا همهمات تنبعث من أنابيب المياه. وفي الفراغ الكائن في إطار إحدى النوافذ المفتوحة تخلّت ذبابة محشورة فيه عن محاولتها للتخلّص من الفخّ. أمّا خارج البيت فقد تلاشت أغنية العصفور في خضمّ الحرارة المتّقدة. دفعت ركبتيها إلى أمام

وتركت ثنيّات ثوبها المصنوع من قماش الموسلين الأبيض، وتغضّن ركبتيها تملأ مشهدها، كان ينبغي لها أن تغيّر من ثوبها في هذا الصباح، وفكّرت في الأسلوب الذي يتعيّن عليها بموجبه أن تهتمّ اهتمامًا أكبر بمظهرها، شأنها في ذلك شأن لولا، وإن لم تهتمّ بذلك فهو تصرّف صبياني تمامًا. لكنّ ذلك يتطلّب مجهودًا منها. تردّد هسيس الصمت في أذنيها، وغامت الرؤية إلى حدّ ما في عينيها ـ وبدت يداها، وهما في حضنها، كبيرتين إلى حدّ غير مألوف، وبعيدتين عنها، في الوقت نفسه، كأنّها تنظر إليهما من على بعد مسافة طويلة. رفعت إحدى يديها وثنت أصابعها وفكّرت، كما هو دأبها في السابق، كيف أصبح هذا الشيء، هذه الآلة التي تقبض على الأشياء، هذا العنكبوت اللحمي في نهاية ذراعها، جزءًا منها خاضعًا الخضوع كلّه لمشيئتها؟ أم إنّ لهذا الشيء حياته الخاصّة به؟ لوت إصبعها، ثم أعادتها إلى وضعها الطبيعي. السرّ يكمن في اللحظة التي تسبق تحريك الإصبع، اللحظة الفاصلة بين اللاحركة والحركة، عندما يبدأ قرارها بالحركة. الأمر يشبه انكسار موجة، وفكّرت: آه لو تمكّنت من أن ترى نفسها متربّعة على القمّة، وعندئذٍ قد تعثر على لغز حياتها، على ذلك الجزء منها الذي يتحكّم في كلّ شيء حقًّا. قرّبت سبّابتها من وجهها وحدّقت فيها، وحثّتها على الحركة، لكنّها ظلّت ساكنة لأنّها كانت تتظاهر فحسب، كانت غير جادّة ولأنّ الرغبة في تحريكها، أو على وشك تحريكها، لا يشبهان حقًّا تحريكها. ولمّا لوتها في نهاية المطاف بدا الفعل وهو يبدأ في الإصبع نفسها وليس في أيّ جزء من عقلها. متى علمت بتحريكها؟ لا سبيل إلى الكشف عن عيوبها فالقضيّة هي إمّا أو، ليست هناك من درزة، ولا ما يشبه الدرزة، ولكنّها كانت تعلم أنّ وراء هذا النسيج الرقيق تكمن ذاتها الحقيقيّة، ـ أهي روحها؟ ـ التي اتّخذت القرار بالتوقّف عن التباهي وأصدرت الأمر النهائي. كانت هذه الأفكار مألوفة لديها، ومطمئنّة، تمامًا مثل شكل ركبتيها الدقيق، تشابههما في المظهر، وإن كانتا متنافستين ومتناسقتين وقابلتين للانثناء، وسرعان ما كانت فكرة ثانية تعقب الفكرة الأولى. لغز واحد ينجم عنه لغز ثانٍ. هل كان كلّ شخص حيًّا كما كانت هي

حيّة؟ على سبيل المثال، هل شقيقتها مهمّة بالنسبة لها، وهل هي نفيسة كما هو شأن بريوني؟ هل يحظى وجود سيسليا بحيويّة تشبه حيويّة وجود بريوني؟ هل لأختها نفس حقيقيّة مخفيّة وراء موجة منكسرة؟ وهل تراها تنفق الوقت مفكّرةً فيها وهي ترفع إحدى أصابعها أمام وجهها؟ وهل الجميع، بمن فيهم والدها وبيتي وهاردمان، ينفقون الوقت؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب فإنّ العالم عندئذٍ، العالم الاجتماعي، معقّد تعقيدًا يتعذّر احتماله بما فيه من مليارَي صوت تجهد فيه أفكار كلّ امرئ، وبالقدر نفسه من الأهمِّيّة، ويطالب كلّ فرد مطالبة قويّة في أن يحيا، ويظنّ المرء أنّه فريد زمانه لكن ما من شخص فريد زمانه. يمكن للمرء أن يغرق دون اهتمام. لكن إن كان الجواب بالنفي فإنّ بريوني تكون عندئذٍ مُحاطة بآلات، ذكيّة ومثيرة للاهتمام من الخارج، لكنّها تفتقر إلى الإحساس الداخلي المتألّق والخصوصي الذي تتمتع هي به شخصيًّا.
يا له من شيء مفزع وموحش وغير محتمل أيضًا، كانت تدرك جيّدًا أنّ من غير المحتمل أن تكون للآخرين أفكار تشبه أفكارها، على الرّغم من أنّ ذلك الإدراك أخلَّ بإحساسها بالنظام. كانت تعرف ذلك، ولكن على نحو غير مشوّق، لهذا لم تشعر به حقًّا. ضايقت التمرينات، هي الأخرى، إحساسها بالنظام، فالعالم المتميّز بالانضباط الذي رسمته ضمن خطوط واضحة وتامّة محته خربشات عقول أخرى، وحاجات أخرى. كما أنّ الزمان نفسه الذي قسمته تقسيمًا سهلاً وبسيطًا على الورق إلى فصول ومشاهد بات الآن يسري بعيدًا، على نحو لا يمكن السيطرة عليه. ربّما لن تستعيد جاكسون حتى فترة ما بعد الغداء، ومن المقرّر أن يصل ليون وصديقه في وقت مبكر من المساء، أو ربّما قبل ذلك الوقت، في حين حُدّد وقت العرض في الساعة السابعة مساءً، ومع هذا لا تمرينات ملائمة حتى الآن، كما أنّ التوأمين لا يستطيعان أداء دوريهما، بل لا يستطيعان الكلام، في حين سرقت لولا دور بريوني الشرعي، وأصبح كلّ شيء خارج حدود سيطرتها، زد على ذلك حرارة الجوّ الجديرة بالضحك. تلوّت الفتاة من شدّة ضيقها، ووقفت على قدميها، كان الغبار المنتشر فوق إزار الحائط قد لوّث يديها والجزء الخلفي من ثوبها، وفيما هي

مستغرقة في أفكارها مسحت راحتي كفّيها بالجزء الأمامي من ثوبها ومضت صوب النافذة. فكّرت أنّ أفضل وسيلة لإثارة إعجاب ليون هي أن تكتب له قصّة وتضعها بنفسها بين يديه، وتراقبه وهو يقرأها. العنوان المنقوش، والغلاف الموضّح بالرسوم، والأوراق المجلّدة ـ كلّها أمور أشعرتها بمدى جاذبيّة الشكل الأنيق، والمحدّد، والمنظّم التي تركتها من ورائها عندما قرّرت تأليف المسرحيّة.

القصّة مباشرة وبسيطة ولن تسمح لأيّ شيء أن يفصلها عن القارئ ـ لا وسطاء يحملون طموحاتهم الخاصّة بهم أو عدم كفاءتهم، لا وجود لعامل الوقت الذي يضغط عليها ولا حدود للمصادر، كلّ ما عليك أن تفعله في تأليف القصّة هو أن تتمنّى أن تدوّنها على الورق، وفي إمكانك أن تضع العالم كلّه فيها. في المسرحيّة، عليك أن تدبّر نفسك بما هو متوفّر أمامك، لا جياد ولا شوارع قرويّة ولا ساحل بحر، بل ولا ستارة، لكن يبدو الآن أنّ الأوان قد فات. القصّة نمط من أنماط توارد الخواطر، وعندما تضع الكلمات على الورقة فإنّها تستطيع أن ترسل الأفكار والمشاعر من ذهنها إلى ذهن قارئها. إنّها عمليّة سحريّة بديهيّة لم يفكّر أحد في التأمّل فيها. إنّ قراءة جملة ما وفهمها شيء واحد، تمامًا مثل ثني إصبع، لا شيء يفصل بينهما، لا فجوة هناك تحلّ الرموز أثناءها. فعندما ترى كلمة «قلعة»، تجدها أمامك على بعد مسافة قصيرة بما فيها من غابات تنتشر في عزّ الصيف أمامها، وهواء عليل مائل إلى الزرقة، ودخان يعلو من كير الحدّاد، ودرب مرصوف بالحصباء ينعطف باتّجاه ظلّ أخضر... وصلت إلى إحدى نوافذ غرفة الحضانة المشرّعة، لا بدّ أنّها شاهدت ما يمتدّ أمامها قبل بضع ثوان من الكتابة، إنّه مشهد يمكن بكلّ بساطة أن يحتوي، من على مسافة بعيدة في الأقلّ، على قلعة من القرون الوسطى، وعلى بعد بضعة أميال من أطيان آل تاليس انتصبت تلال مقاطعة ساري وحشدها الساكن من أشجار البلّوط الكثيفة التي خفّفت حرارة السديم الأبيض من لونها الأخضر الداكن. وعلى

مسافة أقرب امتدت رحبة مفتوحة من أرض المقاطعة، بدت اليوم ذات مظهر جافّ، وحشي، مشويّة كأنّها أرض بطحاء، حيث ألقت فيها بعض الأشجار المتناثرة هنا وهناك ظلالاً قويّة، وتشامخ العشب الطويل مع عزِّ الصيف الذي كان صفاره يشبه صفار أسد، وعلى مسافة أقرب أيضًا، وضمن حدود السور، امتدّت حدائق الزهور ونافورة تريتون، وكانت أختها تقف بإزاء جدار الحوض وأمامها روبي تيرنر، وقد بدا في وقفته رسميًا متباعد الساقين، مرفوع الرأس. طلب اليد للزواج؟ ما من شأن بريوني أن تستبدّ بها الدهشة لهذا الأمر، فقد كتبت هي بنفسها حكاية ينقذ فيها حطّاب متواضع الشأن أميرة من الغرق وتنتهي بزواجه بها. المشهد ملائم لها تمامًا. فهذا روبي تيرنر، الابن الوحيد لخادمة متواضعة وأبٍ مجهول، روبي الذي ساعده والدها على إكمال تعليمه المدرسي والجامعي وأراد أن يكون بستانيًا، ها هو الآن يريد دراسة الطبّ. تراه الآن يملك الجرأة والطموح فيطلب يد سيسليا، أمر معقول تمامًا، فهذه الطفرات من فوق الحدود كانت مادّة قصص الغرام اليوميّة. لكنّ الأمر الذي يتعذّر فهمه، إلى حدٍّ ما، هو الأسلوب الذي رفع فيه روبي يده الآن! كأنّما يصدر أمرًا لم تتجرّأ سيسليا على عدم تنفيذه، إنّه لأمر غريب أن لا تستطيع مقاومته، ونظرًا لإصراره بدأت تخلع ثيابها، وبسرعة مذهلة خلعت أوّلاً قميصها، وها هي الآن تسمح لتنّورتها أن تسقط على الأرض فتنسلّ منها، في حين ظلّ هو ينظر إليها نظرة تنمّ عن نفاد صبره، واضعًا كلتا يديه على خاصرته، أيّة سلطة يملكها عليها؟ ابتزاز؟ تهديد؟ رفعت بريوني يديها نحو وجهها وتراجعت إلى الوراء قليلاً عن النافذة. فكّرت أن تغمض عينيها وتوفّر على نفسها رؤية العار الذي لحق بأختها، لكنّ هذا مستحيل لأنّ هناك مفاجآت أخرى. فها هي سيسليا في ثيابها الداخليّة تنزل إلى البركة وتقف في الماء الذي يغطّيها حتى وسطها، ومن ثم تضغط على أنفها وتتوارى عن الأنظار. لم يعد هناك سوى روبي والثياب فوق الحصباء، أمّا وراء ذلك فلا شيء سوى رحبة الأرض الساكنة والتلال الزرق البعيدة.

ما حدث بعد ذلك غير منطقي. فمشهد الغرق، الذي يتبعه مشهد الإنقاذ، كان ينبغي له أن يسبق اليدَ طلبٌ للزواج، هكذا فكّرت بريوني قبل أن تقرّ بأنّها لم تفهم شيئًا، وأنّ عليها أن تراقب لا أكثر. كانت تقف في مكان لا يمكن مشاهدتها منه، وعلى ارتفاع طابقين، فضلاً على ضوء الشمس الساطع. وبهذا كانت تتمتّع بامتياز التفكير في سنوات من حياة البالغين، وطقوس وأعراف لم تعرف شيئًا عنها بعد. الواضح أنّ هذه الأشياء تحدث الآن، وحتى عندما ظهر رأس أختها من فوق سطح الماء ـ حمدًا لله ـ! فإنّ بريوني ظنّت أنّ القضيّة ليست، الآن، قضيّة حكاية من الحكايات التي تدور عن القلاع والأميرات، بل هي قصّة غريبة في الزمان والمكان تحكي عمّا يدور بين الناس، عامّة الناس، الذين تعرفهم والسطوة التي يمكن لأحدهم أن يمارسها على الآخر، ومدى بساطة الوقوع في الخطأ، الخطأ التامّ.

خرجت سيسليا الآن من بركة الماء، وبدأت ترتّب تنّورتها، ووجدت صعوبة وهي ترتدي قميصها فوق جسدها المبلّل بالماء، وفجأة استدارت ورفعت من جوار حائط النافورة الظليل زهريّة لم يسبق لبريوني أن شاهدتها من قبل، وانطلقت بها باتّجاه المنزل. لم تبادل روبي أيّ كلام، ولم تلق نظرة صوبه، كان في هذه الأثناء يرمق الماء وبعدها انصرف بدوره راضيًا، كما يبدو، واتّجه إلى جانب المنزل. فجأة بدا المشهد خلوًا من أيّ بشر، وكانت قطعة الأرض المبلّلة التي وطئتها سيسليا بعد خروجها من البركة هي الدليل الوحيد على ما جرى هناك. مالت بريوني إلى الوراء متّكئة إلى جدار، وحدّقت دون أن يشاهدها أحد على امتداد غرفة الحضانة. كان المشهد سحريًّا ومؤثّرًا في نظرها، وفي رؤيتها لما شهدته عيناها على أنّه لوحة رُسمت خصّيصًا لها، وعظة خاصّة مغلّفة بالأسرار، لكنّها كانت تعرف جيّدًا أنّها لو لم تقف حيث وقفت فإنّ المشهد كان من شأنه أن يستمرّ في كلّ الأحوال. المصادفة وحدها هي التي أتت بها إلى النافذة، هذه الحكاية ليست واحدة من حكايات الجنّ والعفاريت، بل هي عالم البالغين الحقيقي

الذي لا تخاطب فيه الضفادع الأميرات، وأنّ الرسائل الوحيدة هي تلك التي يرسلها البشر. واستولى عليها شعور بالذهاب إلى غرفة سيسليا لتطلب منها إيضاحًا لما حدث، إلاّ أنّها قاومت ذلك الشعور، لأنّها أرادت أن تطارد، بمعزل عن أيّ شيء آخر، الاحتمال الواهي الذي سبق له أن راودها، والإثارة المخادعة لاحتمال أن تقترب من شيء محدّد، على الصعيد العاطفي في الأقلّ. إنّ من شأن التمديد أن يهذّب نفسه بنفسه على امتداد السنين، وعليها الاعتراف بأنّها أسهمت في تفكير مُرَوى فيه أكثر ممّا كانت تتوقّعه ذاتها البالغة ثلاث عشرة سنة. ربّما لم يكن ذلك اليوم شكلاً دقيقًا للكلمات، بل ربّما لم تشعر إلاّ بنفاد الصبر كي تبدأ الكتابة ثانية. وفيما هي واقفة بانتظار عودة أقربائها، داخلها إحساس بأنّها تستطيع أن تكتب مشهدًا يشبه المشهد الذي حدث أمام النافورة، وأنّها يمكن أن تجعل المشهد يتضمّن مراقبًا خفيًّا مثلها. في مستطاعها أن تتخيّل نفسها مسرعة نحو حجرة نومها، إلى مجموعة من الأوراق النظيفة المخطّطة وإلى قلمها الحبر المرمري من نوع باكلايت. يمكنها أن تشاهد الجمل البسيطة الرموز التخاطريّة المتراكمة وهي تتجلّى للعيان في طرف القلم. يمكنها أن تكتب المشهد ثلاث مرّات من ثلاث وجهات نظر متباينة. كانت متأثّرة بسبب فكرة الحرِّيّة، وبفكرة خلاصها من الصراع الثقيل الوطأة بين الخير والشرّ، الأبطال والأوغاد، ما من أحد من هؤلاء الثلاثة شرّير، وما من أحد صالح. هي ليست مضطرّة إلى إصدار الحكم، فلا حاجة لأيّة تعاليم أخلاقيّة. كلّ ما هي بحاجة إليه هو الكشف عن استقلال العقول الحيّة، كعقلها، وهي تكافح فكرة مفادها أنّ العقول الأخرى حيّة أيضًا. فليس الشرّ ولا التآمر هما اللذين يجعلان البشر غير سعداء، بل الفوضى وسوء الفهم، وفوق هذا كلّه الإخفاق في إدراك حقيقة بسيطة تتمثّل في أنّ الآخرين حقيقيّون مثلك تمامًا. ولا يمكن، إلاّ في القصّة وحدها، إدراج مثل هذه العقول المختلفة، وإظهار قيمتها المتساوية، وهذا هو الدرس الأخلاقي الوحيد الذي ينبغي للقصّة أن تمتلكه.

بعد ستّة عقود من الزمان سوف تصف كيف شقّت طريقها، وهي في سنّ الثالثة عشرة، في تاريخ الأدب، بادئةً بقصص مستمدّة من موروث الحكايات الشعبيّة الأوروبي، مرورًا بالمسرحيّات ذات المغزى الأخلاقي المحدّد لتصل، في نهاية المطاف، إلى الواقعيّة النفسانيّة الموضوعيّة التي اكتشفتها بنفسها في صباح يوم من الأيّام أثناء موجة حرّ في سنة ١٩٣٥. وستكون واعية تمامًا بمدى أسطرة ذاتها، وأضفت على سردها مسحة من السخرية الذاتيّة، أو مسحة تسخر من البطولة. كانت قصصها مشهورة بدرسها الأخلاقي، وكما هو شأن جميع المؤلّفين الذين يضغط عليهم سؤال متكرّر، فإنّها وجدت نفسها مضطرّة إلى تقديم خطّ قصصي وحبكة من ابتكارها تحتوي على اللحظة التي أضحت فيها متميّزة. كانت تعرف أنّ الإشارة إلى مسرحيّاتها بصيغة الجمع ليست شيئًا صحيحًا، وأنّ عنصر السخرية أبعدها عن الطفلة الجادّة المتأمّلة، وأنّها لم تتذكّر ذلك الصباح الذي مرَّ عليه زمن طويل قدر ما تذكّرت تفسيراتها اللاحقة له. يحتمل أنّ التفكير في الإصبع الملتوية، وفكرة العقول الأخرى التي لا تُطاق وسموّ القصص على المسرحيّات، إنّما كانت كلّها أفكارًا راودتها في أيّام أُخر. وكانت تعلم أيضًا أنّ كلّ ما يحدث حقًّا إنّما يستمدّ أهمِّيّته من أعمالها المنشورة، وأنّه لولاها لما كان في وسع أحد أن يتذكّره.

على أيّة حال، لم تستطع خداع نفسها خداعًا تامًّا؛ فممّا لا شكّ فيه أنّ هناك قدرًا من التجلّي، وعندما ذهبت الفتاة الصغيرة إلى النافذة ونظرت إلى أسفل، كانت البقعة المبلّلة على الحصباء قد تبخّرت، لم يعد الآن ما يدلّ على حدوث العرض الصامت قرب النافورة باستثناء ما خزّنته الذاكرة في ثلاث ذكريات منفصلة ومتداخلة. لقد باتت الحقيقة واهية مثل أيّ اختراع، يمكنها الآن أن تبدأ بمواجهة التحدّي برفض إدانة عري شقيقتها المرعب في ضوء النهار وبجوار المنزل. ويمكن بعدئذٍ إعادة تمثيل المشهد من خلال وجهة نظر سيسليا، ومن وجهة نظر روبي، لكن ليس هذا هو الوقت المناسب للبداية،

فإحساس بريوني بالالتزام، علاوة على حبّها للنظام، قوي جدًّا. لا بدّ لها من إكمال ما بدأته، فثمّة تمرينات جارية على قدم وساق، وليون في طريقه إلى البيت، في حين يتوقّع المنزل عرضًا مسرحيًّا في هذه الليلة، ينبغي لها أن تذهب مرّة أخرى إلى غرفة الغسيل لتتأكّد ممّا إذا كانت محاكمات جاكسون قد أشرفت على نهايتها، وفي وسع الكتابة أن تنتظر حتى تصبح حرّة.

* * *

الفصل الرابع

لم تتأكّد سيسليا من إصلاح الزهريّة إلاّ في وقت متأخّر من المساء بعد أن استمرّت عمليّة ترميمها فوق منضدة بجانب نافذة مكتبة تطلّ على جهة الجنوب، فالتقت الآن ثلاثة خطوط ملتوية كأنّها أنهر مرسومة على أطلس خرائط. هذا كلّ ما تبيّن، وما من شأن أحد أن يفطن. وفيما هي تجتاز المكتبة حاملة الزهريّة بيديها، تناهى إلى مسامعها ما ظنّته صوت وقع أقدام عارية على بلاط المدخل خارج باب المكتبة تمامًا. ولمّا كانت قد أنفقت ساعات طويلة متعمّدة أن لا تفكّر في روبي تيرنر، فقد استشاطت غضبًا لعودته إلى المنزل ثانية دون جوربيه. خطت إلى خارج المكتبة مصمّمة على مواجهة وقاحته أو سخريته، لكنّها وجدت عوضًا عن ذلك شقيقتها مهمومة على ما يبدو.

كانت أجفانها متورّمة ورديّة، تضغط على شفتها السفلى بسبّابتها وإبهامها، وهي علامة عرفتها بريوني منذ زمن بعيد، وتدلّ على أنّها توشك على أن تجهش بالبكاء.

ـ حبيبتي! ماذا حدث؟

كانت عيناها جافّتين حقًّا، وخفضتهما قليلاً كي تمسك الزهريّة، ثم

اندفعت إلى أمام حيث ينتصب المسند الذي يرتكز إليه الملصق الإعلاني بعنوانه المرح المتعدّد الألوان، وإخراجه الفنّي الذي يذكّر بالفنّان شاغال[1]، والمأخوذ عن مسرحيّتها، وبألوان مائيّة موزّعة من حول الأحرف ـ أبوان يبكيان وهما يلوّحان بأيديهما، القيادة نحو ساحل البحر تحت ضوء القمر، والبطلة طريحة الفراش بسبب مرضها والزفاف. توقّفت أمامه، وبضربة واحدة، مائلة وعنيفة، مزّقت أكثر من نصفه وتركته يسقط على الأرض. وضعت سيسليا الزهريّة على الأرض وهرولت، وجثمت على ركبتيها لتستعيد الملصق الممزّق قبل أن تطأه أختها بقدميها، ولم تكن هذه هي المرّة الأولى التي تنقذ فيها بريوني من تدميرها لنفسها.

ـ يا أختي الصغيرة! أهذا بسبب الأقرباء؟

أرادت أن تُطمئن أختها لأنّ سيسليا كانت تحبّ دومًا أن تعانق طفلة الأسرة، عندما كانت صغيرة تنتابها الكوابيس ـ وما كان يرافقها من صراخ رهيب في هزيع الليل الأخير ـ كانت سيسليا تذهب إلى غرفتها وتوقظها وتهمس في أذنها: عودي إلى وضعك السابق، إنّه حلم لا أكثر، عودي. ثم تحملها إلى سريرها. كانت تريد أن تضع ذراعها من حول كتف بريوني الآن لكنّها لم تعد تضغط على شفتها، كما أنّها سارت بعيدًا نحو الباب الأمامي ووضعت إحدى يديها على المقبض البرونزي الضخم الذي يمثّل رأس أسد سبق للسيّدة تيرنر أن زادته لمعانًا بعد ظهر ذلك اليوم.

ـ الأقرباء أغبياء، لكنّ هناك شيئًا آخر، إنّه. . .

ثم سارت بتثاقل وابتعدت، لا ندري إن كان يتعيّن عليها أن تبوح بما اكتشفته مؤخّرًا.

صقلت سيسليا مثلّث الورقة الحادّ، وفكّرت في التغيّر الذي طرأ على

---

(١) شاغال (١٨٨٧ ـ ١٩٨٥) Chagall، رسّام فرنسي، روسي الأصل، ملأ لوحاته بخيال حكايات بلاده وألوانها، جدّد رسم سقف الأوبرا في باريس سنة ١٩٦٤ (المترجم).

أختها، كانت تفضّل لو أنّ بريوني أجهشت بالبكاء وتركت نفسها لشقيقتها وهي تهدّئ من روعها فوق الأريكة الحريريّة في غرفة الاستقبال، لأنّ مثل هذه التهدئة والهمسات المسكّنة من شأنها أن تحرّر سيسليا بعد يوم محبط، فضّلت أن لا تفكّر في تباين المشاعر المختلفة التي راودتها عنه. إنّ معالجة مشكلات بريوني، بكلمات ناعمة وعناق رقيق، من شأنها أن تُعيد إليها إحساسها بالانضباط. على أيّة حال، ثمّة جانب استقلالي في حزن الفتاة الأصغر سنًّا منها. استدارت وفتحت الباب على مصراعيه.

ـ لكن ما الخطب إذًا؟

كان في وسع سيسليا أن تسمع صوت الضيق الشديد في هذا السؤال.

وراء أختها، ووراء البحيرة، التوى الطريق الخاصّ المتفرّع عن الطريق العامّ ليجتاز رحبة الأرض الواسعة ويضيق حتى يلتقي فوق قطعة أرض مرتفعة في نقطة حيث برز شكل صغير انعدمت ملامحه بسبب الحرارة التي تزيغ البصر، وتألّق حتى بدأ يتلاشى، لا بدّ أنّه هاردمان الذي قال إنّه لا يستطيع قيادة السيّارة بسبب تقدّمه في السنّ، وقد جاء ومعه الزوّار إلى الفخّ.

غيّرت بريوني من رأيها، وواجهت أختها قائلة:

ـ القضيّة كلّها غلطة، وخطأ.

ثم التقطت أنفاسها وأشاحت بنظرها بعيدًا، وتلك علامة أدركت معها سيسليا أنّها تدل على مفردة معجميّة توشك أن تولد أوّل مرّة وأضافت:

ـ إنّه جنس غلط.

تلفّظت كلمة جنس باللكنة الفرنسيّة، بحسب ظنّها، بمقطع واحد، لكنّها لم تستطع أن تغفل لفظ الحرف الأخير.

ونادتها سيسليا:

ـ جين؟ ماذا تقولين؟

لكن بريوني كانت قد ابتعدت بقدميها العاريتين البيضاوين فوق الحصباء الحارقة.

توجّهت سيسليا إلى المطبخ لتملأ الزهريّة، ثم حملتها إلى غرفة نومها في الطابق العلوي لتضع الأزهار فيها بعد أن كانت تركتها في المغسلة، وعندما وضعتها في الزهريّة رفضت الزهور أن تنتظم على النحو العشوائي الذي كانت تفضّله، فما كان منها إلاّ أن غمرتها بالماء من جميع الجهات، ورتّبت الأزهار ذات الأغصان الطويلة من حول حافّة الزهريّة ترتيبًا متساويًا. رفعت الأزهار من مكانها مرّة أخرى، وتركتها تسقط ثانية، فهوت على نحو منتظم آخر. لا يهمّ. يصعب تصوّر السيّد مارشال وهو يتذمّر من أنّ الأزهار الموضوعة قرب منضدة سريره قد رُتّبت ترتيبًا متناسقًا. حملت الأزهار إلى الطابق الثاني، وسارت على امتداد الممرّ الذي كان يصدر صريرًا، واتّجهت إلى ما كان يُعرف بغرفة العمّة فينوس، ووضعت الزهريّة فوق خزانة ذات أدراج على مقربة من سرير ذي أربع قوائم عالية، وبهذا أكملت المهمّة الصغيرة التي أوكلتها إليها والدتها في ذلك الصباح، أي قبل ثماني ساعات.

على أيّة حال، لم ينصرف على الفور، لأنّ ممّا يبعث على السرور أنّ الغرفة لم تكن في حالة فوضى بالممتلكات الشخصيّة ـ الحقّ أنّ هذه الغرفة كانت هي الغرفة المرتّبة الوحيدة إضافة إلى غرفة بريوني، كما كانت الغرفة باردة أيضًا بعد أن اتّجهت الشمس إلى الجانب الآخر من البيت. كانت الأدراج فارغة السطوح، عارية، خالية من كلّ شيء باستثناء بصمات الأصابع، وكانت الملاءات من تحت اللحاف القطني المزركش بيضاء نقيّة. راودها الإحساس في أن تضع يدها بين الأغطية لتتحسّس ملمسها، إلاّ أنّها بدلاً من ذلك توغّلت في عمق غرفة السيّد مارشال، وعند طرف السرير ذي القوائم الأربع كانت أريكة من طراز شيبنديل[1]، قد رُتّبت بعناية تجعل

(١) الشيبنديل Chippendale: طراز إنكليزي من الأثاث يتميّز بأسلوبه الخفيف والرشيق الذي ابتكره صانع الأثاث اللندني المعروف توماس شيبنديل (١٧١٨ ـ ١٧٧٩) (المترجم).

الجلوس فوقها يبدو تدنيسًا لحرمتها.

كان الهواء رقيقًا عابقًا برائحة الشمع، وبدت سطوح الأثاث البرّاقة من تحت الضوء العسلي وكأنّها تتموّج وتنشر عبيرها. وعندما غيّر اقترابها من زاوية نظرها، تمايل الغطاء الذي كان يغطّي خزانة قديمة استخدمت لحفظ جهاز العروس. لا بدّ أنّ السيّدة تيرنر مرّت من هنا في ذلك الصباح. ونفضت سيسليا عن ذهنها فكرة وجود روبي، لأنّ وجوده في هذا المكان إنّما هو نوع من التجاوز، بخاصّة وأنّ نزيل الغرفة القادم لا يبعد سوى بضع مئات من الياردات عن المنزل.

كان في وسعها أن تُدرك من مكانها، قرب النافذة التي وصلت إليها، أنّ بريوني قد عبرت الجسر المؤدّي إلى الجزيرة، وأنّها مشت على امتداد الضفّة المعشوشبة، وبدأت تتوارى عن الأنظار وسط أشجار ساحل البحيرة التي تُحيط بمعبد الجزيرة. وإلى ما وراء ذلك، تمكّنت سيسليا من أن تتبيّن الشخصين المعتمرين قبّعتين وقد جلسا على مصطبة وراء هاردمان، ثم شاهدت في هذه اللحظة شخصًا ثالثًا لم يسبق لها أن رأته من قبل يغذّ الخطى على امتداد الطريق الفرعي ويتّجه نحو الفخّ. المؤكّد أنّه روبي تيرنر في طريق عودته إلى البيت، لكنّه توقّف عندما اقترب الزوّار، وبدت ملامحه تمتزج بملامحهم. يمكنها أن تتخيّل المشهد ـ لكمة رجوليّة على الكتف، ومزاج سمج. وانزعجت لأنّ شقيقها لم يتمكّن من الاطّلاع على العار الذي لحق بروبي، وابتعدت عن النافذة متململة، ومضت إلى غرفتها تبحث عن سيكارة.

كانت قد بقيت لها علبة سكائر واحدة، ولكنّها لم تعثر عليها إلاّ بعد مرور بضع دقائق من البحث عنها وسط الفوضى، لتجدها في جيب مبذل نوم من الحرير الأزرق كان مرميًّا على أرضيّة الحمّام. أشعلت سيكارة أثناء هبوطها السلالم المؤدّية إلى الردهة وهي تعلم أنّها ما كانت لتجرؤ على إشعالها لو كان والدها في المنزل، الذي كانت لديه أفكار محدّدة عن الزمان والمكان اللذين ينبغي فيهما للمرأة أن تُشاهد وهي تدخّن، لا في الشارع ولا

في أيّ مكان عامّ آخر، ولا حتى عند دخول إحدى الغرف، ولا في أثناء الوقوف، بل عندما تُمنح لها سيكارة، وليس من مخزونها الشخصي ـ مفاهيم واضحة بذاتها وضوح العدالة الطبيعيّة. إنّ ثلاثة أعوام أمضتها مع طلبة كلّيّة غيرتون لم تزوّدها بالشجاعة الكافية لمواجهته، كما أنّ روح الفكاهة الخفيفة التي نشأت عندها بوجود أصدقائها كانت تغادرها لحظة حضوره، وكانت تسمع صوتها وقد بات صوتًا رقيقًا عندما كانت تحاول إبداء قدر من المعارضة الهيّنة. الحقّ أنّ خلافها مع والدها بخصوص أيّة مسألة، حتى لو كانت تتّصل بأمور منزليّة تافهة، كان يسبّب لها عدم الارتياح، ولم يكن في وسع الأدب العظيم أن يفعل شيئًا للتخفيف من غلواء أهوائها، ولم يكن في وسع أيّ درس من دروس النقد العملي أن يخلّصها من طاعتها له. وكان التدخين على الدرج، عندما عُيّن والدها في وزارة الحكومة البريطانيّة، يمثّل تمرّدًا هو أقصى ما كانت تسمح لها به تربيتها، ومع هذا فقد كلّفها ذلك قدرًا من الجهد.

عندما وصلت الفسحة العريضة التي تشرف على المدخل، كان ليون يقود پول مارشال ويدخلان معًا الباب الأمامي المفتوح على مصراعيه. وكان داني هاردمان يسير من ورائهما ومعه أمتعتهما. أمّا هاردمان العجوز فكان خارج الباب يحدّق في الورقة النقديّة من فئة الخمسة باونات، وهي في راحة يده. كان ضوء شمس ما بعد الظهيرة غير المباشر، المنعكس عن الحصباء، والمترشّح عن النافذة نصف الدائريّة فوق الباب، قد غمر الردهة الأماميّة بتدرّجات برتقاليّة مائلة إلى الصفرة. وقف الرجال في انتظارها باسمين بعد أن خلعوا قبّعاتهم، وكما هو دأب سيسليا عندما تلتقي رجلاً أوّل مرّة فقد فكّرت في نفسها إن كان هذا هو الرجل الذي ستتزوّج به، وإن كانت هذه هي اللحظة التي سوف تتذكّرها بقيّة حياتها ـ إمّا بامتنان شديد، أو بندم عميق.

هتف ليون:

ـ سيس ـ سيسليا!

وعندما تعانقا، شعرت بقلم حبر سميك يضغط على عظم ترقوتها من خلال قماش سترته، وتنشّقت رائحة دخان غليون بين طيّات ثيابه، ممّا عجّل في رغبتها لزيارات تتناول فيها الشاي في غرف كلّيّات الرجال، وتلك مناسبات مهذّبة ومسكّنة في أغلب الأحيان، وبهيجة أيضًا، ولا سيّما في فصل الشتاء.

صافحها پول مارشال، وانحنى انحناءة صغيرة. ثمّة شيء يُثير الضحك في ملامح وجهه. وكانت جملته الأولى مضجرة:

ـ سمعت عنك الشيء الكثير.

ـ وأنا كذلك.

الشيء الذي كان يمكنها أن تتذكّره هو حديث عبر الهاتف مع شقيقها قبل بضعة أشهر ناقشا فيه احتمال تناولهما، سابقًا أو مستقبلاً، قطعة شوكولا من نوع آمو.

ـ إنّ إميلي مستلقية.

لم يكن هذا الكلام ضروريًا، ففي عهد الطفولة كان في الوسع الادّعاء، وهم في الجهة البعيدة من رحبة الأرض الواسعة، إن كانت الوالدة مُصابة بالشقيقة، وذلك من خلال عتمة النوافذ.

ـ وهل سيمكث العجوز في البلدة؟

ـ قد يأتي فيما بعد.

كانت سيسليا تدرك أنّ پول مارشال منهمك في النظر إليها مطوّلاً، ولكن قبل أن تتمكّن من النظر إليه احتاجت إلى إعداد بعض الكلمات لتتفوّه بها:

ـ سيمثّل الأطفال مسرحيّة، لكن يبدو أنّها قد أخفقت.

قال مارشال:

ـ ربّما كانت أختك هي التي رأيتها قرب البحيرة، إنّها تعرف كيف تُعامل الصغار.

تنحّى ليون جانبًا ليُفسح المجال أمام خادم هاردمان كي يدخل حاملاً الحقائب.

ـ أين غرفة پول؟

ـ في الطابق الثاني.

قالت سيسليا وأومأت برأسها إلى هاردمان الشابّ. كان قد وصل أسفل الدرج، فتوقّف واستدار وهو يحمل حقيبة جلديّة في كلّ يد ليصبح وجهًا لوجه معهم حيث كانوا مجتمعين في وسط فسحة الأرض المربّعة المكسوّة بالبلاط. كانت ملامحه تنبئ بعدم فهم، سبق لها أن شاهدته يتسكّع من حول الأطفال مؤخّرًا، لعلّه مهتمّ بلولا، فهو في السادسة عشرة ولم يعد طفلاً. استدارة خدّيه التي كانت تتذكّرها من قبل لم يعد لها وجود الآن، وانحناء شفتيه الطفولي استطال وبات قاسيًا. أمّا حبُّ الشباب الممتدّ بين حاجبيه فقد اكتسب مظهرًا جديدًا، إذْ لطّف الضوء البنّي من غلوائه. أدركت أنّها كانت تشعر طوال النهار بالغربة، وتنظر نظرة غريبة، كأنّ كلّ شيء أضحى من الماضي البعيد، ولكنّه أكثر حيويّة بسبب المفارقات الأخيرة التي لم تتمكّن من استيعابها.

قالت له بصبر:

ـ الغرفة الكبيرة المجاورة للحضانة.

قال ليون:

ـ غرفة العمّة فينوس.

كانت العمّة فينوس تشكّل، على مدى نصف قرن كامل، حضورًا حيويًّا على امتداد رقعة من المقاطعات الشماليّة في كندا. الحقّ أنّها لم تكن عمّة

أحد، بل كانت عمّة ابنه، القريب الثاني الراحل للسيّد تاليس. غير أنّ أحدًا ما لم يناقشها بعد تقاعدها في حقّها في الغرفة الكائنة في الطابق الثاني، حيث ظلّت على امتداد سني طفولتهم كلّها تقريبًا طيّبة القلب، طريحة الفراش، ذوت حتى وافتها المنيّة دون تذمّر عندما كانت سيسليا في العاشرة، وبعد أسبوع واحد وُلدت بريوني.

قادت سيسليا الزوّار إلى غرفة الاستقبال من خلال الباب الزجاجي، واجتازوا الزهور، متّجهين نحو المسبح الذي كان يقع وراء مبنى الإسطبل، تُحيط به من جهاته الأربع أجمة عالية من أشجار الخيزران ذات تجويف يشبه النفق يستخدم مدخلاً. دلفوا مطأطئي الرؤوس من تحت أشجار الخيزران الواطئة حتى وصلوا إلى شرفة من حجارة بيضاء مدهشة انعكست الحرارة عنها متّقدةً. وفي ظلّ عميق، بعيدًا عن حافّة الماء، انتصبت منضدة معدنيّة مطليّة بطلاء أبيض اللون، وعليها دورق فيه شراب مثلّج تحت قطعة مربّعة من قماش رقيق يُستخدم في لفّ الجبن. فتح ليون الكراسي المطويّة، وجلسوا برفقة كؤوسهم في دائرة صغيرة ضحلة تواجه المسبح، وهيمن مارشال على الحديث بكلام استغرق عشر دقائق وهو جالس بين ليون وسيسليا. أخبرهما أنّه سعيد بالابتعاد عن جوّ المدينة والاستمتاع بالهدوء والسكينة وهواء الريف الطلق، فعلى مدى تسعة أشهر، وفي كلّ لحظة يقظة من لحظات النهار، كان ينتقل من المقرّ إلى غرفة نومه وإلى أرض المصنع، واشترى بيتًا كبيرًا في شارع كلابهام كومون، لكنّه نادرًا ما كان يملك الوقت لزيارته. لم يكن افتتاح رينبو آمو انتصارًا إلاّ بعد مدّة قصيرة من التوزيع الكارثي الذي تمّ تداركه الآن، فقد ساءت الحملة الإعلانيّة بعض كبار الأساقفة ممّا أدّى إلى ابتكار حملة إعلانيّة أخرى، ثم جاءت بعد ذلك مشكلات النجاح نفسه، والمبيعات الهائلة التي لا تصدّق، ونسب الإنتاج الجديدة، والخلافات بشأن معدّلات ساعات العمل الإضافيّة، والبحث عن مكان آخر لتشييد مصنع ثانٍ. كانت النقابات الأربع المشاركة فيه بطيئة الحركة عمومًا، ممّا توجّب معه ممارسة السحر عليها

وملاطفتها كالأطفال. واليوم، وبعد أن أثمر المشروع، ثمّة تحدٍّ أكبر يمثّله آرمي آمو، قطعة الشوكولا بلون الخاكي وعليها شعار «ناولني الآمو». كانت الفكرة تستند إلى افتراض مفاده أنّ الإنفاق على القوّات المسلّحة ينبغي أن يزداد ما لم يهدأ السيّد هتلر ويكفّ عن الكلام والصياح، بل كانت هنالك فرصة في أن تغدو قطعة الشوكولا جزءًا من الحصّة التموينيّة الأساسيّة، وفي تلك الحالة، وفي حال حدوث التجنيد الإلزامي العامّ، ستكون هناك ضرورة لإنشاء خمسة مصانع أخرى. هناك البعض في المجلس ممّن له قناعة بضرورة التوصّل إلى اتّفاق مع ألمانيا، وعندئذٍ سيموت مشروع آرمي آمو. ووصل الأمر بأحد أعضاء المجلس إلى اتّهام مارشال بأنّه مُثير حرب، لكنّه، وبسبب إعيائه، وبسبب الافتراء عليه، ما كان من شأنه أن يتخلّى عن هدفه، عن رؤياه، وانتهى به المطاف إلى تكرار القول: إنّ ممّا يبعث على الدهشة أن «يجد المرء طريقه للخروج من هنا» حيث في وسعه أن يلتقط أنفاسه.

شعرت سيسليا، وهي تراقبه خلال الدقائق القليلة التي أعقبت وصوله، بإحساس بهيج يغور في أعماقها عندما فكّرت أنّ الزواج بمثل هذا الرجل الأنيق، الواسع الثراء، الغبي بلا حدود، سيكون زواجًا مدمّرًا للذات وشهوانيًّا، فهو سيملؤها بأولاده ذوي الوجوه الكبيرة، وكلّهم صبيان صخّابون حمقى يعشقون البنادق وكرة القدم والطائرات. رمقته بنظرة جانبيّة لمّا التفت إلى ليون. ثمّة عضلة كبيرة تتّضح للعيان فوق فكّه عندما يتكلّم، وثمّة شعيرات قليلة سوداء اللون وسميكة تلتفّ من تحت حاجبيه، تمامًا مثلما نبتت بعض الشعيرات السود المماثلة في أذنيه، كان ينبغي له أن يوجّه عناية الحلّاق إلى ذلك.

كان تحوّل نظرها القليل سببًا في رؤية وجه ليون الذي كان يتفرّس بأدب في وجه صديقه، وبدا مصمّمًا على عدم النظر إلى عينيها مباشرة. كان أحدهما يعذّب الآخر أثناء طفولتهما بالنظر إلى غداء الأحد الذي كان أبواهما يقدّمانه للأقرباء المسنّين. تلك كانت مناسبات تستحقّ الخدمات الفضّيّة

الموغلة في القدم، فأخوال وخالات الأبوين والأجداد كانوا فكتوريّين[1] من جهة الأمّ، وكانوا مجموعة من البشر قساة وحيارى، عشيرة ضائعة وصلت البيت مرتدية عباءات سودًا بعد أن هامت على وجهها بعناد على مدى عقدين من الزمان في بلد غريب وتافه، وأثار أفرادها فزع سيسليا البالغة من العمر عشر سنوات، وشقيقها البالغ من العمر اثني عشر عامًا. وكانت نوبة ضحك قويّة توشك على الانفجار في أقرب وقت، من يسترعِ الانتباه فيها شقي، ومن يثرها يستثنى. في معظم الأحيان، القوّة إلى جانب ليون الذي كان مظهره مصطنعًا في رزانته، يسحب زاويتي فمه إلى أسفل، ويقلّب أنظاره في ما حوله، وقد يطلب من سيسليا بصوت مبالغ في براءته أن تناوله الملح. وعلى الرّغم من أنّها أشاحت بوجهها وتنفّست تنفّسًا عميقًا، فإنّه كان يرمي من وراء نظرته إلى تعذيبها عذابًا شديدًا على مدى تسعين دقيقة. في هذه الأثناء يغدو ليون حرًّا لا يحتاج إلاّ إلى إعادة الكرة إذا ما ظنّ أنّها بدأت تتعافى، ولم تنظر هي إليه نظرة استعلاء إلاّ نادرًا، وبما أنّ الطفلين كانا يجلسان أحيانًا بين الراشدين، فيضفيان على النظرات مسحة من الخطر، فإنّ وجهيهما المعوجّين كانا يجلبان العار والخلود إلى النوم مبكرًا، وكانت الحيلة تتمثّل في بذل المحاولة بين لعق أحدهما شفتيه، والابتسام ابتسامة عريضة، وفي الوقت نفسه لفت نظر الآخر. وفي إحدى المرّات رفعا من أبصارهما وسدّدا نظراتهما في الوقت نفسه، ممّا جعل الحساء يخرج من منخري ليون ويتساقط على رسغ خالة أبيه، وعلى الفور حُبس الطفلان في غرفتيهما بقيّة ذلك النهار.

تشوّقت سيسليا إلى أن تأخذ أخاها جانبًا لتخبره أنّ الشعر قد نما في أذني السيّد مارشال. كان يصف المواجهة التي حدثت في غرفة اجتماع مجلس الإدارة مع الرجل الذي وصفه بأنّه مُثير حرب. رفعت يدها قليلاً كأنّها تريد أن تسوّي شعرها، وسرعان ما تنبّه ليون لحركتها، وفي تلك اللحظة بالذات

(١) ڤكتوريّون Victorians: منسوب إلى الملكة ڤكتوريا الإنكليزيّة (١٨٣٧ ـ ١٩٠١) (المترجم).

سدّدت إليه نظرة لم يسبق له أن رآها منذ عشرة أعوام. زمَّ شفتيه، والتفت ليجد شيئًا آخر يُثير اهتمامه على مقربة من حذائه، وفيما كان مارشال يلتفت إلى سيسليا، رفع ليون إحدى يديه ليغطّي بها وجهه، ولكنّه لم يتمكّن من إخفاء الرعشة التي سرت في كتفيه عن أخته، ولحسن حظّه كان مارشال قد شارف على نهاية كلامه:

ـ أين يمكن للمرء أن يلتقط أنفاسه كما في الأيّام الماضية؟

وعلى الفور نهض ليون واقفًا على قدميه، وسار نحو حافّة المسبح، وتأمّل منشفة حمراء مبلّلة قرب خشبة القفز، ثم رجع إليهم، يداه في جيبه مستعيدًا وضعه الطبيعي.

قال موجّهًا كلامه إلى سيسليا:

ـ احزري من التقينا ونحن في طريقنا إلى هنا؟

ـ روبي.

ـ طلبت منه الانضمام إلينا في هذا المساء.

ـ لا يا ليون!

كان في حالة يبغي المناكدة من ورائها، وربّما الانتقام، وقال لصديقه:

ـ إذًا، يحصل ابن الخادمة على بعثة دراسيّة في المدرسة الثانويّة، ويحصل على بعثة للدراسة في جامعة كيمبردج، وفي الوقت نفسه يرتقي مثل سي ـ أمّا سي فنادرًا ما تتكلّم معه خلال السنوات الثلاث المقبلة، إنّها لن تدعه يقترب من أحبّائها.

ـ كان ينبغي لك أن تسألني أنا أوّلاً.

كانت منزعجة حقًّا، أمّا مارشال الذي كان يراقب ما يجري أمامه فقال مسترضيًا إيّاها:

ـ إنّني أعرف بعض أنواع المدارس الثانويّة في أوكسفورد، قسمٌ منها

جيّد جدًّا، لكن ربّما يمتعض البعض منها لأنّها مدارس الأغنياء كما أعتقد.

قالت:

ـ ألديك سيكارة؟

قدّم لها سيكارة من علبة فضّيّة، ورمى بأخرى إلى ليون، في حين أخذ ثالثة لنفسه.

كانوا واقفين كلّهم الآن، وفيما انحنت سيسليا كي يشعل لها مارشال سيكارتها، قال ليون:

ـ لديه عقل من طراز فريد، ولهذا لا أدري ماذا يفعل هناك في حديقة الأزهار.

ذهبت سيسليا لتجلس فوق منصّة القفز، وحاولت أن توحي للآخرين بأنّها مسترخية، لكن لهجتها كانت متوتّرة:

ـ إنّه يفكّر في الحصول على شهادة في الطبّ، كم أتمنّى لو أنّك لم تطلب منه الحضور يا ليون.

ـ لقد وافق الرجل العجوز.

هزّت كتفيها:

ـ انظر! أعتقد أنّه ينبغي لك أن تذهب إلى المنزل وتطلب منه عدم الحضور.

كان ليون قد سار إلى الطرف الضحل ووقف في مواجهتها، تفصله عنها طبقة تهتزّ اهتزازًا رقيقًا من ماء أزرق ملوّث بالزيت.

ـ كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟

ـ لا يهمّني ذلك، جدْ عذرًا.

ـ ثمّة شيء حدث بينكما؟

ـ لا، لم يحدث شيء.

ـ أيثير استياءك؟

ـ يا إلٰهي.

نهضت منزعجة وابتعدت باتّجاه سرادق المسبح الذي كان عبارة عن مبنى مفتوح تدعمه ثلاثة أعمدة. وقفت هناك، واتّكأت على العمود الأوسط تدخّن وتراقب شقيقها. قبل دقيقتين كانا كلٌّ منهما يمالئ الآخر. أمّا الآن فباتا مختلفين. عادت طفولتهما من جديد. وقف مارشال في منتصف المسافة بينهما ملتفتًا نحوها ونحوه كلّما تكلّم أحدهما. كانت تلوح عليه مسحة من الاعتدال المائلة إلى الفضول إلى حدٍّ ما، ولم يبدُ عليه أنّه كان مغتاظًا من هذا الجدال الأخوي. وفكّرت سيسليا بأنّ هذا يصبّ في مصلحته.

قال شقيقها:

ـ أتظنّين أنّه لا يعرف كيف يستعمل الشوكة والسكّين؟

ـ كفى يا ليون، ليست مهمّتك أن توجّه له الدعوة.

ـ يا له من كلام فارغ!

ران صمت مطبق بعد هذه العبارة لم تخفّف منه سوى دمدمة مضخّة ترشيح المياه، لم يكن في وسعها عمل أيّ شيء، وليس في وسعها أن تجعل ليون يفعل أيّ شيء، لهذا شعرت فجأة بلاجدوى النقاش. استندت متكاسلة إلى الحجارة الدافئة، منهية سيكارتها ببطء، وبدأت تفكّر في المشهد الماثل أمامها ـ قطعة الماء المعقّم بالكلور، الإطار الأسود الداخلي لعجلة جرّار مستندة إلى كرسي طويل قابل للطيّ، الرجلان مرتديان بذلتين مصنوعتين من قماش الكتّان الأبيض بلون القشدة، وإن بتدرّج مختلف إلى أبعد الحدود، فيما ارتفع دخان رمادي مائل إلى الزرقة من بين خضرة أشجار الخيزران.

بدا المشهد منحوتًا نحتًا، وثابتًا، وأحسّت به ثانية، فقد حدث ذلك

منذ زمن طويل، وكانت جميع النتائج، وعلى جميع الصعد ـ بدءًا بأصغر الأشياء وانتهاءً بأكبرها ـ في محلّها. ومهما سيحدث في المستقبل، حتى وإن بدا غريبًا أو مفزعًا، سيكون له أثر مألوف لا يُثير الدهشة، يدعوها إلى أن تقول في نفسها لا غير: آه، نعم، حقًّا، حقًّا ينبغي لي أن أعرف ذلك.

قالت بخفّة:

ـ أتدري بمَ أفكّر؟

ـ بمَ؟

ـ أن ندخل المنزل، وأن تعدّ لنا مزيجًا لذيذًا من الشراب.

صفّق مارشال بيديه، فتردّد الصدى بين الأعمدة والجدار الخارجي للسرادق.

قال:

ـ هناك شيء أُجيد صنعه، الثلج المطحون وشراب الروم والشوكولا السوداء المُذابة.

كان هذا الاقتراح سببًا في تبادل النظرات بين سيسليا وشقيقها، وبهذا حُلَّ خلافهما، كان ليون قد همّ بالانصراف، وفيما كانت سيسليا وپول مارشال يسيران من ورائه ويلتقيان عند الفجوة القائمة في الأدغال، قالت:

ـ أفضّل أن أتناول مشروبًا أقوى، مُرًّا أو حامضًا.

ابتسم، ولمّا كان قد وصل الفجوة قبلهما، توقّف ليسمح لها بالمرور أوّلاً، كأنّه واقف أمام باب غرفة استقبال. وفيما كانت تمرّ من أمامه شعرت به وهو يمسّها مسًّا خفيفًا من ذراعها.

أو ربّما كانت إحدى الأوراق هي التي مسّتها.

* * *

الفصل الخامس

لم يعرف التوأمان، أو لم تعرف لولا، السبب الحقيقي الذي أدّى ببريوني إلى التخلّي عن التمرينات، بل إنّهم لم يعرفوا في حينه أنّها تخلّت. كانوا منشغلين بتمثيل مشهد فراش المرض، وهو المشهد الذي تستقبل فيه أرابيلاّ، وهي طريحة الفراش في غرفتها العليّة، الأمير متنكّرًا بزيّ الطبيب الصالح، وكانت الأمور تسير على ما يرام، أو أنّها لم تكن بأسوأ من السابق، حيث كان التوأمان يردّدان دورهما ترديدًا لا يختلف عن ترديدهما إيّاه من قبل. أمّا لولا، فإنّها لم ترغب في أن تجعل قميصها الكشميري يتّسخ بالاستلقاء على الأرض، لهذا انهارت فوق كرسي عوضًا عن ذلك، ولم تبد المخرجة أيّة معارضة تُذكر، ودخلت البنت الأكبر سنًّا مزهوّة تظنّ أنّها لن تتعرّض للتأنيب. في إحدى اللحظات كانت بريوني توجّه تعليمات، تنمّ عن صبر شديد، إلى جاكسون، ثم توقّفت وقطّبت جبينها كأنّما تريد تصحيح نفسها، وتوارت عن الأنظار. ليست هناك لحظة بالغة الحيويّة من الاختلاف الخلّاق، ولا اندفاع أو توثّب إلى الخارج. استدارت ومضت في طريقها خارجة كأنّما تُريد الذهاب إلى المرافق الصحّيّة. انتظر الآخرون غير مدركين أنّ المشروع برمّته قد أخفق. وظنّ التوأمان أنّهما بذلا أقصى ما في وسعهما. وفكّر جاكسون، على وجه الخصوص، أنّ في إمكانه أن يبدأ ربّما بإعادة تأهيل نفسه وذلك بإدخال السرور

إلى قلب بريوني، لا سيّما أنّه ما يزال يشعر بالعار في منزل آل تاليس.

وفي أثناء الانتظار راح الصبيّان يلعبان كرة قدم، مستخدمين قطعة خشبيّة، في حين انشغلت شقيقتها بالنظر من وراء النافذة، وهي تدندن بنعومة لنفسها، وبعد مدّة، لا حدَّ لها من الوقت، خرجت إلى الممرّ ومشت حتى نهايته حيث يوجد باب مفتوح يؤدّي إلى غرفة مهجورة، واستطاعت من هناك أن ترى الطريق الجانبي والبحيرة التي كان يمتدّ وراءها عمود من وميض فسفوري متألّق، أبيض من شدّة الحرارة في عصر ذلك اليوم. وتمكّنت من أن تتبيّن إزاء هذا العمود بريوني وراء معبد الجزيرة وقد انتصبت قرب حافّة الماء، بل ربّما كانت تقف عليها، إنّها كانت توشك على الرجوع، ولاحظت لولا في طريق خروجها من الغرفة حقيبة جلديّة رجّاليّة مدبوغة، رجّاليّة المظهر، وأشرطة سميكة، وعلامات باهتة تُشير إلى سفر بالبواخر، فتذكّرت والدها على الفور، وإن على نحو ضعيف، وتوقّفت عندها، وتنشّقت رائحة الدخان الضعيفة لعربة سكّة الحديد. وضعت إبهامها فوق أحد الأقفال وجذبته عن موضعه، كانت القطعة المعدنيّة البرّاقة باردة، وتركت لمستها بقعًا صغيرة من البخار المنكمش، وجفلت عندما انفتح المشبك مصدرًا صوتًا قويًّا. وعندئذٍ أحكمت إغلاقه ثانية، وخرجت مسرعة من الغرفة.

وبدأ وقت ضائع لا شكل له للأقرباء، فأرسلت لولا التوأمين ليتأكّدا إن كان المسبح خاليًا ــ فقد كانوا يشعرون بالارتباك عندما يحضر البالغون إليه. فعاد الاثنان ليخبراها بأنّ سيسليا موجودة هناك مع الرجلين البالغين الآخرين، لكنّ لولا لم تعد الآن في غرفة الحضانة، بل في غرفة نومها الصغيرة ترتّب شعرها أمام مرآة يد ثبّتتها فوق حافّة النافذة. استلقى الصبيان على سريرها، وبدأ أحدهما يداعب الآخر ويصارعه مصدرين أصواتًا زاعقة، لم تنزعج فترسلهما إلى غرفتهما، إذ لامجال للّعب الآن، ولم يكن المسبح جاهزًا، لذلك كان الوقت يضغط عليهما، وشعرا بالحنين الجارف إلى العودة عندما قال بياروت إنّه جائع ــ فلا يزال موعد تناول وجبة الطعام بعيدًا جدًّا، ومن

غير المناسب الهبوط إلى الطابق السفلي وطلب الطعام. علاوة على ذلك فإنّ الصبيّين ما كانا ليذهبا إلى المطبخ لأنّهما كانا يخشيان بيتي التي شاهداها على السلّم وهي عابسة تحمل ملاءات بلاستيكيّة حمراء اللون وتأخذها إلى غرفتهما.

وبعد وقت قصير وجد الثلاثة أنفسهم في الحضانة التي كانت، فضلاً عن غرف النوم، الغرفة الوحيدة التي يشعرون أنّ من حقّهم دخولها. وكانت القرميدة الزرقاء اللون موجودة حيث تركاها من قبل، بل إنّ كلّ شيء على حاله، كالسابق تمامًا.

وقفوا في أماكنهم وقال جاكسون:

ـ لا يروقني هذا المكان.

أصابت بساطة هذه العبارة أخاه بلوثة، فاندفع نحو الحائط، ووجد شيئًا مثيرًا للاهتمام في إزار الغرفة الخشبي، وأخذ يضربه بحافّة حذائه، فما كان من لولا إلاّ أن وضعت يدها على كتفه وقالت:

ـ لا بأس، سنعود إلى بيتنا عمّا قريب.

كانت ذراعها أضعف وأخفّ من ذراع والدتها، وبدأ بياروت يجهش بالبكاء، وإنْ بهدوء، معترضًا، لأنّه ما يزال حتى الآن في بيت غريب لا شيء فيه سوى الأدب.

أمّا جاكسون فانفجر بدوره بالبكاء، لكنّه كان ما يزال قادرًا على الكلام:

ـ لن نذهب عمّا قريب، هذا كلام ليس إلاّ، لأنّنا لا نقدر على الذهاب على أيّة حال.

توقّف ليستجمع شجاعته، واستأنف:

ـ إنّه طلاق!

تسمَّر بياروت ولولا في مكانيهما، فهذه الكلمة لم يسبق أن تفوّه أحد بها أمام الأطفال، ولم يتفوّه بها طفل. وكانت حروفها الناعمة تنمّ عن فحش يصعب التفكير فيه. إنّها كلمة تدلّ على عار الأسرة. وبدا جاكسون ذاهلاً بعد أن صدرت عنه تلك الكلمة، وما من أمنية يمكنها أن تُعيدها الآن، ولهذا فإنّ كلّ ما كان في وسعه قوله هو أنّ التفوّه بها بصوت عالٍ كان جريمة كبرى توازي فعلها. تقدّمت لولا نحوه، وقد ضاقت عيناها الخضراوان الشبيهتان بعيني قطّة.

ـ كيف تتجرّأ على قول هذه الكلمة؟

تلعثم في كلامه وأشاح جانبًا:

ـ ص... حيح.

كان يدرك أنّه في ورطة، وأنّه يستحقّ أن يكون في ورطة وأنّه يوشك أن يطلق ساقيه للريح عندما أمسكت بإحدى أذنيه وقرّبت وجهها من وجهه.

قال بسرعة:

ـ لو ضربتني فسوف أُخبر والدي.

لكنّه هو نفسه جعل التوسّل بلا فائدة، وطوطمًا مدمّرًا من عصر ذهبي مفقود.

ـ لن تستعمل تلك الكلمة مرّة ثانية، هل سمعتني؟

أومأ برأسه خجلاً تمامًا، فتركته يمضي وشأنه.

أُصيب الصبيّان بالهلع، وإن حاول بياروت أن يصلح ذات البين الآن وهو يقول:

ـ ماذا سنفعل الآن؟

ـ دائمًا أوجّه هذا السؤال إلى نفسي.

لعلّ الرجل الطويل القامة ذا البذلة البيضاء الواقف في المدخل قد أمضى بضع دقائق هناك، بل كان هناك منذ وقت طويل إلى حدّ جعله يسمع جاكسون يتفوّه بتلك الكلمة. وكانت الفكرة، وليست صدمة وجوده، هي التي منعت لولا من أيّ ردّ فعل، أتراه يعرف شيئًا عن أسرتهم؟ كلّ ما كان في وسعهم عمله هو أن ينظروا مليًّا وينتظروا ليروا. تقدّم الرجل نحوهم ومدَّ يده قائلاً:

ـ پول مارشال.

كان بياروت هو الأقرب إلى پول، فمدّ يده مصافحًا بصمت، كما صافحه أخوه أيضًا، ولمّا حان دور الفتاة، قالت:

ـ لولا كوينسي، أعرّفك بجاكسون، وبياروت.

ـ يا لأسمائكم المدهشة، لكن كيف سأفرّق بينكما أنتما الاثنين؟

قال بياروت:

ـ الانطباع السائد عنّي هو أنّني أكثر مرحًا.

تلك مزحة من مزح الأسرة، وعبارة ابتكرها والدها جعلت الغرباء يضحكون عندما يوجّهون مثل هذا السؤال، لكن هذا الرجل لم يبتسم وهو يقول:

ـ لا بدّ أنّكم الأقرباء الذين جاؤوا من الشمال.

انتظروا مشدودين لسماع ما قد يعرفه الرجل أكثر من هذا، وراقبوه وهو يسير على امتداد ألواح غرفة الحضانة العارية، وانحنى ليلتقط قطعة القرميد التي طوّح بها عاليًا، ثم التقطها بخفّة.

ـ إنّني أُقيم في غرفة على امتداد الممرّ.

قالت لولا:

ـ أعرف ذلك، إنّها غرفة العمّة فينوس.

ـ تمامًا، غرفتها القديمة.

انحنى پول مارشال ليجلس على المقعد الذي كانت تستخدمه مؤخّرًا أرابيلاّ المريضة، كان وجهه يثير الفضول حقًّا، بما فيه من ملامح مشدودة إلى أعلى قرب الحاجبين، وحنك كبير مجوّف يشبه حنك دان اليائس. كان وجهًا قاسيًا، لكن أسلوبه كان دمثًا، فاعتقدت لولا أنّ هذا المزيج من الصفات يبعث على الجاذبيّة. عدّل من ثنيّات بنطاله وهو ينقل نظراته من كوينسي إلى كوينسي، وكان اهتمام لولا منصبًّا على حذائه الجلدي الأبيض والأسود نوع بروغ، وكان مدركًا لنظرات الإعجاب التي تسدّدها إليه، وبدأ يهزّ إحدى قدميه هزًّا متناغمًا.

ـ يؤسفني ما سمعته عن مسرحيّتكم.

اقترب التوأمان أحدهما من الآخر، يدفعهما إلى ذلك إحساس بضرورة رصّ الصفوف لأنّ مارشال لا بدّ أن يعرف الكثير عن الأمور، طالما أنّه يعرف أكثر ممّا يعرفون عن التمرينات، وتكلّم جاكسون معبّرًا عن أعماق قلقهم:

ـ أتعرف والدينا؟

ـ السيّد والسيّدة كوينسي؟

ـ نعم!

ـ قرأت عنهما في الصحف.

حدّق الصبيّان فيه وهما يستوعبان كلّ كلمة ممّا كان يتفوّه به، ولكنّهما لم يقدرا على الكلام، لأنّهما كانا يعلمان أنّ قضيّة الصحافة آنيّة: زلازل واصطدام قطارات، ما تفعله الحكومة والشعب يومًا بيوم، وعمّا إذا كان من الضروري إنفاق المزيد من المال على المدفعيّة في حال هاجم هتلر إنكلترا. كانوا مذهولين، ولكنّهم غير متفاجئين تمامًا من أنّ كارثتهم ترقى إلى مستوى هذه القضايا، وكان لهذا صداه الواقعي.

وضعت لولا يديها فوق خاصرتها كي تعتدل في وقفتها، كان قلبها يخفق خفقانًا قويًّا ومؤلمًا، ولم تمتلك الثقة كي تتكلّم حتى وإن كانت تعلم أنّها ينبغي أن تتكلّم. فكّرت أنّ لعبة ما تجري الآن، ولكنّها لم تفهمها، ومع هذا فقد كانت تعلم أنّ هناك قلّة لياقة، بل إهانة. انهار صوتها عندما بدأت الكلام، فاضطرّت إلى أن تتنحنح وتبدأ من جديد.

ـ ما الذي قرأته عنهما؟

رفع مارشال من حاجبيه الكثيفين المتمازجين، وأطلق صوتًا غليظًا من بين شفتيه، وقال:

ـ آه، لا أدري، لا شيء إطلاقًا، أشياء تافهة.

ـ إذًا، سأكون ممتنّة لك إن لم تتكلّم بها أمام الطفلين.

لا بدّ أنّها سمعت مثل هذه العبارة فتفوّهت بها بإيمان أعمى، مثل تلميذ يتلفّظ بكلمة مجوسي.

بدا أنّ الحيلة نجحت، وغمز مارشال عينه مقرًّا بغلطته، ومال نحو التوأمين وقال:

ـ والآن أصغيا إليّ، أنتما الاثنين، الواضح للجميع أنّ والديكما مدهشان، ويحبّانكما حبًّا جمًّا، ويفكّران فيكما طوال الوقت.

أومأ بياروت وجاكسون برأسيهما موافقين. لقد انتهى العمل، وعاد مارشال ليركّز انتباهه على لولا من جديد، وبعد تناوله كأسين من كوكتيل الجنّ المركّز في غرفة الاستقبال مع ليون وشقيقته، ارتقى السلالم إلى الطابق العلوي ليذهب إلى غرفته ويفرغ محتويات حقيبته، ويغيّر من ثيابه استعدادًا لتناول العشاء. استلقى على السرير الهائل ذي القوائم الأربع الطويلة حتى دون أن يخلع حذاءه، وارتاح لهدوء الريف والشراب، ودفء المساء المبكر، وغفا غفوة قصيرة، وحلم بأخواته الأربع الأصغر سنًّا، وقد وقفن من حول سريره يهذرن ويلمسن ثيابه ويسحبنها إليهنّ. استيقظ من غفوته، الحرارة تشتعل في

صدره وحنجرته، مستثارًا على نحو غير مريح، ومضطربًا إلى حدّ ما بسبب الجوّ المُحيط به، وعندما كان يجلس على حافّة سريره يحتسي الماء تناهت إلى مسامعه أصوات لا بدّ أنّها هي التي كانت سببًا في حلمه. وما إن سار في الممرّ ودخل الحضانة حتى شاهد الأطفال الثلاثة. وأدرك الآن أنّ البنت كانت امرأة شابّة رابطة الجأش، مهيبة كأنّها أميرة صغيرة من عهد ما قبل الرافائيليّة[١]، بأساورها وضفائرها وأظافرها المطليّة، ولفاعها المخملي.

وقال لها:

ـ لديك ذوق رائع في اختيار الملابس، وأعتقد أنّ هذا البنطال يلائمك تمامًا.

شعرت بالسرور بدلاً من الارتباك، ومسَّت أصابعها مسًّا رقيقًا قماش بنطالها الفضفاض في منطقة ردفيها الصغيرين.

قالت:

ـ لقد اشتريته من متجر ليبرتي عندما أتت بي أمّي إلى لندن لمشاهدة أحد العروض.

ـ وماذا شاهدت؟

ـ هاملت.

الحقّ أنّهما شاهدتا عرضًا صامتًا من عروض ما بعد الظهيرة على

---

(١) ما قبل الرافائيليّة Pre - Raphaelite نسبة إلى مجموعة من الفنّانين والنقّاد ومنهم روزيتي ووليم هولمان هنت وجون إيفريت ميلايس ومايكل روزيتي وتوماس وولفر وفردريك جورج ستيفنز وجيمز كولينسون، حاولوا مزج الفنّ بخصائص خلقيّة من خلال دراسة الطبيعة وتصوّر الموضوعات السامية، نشروا مذهبهم في مجلّة «ذا جيرم» التي صدر عددها الأوّل في الأوّل من كانون الثاني ١٨٥٠ ولم يصدر منها إلاّ أربعة أعداد. اتّخذت الجماعة هذا الاسم على أساس أنّ الفنّ أصابه الانحطاط بدءًا من عصر الفنّان الإيطالي رافائيل (١٤٨٣ ـ ١٥٢٠) فصاعدًا. انتقدهم تشارلز ديكنز (المترجم).

مسرح بالاديوم بلندن حيث سكبت لولا شرابها من عصير الفراولة على ثوبها، كان متجر ليبرتي في الجهة الأخرى من الشارع.

قال پول:

ـ وهي إحدى مسرحيّاتي المفضّلة.

لحسن حظّها أنّه لم يقرأ المسرحيّة، ولم يشاهدها، لأنّه كان قد درس مادّة الكيمياء، لكنّه تمكّن من أن يقول بسرور:

ـ أن تكون أو لا تكون.

قالت مؤيّدةً:

ـ تلك هي القضيّة[1]، أمّا أنا فيروقني حذاؤك.

حرّك قدمه لينظر مليًّا إلى حذائه.

قال:

ـ نعم، إنّهم يصنعون قالبًا خشبيًّا لقدمك ويضعونه على الرفّ إلى الأبد، هناك الآلاف منها محفوظة في أحد الأقبية، وقد قضى معظم الناس نحبهم.

ـ فظيع.

قال بياروت ثانية.

ـ إنّني جائع.

قال پول مارشال وهو يربّت على جيبه:

ـ آه، حسنًا لديّ شيء سأريكم إيّاه إذا عرفتم كيف أكسب قوتي.

---

(١) هي عبارة هاملت الشهيرة التي تفوّه بها في لحظة من لحظات التردّد والحسم، القوّة والضعف، يعرف فيها قاتل أبيه ولا يعرف كيف يتصرّف (المترجم).

قالت لولا:

ـ أنت مغنٍّ، في الأقلّ لديك صوت جميل.

ـ هذا لطف منك، ولكنّك مخطئة، أتدرين؟ أنت تذكّرينني بأختي...

وهنا قاطعه جاكسون:

ـ أنت تصنع الشوكولا في المعمل.

أضاف بياروت قبل أن ينهال مديح أكثر ممّا ينبغي على أخيه:

ـ سمعتك تتحدّث قرب المسبح.

ـ لا تعرفون إذًا.

ثم أخرج من جيبه قطعة مستطيلة من الشوكولا ملفوفة بورق مقاوم للدهون يبلغ طولها أربع بوصات، وعرضها بوصة واحدة تقريبًا، ووضعها في حضنه وبدأ ينزع عنها غلافها الورقي، ورفعها إلى أعلى ليتمكّنوا من معاينتها، تقدّموا إلى أمام بكلّ أدب، كانت تحتوي على قشرة ذات لون أخضر فاتح طقطق بها ظفر إصبعه.

قال:

ـ غلاف سكّري، هل رأيتم؟ وفي داخله شوكولا بالحليب، تصلح لجميع الظروف، حتى وإن ذابت.

رفع يده أعلى من السابق، وشدّد من قبضته، وكان في وسعهم مشاهدة ارتعاشة أصابعه التي ازدادت بسبب قطعة الشوكولا.

ـ ثمّة واحدة تشبه هذه القطعة داخل حقيبة كلّ جندي على الأرض، مسألة اعتياديّة.

نظر التوأمان أحدهما إلى الآخر، كانا يعلمان أنّ الإنسان الراشد لا يهتمّ بالحلويات.

قال بياروت:

ـ الجنود لا يأكلون الشوكولا.

وأضاف شقيقه:

ـ بل يفضّلون السكائر.

ـ على أيّة حال، لماذا يحصلون على حلويات مجّانًا ولا يحصل عليها الأطفال؟

ـ لأنّهم سوف يدافعون عن بلدهم.

ـ يقول أبونا إنّ الحرب لن تندلع.

ـ حسنًا، إنّه مخطئ.

بدا صوت مارشال كأنّه يختبرهم، وقالت لولا مؤكّدة:

ـ ربّما ستندلع الحرب.

ابتسم، وقال:

ـ إنّنا نسمّي هذه القطعة آرمي آمو.

قالت:

ـ آمو، أماس أمات.

ـ تمامًا.

وقالِ جاكسون:

ـ لا أعرف سببًا وراء وجود حرف الواو في كلّ شيء تشتريه.

وقال بياروت:

ـ إنّه لأمر يثير الضجر حقًّا، تمامًا مثل بولو وإيرو.

ـ وكذلك أوكسو وبريلو.

قال پول مارشال موجّهًا كلامه إلى لولا وهو يقدّم لها قطعة الشوكولا:

ـ أعتقد أنّ ما يريدون قوله لي هو أنّهم لا يريدون أيّة قطعة.

تناولت لولا القطعة منه بهدوء، ورمقت التوأمين بنظرة معيّنة كانا يعرفان ماذا تعني بها، لقد بات صعبًا عليهما الآن أن يطلبا قطعة من الشوكولا ماركة آمو، فراقباها وقد اصطبغ لسانها بلون أخضر وهو يلتفّ من حول حافّات قطعة الحلوى. اتّكأ پول مارشال في جلسته على الكرسي يراقبها عن كثب من فوق الهرم الذي صنعه بيديه أمام وجهه.

صالب ساقيه، ثم أعادهما إلى وضعهما الطبيعي، وتنفّس تنفّسًا عميقًا، وقال برقّة:

ـ لا بدّ من قضمها، هيّا اقضميها.

وهنا انطلق صوت قوي وهي تقطعها بأسنانها، فبانت الحافّة البيضاء من طبقتها السكّريّة ومن تحتها قطعة الشوكولا السوداء. وفي هذه اللحظة طرق أسماعهم صوت امرأة تنادي من أسفل الدرج، ونادت مرّة ثانية بإلحاح أشدّ من على الممرّ، فأدرك التوأمان في هذه المرّة الصوت، وتبادلا نظرة ذهول وحيرة مفاجئة.

أمّا لولا فكانت مستغرقة في الضحك وملء فمها قطعة الشوكولا، وقالت:

ـ ها هي بيتي تبحث عنكما، حان وقت الاستحمام. هيّا، أسرعا، أسرعا دون توقّف.

* * *

الفصل السادس

تركت إميلي تاليس وهج حرارة شمس ما بعد الظهيرة الأبيض ودلفت إلى غرفة النوم المعتمة والباردة، وذلك بعد وقت قصير من تناول طعام الغداء، وبعد أن اطمأنّت إلى أنّ أطفال شقيقتها وبريوني أكلوا طعامهم إلى حدّ معقول، وأنّهم سيفون بوعدهم بالبقاء بعيدين عن المسبح مدّة ساعتين في الأقلّ. لم تكن متألّمة، ليس بعد، لكنّها غادرت المكان الحارّ قبل أن يهدّدها، ثمّة إشراقات في رؤيتها أشبه بوخزات دبابيس، كأنّ النسيج المستهلك للعالم المرئي موضوع أمام ضوء أشدّ لمعانًا وبريقًا. وشعرت بثقل في الزاوية العليا اليمنى من رأسها يشبه ثقل جسم حيوان نائم وهو جاثم على الأرض، ولكن ما إن لمست رأسها حتى تلاشى ذلك الإحساس من مكانه الحقيقي، وأصبحت قادرة على أن تتخيّل أنّ في وسعها الوقوف على رؤوس أصابع قدميها، وأن ترفع يدها اليمنى لتلمسه. على أيّة حال لا ينبغي لها استثارته، فما إن يتحرّك هذا المخلوق الكسلان من منطقة الحافّات، وصولاً إلى المركز، حتى تمحو هذه الآلام الفظيعة كلّ أفكارها ولن تجد الفرصة لتناول العشاء برفقة ليون وأفراد الأسرة في هذه الليلة. لا يحمل هذا الحيوان أيّة ضغينة لها، إنّه غير مبالٍ بشقائها، ومن شأنه أن يتحرّك كأنّه قطّ وحشي داخل قفص، لأنّه كان يقظًا لا يشعر بالضجر بسبب الحركة نفسها، أو بلا

سبب تمامًا أو حتى بلا وعي. استلقت على ظهرها دون أن تضع وسادة تحت رأسها، وعلى مقربة منها كأس فيها ماء، وبجانبها كتاب كانت تُدرك أنّها لا يمكنها قراءته. وانعكس شريط طويل واهٍ من ضوء النهار على سقف الغرفة، وفوق أعلى النافذة، وكان ذلك هو الضوء الوحيد الذي يبدّد الظلمة. ظلّت مستلقية، قلقة، مرتقبة، كأنّها تحت حدّ السكّين، مدركة أنّ الخوف لن يتركها تنام، وأنّ أملها الوحيد يتمثّل في البقاء ساكنة دون حراك.

فكّرت في الحرارة العظمى التي تجثم على المنزل وأرضه الرحبة، وتمتدّ إلى المقاطعات المحيطة بلندن كأنّها دخان يخنق الحقول والبلدات، وفكّرت في خطّ سكّة الحديد الملتهب الذي سيأتي بليون وصديقه، والعربة ذات السطح الأسود الذي يشوي الجسد، التي سيجلسان فيها قرب النافذة. طلبت إعداد لحم مشويّ للعشاء، لكن تناوله قد يسبّب الاختناق. سمعت الدار يصدر صريرًا وهو يتمدّد، أم أنّ الروافد الخشبيّة والأعمدة تجفّ الآن وتنكمش من تحت البناء؟ تنكمش؟ كلّ شيء ينكمش، فعلى سبيل المثال تنكمش طموحات ليون سنة إثر أخرى بعد أن رفض العون من أبيه، والمتمثّل بفرصة الحصول على وظيفة حكوميّة محترمة، مفضّلاً عليها أن يكون أشدّ الناس تواضعًا في مصرف أهلي، متطلّعًا إلى إجازة نهاية الأسبوع، وكان من شأنها أن تغضب أكثر منه لو لم يكن طيّب السريرة، قنوعًا، ومحاطًا بأصدقاء ناجحين. وسيم أكثر ممّا ينبغي، ومحبوب أكثر ممّا ينبغي، لم يعضّه الدهر وليس له طموح. في يوم من الأيّام قد يأتي إلى البيت برفقة صديق يقدّمه لسيسليا بهدف الزواج، لولا أنّ السنوات الثلاث في غيرتون جعلت ذلك مستحيلاً، لا سيّما وهي تتظاهر بالعزلة، وتدخّن السكائر في غرفة نومها، وتحنّ دومًا إلى زمان لم ينته بعد، ولفتيات بدينات يضعن نظّارات على عيونهنّ، قادمات من نيوزيلندا، وشاركتهنّ في إحدى النظّارات، أم تراها غجريّة؟ رطانة سيسليا بلكنة أهالي كيمبردج ـ القاعات، ورقص الوصيفات، والمشوار الصغير والتردّد على الأحياء الفقيرة، والسراويل الداخليّة التي

تجفّف أمام مدفأة كهربائيّة، وفرشاة شعر واحدة لكلّ اثنتين ـ ذلك كلّه جعل إميلي تاليس منزعجة قليلاً، وإن لم تفتقر إلى الإحساس الواهي بالغيرة. لقد تلقّت تعليمها في البيت حتى سنّ السادسة عشرة، ثم أُرسلت من بعد ذلك إلى سويسرا لقضاء سنتين اختُزلتا إلى سنة واحدة لدراسة الاقتصاد، وكانت تعرف معرفة أكيدة أنّ التمثيل كلّه، تمثيل الفتيات في الجامعة، كان طفوليًّا حقًّا، وفي أفضل الأحوال كنَّ قُبّراتٍ بريئة، وعلى مقربة منهنّ انتصب أشقاؤهنّ مرتدين ملابس زينة تليق بالمناسبة الاجتماعيّة. ولم تُمنح الفتيات شهادات ملائمة، فعندما عادت سيسليا إلى البيت في شهر تمّوز ومعها نتيجتها النهائيّة ـ وكانت الفتاة خائبة منها ـ لم يكن لديها عمل ولا مهارة، وكان عليها أن تعثر على زوج، وأن تواجه الأمومة. ما عسى معلّماتها من ذوات الجوارب الزرق أن يعلّمنها ـ المعلّمات من ذوات الألقاب السخيفة والسمعة الفظيعة؟ لقد غدت النسوة العظيمات الشأن خالدات في المنطقة بفضل ما عُرف عنهنّ من تصرّفات غريبة، مثل جعل قطّة يقودها كلب، وركوب درّاجة هوائيّة رجّاليّة، وظهورهنّ في الشارع وهنّ يأكلن شطيرة. وبعد جيل كامل يكون قد مضى زمن طويل على وفاة أولاء السيّدات الجاهلات والغبيّات، وأن يجري الحديث عنهنّ بوقار من حول مائدة الأساتذة في قاعة الطعام، وبأصوات خفيضة.

عندما شعرت إميلي بالمخلوقة ذات الفرو الأسود، وقد بدأت تتململ، جعلت أفكارها تسرح بعيدًا عن ابنتها الكبرى، وبدأت تركّز أفكارها القلقة في ابنتها الصغرى الحبيبة المسكينة بريوني، المخلوقة الصغيرة الناعمة، تبذل قصارى جهدها من أجل إسعاد أقربائها العنيدين والنحيلين في المسرحيّة التي ألّفتها من صميم قلبها. أن تحبّها يعني أن تُهدّئ من نفسها، لكن كيف السبيل إلى حمايتها من الفشل، من لولا، مثال أخت إميلي الصغرى التي كانت مبكّرة النضوج، كثيرة الحيل وهي في تلك السنّ، والتي وجدت لها منفذًا فيه من الزواج إلى ما كانت ترغب في أن يسمّيه الجميع الانهيار العصبي. لم تتمكّن من جعل هيرميوني تدخل حيّز تفكيرها، ولكنّها بدلاً من ذلك قدّرت الحالة المنزليّة

وهي تتنفّس تنفّسًا هادئًا في العتمة، وذلك ببذل جهودها في الإصغاء، هذا هو الشيء الوحيد الذي كان في ميسورها فعله وهي في تلك الحالة. أسندت راحة كفّها على جبينها، وسمعت صريرًا آخر عندما انكمش مبنى الدار بقوّة أكبر، وتناهى إلى سمعها صوت ارتطام معدني قادم من الطابق السفلي، ربّما كان سببه سقوط غطاء معدني على الأرض. كان إعداد اللحم المشوي، الذي لا طائل من ورائه لوجبة العشاء، في مراحله الأوّليّة، وكان في وسعها أن تسمع، وهي في الطابق العلوي، صوت ارتطام أقدام على الألواح الخشبيّة، وأصوات الأطفال، اثنان أو ثلاثة في الأقلّ، يتحدّثون في الوقت نفسه، ترتفع أصواتهم وتنخفض لترتفع ثانية معارضةً ربّما، أو موافقة بحماس ربّما. كانت غرفة الحضانة في الطابق الكائن من فوقها، وعلى امتداد غرفة واحدة. محاكمات أرابيلاّ. لو لم يكن مرضها شديد الوطأة عليها لارتقت السلالم الآن للإشراف، أو لمدّ يد العون، لأنّها كانت تعلم أنّ عملهم كان كثيرًا. لقد أقعدها المرض عن تقديم كلّ ما ينبغي للأمّ أن تقدّمه لأطفالها. وعندما أحسّ الأطفال بهذا كلّه كانوا قد بدأوا ينادونها باسمها الأوّل. ينبغي لسيسليا أن تقدّم المساعدة، لكنّها منشغلة كلّ الانشغال بنفسها، مثقّفة، لا تهتمّ أبدًا بالأطفال... وقاومت إميلي بكلّ نجاح متابعة التفكير على هذا المسار، وبدأت تسرح في أفكارها بعيدًا، ليس باتّجاه النوم، بل باتّجاه المرض. ومرّت بضع دقائق إلى أن سمعت بعدها وقع خطوات خارج غرفتها، وعلى السلالم تحديدًا، وظنّت، بسبب صوتها المكتوم، أنّها وقع أقدام عارية، أو أنّها لهذا السبب لا بدّ أن تكون خطوات بريوني، لأنّ هذه الفتاة لا تضع حذاءً في قدميها عندما يكون الطقس حارًّا. وبعد مرور بضع دقائق سمعت صوت شجار قوي، وشيئًا يرتطم بقوّة على الألواح الخشبيّة، قادمًا من غرفة الحضانة أيضًا. لقد تفكّكت التمرينات، وانسحبت بريوني مكتئبةً، والتوأمان يعبثان، في حين بقيت لولا هادئة تتذوّق حلاوة الانتصار، هذا إن كانت تشبه أمّها، كما اعتقدت إميلي.

كان التذمّر اليومي من أطفالها ومن زوجها وأختها، ومن مدّ يد العون،

قد صقل حواسّها، أمّا داء الشقيقة، وحبّ الأمّ، والاستلقاء فوق سريرها ساعات طويلة على مدى سنين. ذلك كلّ ولّد عندها حاسّة سادسة من هذه الحساسيّة، وإدراكًا نابضًا ينبع من العتمة ويدخل الدار، يعرف كلّ شيء ولا يراه أحد. ولم ترجع إليها إلاّ الحقيقة، لأنّ ما كانت تعرفه من قبل إنّما تعرفه حقًّا، وتجاوزت همهمة الأصوات غير الواضحة المسموعة من خلال الأرضيّة المفروشة بالسجّاد، صوت مخطوطة قيد الطبع على الآلة الكاتبة، وجاء حديث اختراق الجدار، أو الجدارين، مجرّدًا من كلّ شيء سوى ما يكتنفه من التواءات وفروق دقيقة جوهريّة. وإذا كان غيرها يرى في الأحاسيس أحاسيس مكبوتة، فإنّها كانت، بالنسبة لها، أحاسيس يقظة ودقيقة. اضطجعت تحت جنح الظلام وهي تعرف كلّ شيء، وكلّما قلّ مقدار ما تستطيع عمله ازداد إحساسها باليقظة، لكن على الرّغم من أنّها رغبت، في بعض الأحيان، في النهوض والتدخّل، وبخاصّة إذا ما علمت أنّ بريوني بحاجة إليها، إلاّ أنّ الخوف من الألم أبقاها في مكانها، وفي أسوأ الأحوال كانت تشعر وكأنّ مجموعة من سكاكين مطبخ حادّة تشقّ عصبها البصري، ومن ثم يلتئم الشقّ ثانية، وبضغط أكبر إلى أسفل، كانت الآهات تزيد من لوعتها.

وهكذا ظلّت مستلقية في مكانها، فيما انسلخ وقت العصر كلّه، وانفتح الباب الأمامي ليغلق بعد ذلك. لا بدّ أنّ بريوني خرجت من الدار لتذهب إلى الماء، إلى المسبح، أو البحيرة، أو لعلّها ذهبت إلى مكان بعيد كالنهر مثلاً. وتناهى إلى مسامع إميلي صوت وقع خطوات متأنّية على الدرج ـ ها هي سيسليا تحمل الأزهار أخيرًا إلى غرفة الضيوف، وهي رحلة بسيطة طُلب منها لمرّات عديدة في ذلك اليوم أن تقوم بها، وفي وقت لاحق نادت بيتي على داني، وارتفع صوت العربة من فوق حصباء الشارع، وذهبت سيسليا لاستقبال الزوّار، وعلى الفور انتشرت رائحة سيكارة وسط العتمة ـ طُلب منها ألف مرّة أن لا تدخّن على الدرج، لكنّها رغبت في أن تثير إعجاب صديق ليون، كما أنّ التدخين نفسه ليس عيبًا. أصوات يتردّد صداها في الردهة، ويبذل داني

جهده حاملاً الأمتعة إلى الطابق العلوي فيركنها فيه، ويهبط ثانية، ويخيّم الصمت. لا بدّ أنّ سيسليا رافقت ليون والسيّد مارشال إلى المسبح لتناول مشروب البنش[1]، الذي أعدّته إميلي بنفسها في صباح ذلك اليوم، وطرق سمعها صوت مخلوق بأربع سيقان يهبط السلالم ـ لا بدّ أنّ التوأمين أرادا الذهاب إلى المسبح، لكن ظنّهما سيخيب، لأنّ هناك من سبقهما إليه.

* * *

راحت في إغفاءة، ولم تستيقظ إلاّ على صوت رجل في غرفة الحضانة، وأطفال يردّون على أسئلة. المؤكّد أنّ الصوت ليس صوت ليون الذي يتعذّر عليه الابتعاد عن أخته بعد أن التأم شملهما الآن. لا بدّ أنّه صوت السيّد مارشال الذي كانت غرفته مجاورة لغرفة الحضانة، وأنّه كان يكلّم التوأمين بدلاً من أن يكلّم لولا، كما ظنّت. وفكّرت إميلي في نفسها إن كان التوأمان سفيهين، لأنّ كلّ توأم بدا في تصرّفه وكأنّ التزاماته الاجتماعيّة قد انشطرت إلى شطرين. ارتقت بيتي في هذه الأثناء، السلالم إلى الطابق العلوي ونادتهما ربّما بغلظة إلى حدٍّ ما، في ضوء محنة جاكسون الصباحيّة: وقت الاستحمام، وقت الشاي، وقت النوم ـ أعمال اليوم الحاسمة. هذه الطقوس الطفوليّة، ذات الصلة بالماء والطعام والنوم، لم تختف عن الحياة اليوميّة، وقد حافظ ظهور بريوني المتأخّر، وغير المتوقّع، عليها حيّة في البيت حتى ناهزت إميلي الأربعينيّات من عمرها، وكانت طقوسًا تبعث على الهدوء والطمأنينة. . الصابون المشتقّ من دهن الصوف، ولوح الحمّام الأبيض السميك، والهذيان البنّاتي الذي يتردّد صداه في الحمّام البخاري، ولفّها بالمنشفة، ومسكها من ذراعها، ووضعها في حضنها للحظة من لحظات العجز الطفولي الذي استلذّت فيه بريوني منذ وقت ليس بالطويل. أمّا الآن فقد اختفت الطفلة والحمّام وراء باب مقفل، وإن كان هذا نادرًا، لأنّ الفتاة بدت دومًا بحاجة إلى الاستحمام وإلى تبديل ثيابها. لقد توارت عن الأنظار،

(١) البنش Punch: شراب مؤلّف من عصير فاكهة أو أكثر مع سكّر وماء (المترجم).

وولجت عالمًا داخليًّا نقيًّا لم تكن فيه الكتابة أكثر من سطح مرئي، والغشاء الذي يوفّر الحماية، الذي لا تستطيع حتى الأمّ المهتمّة بها أن تقتحمه. كانت ابنتها مستقلّة برأيها دائمًا، تعالج مشكلة تفرضها بنفسها ولا تتكلّم عنها، كأنّ العالم المرهق الواضح المعالم يمكن أن يبتكره طفل من جديد، اللهمّ إلاّ إذا سألت بريوني عن الشيء الذي تفكّر فيه. كان هناك زمان من شأن المرء أن يتلقّى فيه ردًّا ذكيًّا ودقيقًا يُثير بدوره أسئلة ساذجة وثقيلة تردّ عليها إميلي بأفضل الأجوبة. وإذا كان يصعب الآن تذكّر الفرضيّات الشاردة التي كانوا ينهمكون في الحديث عنها، فإنّها كانت تعلم أنّها لم تتكلّم كلامًا حسنًا كالكلام الذي كانت تقوله لمولودها الأخير البالغ أحد عشر عامًا، ولم تسمعها على نحو بسيط ومهمّ أيّة منضدة طعام، أو جانب ظليل من ساحة كرة المضرب. أمّا الآن فقد ضربت شياطين الوعي الذاتي والموهبة ابنتها وحوّلتها إلى فتاة خرساء، وعلى الرّغم من أنّ بريوني لم تكن لتحبّها بأقلّ منها فإنّ إميلي ندمت على فوات عصر البلاغة. إنّها لن تتكلّم ثانية مثل ذلك الكلام مع أيّ شخص بعد الآن، وهذا ما تعنيه رغبتها في الحصول على طفل جديد، فعمّا قريب ستبلغ سنّ السابعة والأربعين.

توقّف هدير أنابيب المياه المكتوم ـ الذي لم تتنبّه لبدايته ـ برجّة عنيفة اهتزَّ لها الهواء. لا بدّ أنّ ولدي هيرميوني في الحمّام الآن بجسديهما النحيفين الصغيرين، عند طرفي حوض الاستحمام، وستكون المناشف البيضاء المطويّة على الكرسي المصنوع من خشب الصفصاف المطلي باللون الأزرق الباهت والحصيرة الكبيرة من الفلّين ذات الحافّة التي قضمها أحد الكلاب، ومات منذ زمن بعيد، لكن بدلاً من الثرثرة كان الصمت مطبقًا، ولا أثر للأمّ، بل كانت هناك بيتي وحدها، وهي التي لا يمكن لأيّ طفل أن يكتشف رقّة فؤادها.

كيف يمكن لهيرميوني أن تُصاب بانهيار عصبي ـ وهو المصطلح الذي كانت تفضّله لوصف حال صديقتها التي كانت تعمل في الإرسال اللاسلكي ـ كيف يمكنها أن تختار الصمت والخوف والحزن بين أطفالها؟ افترضت إميلي

أنّها ينبغي أن تشرف على وقت الاستحمام، لكنّها كانت تعلم أيضًا أنّها سوف تهتمّ بولدي أختها بدافع الواجب، حتى وإن وضعت السكاكين فوق عصبها البصري، إنّهما ليسا ولديها. القضيّة بهذه البساطة. كما أنّهما صبيّان صغيران، ولهذا يصعب التواصل معهما، لا أثر للألفة، والأسوأ من هذا أنهما عملا على إذابة هويّتيهما، لأنّها لم تعثر على هذه الزاوية المثلّثة المفقودة من اللحم، ليس في وسع المرء إلاّ أن يعرفهما معرفة عامّة.

حرّرت يدها وقرّبت كأسًا من الماء إلى شفتيها، وبدا حضور معذّبها الحيواني يتوارى، وأضحت قادرة على وضع وسادتين عند رأس السرير كي تعتدل في جلستها. كانت هذه مناورة خرقاء لأنّها كانت تخشى من حركة مفاجئة، وبهذا يطول صوت صرير نوابض سريرها فيطغى جزئيًّا على صوت الرجل. تجمّدت في جلستها وهي تمسك حافّة إحدى الوسائد بيدها، وركّزت انتباهها في ما يدور في كلّ ركن من أركان المنزل. لم يكن هناك شيء، لكن تناهى إلى سمعها، بعد ذلك، صوت ضحكة صغيرة كأنّها مصباح أُشعل وأُطفئ في ظلمة حالكة. لا بدّ أنّ لولا، في غرفة الحضانة برفقة مارشال، واصلت بذل محاولاتها للاستقرار في جلستها، ولكنّها استلقت، في نهاية المطاف، ورشفت من مائها الدافئ. قد لا يكون رجل الأعمال الثري هذا شخصًا سيّئًا إذا كان مستعدًّا لتزجية النهار بطوله في تسلية الأطفال. وسرعان ما ستتمكّن من المغامرة وإشعال نور المصباح إلى جانب السرير، وقد تتمكّن في غضون عشرين دقيقة من الانضمام من جديد إلى الأسرة ومتابعة مختلف الأمور التي تُثير قلقها. وكان أكثر الأمور عجالة هو الذهاب إلى المطبخ لتتأكّد إن كان الوقت لم يفتْ على تحويل وجبة عشاء اللحم المشوي إلى قطع من اللحم البارد والسلطة. وبعد ذلك يتعيّن عليها أن ترحّب بولدها، وتثني على صديقه، وتجعله موضع ترحيبها.

وما إن تفرغ من هذه المشاغل حتى تطمئن نفسها بأنّ التوأمين حظيا بعناية لائقة، وربّما تسمح لهما بمتعة تعويضيّة، ومن ثم سوف يحين موعد

الاتّصال الهاتفي بجاك الذي نسي أن يخبرها بأنّه لن يعود إلى المنزل. سوف تتكلّم مع المرأة المهذّبة التي تعمل في سنترال الهاتف، والزميل الشابّ البدين في الجزء الخارجي من المكتب، وسوف تُطمئن زوجها بأنّه لا داعي لإحساسه بالذنب، وسوف تقتفي أثر سيسليا وتتأكّد من أنّها قد رتّبت الأزهار بحسب التعليمات، وأنّ عليها أن تبذل مجهودها على أحسن ما يرام استعدادًا للمساء، وذلك بتحمّل بعض مسؤوليّات المضيفة، وأن ترتدي ثيابًا جميلة، وتمتنع عن التدخين في الغرف. والأهمّ من هذا كلّه عليها أن تنطلق بحثًا عن بريوني، لأنّ إخفاق المسرحيّة ضربة شديدة، وستحتاج الطفلة إلى كلّ الرعاية التي يمكن للأمّ أن توفّرها. إنّ العثور عليها يعني التعرّض لنور الشمس الساطع، بل إنّ بقايا شعاع الشمس المتوارية في مطلع المساء قد يكون سببًا في هجوم. لا بدّ من العثور على النظّارات الشمسيّة إذًا. وإنّ هذه المسألة، وليس المطبخ، هي التي تأتي في المقام الأوّل لأنّها لا بدّ أن تكون هنا، في مكان ما من هذه الغرفة، في أحد الأدراج أو بين صفحات كتاب ما، أو في أحد الجيوب، وإنّ ارتقاء السلالم إلى الطابق العلوي مرّة أخرى بحثًا عنها سيكون مصدر إزعاج لها، وعليها أن تنتعل حذاءً مسطّح النعل خشية أن تكون بريوني قد ذهبت إلى جهة النهر. . .

وهكذا استندت إميلي ثانية إلى الوسائد لبضع دقائق أخرى، بعد أن توارى حيوانها عن الأنظار، وبدأت تخطّط بكلّ صبر وتنقّح خططها، وتهذّب تسلسلها. سوف تسترضي الأسرة، التي بدت لها من موقعها في عتمة غرفة النوم العليلة، كأنّها قارّة مضطربة قليلة السكّان، تحاول عناصرها المتنافسة، في ظلّ المساحة الواسعة الكثيفة الأشجار، أن تجذب اهتمامها القلق. ليس لديها أيّة أوهام، فالخطط القديمة، هذا إنْ كان في وسع أحد أن يتذكّرها، الخطط التي تجاوزها الزمان تميل إلى أن تكون لها قبضة حامية مبالغ في سطوتها على الأحداث. يمكنها أن تُرسل نباتاتها المتعرّشة إلى كلّ غرفة من غرف المنزل، لكنّها لا يمكنها أن ترسلها إلى المستقبل. وكانت تعرف أيضًا

أنّ ما تنشده هو صفاء ذهنها. الأفضل عدم الفصل بين الشفقة والاهتمام الذاتي. دفعت من جسمها إلى الأعلى برفق، وأنزلت قدميها فوق الأرض وأدخلتهما في خفّها، وبدلاً من أن تغامر وتسدل الستائر، أضاءت نور مصباح القراءة، وبدأت بحثها المتردّد عن نظّارتها الداكنة، وكانت قد قرّرت مسبقًا أين تبدأ البحث عنها أوّلاً.

* * *

الفصل السابع

شُيّد معبد الجزيرة على غرار هندسة نيكولاس ريفيت في أواخر عقد ثمانينيّات القرن الثامن عشر، ليكون موضع اهتمام، ومعلمًا يشدّ الأنظار من أجل تعزيز المثل الرعويّة، ولكن لم يكن من ورائه أيّ هدف ديني. كان قريبًا جدًّا من حافّة المياه، وقد بُني فوق ضفّة ناتئة ليكون له انعكاس جميل على ضفّة ماء البحيرة. وكانت صفوف الأعمدة، والمثلّث في أعلى واجهة المبنى، تبدو من جميع الجهات متوارية إلى حدٍّ ما من وراء أشجار الدردار والبلّوط التي نمت من حوله. لكنّ نظرة عن قرب تجعله يبدو ذا مظهر أكثر مدعاة للأسى، فالرطوبة أثّرت على المبنى وجعلت أجزاء منه تنهار، وفي وقت ما من أواخر القرن التاسع عشر، أُجريت بعض الترميمات التي تعوزها المهارة والدقّة، مع استخدام الإسمنت دون طلاء، فتحوّل إلى لون بنّي، ومُنح المبنى مظهرًا مرقّشًا سقيمًا. وفي مكان آخر بانت الألواح الخشبيّة التي تهرّأت وتلفت حتى لتبدو وكأنّها أضلاع حيوان يتضوّر جوعًا. أمّا الباب المزدوج الذي يفتح على حجرة دائريّة تعلوها قبّة، فقد أُزيل منذ زمن بعيد وغطّت الأرضيّة المرصوفة بالحجارة أوراق الشجر وروث الحيوانات، وفضلات الطيور على اختلاف أنواعها، حيث كانت تهيم داخلةً خارجة. أمّا الألواح الزجاجيّة فلم يعد لها من وجود على

النوافذ الجورجيّة[1] الجميلة بعد أن هشّمها ليون وأصدقاؤه في أواخر العشرينيّات، وأصبحت الكوّات الطويلة، التي كانت تحتوي ذات يوم على تماثيل، فارغةً باستثناء قاذورات شبكات العناكب، ولم يعد فيها من أثاث سوى مصطبة جيء بها من ملعب الكريكت الخاصّ بالقرية ـ مرّة أخرى، ليون الشابّ وأصدقاؤه المشاكسون في المدرسة وقد كسرت قوائم المصطبة واستخدمت لكسر زجاج النوافذ، وظلّت مرميّة خارجًا، أكوامًا، لتتحلّل برقّة إلى تراب وسط كسَرِ الزجاج التي لا تبلى.

ومثلما كان سرادق المسبح الكائن من خلف مبنى الإسطبل يحمل ملامح المعبد نفسه، فإنّ المعبد كان يفترض فيه أن يجسّد ما يشير إلى بيت آدم الأوّل.

على الرّغم من أنّ أحدًا ما من أسرة تاليس لم يكن يعرف شيئًا عن ذلك، ربّما يكمن ذلك في أسلوب بناء العمود أو المثلّث في أعلى المبنى، أو أبعاد النوافذ. وفي أوقات مختلفة، وإن كان معظمها يصادف أيّام عيد الميلاد، حين تكون الأمزجة في أفضل حالاتها، كان أفراد الأسرة يعدون وهم يتنزّهون من فوق الجسور بتقصّي الموضوع، لكن ما من أحد اهتمّ بطرح الزمان جانبًا عند بداية السنة الجديدة. وفضلاً على كون المعبد آيلاً للسقوط، فإنّ هذه الصلة، هذه الذكرى الضائعة عن صلة المعبد العظيمة هي التي أضفت على المبنى الصغير، الذي لا نفع من ورائه، مظهره الحزين. لقد كان المعبد يتيمًا تركته سيّدة مجتمع راقية، وبعد أن أصبح الآن يفتقر إلى من يهتمّ به ويرعاه، فإنّ هذا الطفل اليتيم شاخ قبل أوانه، وترك نفسه ليموت. ثمّة بقعة دخان صغيرة، يصل ارتفاعها قامة إنسان، على جدار خارجي حيث أضرم أفّاقان متسكّعان النار ليشويا فوقها سمكة كارب لم تكن ملكهما. وعلى مدى زمن طويل ثمّة حذاء ثقيل مرمي على العشب ظلّت الأرانب تقضمه، لكن

(١) الجورجيّة Georgian: نسبة إلى العهد الجورجي في بريطانيا، وهو عهد الملوك الذين حملوا الاسم جورج (المترجم).

عندما نظرت بريوني إلى المكان، في هذا اليوم، رأت أنّ الحذاء اختفى كما يختفي كلّ شيء في نهاية المطاف. إنّ فكرة كون المعبد، بمظهره الأسود الخاصّ به، قد حزن على المبنى المحترق، وأنّه مشتاق إلى حضور بهي، وغير مرئي، أضفت عليه مسحة دينيّة إلى حدٍّ ما. لقد أنقذت المأساة المعبد من كونه زائفًا تمامًا.



يصعب توجيه النقد زمنًا طويلاً، من دون أن تكون هناك قصّة تفرض نفسها. وسرعان ما بدت بريوني مستوعبةً وراضيةً، وإن كانت واجمة، حتى لو بدت أمام العالم وكأنّها فتاة في قبضة حالة مزاجيّة رهيبة، لقد عثرت على غصن نحيل من أغصان شجرة بندق وعمدت إلى تنظيفه. ثمّة عمل أمامها، فبدأت تنشغل به. وهنا لاح أمامها قرّاص[1]، طويل القامة، أنيق المظهر متهدّل الرأس، خجلاً، باسط الذراعين إلى الجانب كأنّهما ذراعان تحتجّان على البراءة ـ إنّه لولا. على الرّغم من أنّها ناشدت الرحمة فإنّ ضفيرتها المتأرجحة الكاذبة، التي يبلغ طولها ثلاثة أقدام، انسابت إلى أسفل حتى شارفت ركبتيها، وجعلت مؤخّرتها تتمايل. هذا المشهد يبعث على مرضاة لا يمكن تجاهلها. أمّا بقيّة القرّاص فكانوا هم لولا أيضًا. مالت إلى أمام لتهمس في أذن جارتها وقد بدت على شفتيها كذبة هائلة. ها هي ثانية واقفة على بعد مسافة قصيرة من الآخرين، مائلة الرأس على نحو ينمّ عن تدبير سيّئ، تآمرت وتسلّطت على مجموعة من المعجبين تنشر الشائعات عن بريوني، شيء يدعو إلى الأسف، لكن على المعجبين أن يموتوا وإيّاها. ثم نهضت ثانية، ضيّقة

---

(١) مؤلّف الرواية، كما يبدو، مولع بالتشبيهات الغريبة التي يتعذّر فهمها في لغة النصّ الروائي الأصلي، فكيف بالترجمة إلى العربيّة، وهنا نراه يشبّه لولا بالقرّاص، والقرّاص نبات من فصيلة القرّاصيّات ينمو بخاصّة حول المساكن وفي الحدائق، له شوك على شكل شعور دقّاق إذا مسّها الإنسان بيده غرزت فيها وانكسرت وسالت منها عصارة مؤلمة تحرق اليد، يؤكل وهو مطبوخ، والعامّة عندنا تسمّيه «قرّيص»، والتشبيه واضح في معناه كما لا يُخفى على القارئ (المترجم).

الوجه بسبب خطاياها: الكبرياء، النهم، الطمع، عدم التعاون. ودفعت ثمن كلّ خطيئة من هذه الخطايا حياة. وكان آخر أعمالها الوقحة هو أنّها هوت على قدمي بريوني ولدغت أصابعها، وبعد أن ظلّت لولا ميتة مدّة كافية، تمّت التضحية بثلاث من القرّاص بسبب عدم كفاءة التوأمين ـ كان القصاص غير متحيّز، ولم يمنح الأطفال أيّ امتياز، ثم أضحى التأليف المسرحي قرّاصًا بدوره، بل أكثر من قرّاص: الضحالة، الوقت الضائع، وفوضى العقول الأخرى، ولا جدوى من التظاهر ـ إنّها شوك في حديقة الآداب ولا بدّ من موتها.

لم تعد مؤلّفة مسرحيّة. سارت من حول المعبد وقد راودها إحساس بارتياح أكبر لهذه الأفكار، حذرةً من كِسر الزجاج، تشقّ طريقها على امتداد الحافّة حيث شظايا الزجاج فوق النباتات العشبيّة النامية على غير انتظام من بين الأشجار. وأمسى سلخ نبات القرّاص تطهيرًا للذات. وانطلقت نحو الطفولة الآن بعد أن انتفت حاجتها إليها. وجسّد نموذج واحد مفرط في الطول والنحول كلّ ما كانت ترنو إليه حتى هذه اللحظة، لكنّ هذا ليس بكافٍ. ثبّتت قدميها بقوّة بين الأعشاب وتخلّصت من ذاتها القديمة سنة بعد أخرى بثلاث عشرة ضربة، وقطعت تبعيّتها الطفوليّة المريضة، وبواكير صباها، ورغبتها وهي تلميذة مدرسة في الزهو والتباهي وفي تلقّي عبارات الإطراء والإعجاب، ولا تزال كبرياء السنوات الإحدى عشرة السخيفة مبثوثة في قصصها الأولى، واعتمادها على رأي والدتها الإيجابي فيها. تطايرت هذه كلّها من حول كتفها اليسرى وحطّت قرب قدميها، وأصدرت حافّة الضفيرة الرقيقة صوتًا بنغمتين وهي تشقّ الهواء. كفى! هذا ما جعلتها تقوله، كفى! خذي هذا!

وعلى الفور كان العمل هو الذي استحوذ عليها، وكذلك تقرير الصحيفة الذي حرّرته على إيقاع ضرباتها التي جاءت كيفما اتّفق، لا أحد في العالم يمكنه أن يحقّق ذلك على نحو أفضل ممّا تحقّقه بريوني تاليس التي ستمثّل بلدها في

العام المقبل في الألعاب الأولمبيّة ببرلين. كانت متأكّدة من أنّها ستفوز بالذهب، درسها الناس عن كثب، وأثار أسلوبها إعجابهم، وكذلك اختبارها أن تكون حافية القدمين لأنّ ذلك يحسّن من توازنها ـ وهو أمر مهمّ في هذه الرياضة الكثيرة المتطلّبات ـ إذْ يؤدّي كلّ إصبع من أصابع القدمين دوره. وما كان أحد ليضاهيها في الطريقة التي كانت تتقدّم بها، ولم تفرقع يدها إلاّ في نهاية الشوط، ولا في الأسلوب الذي وزّعت فيه ثقلها واستخدمت دوران ردفيها للحصول على قوّة مضافة، وعادتها الواضحة في مدّ أصابع يدها الحرّة. عصاميّة وأصغر بنات موظّف حكومي سابق. انظروا إلى التركيز البادي على وجهها، واحكموا من خلال الزاوية، لا تتفادى أيّة ضربة وتأخذ كلّ قرّاص بدقّة لا تعرف الرحمة. الوصول إلى هذا المستوى يتطلّب من المرء أن يهب له حياته، وكانت توشك أن تهدر تلك الحياة في التأليف المسرحي!

وفجأة أدركت الفخّ الكامن من ورائها يقعقع فوق الجسر الأوّل. ليون أخيرًا. شعرت بعينيه ترنوان إليها: أهذه هي الأخت الصغيرة التي رآها آخر مرّة في محطّة واترلو قبل ثلاثة أشهر، وأضحت الآن واحدة من النخبة؟ أمّا هي فلن تسمح لنفسها بالالتفات والتعبير عن شكرها له: عليه أن يعرف أنّها مستقلّة الآن برأيها عن آراء الآخرين، حتى رأيه هو نفسه، إنّها سيّدة عظيمة ضاعت في تفاصيل فنّها. زد على ذلك أنّه مضطرّ إلى أن يوقف الفخّ، وأن يهبط مهرولاً إلى الضفّة، وأنّ عليها أن تتحمّل بألم هذا الانقطاع عن طيب خاطر.

ظنّت أنّ تلاشي صوت العجلات والحوافر على الجسر الثاني يثبت أنّ أخاها كان يعرف معنى البعد والاحترام المهني. على أيّة حال، خيّم عليها شيء من الحزن وهي تنطلق مبتعدة وتسلك طريقًا يدور من حول معبد الجزيرة، حتى توارت عن أنظار كلّ من يسير في الطريق، ثمّة خطّ خشن من نباتات مقطوعة على العشب يؤشّر تقدّمها في السير، تمامًا مثل الأورام اللاسعة على قدميها وكاحلها. كانت ضفيرتها البندقيّة اللون تطلق أغنيتها، في

حين تطايرت الأوراق والسيقان. لكن كان يصعب تذكّر صيحات الحشود وهتافاتهم. كانت الألوان تتلاشى من وسط فانتازيّاتها، وبهتت لذّة حبّ الذّات عندها في الحركة والتوازن، في حين شعرت بألم في ذراعها. لقد أصبحت فتاة وحيدة تضرب نباتات القرّاص بعصًا، ولكنّها توقّفت أخيرًا ورمت بها صوب الأشجار، ونظرت إلى ما حولها.

كان ثمن حلم اليقظة المنسيّ يتمثّل دومًا في لحظة الاستيقاظ منه والانسجام مع ما كان سائدًا قبله، بل بدا كلّ شيء الآن أسوأ قليلاً ممّا كان عليه سابقًا. وبات استغراقها في التفكير الحالم، الذي كان ثريًّا بتفاصيله اللذيذة، سذاجةً عابرةً أمام كتلة الواقع الصمّاء. يصعب عليها الاستيقاظ منه الآن. استيقظي! هكذا كانت أختها تهمس في أذنها عندما كانت توقظها إثر حلم مزعج. لقد فقدت بريوني قوّتها الجبّارة في الخلق، لكنّ الضياع لم يصبح واضحًا إلاّ في هذه اللحظة من الاستيقاظ. إنَّ جزءًا من الإغواء الذي يكتنفه حلم اليقظة ينطوي على وهم مفاده أنّها عاجزة أمام منطقه: إنَّ اضطرارها إلى هذا التنافس الدولي، وعلى أعلى المستويات، مع أفضل المتنافسين في العالم، وقبولها التحدّيات التي تأتي، مع التفوّق في ميدانها ـ ميدانها في القضاء على نباتات القرّاص ـ والاندفاع إلى ما وراء حدودها لتهدئة العالم الصخّاب، يجعلها تسعى إلى أن تكون الأفضل. والأهمّ من ذلك أن تكون المتفوّقة الوحيدة، لكنّها عادت الآن إلى العالم الواقعي، لا العالم الذي يمكنها أن تصنعه، بل العالم الذي صنعها هي، شعرت أنّها تنكمش تحت سماء ذلك الأصيل المبكّر. شعرت بالإعياء لأنّها في الهواء الطلق، لكنّها غير مستعدّة للدخول. أليس في الحياة شيء آخر غير الداخل والخارج؟

أليس هناك من مكان آخر يلجأ إليه الناس؟ ولَّت ظهرها معبد الجُزيرة، وهامت على وجهها قليلاً فوق العشب الجميل الذي صنعته الأرانب، واتّجهت صوب الجسر. وشاهدت أمامها تحت نور الشمس الواطئة سحابة من حشرات تقفز كلّ واحدة منها على غير انتظام وكأنّها مثبّتة على خيط غير مرئي من مادّة

البلاستيك. رقصة غامضة، أو حيويّة حشرة لا غير هي التي تحدّتها في أن تجد معنًى لهذا. امتلأت روحها بمقاومة ثائرة، وارتقت المنحدر المعشوشب المؤدّي إلى الجسر. وعندما وقفت على الطريق الفرعي قرّرت أن تبقى في مكانها، وأن تنتظر إلى أن يحدث شيء مهمّ لها، هذا هو التحدّي الذي رمت به أمام الوجود ـ لن تتحرّك قيد أنملة، ولن تذهب لتناول العشاء، ولن تستجيب لنداء أمّها بأن تدخل المنزل. سوف تنتظر على الجسر بكلّ بساطة، بهدوء وعناد، إلى أن ترقى الأحداث، الأحداث الحقيقيّة وليس فانتازيّاتها، إلى مستوى تحدّيها وتطرد عنها تفاهتها.

* * *

الفصل الثامن

مع إطلالة الأصيل، اتّخذت السحب العالية في الجزء الغربي من السماء شكل طبقة رقيقة صفراء اللون، ازدادت عمقًا بمرور الوقت، وازدادت كثافة إلى أن ترشّح عنها ألقٌ برتقالي اللون خيّم من فوق قمم الأشجار العملاقة في رحبة الأرض المحيطة بالمنزل، وتحوّل لون الأوراق الخضر إلى بنّي بلون الجوز، ولون الأغصان من بين النباتات الكثيفة إلى أسود دهني، في حين اكتسبت الحشائش اليابسة لون السماء. لعلّ رسّامًا من المدرسة الوحشيّة[1]، كرَّس نفسه للون غير واقعي يتخيّل منظرًا طبيعيًّا بهذا الأسلوب، خاصّةً عندما تتّخذ السماء والأرض لونًا محمرًّا، وتغدو الجذوع الخشبيّة لأشجار الجوز، الموغلة في القدم، ذات لون أسود يميل إلى أن يكون بلون الحبر الأزرق الغامق. وعلى الرّغم من أنّ الشمس وهنت وهي تميل إلى الغروب، فإنَّ درجة الحرارة بدت وكأنّها ترتفع، لأنّ النسمة التي حملت معها

---

(١) الوحشيّة Fauvism: مدرسة في الرسم أطلق اسمها على مجموعة من الرسّامين الفرنسيّين الشباب في العقد الأوّل من القرن العشرين بزعامة هنري ماتيس (١٨٦٩ ـ ١٩٤٩) مؤثّرات فان كوخ واضحة المعالم في أعمال فنّانيها التي تميّزت بألوان برّاقة وبساطة في التعبير، فضلاً عن الأشكال المشوّهة. أطلق الناقد الفنّي الفرنسي لوي فوكسل هذا الاسم عليها عندما شاهد معرضًا فنّيًا يضمّ رسومًا برّاقة في ألوانها، إلى جانب تمثال يشبه التماثيل الإيطاليّة التي ترقى إلى القرن الخامس عشر (المترجم).

قدرًا من الانتعاش طوال النهار تلاشت وأضحى الهواء ساكنًا ثقيل الوطأة.

كان المشهد، أو جزءٌ منه، باديًا أمام روبي تيرنر من خلال كوّة النافذة المغلقة لو أنّه كلّف نفسه عناء الوقوف في مكانه في الحمّام وثنى ركبتيه ولوى عنقه. ظلّت غرفة نومه وحمّامه والمقصورة الكائنة بينهما التي يسمّيها مكتبه مشويّة كلّها تحت المنحدر الجنوبي لسطح البيت. وظلّ على مدى ساعة كاملة، منذ رجوعه من العمل، مستلقيًا في حمّامه الفاتر الماء، على حين عملت دماؤه، كما بدا، وأفكاره، على تدفئة الماء، وتحوّلت من فوقه قطعة السماء المؤطّرة بإطار الكوّة المستطيل، على نحو بطيء، من اللون الأصفر إلى اللون البرتقالي، تمامًا مثلما تحوّل هو بمشاعره غير المألوفة ورجع القهقرى إلى ذكريات معيّنة مرّات ومرّات، ما من شيء يثير الملل. وبين الفينة والفينة وعلى عمق بوصة واحدة من تحت سطح الماء، توتّرت عضلات بطنه على نحو لا إرادي عندما بدأ يتذكّر تفاصيل أخرى.

قطرة ماء على عضدها بلّل زهرة منقوشة من نوع الأقحوان العاديّة بين نهديها الصغيرين والمتباعدين، وعلى ظهرها ثمّة شامة مغطّاة إلى حدٍّ ما بشريط حمّالة صدر.

عندما خرجت من مياه البركة لاح جزء من سواد مثلّثها الذي يُفترض بلباسها الداخلي أن يخفيه، بلل. رأى ذلك. وحمل نفسه على رؤيته ثانية، ورؤية العظام الحوضيّة التي مطّت لباسها فبانت بشرتها وتقوّست خاصرتها، وبياضها الصاعق. ولمّا مدّت يدها لتمسك بتنّورتها كشفت قدمًا ارتفعت عن الأرض بلا مبالاة عن قليل من الرمل فوق كلّ إصبع من أصابع قدميها الصغيرة. ثمّة شامة أخرى بحجم ربع بنس على فخذها، وبقعة ذات لون يميل إلى البنفسجي على ربلة ساقها، علامة بلون الفراولة، ندبة، ليست شائبة بل زينة.

كان قد عرفها مذ كانا طفلين، ولكنّه لم يرمقها بنظرة قطّ. وفي كيمبردج زارته في غرفته ذات يوم برفقة فتاة نيوزيلنديّة تضع نظّارات على

عينيها، وفتاة أخرى من مدرستها، وذلك عندما كان في صحبته صديق من داوننغ، وأنفقوا ساعة من الوقت يلقون بنكات عصبيّة، ويشاركون في تدخين السكائر. وكانا يلتقيان أحيانًا في الشارع فيتبادلان الابتسامات، غير أنّها كانت تجد الوضع حرجًا دائمًا، إذْ قد تهمس في آذان صديقاتها، وهي تسير معهنّ، بأنّه ابن خادمتهم في البيت. كان يحبّ أن يعرف الناس أنّه لا يكترث، وقال ذات مرّة لأحد أصدقائه مشيرًا إليها بأنّها ابنة المرأة التي تعمل أمّه عندها. كانت لديه أفكاره السياسيّة التي تحميه، ونظريّاته الطبقيّة المستندة إلى أسس علميّة، فضلاً على إيمانه بذاته. أنا ما أنا عليه، إنّها مثل أخت غير مرئيّة تقريبًا، ذلك الوجه الطويل والدقيق والفم الصغير ـ لو أنّه فكّر فيها يومًا ما، لقال إنّها فرس صغيرة من حيث المظهر، أمّا الآن فقد رأى جمالاً غريبًا ـ الوجه مقوّس، ولا يزال هادئًا، لا سيّما في منطقة السهلين المنحدرين لعظام وجنتيها، فضلاً عن اتّساع فتحتي منخريها، وفمها المكتنز المتألّق الذي يشبه برعم وردة. وكانت عيناها سوداوين مستغرقتين في التأمّل، مظهرها أشبه بتمثال، لكن حركاتها سريعة تشي بنفاد صبر ـ كان من شأن تلك الزهريّة أن تبقى قطعة واحدة لو لم تجذبها بقوّة، وعلى نحو مفاجئ، من بين يديه. الواضح أنّها كانت قلقة، ضجرة، أسيرة منزل آل تاليس، وسرعان ما سوف ترحل.

لا بدّ له من أن يكلّمها. أخيرًا نهض من الحمّام مرتعشًا، مؤمنًا بأنّ تغيّرًا كبيرًا سيطرأ عليه بلا أدنى ريب. سار عاريًا واجتاز مكتبه، ومنه إلى غرفة نومه. السرير في حالة فوضى، الملابس مبعثرة، منشفة فوق الأرض، ودفء الغرفة الاستوائي، بعثت كلّها فيه متعة حسّيّة شلّتهُ عن الحركة. استلقى فوق سريره، وجهه فوق الوسادة، وتأوّه: يا لعذوبتها، صديقة طفولته التي باتت الآن صعبة المنال. يا لعريها على ذلك النحو! نعم، محاولتها المحبّبة لكي تبدو غريبة الأطوار ومحاولتها لأن تبدو جريئة ذات طبيعة مبالغٍ فيها، محلّيّة الصنع، سوف تتألّم الآن من شدّة الندم، ولن يكون في وسعها معرفة ما فعلته

به، لكن لا بأس بهذا كلّه، وسيتمّ إنقاذ ما يمكن إنقاذه إن لم تكن غاضبة منه بسبب الزهريّة التي انكسرت بين يديه، لكنّه مغرم بهيجانها أيضًا. انقلب على جنبه، ثابت العينين، وبدا مستغرقًا في فانتازيا سينمائيّة. تخيّلها وهي تضربه على ياقة سترته قبل أن تستسلم له وهي تجهش بالبكاء بين ذراعيه وتدعه يقبّلها، إنّها لم تغفر له صنيعه، بل استسلمت لا غير. راقب هذا المشهد كثيرًا قبل أن يعود إلى الواقع، إنّها غاضبة منه، وستكون أشدّ غضبًا عندما تعلم أنّه سيكون أحد الضيوف على العشاء، ولم يفكّر، وهو تحت الضوء الساطع، في رفض دعوة ليون. وكان قد قبل الدعوة على نحو آلي، عليه الآن أن يواجه امتعاضها. تأوّه ثانية، ولم يهتمّ إن كان أحدٌ ما سيسمعه في الطابق السفلي عندما تذكّر كيف خلعت ثيابها أمامه بلا مبالاة كأنّه طفل رضيع، رضيع حقًّا، فقد أدرك ذلك الآن. كان الهدف من الفكرة إذلاله، فالحقيقة ماثلة لا سبيل إلى إنكارها: الإذلال. لقد أرادت أن تذلّه، فهي ليست رائعة وحسب، ولم يستطع أن يتنازل لها ويعاملها بلطف وكياسة، لأنّها كانت قويّة، في وسعها أن تُخرجه من أعماقه وتُلقي به إلى تحت.

انقلب على ظهره، وفكّر أنّه ربّما لا يتعيّن عليه أن يصدّق ثورتها وهيجانها. ألم يكن ذلك استعراضًا مسرحيًّا مبالغًا فيه؟ المؤكّد أنّها كانت ترمي إلى شيء ما أفضل، حتى في حالة غضبها، فقد أرادت، حتى في غضبها، أن تُظهر له كم هي جميلة فتربطه بها. كيف يمكنه أن يثق بمثل هذه الفكرة التي لا تخدم إلاّ نفسها، والمستمدّة من الأمل والرغبة؟ إنّه مضطرّ إلى ذلك. وضع ساقًا فوق ساق، وشبك يديه وراء رأسه، وشعر بجسمه يبرد وهو يجفّ من الماء، ما الذي يمكن أن يقوله فرويد؟ ما رأيكم بهذا القول: لقد أخفت رغبتها اللاواعية لتكشف عن نفسها أمامه من وراء عرض مزاجيّ، أمل يبعث على الرثاء! تجرّدٌ من الحيويّة، عقاب، وهذا العقاب الذي أُنزل عليه، بسبب كسره زهريّتها السخيفة، لا ينبغي له أن يراها ثانية أبدًا، لكنّه مضطرّ إلى رؤيتها في هذه الليلة، ليس له أيّ خيار آخر، سيذهب، سوف تحتقره لمجيئه.

كان يتعيّن عليه رفض دعوة ليون، لكن في اللحظة التي دُعي فيها تسارعت دقّات قلبه وانطلقت من فمه كلمة الموافقة، سيكون وإيّاها داخل إحدى الغرف، وسيكون الجسد الذي رآه، والشامات، وامتقاع لون بشرتها، وعلامة الفراولة، مخفيّة كلّها داخل ثيابها، وحده هو الذي سوف يعرف، وإميلي أيضًا. لكنّه لن يفكّر إلاّ فيهما، ولن تكلّمه سيسليا، ولن تنظر إليه، ومع ذلك فهذا أفضل من الاستلقاء هنا والتأوّه. لا ليس كذلك، سيكون ذلك أسوأ، لكنّه يفضّله برغم ذلك، لا بدّ أن يحدث ذلك، فهو يريد ما هو أسوأ.

أخيرًا، نهض من مكانه شبه عارٍ، وذهب إلى مكتبه، وجلس من وراء آلته الكاتبة مفكّرًا في نمط الرسالة التي ينبغي له أن يكتبها لها. كان مكتبه، شأنه شأن غرفة النوم والحمّام، محشورًا تحت سقف البيت، ولم يكن إلاّ أشبه بممرّ يفصل بين غرفة النوم والحمّام لا يزيد طوله عن ستّة أقدام وعرضه عن خمسة أقدام، ويحتوي على كوّة، كما في غرفة النوم والحمّام، ذات الإطار المصنوع من خشب الصنوبر الجافّ. وفي أحد الأركان تكوّمت حاجيّاته: الحذاء الثقيل، والعصا الطويلة المدبّبة، وحقيبة الظهر. وكانت ثمّة منضدة، تحمل كثيرًا من الندب التي صنعتها السكاكين، قد احتلّت معظم مساحة المكان. دفع كرسيّه إلى الوراء ورنا إلى مكتبه كأنّه يرنو إلى الحياة. ففي إحدى نهايتيه تكوّمت الملفّات والدفاتر التي استعملها في الأشهر الأخيرة من استعداداته لأداء الامتحان النهائي، واتّكأت على السقف المائل. لن يُفيدنا ثانية من هذه الملاحظات، لكنّ هناك عملاً كثيرًا، ونجاحًا كبيرًا مرتبطًا بها، ولا يملك الشجاعة لرميها خارجًا بعد، وعلى مقربة منها انتشرت بعض الخرائط التي يستعملها أثناء ترحاله وتجواله، وهي خرائط شمال مقاطعة ويلز، وهامشاير، وساري، والرحلة التي تخلّى عنها إلى اسطنبول. وهناك بوصلة ذات مرآة استخدمها ذات يوم للسير بلا خرائط إلى منطقة لا لورث كوف.

وإلى جانب البوصلة بعض النسخ الخاصّة به من ديوان «قصائد» للشاعر

أودن[١]، وديوان «فتى شروبشاير» للشاعر هاوسمان[٢]. وعند نهاية المنضدة بعض الكتب المختلفة عن التاريخ والمسائل النظريّة والبستنة. وهناك عشر قصائد مطبوعة تحت قصاصة رفض مطبوعة صادرة عن مجلّة كرايتيريون[٣]، وعليها توقيع بالأحرف الأولى من اسم السيّد إليوت نفسه، وعلى مقربة من المكان الذي جلس فيه روبي كانت هناك مجموعة من الكتب التي بدأت تُثير اهتمامه مؤخّرًا. وكان كتاب التشريح لغراي[٤] قد استهلّ برسومه، إذْ عقد العزم على أن يتقن الرسم وأن يلتزم بذكرى عظام يديه. حاول أن يشتّت ذهنه بعيدًا، وذلك بتقليب بعض الصفحات وترديد الصفات: متضخّم، ثلاثي،

---

(١) ويستان هيو أودن (١٩٠٧ ـ ١٩٧٣) Wystan Hugh Auden: شاعر بريطاني يساري النزعة، درس في أوكسفورد وأصبح فيها زعيم مجموعة من شعراء جيله، عاش في برلين في ظلّ جمهوريّة فايمار في وقت بدأ فيه صعود النازيّة. أشعاره الأولى تتّسم بالنقد الاجتماعي والاحتجاج، وتظهر فيها مؤثّرات التحليل النفساني والأفكار الماركسيّة. نشر ديوان «قصائد» في ١٩٣٠، هاجر إلى الولايات المتحدة في ١٩٣٩، وحصل على الجنسيّة الأميركيّة. من دواوينه الأخرى رسالة «السنة الجديدة» ١٩٤١، و«عصر القلق» ١٩٤٨، و«درع أخيل» ١٩٥٩ و«عن البيت» ١٩٦٦ (المترجم).

(٢) ألفرد إدوارد هاوسمان (١٨٥٩ ـ ١٩٣٦) Alfred Edward Housman: أستاذ اللغة اللاتينيّة في جامعة كيمبردج ومؤلّف ثلاثة مجلّدات من القصائد الغنائيّة اشتهرت بسبب بساطتها وكلماتها المقتضبة وهي: «فتى شروبشاير» ١٨٩٦، «قصائد أخيرة» ١٩٢٢، و«قصائد أخرى» ١٩٣٦، تعدّ مقالته الرائعة «اسم الشعر وطبيعته» (١٩٣٢)، من أروع المقالات النقديّة، وكانت موضوع جدل طويل عند نشرها أوّل مرّة (المترجم).

(٣) مجلّة كرايتيريون The Criterion: دوريّة أدبيّة أسّسها الشاعر والكاتب المسرحي تي. إس. إليوت سنة ١٩٢٢، وظلّ رئيسًا لتحريرها حتى توقّفها عن الصدور في ١٩٣٩ (المترجم).

(٤) هنري غراي (١٨٢٧ ـ ١٨٦١) Henry Gray: طبيب إنكليزي وضع كتابًا منهجيًّا باللغة الإنكليزيّة عن تشريح جسم الإنسان بعنوان Anatomy Descriptive and Surgical أصبح فيما بعد يُعرف بالكلمة الأولى من العنوان وهي Anatomy وبات مرجعًا كلاسيكيًّا في موضوعه إثر نشره أوّل مرّة في إنكلترا سنة ١٨٥٨. أُصيب المؤلّف بمرض الجدري عندما كان يعالج أحد أقربائه من المرض بعد إصابته به، فقضى عليه وهو في سنّ الرابعة والثلاثين (المترجم).

هلالي. . . كانت أفضل لوحاته حتى الآن مرسومة بالحبر والأقلام الملوّنة، تُظهر المريء والقصبات الهوائيّة إلى الرئتين. ثمّة إبريق من القصدير بلا مقبض يحتوي على كلّ أقلام الرصاص والحبر، أمّا الآلة الكاتبة فحديثة نسبيًّا ومن طراز أُوليمبيا، قدّمها له جاك تاليس هديّةً لمناسبة عيد مولده الحادي والعشرين، في حفل غداء أُقيم في المكتبة. وكان ليون قد ألقى كلمة بالمناسبة، مثلما ألقى والده كلمة أيضًا، وكانت سيسليا حاضرة على وجه التوكيد، لكنّ روبي لا يمكنه أن يتذكّر كلمة واحدة ربّما كان تبادلها وإيّاها. أترى ذلك هو سبب غضبها الآن ـ فهو قد تجاهلها طوال الأعوام؟ أملٌ آخر يبعث على الرثاء.

انتشرت على أطراف مكتبه البعيدة بعض الصور: ممثّلو مسرحيّة الليلة الثانية عشرة[1]، وهم واقفون فوق العشب، كان هو قد أدّى دور مالفوليو، يا له من دور مناسب له. وهناك لقطة أخرى جماعيّة يظهر فيها برفقة ثلاثين طفلاً فرنسيًّا، كان معلّمًا لهم في إحدى المدارس الداخليّة بالقرب من ليل[2]. وثمّة صورة لوالديه مؤطّرة بإطار معدني جميل يشوبه لون الزنجار: غريس وإيرنست، ثلاثة أيّام بعد زفافهما، ويطلّ من ورائهما الجناح الأمامي لسيّارة ـ المؤكّد أنّها ليست سيّارتهما، وإلى جهة أبعد فرن لتجفيف حشائش الدينار يهيمن على سور من الآجرّ. كان شهر عسل رائعًا. هذا ما قالته غريس دومًا. أسبوعان مضيا، وهما يلتقطان حشائش الدينار مع أسرة زوجها، ويناماً في كرفان للغجر يجثم في فناء إحدى المزارع. كان والده يرتدي قميصًا بلا ياقة،

---

(١) الليلة الثانية عشرة Twelfth Night: إحدى كوميديّات الشاعر والمسرحي شكسبير، عُرضت أوّل مرّة على المسرح بين ١٦٠٠ ـ ١٦٠١، وطُبعت أوّل مرّة في ١٦٢٣، قصّتها مأخوذة عن حكاية وردت في هيكاتوميثي للكاتب سينثيو، أو عن بانديلو، أو بيلفورست. تضمّ المسرحيّة أجمل القصائد الغنائيّة التي أبدعها شكسبير (المترجم).

(٢) ليل Lille: مدينة في فرنسا بفلاندرا، قاعدة محافظة ومرفأ نهري ومركز زراعي وصناعي. تؤلّف مع روبيه مجمّعًا صناعيًّا، تشتهر بصناعة النسيج والجعة والسكّريّات والشوكولا (المترجم).

وربّما كانت للفاع عنقه والحزام الحبلي الذي يلفّ بنطاله القطني مسحة غجريّة. رأسه ووجهه مدوّران، لكنّه لم يكن مبتهجًا تمامًا، لأنّ ابتسامته أمام عدسة التصوير لم تكن نابعة من أعماق قلبه إلى الحدّ الذي يفترّ فيه ثغره عن الابتسامة. وبدلاً من أن يمسك يد عروسه الشابّة كان قد ثنى ذراعيه. أمّا هي فكانت بخلافه تميل إليه، يتّكئ رأسها على كتفه، تمسك بقميصه من مرفقه بيديها الاثنتين على نحو أخرق. كانت غريس الطلقة المُحيّا والثابتة العزم دائمًا تبتسم بالإنابة عن الاثنين، لكنّ الأيدي التلقائيّة والروح الطيّبة لا تكفي لوحدها، إذْ كان يبدو من الصورة أنّ ذهن إيرنست في مكان آخر يفكّر في الصيف السابع الذي سيحلّ عليه، والذي يسبق المساء الذي سيتخلّى فيه عن عمله بوصفه بستانيّ آل تاليس، ويبتعد عن البيت الريفي بلا أمتعة، بل بلا كلمة وداع يدوّنها على قصاصة ورق ويتركها على منضدة المطبخ، تاركًا بذلك زوجته وابنه البالغ ستّ سنوات يفكّران فيه طوال حياتيهما.

وفي مكان آخر تبعثرت مختلف الرسائل والبطاقات البريديّة بين ملاحظات منقّحة عن البستنة والتشريح: كوبونات[1] غير مدفوعة، ورسائل من أساتذة وأصدقاء يهنّئونه على تفوّقه، وهي رسائل لا يزال يجد سعادة كبيرة في قراءتها ثانية، ورسائل أخرى يستفسر كُتّابها عن خطوته التالية التي سيخطوها. وكانت آخر رسالة مكتوبة على ورق خاصّ بالدوائر الحكوميّة أرسلها جاك تاليس، يُعرب فيها عن موافقته على مساعدته في دفع أجور الدراسة في كلّيّة الطبّ. وهناك استمارات تقديم، وعددها أربعون استمارة، علاوة على دليل الطالب للتقدّم إلى الجامعات من جامعتي أدنبرة ولندن، بدا له أسلوبهما في الكتابة نذيرًا بنمط جديد في الصرامة الأكاديميّة، ولكنّها اليوم تعني له المنفى

(١) كوبونات غير مدفوعة Unpaid battels: كانت جامعة أوكسفورد تصدر هذه الكوبونات وتشمل السكن والإطعام، وغيرها من النفقات التي تتحمّلها كلّيّاتها أثناء الفصل الدراسي، بما فيها أجور الدراسة، وقد استخدمت الكلمة فيما بعد لتعني الحصص التموينيّة (المترجم).

وليس المغامرة أو البداية الجديدة. رآها من خلال ما ينطوي عليه المستقبل ـ شارع بشرفات بعيد عن هذا المكان، صندوق بورق جدران تزيّنه الأزهار، وخزانة ثياب موحشة، وغطاء فراش مطرّز بغزل قطني، الأصدقاء الجدد الجادّون أصغر منه سنًّا في معظمهم وعاء الفور مالديهايد، وقاعة المحاضرات ـ كلّ شيء يخلو من وجودها.

جذب كتابًا من الكتب الخاصّة بالطبيعة، وكان عن مدينة ڤرساي[(١)]، سبق له أن استعاره من مكتبة تاليس. كان ذلك اليوم هو اليوم الأوّل الذي اكتشف فيه مدى ارتباكه في حضرتها، فعندما انحنى ليخلع حذاء العمل قرب الباب الأمامي أدرك حالة جوربيه ـ كانا مثقوبين عند أصابع قدميه وكعبه، وتنبعث منهما رائحة كريهة، فما كان منه إلاّ أن خلعهما بدافع تلقائي، وشعر آنذاك بمدى حمقه عندما سار من ورائها واجتاز الردهة ودخل المكتبة حافي القدمين. كانت الفكرة الوحيدة التي استبدّت به آنذاك هي أن يترك المكان بأسرع ما يستطيع. فهرب من المطبخ، واضطرّ إلى ملاقاة داني هاردمان من أجل أن يدور من حول البيت قاصدًا واجهة الدار ليأخذ حذاءه وجوربيه.

لعلّها لم تقرأ هذا البحث عن هيدروليكا مدينة ڤرساي الذي كتبه دانمركي من القرن الثامن عشر، وأطرى فيه بإفراط، وباللغة اللاتينيّة، عبقريّة لي نوتر[(٢)]. تمكّن روبي بمساعدة أحد المعاجم من قراءة خمس صفحات في صباح أحد الأيّام، ثم تخلّى عن القراءة واكتفى بالاطّلاع على الصور عوضًا عن ذلك. ليس هذا الكتاب من الكتب التي تفضّلها، بل ليس من الكتب التي يفضّلها أيّ شخص آخر، لكنّها كانت هي التي ناولته إيّاه من فوق سلّم

---

(١) ڤرساي Versailles: مدينة في فرنسا بضاحية باريس، قاعدة محافظة إيفلين. يعود الفضل في إنشائها إلى تصميم لويس الرابع عشر، اشتهرت بقصورها وحدائقها ومتاحفها، كانت مقامًا لملوك فرنسا، وفيها وُقّعت معاهدة ڤرساي في ١٩١٩ (المترجم).

(٢) أندريه لي نوتر (1700 - 1613) André Le Nôtre: معماري فرنسي اختصّ بتصميم الحدائق، وكان البستاني الأوّل لملك فرنسا لويس الرابع عشر. اشتهر أيضًا بتصميم قصر ڤرساي وبنائه. تشكّل أعماله قمّة أسلوب تصميم الحدائق الفرنسي (المترجم).

المكتبة، وكانت بصمات أصابعها على مكان ما من غلافه الجلدي. رفع الكتاب إلى أنفه وشمَّ رائحته متمنّيًا ألاّ يشمّه. غبار، ورق قديم، رائحة صابون على يديه، لكن لا شيء منها. كيف زحفت هذه الفكرة إليه؟ فكرة الهيام بأشيائها الخاصّة بها؟ المؤكّد أنّ فرويد كان لديه ما يقوله بهذا الصدد في كتابه «ثلاث مقالات عن الجنس». كذلك كلّ من كيتس[١]، وشكسبير، وبترارك[٢] وغيرهم. وكذلك في قصيدة «قصّة الوردة»[٣]. لقد أنفق ثلاثة أعوام يدرس دراسة جافّة الأعراض التي لم تبدُ أكثر من أعرافٍ أدبيّة، والآن ها هو في عزلته يصل كأنّه متودّدٌ، مطوّقٌ بالريش، ومتباهٍ، إلى حافّة الغابة ليفكّر في رمز مهمل، يعبد كلّ أثرٍ من آثارها ـ ليس منديلاً من مناديلها، بل بصمات أصابعها! ـ وهو يئنّ متوجّعًا بسبب ازدراء سيّدته.

ومع كلّ ذلك، فعندما وضع ورقة في الآلة الكاتبة لم ينس وضع ورقة

(١) جون كيتس (١٧٩٥ ـ ١٨٢١) John Keats: شاعر إنكليزي درس اللغة اللاتينيّة وقدرًا من الفرنسيّة والتاريخ، وبدأ بدراسة الجراحة، لكنّه تخلّى عنها بسبب شغفه بالأدب. نشر قصائده في مجلّة «ذا إكزامينر» في شهر مايس ١٨١٦ والتقى الشاعر شيلي الذي ساعده بدوره على نشر قصائده، أشهر ما كتبه من شعر «قصائد إنديميون» و«هايبريون ولاميا»، و«أغنية إلى عندليب»، و«أغنية عن الحزن». توفّي مريضًا بالسلّ، ورثاه شيلي برائعته «أدونيس» (المترجم).

(٢) بترارك (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤) Francesco Petrarch: شاعر إيطالي وهب نفسه لدراسة الآثار الكلاسيكيّة القديمة وشاركه في هذا الهوى صديقه بوكاشيو. وفي ١٣٤١، توّج في روما شاعرًا للبلاط. تراثه الأدبي يتألّف من أروع قصائد الحبّ التي نظمها علاوة على عدد كبير من الرسائل والبحوث المكتوبة باللاتينيّة (المترجم).

(٣) «قصّة الوردة» Romaunt of the Rose: قصيدة من ٧٧٠٠ بيت شعري، تُنسب إلى الشاعر الإنكليزي تشوسر، لكنّ الحقيقة هي أنّه لم يكتب إلاّ جزءًا منها (١٧٠٠ بيت) وهي ترجمة عن الفرنسيّة لقصيدة بالعنوان Roman de la Rose ويبلغ عدد أبياتها في الأصل ٢٢٠٠٠ بيت، موضوعها الرئيس الحبّ وفنونه، وقد بدأ بنظمها غيوم دي لوريس في النصف الأخير من القرن الثالث عشر، وأكملها جان دي ميونخ في مطلع القرن الرابع عشر، يبدو ناظم القصيدة مهتمًّا، في الجزء الثاني منها، بالحياة عمومًا بدلاً من الاهتمام بالحبّ وحده، ولا تخلو القصيدة من هجاء للمرأة تحديدًا (المترجم).

الكاربون، فكتب على الآلة التاريخ، والتحيّة، واستهلّ الرسالة باعتذار تقليدي عمّا بدر منه من «سلوك أخرق ومتهوّر»، ثم توقّف، هل يا ترى سيُظهر لها أيّة مشاعر؟ وإذا كان الأمر كذلك فعلى أيّ مستوًى؟

«إذا كان عذرًا، فإنّني لاحظت مؤخّرًا ليس إلاّ أنّني طائش في حضرتك، أعني، أنّني لم أدخل بيت أحدٍ من قبل وأنا حافي القدمين. لا بدّ أنّها الحرارة».

كم يبدو واهيًا هذا الطيش الذي يُدافع فيه عن نفسه! إنّه أشبه بإنسان مُصاب بحالة متقدّمة من مرض السلّ، ولكنّه يتظاهر بأنّه مُصاب بالبرد، عاد ليكتب من جديد:

«ما أقلَّه منْ هو عذر، فأنا أعرف ذلك، لكنّني أبدو، مؤخّرًا، متهوّرًا جدًّا إزاءك، ما الذي كنت أفعله وأنا أدخل منزلك حافي القدمين؟ وهل ترين أنّني كسرت من قبل حافّة زهريّة قديمة»؟

وضع يديه على مفاتيح الآلة الكاتبة، وواجه الواقع الذي يحثّه على كتابة اسمها ثانية:

«إنّني لا أستطيع أن ألوم الطقس الحارّ، يا سي»!

بدأت المزحة الآن تفسح المجال أمام الميلودراما، أو الحزن، والأسئلة البلاغيّة لها وقع الهواء الندي. وكانت علامة التعجّب الملاذ الأوّل أمام أولئك الذين يصيحون بأعلى أصواتهم ليوضحوا ما يريدون قوله، لقد تجاوز علامة التعجّب هذه في رسائل أمّه وحدها عندما كان يُشير صفّ من خمس علامات إلى مزحة طيّبة تُثير البهجة، إلاّ أنّه عاد مرّة أخرى وكتب الحرف X، ثم:

«أعتقد أنّني لا أستطيع أن ألوم الطقس الحارّ، يا سيسليا».

وبهذا أزال روح الفكاهة، وزحف إلى مكانها عنصر الشفقة على الذات؛ لا بدّ من إعادة وضع علامة التعجّب. الواضح أنّ المجلّد لم يكن عملها الوحيد.

شغل نفسه على غير طائل بمسوّدته مدّة ربع ساعة أخرى، وضع بعدها أوراقًا أخرى وبدأ يكتب على الآلة الكاتبة نسخة جديدة، وأصبحت الأسطر الحاسمة على النحو الآتي:

«سأغفر لك إن ظننت أنّي مخبول ـ أتجوّل في منزلك حافي القدمين، أو أخطف بحركة سريعة زهريّتك القديمة فتنكسر، الحقّ، أشعر بأنّني متهوّر وطائش في حضرتك، يا سي، ولا أعتقد أنّ في وسعي أن أوجّه اللوم للجوّ الحارّ! هلاّ سامحتني؟ روبي».

وبعد بضع لحظات من أحلام اليقظة، دفع بكرسيّه قليلاً إلى الوراء، وفكّر في الصفحة التي كان يميل فيه كتاب التشريح إلى الانفتاح، فما كان منه إلاّ أن مال إلى أمام، ودوّن قبل أن يتوقّف عن الكتابة، ما يأتي:

«في أحلامي أقبّل فرجك، فرجك العذب المبلّل، كما أفكّر في ممارسة الحبّ وإيّاك طوال النهار».

ها قد أفسد كلّ شيء، لقد أفسد ما كتبه، فجذب الورقة من الآلة الكاتبة ووضعها جانبًا، وكتب رسالته كتابة عاديّة، واثقًا بأنّ اللمسة الشخصيّة تلائم المناسبة. وفيما هو ينظر إلى ساعته تذكّر أنّه يتعيّن عليه أن يلمّع حذاءه قبل الخروج، فنهض من مكانه محاذرًا أن لا يرتطم رأسه بعارضة السقف.

لم يكن بعيدًا عن القلق الاجتماعي، بل كان قلقًا على نحو غير مناسب في رأي الكثيرين. ففي يوم من الأيّام، وأثناء عشاء في كيمبردج، وفي خضمّ صمت مطبق ران من حول المائدة، طرح شخص، كان يكره روبي، سؤالاً بصوت عالٍ عن أبويه، فما كان من روبي إلاّ أن حدّق في عيني الرجل وأجاب بكلّ سرور بأنّ والده ترك الأسرة منذ زمن طويل، وأنّ أمّه خادمة تعمل نهارًا، وأنّها تُعظّم دخلها بالعمل عرّافة بين حين وآخر. كان يبدو من لهجته أنّه سامح السائل على جهله، وبدأ يُطيل في شرح ظروفه، إلى أن انتهى بطرح سؤال مؤدّب عن والدي ذلك الرجل، وقال البعض إنّ براءة العالم أو جهله هي التي

حمت روبي من مساوئ ذلك العالم، وإنّه أشبه بمغفّل مقدّس في وسعه أن يجتاز غرفة الاستقبال التي توازي حرارتها حرارة فحم متّقد دون أن يُصيبه أذًى. إنّ الحقيقة، كما أدركتها سيسليا، أبسط من ذلك، فقد أنفق طفولته متنقّلاً بكلّ حرّيّة بين البيت الريفي الصغير والمنزل الكبير، وكان جاك تاليس راعيه، وكان ليون وسيسليا أفضل أصدقائه حتى المدرسة الثانويّة، في الأقلّ، وفي الجامعة اكتشف روبي أنّه أذكى من غيره ممّن التقاهم، فتحرّر تحرّرًا كاملاً، ولم يعد مضطرًّا إلى إظهار غطرسته.

كانت غريس تيرنر مسرورة باهتمامها بغسيله، ففيما خلا وجبات الطعام الحارّة، كيف يمكن للأمّ أن تظهر حبّها لطفلها البالغ ثلاثة وعشرين عامًا؟ لكنّ روبي كان يفضّل تلميع حذائه، فما كان منه إلاّ أن هبط السلالم القليلة مرتديًا قميصه القطني وسروال بذلته وجوربيه، حاملاً حذاءه من نوع بروغ. ثمّة فسحة صغيرة بجانب غرفة المعيشة تنتهي بباب زجاجي مُصنفر عند المدخل الأمامي، زيّن من خلاله ضوء امتزج باللونين البرتقالي والأحمر ورق الجدران ذا اللونين الزيتوني والبنّي الفاتح بنقوش تشبه خليّة النحل، توقّف... إحدى يديه تُمسك بقبضة الباب مندهشًا من التحوّل، ثم دلف. شعر أنّ الهواء داخل الغرفة كان رطبًا ودافئًا، ولاذعًا إلى حدٍّ ما، لا بدّ أنّ جلسة ما قد انتهت قبل قليل، كانت أمّه جالسة فوق الأريكة وقد تدلّى خفّها من قدميها فوق سجّادة الأرضيّة.

قالت:

ـ كانت مولي هنا.

ثم اعتدلت في جلستها لتبدو مؤنسة وأردفت:

ـ كما أنّني مسرورة لأخبرك بأنّها ستكون على ما يرام.

جلب روبي علبة تلميع الحذاء من المطبخ، وجلس فوق أقرب كرسيّ من والدته، ونشر صفحة من جريدة «الديلي سكيتش»، عمرها ثلاثة أيّام، فوق السجّادة.

قال:

ـ أحسنت. سمعت عن ذلك عندما كنت هناك، وذهبت للاستحمام.

كان يعلم أنّه ينبغي له الانصراف عمّا قريب، وأنَّ عليه أن يلمّع حذاءه، لكنّه مال إلى الوراء في كرسيّه بدلاً من ذلك، وتمطّى وتثاءب.

قال:

ـ متحرّر من شيء كريه! ما الذي أفعله بحياتي؟

كانت نغمة صوته تشي بروح الفكاهة أكثر ممّا تشي بالألم. ثنى ذراعيه ونظر مليًّا إلى السقف وهو يمسّد باطن إحدى قدميه بإبهام قدمه الأخرى.

كانت أمّه تحدّق في نقطة فوق رأسه.

قالت:

ـ بربّك، ثمّة شيء ما، ما خطبك؟ لا تقل لي «لا شيء».

أضحت غريس تيرنر منظّفة بيت أسرة تاليس، بعد أسبوع على مغادرة إيرنست البيت، ولم يفكّر جاك تاليس بأنّه سيصحب امرأة شابّة وطفلها في آن واحد، ووجد في القرية رجلاً بديلاً يعمل بستانيًّا وضروبًا أخرى من أعمال مختلفة، ولم يكن بحاجة إلى بيت يُقيم فيه. وفي ذلك الوقت ساد الاعتقاد بأنّ غريس سوف تحتفظ بالبيت الريفي الصغير لسنة أو سنتين، قبل أن تنتقل أو تتزوّج ثانية. لقد جعلتها طيبة قلبها وولعها بالتلميع والتنظيف ـ كان ولعها وحبّها للسطوح والمظاهر الخارجيّة للأشياء موضع تندّر بين أفراد الأسرة ـ محبوبة، لكنّها تركت في نفس سيسليا، البالغة ستّة أعوام، وليون البالغ ثمانية أعوام، ولهًا كان أشبه بالمنقذ لها، فضلاً على تكوين روبي. سمح لغريس أثناء الإجازات المدرسيّة أن تأتي بابنتها الصغيرة معها، أمّا روبي فقد كبر مع إدارة الحضانة والأقسام الأخرى من المنزل التي كان يُسمح للأطفال بدخولها، علاوة على رحبة المنزل الواسعة. وكان صديقه الذي يتسلّق وإيّاه

الأشجار هو ليون، وكانت سيسليا أختًا صغرى تأخذ بيده وتجعله يشعر بأنّه حكيم إلى أبعد الحدود. وبعد بضع سنين، عندما حصل روبي على المنحة الدراسيّة للدراسة في المدرسة الثانويّة، اتّخذ جاك تاليس الخطوة الأولى في دفع نفقات الدراسة والملابس. تلك هي السنة التي وُلدت فيها بريوني. وأعقب تلك الولادة الصعبة مرض إميلي المزمن، وكانت طبيعة غريس في مساعدة الآخرين قد جعلتها تحتفظ بموقعها. ففي يوم عيد الميلاد من ذلك العام ـ ١٩٢٢ ـ دخل ليون البيت الريفي مرتديًا قبّعة عالية وبنطالاً قصيرًا وسط تساقط الثلوج، حاملاً بيده مغلّفًا أخضر اللون مرسلاً من أبيه. وأفادت رسالة من المحامي بأنّ البيت الريفي بات ملكها الآن، بصرف النظر عن الموقع الذي تحتلّه بين أسرة تاليس، لكنّها بقيت حيث هي، وعادت إلى العمل المنزلي وسط ترعرع الطفلين ومسؤوليّتها في تلميع الأشياء وتنظيفها.

كانت فكرتها عن إيرنست تتلخّص بأنّه أُرسل إلى جبهة الحرب تحت اسم آخر، ولم يعد البتّة. وبخلاف ذلك فإنّ افتقاره لمعرفة أحوال ابنه ينطوي على جانب لا إنساني. وفي أغلب الأحيان، وفي أثناء الدقائق التي كانت تخلو فيها لنفسها وهي تقطع المسافة من البيت الريفي الصغير إلى البيت الكبير، كانت تفكّر في المناسبات الجميلة التي صادفتها في حياتها. كانت تخشى إيرنست إلى حدٍّ ما، ربّما ما كان من شأنهم أن يكونوا سعيدين معًا، مثل سعادتها وهي تحيا وحيدة برفقة ولدها العزيز في بيتها الصغير، لو أنّ السيّد تاليس كان رجلاً من نمط آخر... كانت بغض النسوة اللواتي يأتين إليها لتقرأ طالعهنّ، لقاء شلن واحد، قد هجرهنّ أزواجهنّ، الأكثر من هذا قد قُتل أزواجهنّ على الجبهة. كانت حياة أولئك النسوة حياة ضيق وحرمان، وكان ممكنًا أن تكون حياتها هي من ذلك النمط أيضًا.

قال مجيبًا عن سؤالها:

ـ لا شيء، ليس ثمّة خطب.

ثم أمسك بالفرشاة وعلبة التلميع السوداء وأردف:

ـ إذًا، المستقبل يبدو مشرقًا أمام مولي.

ـ سوف تتزوّج ثانية خلال خمسة أعوام، وستكون غاية في السعادة. ثمّة رجل من الشمال له مؤهّلات.

ـ إنّها لا تستحقّ أقلّ من ذلك.

جلسا جلسة صامتة مريحة، بينما راقبته وهو ينظّف حذاءه بفرشاة صفراء. التوت عضلات وجنتيه الوسيمتين بسبب حركة يديه، وتمايلت على نحو معقّد تحت بشرته. لا بدّ أنّ إيرنست كان محقًّا عندما منحها صبيًّا مثله.

ـ إذًا ستخرج!

ـ جاء ليون في الوقت الذي كنت أتهيّأ فيه للخروج، ومعه صديقه، وقطعة الشوكولا الجذّابة، وأقنعاني بالانضمام إليهما لتناول العشاء في هذه الليلة.

ـ آه، وكنت أنا أنظّف الأدوات الفضّيّة طوال فترة ما بعد الظهر وكنت أيضًا أرتّب غرفته.

أمسك حذاءه ونهض واقفًا.

ـ عندما أنظر إلى وجهي في الملعقة، فإنّني لن أرى أحدًا سواك.

أغلق الصندوق الخاصّ بتلميع الحذاء، وحمله خارجًا، وانتقى قميصًا من الكتّان الأبيض من بين ثلاثة قمصان كانت فوق حاملٍ وُضع لتجفيف الثياب، وعاد مرّة أخرى ليخرج بعد ذلك، ولكنّها كانت تريد أن تُبقيه معها قليلاً.

ـ هناك أطفال كوينسي، فالولد بلّل فراشه. يا لهم من حِمْلان صغار.

تمهّل في المدخل وهزّ كتفيه. سبق له أن ألقى نظرة وشاهدهم قرب المسبح وهم يزعقون ويضحكون تحت حرارة شمس الضحى. كادوا أن يلقوا بعربته في عمق الماء لو لم يذهب هو إلى هناك. كان داني هاردمان في رفقتهم

أيضًا ينظر نظرة شزر إلى أختهما، في الوقت الذي كان ينبغي له فيه أن يكون منهمكًا في عمله.

قال:

ـ سوف يعيشون.

قفز من فوق السلالم ثلاث درجات في المرّة الواحدة، بعد أن نفد صبره وتاق إلى الخروج، ولمّا بات في غرفة نومه أكمل ارتداء ثيابه بعجالة، مُصفّرًا لحنًا على غير هدًى وهو ينحني ليدهن شعره ويمشّطه أمام المرآة المثبّتة عند الجهة الداخليّة لخزانته.

لم تكن أذنه موسيقيّة، ورأى أنّ من المستحيل عليه أن يعرف إن كان أحد الألحان أعلى أو أوطأ من الآخر. وبعد أن أصبح ملتزمًا الآن بحضور الأمسية انتابه إحساس بالهيجان، وبأنّه، ويا للغرابة، حرٌّ. لا يمكن للأمور أن تكون أسوأ ممّا كانت عليه قبل الآن. أكمل إنجاز المهامّ الأخرى مستمتعًا بمهارته كأنّه يعدّ نفسه لرحلة خطرة، أو حملة عسكريّة ـ وجد مفاتيحه، وعثر على ورقة من فئة العشرة شلنات داخل محفظة نقوده، ونظّف أسنانه، وشمَّ أنفاسه بعد أن كوَّر راحة يده ووضعها على فمه وجذب رسالته من فوق مكتبه ووضعها داخل مغلّف، وملأ علبة سكائره، وتأكّد من قدّاحته. ثم وقف أمام المرآة للمرّة الأخيرة، وكشف عن لثته، واستدار قليلاً لينظر إلى شكله من الجانب، ونظر من فوق منكبه إلى صورته، وأخيرًا ربّت على جيوبه، وهبط السلالم ثلاث درجات في كلّ مرّة، وهتف مودّعًا والدته، وخرج ليسير من فوق الممرّ الضيّق المرصوف بالآجرّ، والذي كان يربط المنطقة المزروعة بالأزهار بالبوّابة المثبتة في سور مصنوع من أوتاد.

في السنوات التالية سيفكّر غالبًا في هذه الأيّام عندما كان يسير على امتداد الممشى الذي يختصر الطريق، من أحد أركان غابة البلّوط إلى الشارع العامّ الذي ينعطف باتّجاه البحيرة والبيت. لم يكن متأخّرًا، لكنّه وجد، برغم

ذلك، أنّه لا يستطيع أن يبطئ من خطواته. ثمّة ملذّات آنيّة وأخرى ليست آنيّة تمامًا، امتزجت كلّها في ثراء هذه الدقائق: تواري الشمس الحمراء، الهواء الدافئ الساكن المشبع برائحة الحشائش اليابسة، والتربة المتّقدة، وتراخي أطرافه بسبب عمله أثناء النهار في الحدائق، وجسده الأملس الناعم إثر الاستحمام، وملمس قميصه، وبذلته الوحيدة، وكان الترقّب والخوف اللذان شعر بهما لرؤيتها أيضًا أشبه بلذّة حسّيّة تُحيط بها نشوة عامّة ـ قد يكون ذلك جارحًا، لأنّه شيء غير مناسب، ولا يمكن أن يتمخّض عن شيء جميل، لكنّه اكتشف بنفسه الآن معنى الحبّ، فطاب له. ثمّة عوامل أخرى مضافة زادت من سعادته، فهو لا يزال يستمدّ الرضى من كونه المتفوّق الأوّل ـ وكان الأفضل في تلك السنة، كما قيل له. والآن لديه توكيد من جاك تاليس بشأن استمراره في دعمهم، ثمّة مغامرة جديدة أمامه، ليست منفًى بأيّ حال من الأحوال، وقد تأكّد الآن من ذلك فجأة، فدراسة الطبّ خطوة صحيحة وجيّدة. ما كان في وسعه أن يشرح سبب تفاؤله ـ إنّه سعيد، ولا بدّ له من أن ينجح.

كلمة واحدة احتوت على الأشياء كلّها، وفسّرت السبب الذي جعله يُعوِّل على هذه اللحظة فيما بعد. الحرّيّة في حياته كما في بدنه. فمنذ وقت بعيد، وقبل أن يسمع بالمدارس الثانويّة، جلس لأداء امتحان كي يُقبل في إحداها. لقد كانت كيمبردج، على شدّة استمتاعه فيها، خيارًا صنعه مديره الطموح. كما أنّ موضوعه نفسه اختاره له اختيارًا كفوءًا مدرّسه صاحب الشخصيّة القويّة. والآن، وأخيرًا، وبفضل قوّة إرادته، بدأ حياته إنسانًا راشدًا. ثمّة حكاية يخطّط لها ويكون فيها هو البطل نفسه، وكانت بدايتها قد صدمت أصدقاءه إلى حدٍّ ما. فالبستنة لم تكن أكثر من فانتازيا بوهيميّة، فضلاً على كونها طموحًا أعرج ـ هكذا حلّلها بمساعدة فرويد ـ لتحلّ محلّ أبيه أو تتجاوز غيابه. إدارة المدرسة ـ في خمس عشرة سنة، رئيس قسم اللغة الإنكليزيّة، السيّد آر. تيرنر، ماجستير في الآداب جامعة كنتربري ـ، لم تكن

ضمن قصّته، ولا حتى التدريس في الجامعة. وعلى رغم تبوّئه المركز الأوّل بدت له دراسة الأدب الإنكليزي، استبطانًا، لعبةً في ردهة تستحوذ على الانتباه كلّه، وأنّ قراءة الكتب وتكوين الأفكار عنها إنّما هي مساعدة مطلوبة من أجل حياة متمدّنة. لكنّ هذا ليس لبّ القضيّة، بصرف النظر عمّا قاله دكتور ليفز(١) في محاضراته وليس هو الكهانة الضروريّة، ولا أشدّ المساعي حيويّة في عقل يُثير أسئلة، ولا أوّل أو آخر دفاع ضدّ حشود متوحّشة، قدر ما هو دراسة اللوحة أو الموسيقى أو التاريخ أو العلوم.

وفي السنة الأخيرة من الدراسة استمع روبي إلى محلّل نفساني، وإلى مسؤول شيوعي في اتّحاد نقابات العمّال، وإلى طبيب، يدافع كلّ واحد منهم في إحدى المناسبات عن ميدان عمله دفاعًا حارًّا ومقنعًا، مثل دفاع ليفز عن ميدانه. ربّما وضعت مثل هذه المزاعم للطبّ، لكنّ القضيّة، كما يراها روبي، أبسط من هذا كلّه، وتتّسم بطابع شخصي أيضًا، فطبيعته العمليّة، وتطلّعاته العلميّة المحبطة ستجد لها منفذًا، وستكون لديه مهارات أكثر تطوّرًا من المهارات التي اكتسبها في النقد التطبيقي. والأهمّ من هذا كلّه سيكون هو صانع القرار، سوف يقطن في بلدة غريبة، ـ ويبدأ.

خرج من بين الأشجار، ووصل النقطة التي يلتقي فيها الممشى بالطريق، وكان الضوء الساقط يزيد من حجم فضاء رحبة الأرض عند غروب الشمس، كما جعل الألق الأصفر الرقيق، المنعكس على النوافذ في الجهة

---

(١) فرانك ريموند ليفز (١٨٩٥ ـ ١٩٧٨) Frank Raymond Leavis أكاديمي وناقد أدبي في جامعة كيمبردج. أسّس مجلّة سكروتني وترأس تحريرها منذ صدورها (١٩٣٢ ـ ١٩٥٣)، وكان لها دور بالغ الأهمّيّة في إشاعة المفاهيم الأدبيّة، من أهمّ أعماله النقديّة: الثقافة الجماهيريّة وثقافة الأقلّيّة (١٩٣٠)، اتّجاهات جديدة في الشعر الإنكليزي (١٩٣٢)، الموروث والتطوّر في الشعر الإنكليزي (١٩٣٦)، الموروث العظيم: إليوت وجيمز وكونراد (١٩٤٨)، ودي. أج لورنس روائيًا (٩٥٥)، وغيرها. اهتمّ بالنظر بمعالجة النصّ الأدبي بوصفه بنية غاية في التعقيد تتطلّب قراءته فهمًا واسعًا للعالم والمنظورات الأخلاقيّة. من هنا يعدّ سليل الناقد الكبير ماثيو آرنولد (١٨٢٢ ـ ١٨٨٨) (المترجم).

البعيدة من البحيرة، البيوت تبدو ضخمة وبهيّة.

لا بدّ أنّها هناك، ربّما في غرفة نومها تستعدّ للعشاء ـ بعيدة عن الأنظار في مؤخّر المبنى، وعلى الطابق الثاني في مواجهة النافورة. أبعد عن ذهنه هذه الأفكار الجميلة التي راودته في ضوء النهار عنها، لأنّه لم يكن يرغب في الوصول مشوّش الذهن. كان أسفل حذائه يضرب بقوّة على إسفلت الشارع كأنّه ساعة عملاقة تدقّ، ففكّر في الوقت، وفي ذخيرته الكبرى، وبذخ ثروته التي لم ينفقها. لم يشعر من قبل أنّه شابّ يمتلك وعيًا ذاتيًّا كما هو عليه حاله الآن. ولم تمرّ به هذه الرغبة وهذه العجالة لتبدأ الحكاية. ثمّة رجال في كيمبردج أذكياء يعملون مدرّسين فيها، ومع هذا يمارسون لعبة كرة المضرب، والتجديف، وهم يكبرونه بعشرين سنة. عشرون سنة في الأقلّ كي يبدأ قصّته على هذا المستوى من الوجود البدني بقدر السنوات التي عاشها حتى الآن. عشرون سنة ستنقله إلى أمام، إلى المستقبل، إلى سنة ١٩٥٥. ما أهمِّيّة أن يعرف عندئذٍ ما لا يعرفه الآن؟ هل هناك ثلاثون سنة أخرى تمتدّ إلى ما وراء ذلك التاريخ، يعيش فيها حياة على إيقاع فكري أكبر؟

فكّر في نفسه وهو في العام ١٩٦٢، وقد بلغ الخمسين من عمره، حيث سيكون قد تقدّم به العمر، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يصبح فيه غير نافع، وفكّر في الطبيب العالم الذي سيصل مكانته عندئذٍ، مع قصصه الغامضة، والمآسي والنجاحات المحتشدة من ورائه.

وسوف تحتشد من ورائه أيضًا كتب يربو عددها على الآلاف، إذ سيكون لديه مكتب واسع الأرجاء ويبعث على الاكتئاب، ويمتلئ بتذكارات من سفراته وأفكاره ـ أعشاب من غابات مطيرة نادرة، وسهام مسمومة، واختراعات كهربائيّة فاشلة، قطع من صابون بهيئة تماثيل صغيرة، وجماجم منكمشة، وفنّ بدائي. أمّا على الرفّ، فهناك على وجه التأكيد مراجع وتأمّلات طبِّيّة، فضلاً على كتب تملأ الآن مكانًا ضيّقًا في علِّيّة البيت الريفي ـ شعر القرن الثامن عشر الذي كاد أن يقنعه بأنّ عليه أن يمتهن البستنة الطبيعيّة،

والطبعة الثالثة من مؤلّفات جين أوستن[١]، وإليوت، ولورنس وولفرد أون[٢] والأعمال الكاملة لكونراد، والطبعة التي لا تقدّر بثمن من قصيدة القرية لكراب[٣]، الصادرة سنة ١٧٨٣، علاوة على مؤلّفات الشاعر هاوسمان ونسخة موقّعة من ديوان «رقصة الموت» للشاعر أودن. المؤكّد أنّ هذا هو بيت القصيد، سوف يصبح طبيبًا أفضل من الأطبّاء الآخرين لأنّه قرأ الأعمال

---

(١) جين أوستن (١٧٧٥ ـ ١٨١٧) Jane Austin: روائيّة إنكليزيّة ولدت بمقاطعة هامشاير بإنكلترا، عاشت برفقة أسرتها حتى انتقل الجميع إلى مدينة باث عند تقاعد والدها من عمله راعيًا لأبرشيّة البلدة. كتبت قصصًا رومانسيّة بعضها بأسلوب الرسائل، ولكنّها لم تُنشر إلاّ بعد تنقيحها مرّات ومرّات. لم تنشر من رواياتها الكبرى في حياتها سوى أربع، «العقل والعاطفة» ١٨١١، «كبرياء وهوى» ١٨١٣، «مانسفيلد بارك» ١٨١٤، «إيما» ١٨١٦، أمّا بقيّة الروايات فنشرت بعد وفاتها. تدور أحداث رواياتها في الريف الإنكليزي وسط البراري والكنائس. وفي حين يلاحظ النقّاد اهتمامها بالحياة الأسريّة الريفيّة فإنّ النقد الماركسي يرى أنّ أعمالها لا تخلو من فحص دقيق لوقائع العالم الاقتصادي السائدة من حولها (المترجم).

(٢) ولفرد أون (١٨٩٣ ـ ١٩١٨) Wilfred Owen: وُلد بمقاطعة شروبشاير بإنكلترا ودرس بجامعة لندن، استدعي للخدمة أثناء الحرب العالميّة الأولى ولكنّه أُعفي منها لأسباب صحّيّة في ١٩١٧، وأُرسل للعمل في أحد المستشفيات العسكريّة حيث شجّعه أحد المرضى، وهو الشاعر سيغفريد ساسون على كتابة الشعر. أُعيد إلى جبهة الحرب ثانية فلقي مصرعه قُبيل إعلان الهدنة بأسبوع واحد. جمع ساسون كلّ قصائده وأصدرها في ديوان بعنوان «قصائد» سنة ١٩٢٠. يعدّ الشاعر أحد الأصوات الشعريّة الجديدة التي ظهرت بعد الحرب. أشعاره على العكس من قصائد روبرت بروك، الذي مجّد الحرب وتباهى بها، تصوّر مآسي الحروب وأهوالها على البشريّة قاطبة (المترجم).

(٣) جورج كراب (١٧٥٤ ـ ١٨٣٢) George Crabbe: شاعر إنكليزي وُلد بمقاطعة صافولك لأب يعمل جابيًا لضرائب الملح، حاول دراسة الجراحة فلم ينجح فتوجّه إلى لندن ليشقّ طريقه في عالم الأدب والتأليف. تبنّى محاولاته الأدبيّة الناقد آدموند بيرك ووفّر له السكن وعرّفه إلى أصدقائه. نشر في ١٧٨٣ أشهر قصائده، «القرية»، التي نقّحها جونسون برأي بوزويل، وكانت قصيدة مناوئة لتيّار الشعر الرعوي ومعالجة واقعيّة لبؤس الحياة الريفيّة في ١٨١٤، أصبح قسًّا في أبرشيّة بويلتشاير لكنّه لم يكن محبوبًا وسط رعيّته، وكان مولعًا بالأفيون. كان محافظًا في آرائه ومعجبًا بالكزاندر بوب وجونسون. صوّر في قصائده حياة الفقراء والمعوزين وضعف الإنسان. أثنى عليه النقّاد لما اتّصفت به أعماله من واقعيّة، ولكنّه انتقد لعدم قدرته على التحليق بشعره في فضاءات أوسع (المترجم).

الأدبيّة. إنّ قراءاته المعمّقة ستساعده في فهم طبيعة معاناة البشر، وحماقة تدمير المرء لذاته، والحظّ السيّئ الذي يدفع بالإنسان إلى المرض! مرض، موت، وبينهما الضعف، النشوء والسقوط ـ هذه هي وظيفة الطبيب، وهي أيضًا وظيفة الأدب. كان يفكّر في رواية القرن التاسع عشر. تسامح كبير، ومشهد واسع، وقلب دافئ، وحكم بارد. إنّه كطبيب سيكون نموذجًا أمام أنماط القدر المخيفة، وأمام إنكار ما هو محتّم إنكارًا لا طائل من ورائه. سوف يؤكّد على النبض الضعيف، وسوف يستمع إلى آخر الأنفاس، وسوف يشعر باليد المُصابة بالحمّى وقد بدأت تبرد وتتأمّل في نبل الجنس البشري وضعفه وفق الأسلوب الذي لا يلقّنه سوى الأدب والدين...

تسارعت خطاه في مساء الصيف الساكن على إيقاع أفكاره البهيجة. أمامه، على بعد مائة ياردة تقريبًا، جسر، وفكّر أنّ فوق الجسر، وفي وسط عتمة الطريق، شكل أبيض بدا أوّل وهلة جزءًا من صخرة شاحبة اللون تمثّل متراس الجسر. وعندما حدّق فيها مليًّا ضاعت ملامحها، لكن بعد بضع خطوات تبيّنت له وقد اتّخذت شكل إنسان غير واضح المعالم. لم يستطع أن يتأكّد، وهو على ذلك البعد، إن كان الشكل يقترب منه أو يبتعد عنه. كان الشكل ساكنًا بلا حراك، وافترض أنّه مراقب. حاول لثانية أو ثانيتين أن يسلّي نفسه بفكرة أنّ هذا الشكل شبح، لكنّه لا يؤمن بالخوارق الطبيعيّة، ولا بالكائن الحنون الذي يهيمن على الكنيسة النورمنديّة في القرية. ورأى الآن أنّ الشكل هو شكل طفل، وأنّه لهذا السبب لا بدّ أن يكون شكل بريوني مرتدية ثوبًا أبيض سبق له أن شاهدها ترتديه في وقت مبكر من ذلك اليوم. في وسعه أن يشاهدها بوضوح الآن، فرفع يده وهتف، ثم قال:

ـ هذا أنا روبي.

لكنّها ظلّت واقفة لا تتحرّك.

وفيما هو يقترب، فكّر أنّ الأفضل ربّما أن تسبقه رسالته إلى البيت، وإلاّ تعيّن عليه أن يسلّمها إلى سيسليا عند رفقتها آخرين، وتحت أنظار والدتها

التي كانت فاترة تجاهه منذ وصوله إلى هنا. أو قد لا يستطيع أن يسلّم الرسالة إلى سيسليا نهائيًا، لأنّها ستظلّ مبتعدة عنه، وإذا ما سلّمتها إيّاها بريوني فسوف يكون لديها الوقت لقراءتها والتفكير فيها على انفراد. لعلّ الدقائق الإضافيّة القليلة تلطّف من غلوائها.

قال وهو يتقدّم نحوها:

ـ أفكّر إنْ كان في وسعك أن تُسدي لي معروفًا.

أومأت برأسها وانتظرت.

ـ هلاّ أسرعتِ وسلّمتِ هذه الرسالة إلى سي؟

عندها وضع الرسالة في يدها، فأخذتها دون أن تنبس بكلمة.

وهنا بدأ بالكلام قائلاً:

ـ سأكون هناك بعد بضع دقائق.

لكنّها كانت قد استدارت وركضت عابرة الجسر، اتّكأ على المتراس وأخرج سيكارة وهو يراقبها تقفز وتتوارى في العتمة. فكّر في أنّها في سنّ حرجة، في الثانية عشرة، أم تراها في الثالثة عشرة؟ فقد القدرة على رؤيتها لثانية أو ثانيتين، ثم رآها وهي تعبر الجزيرة، فينعكس شكلها على كتلة الأشجار الحالكة. ثم ضاعت منه ثانية، وعندما ظهرت للعيان مرّة أخرى على الجانب البعيد من الجسر الثاني وابتعدت عن الطريق الفرعي لتسلك طريقًا مختصرًا يمتدّ من وراء الأعشاب، وقف فجأة وقد تملّكته فكرة مرعبة، فأسرع خطاه على نحو لا إرادي على امتداد الطريق الفرعي، وتوقّف ثم هرول، ليتوقّف مرّة ثانية مدركًا أن لا فائدة من اللحاق بها. لم يعد في وسعه رؤيتها، فوضع راحة يده على فمه وناداها بأعلى صوته. لا فائدة من ذلك أيضًا. وقف في محلّه، مجهدًا عينيه كي يتمكّن من رؤيتها ـ كأنّ في ذلك فائدة ـ وأجهد ذاكرته أيضًا، يتوق للاعتقاد بأنّه كان مخطئًا، لكن ليس هناك من خطأ، فالرسالة المكتوبة بخطّ يده والتي وضعها على النسخة المفتوحة من كتاب

التشريح لغراي، قسم علم الأحشاء ص ١٥٤٦، كانت عن المهبل. أمّا الرسالة التي كتبها على الآلة الكاتبة وتركها بالقرب منها، فكانت هي التي أخذها وطواها ووضعها في المغلّف. لا حاجة إلى ذكاء فرويدي ـ فالتفسير بسيط وآلي ـ فالرسالة السيّئة كانت موجودة عند الشكل ذي الرقم ١٢٣٦، الذي يتوّجه شعر العانة، في حين أنّ رسالته الداعرة كانت على المنضدة في متناول يده. كرّر نداءه على بريوني، على رغم علمه أنّها باتت الآن على مقربة من المدخل. المؤكّد، بعد بضع ثوان، أنّ معينًا بعيدًا لضوء أصفر اللون يضمّ تقاطيع جسمها، اتّسع، وتوقّف، ثم ضاق، فتلاشى عندما دخلت المنزل وأُغلق الباب من خلفها.

* * *

الفصل التاسع

خرجت سيسليا مرّتين من غرفتها خلال نصف ساعة، ووقفت أمام المرآة ذات الإطار الذهبي اللون المثبتة في أعلى السلالم، ولكنّها رجعت ثانية إلى خزانة ثيابها غير راضية لتُعيد النظر في هندامها. كان خيارها الأوّل يتمثّل في ثوب من الكريب الأسود كشف أمام المرآة عن تقاطيع حادّة في الشكل، وقد عزّز من قوّة الثوب سواد عينيها. وبدلاً من أن تضع قلادة لؤلئيّة توازن بها تأثير الثوب، تقلّدت قلادتها ذات اللون الكهرماني الأسود في لحظة من لحظات الإلهام الآني. وكان أحمر الشفاه مناسبًا تمامًا أوّل مرّة. وبعد أن هزّت رأسها عدّة مرّات لتنظر مليًّا إلى نفسها، تأكّدت أنّ وجهها لم يكن مفرطًا في طوله، أو على وجه الدقّة غير مفرط في الطول في هذا المساء. كانت أمّها تنتظرها في المطبخ، وكانت تعلم أنّ ليون في انتظارها في غرفة الاستقبال، ولكنّها، على رغم ذلك، وجدت أمامها الوقت الكافي لأن تعود أدراجها، عندما كانت توشك على الخروج، إلى منضدة زينتها لتضع عطرًا على حافّتي مرفقيها، وكانت تلك الحركة لمسةً لعوبًا تناسب مزاجها عندما أغلقت باب غرفة نومها من ورائها.

لكنّ نظرة إلى مرآة السلالم التي اندفعت إليها كشفت لها عن امرأة في طريقها لحضور جنازة امرأة حزينة متقشّفة، لمظهرها الأسود صلة بنوع من

أنواع الحشرات التي تُقيم في علبة كبريت، خنفساء! إنّها هي نفسها في المستقبل، في الخامسة والثمانين من عمرها، متّشحة بسواد أرملة. لم تنتظر طويلاً، بل دارت على عقبيها الأسودين أيضًا وعادت إلى غرفتها.

كانت مرتابة لأنّها كانت تعرف الحيل التي يمكن للعقل أن يمارسها، وفي الوقت نفسه كان ذهنها ـ بكلّ ما في الكلمة من معنًى ـ يركّز في المكان الذي سوف ستلبث فيه عند المساء، ولهذا ينبغي لها أن تكون هادئة البال في أعماقها. انسلّت من الثوب الأسود وتركته يسقط على الأرض، وظلّت واقفة بسروالها الداخلي وحذائها العالي الكعب، تفكّر في الثياب المعلّقة داخل خزانة الملابس، متنبّهة للدقائق المنصرمة. كانت تكره فكرة ظهورها بمظهر صارم، بل كانت تريد أن تشعر أنّها على سجيّتها، وفي الوقت نفسه متحفّظة ومستقلّة. الأهمّ من هذا كلّه، أرادت أن تبدو وكأنّها لم تفكّر في القضيّة قطّ، وأنّ ذلك سوف يستغرق وقتًا. وفي الطابق الأرضي كانت عقدة نفاد الصبر آخذة في التوتّر في المطبخ، في حين بدأت الدقائق التي تخطّط لصرفها لوحدها مع شقيقتها بالنفاد. وعمّا قريب ستظهر والدتها وسترغب في مناقشة وضع المائدة، وسيأتي پول مارشال من غرفته، وسيكون بحاجة إلى رفقة، وعندئذٍ سيكون روبي أمام الباب، كيف يمكنها أن تفكّر تفكيرًا مباشرًا؟

مرّرت يدها من فوق بضعة أقدام من التاريخ الشخصي، تاريخ ذوقها القصير، ها هنا ثيابها التي ترقى إلى أيّام مراهقتها، والتي لم تكن تراعي فيها أيّ عرف آنذاك، ولكنّها تبدو اليوم مضحكة، تفتقر إلى الإثارة. وعلى الرّغم أنّ أحد الأثواب كان ملطّخًا ببقعة من النبيذ، والآخر مثقوبًا بسبب سيكارتها الأولى، فإنّها لم تكن قادرة على حثّ نفسها على تنظيفها. ها هو ثوب يحمل إشارة واهية إلى وجود بطانة من تحت الكتف، وهناك ثياب أخرى تبيّن أنّ الأخوات الأكبر سنًّا تخلّصن من سنوات الصبا، واكتشفن انحناءات الجسد، وخطوط الخصر، تاركات الحواشي دونما أيّ اعتبار لآمال الرجال. وكان آخر ثيابها وأفضلها قد اشترته للاحتفال بانتهاء امتحانات آخر السنة الدراسيّة،

قبل أن تعرف شيئًا عن سنتها الثالثة البائسة، فكان ثوب سهرة ذا لون أخضر غامق مكشوف الظهر، ثوبًا مفرطًا في التأنّق لا ينبغي لها أن ترتديه للمرّة الأولى داخل البيت.

دفعت يدها قليلاً إلى الوراء، وأمسكت بثوب حريري متموّج مضفور في الجزء الأعلى من منطقة الصدر، ومطرّز الحاشية. إنّه اختيار آمن ما دام لونه الوردي فاتحًا وباليًا ويناسبها لبسه في المساء. وشاركتها المرآة الثلاثيّة رأيها، فغيّرت من حذائها، واستبدلت الكهرمان الأسود باللآلئ، وأعادت ترتيب مساحيق تجميلها وشعرها، ووضعت قليلاً من العطر عند أسفل عنقها الذي بدا الآن مكشوفًا أكثر ممّا سبق، وعادت إلى الممرّ في أقلّ من خمس عشرة دقيقة.

في وقت مبكّر من ذلك اليوم، رأت هاردمان العجوز وهو يطوف في أرجاء المنزل، حاملاً سلّة من الخوص، ويبدّل المصابيح الكهربائيّة، ربّما كان الضوء الآن ساطعًا أكثر ممّا كان عليه من قبل في أعلى السلالم، لأنّها لم تلاقِ أيّة صعوبة في وضع المرآة. لن تسمح لها بالمرور، لأنّ اللون الوردي كان فاقعًا تمامًا، ولأنّ محيط الجسم عند الخصر كان مرتفعًا أكثر ممّا ينبغي، وكان الثوب منتفخًا كأنّه ثوب حفلة ترتديه طفلة في الثامنة من عمرها، وكلّ ما كان ينقصه هو أزرار أرنبيّة الشكل. وفيما هي تقترب أكثر، جعلها جزء من المرآة العتيقة تبدو قصيرة القامة، وواجهت الطفلة ذات الخمسة عشر عامًا. توقّفت، ورفعت يدها إلى جانبي رأسها وأمسكت بشعرها، لا بدّ أنّ هذه المرآة قد رأتها وهي تهبط السلالم عشرات المرّات وهي في طريقها لحضور حفل عيد ميلاد صديق آخر. شعرت أنّ فكرها لن يهدأ إذا ما هبطت السلالم ونزلت إلى الطابق الأرضي وهي بهذه الهيئة، أو معتقدة أنّها تشبه شيرلي تيمبل(١).

---

(١) شيرلي تيمبل Shirley Temple (1927) ممثّلة أميركيّة (المترجم).

رجعت مرّة أخرى إلى غرفتها مستسلمة أكثر ممّا هي مستاءة أو جزعة، ليس هناك أيّ تشوّش في ذهنها: إنّ هذه الانطباعات الحيّة أكثر من اللازم، والتي لا تؤتمن، وشكوكها الذاتيّة، ووضوح الرؤية المتداخلة، والفروق الغريبة التي ظهرت أمامها بمظهر الأشياء المألوفة، لم تكن أكثر من استمرار وتنويع لرؤيتها الأشياء، ولمشاعرها طوال ذلك اليوم.

كانت تفضّل الأحاسيس، لا التفكير، يُضاف إلى ذلك أنّها كانت تعرف ما الذي يتعيّن عليها أن تفعله، تعرف ذلك منذ زمن. إنّها لا تملك سوى ثوب واحد تهواه حقًّا، وعليها أن تلبسه. تركت الثوب الوردي يسقط فوق الثوب الأسود على الأرض، وخطت من فوق هذه الكومة وهي تشعر بالازدراء، ومدَّت يدها إلى الثوب، ثوبها الأخضر المكشوف الظهر. وعندما جذبته نحوها استحسنت خياطته من خلال صدريّتها الحريريّة، وشعرت أنّها قويّة آمنة، حوريّة خرجت من البحر لاستقبالها أمام مرآتها كلّها. تحسّست وضع اللآلئ في مكانها، وبدّلت حذاءها، فوضعت الحذاء الأسود ذا الكعب العالي، وأعادت مرّة أخرى ترتيب شعرها ومساحيق تجميلها وتطيّبت بعطر آخر، وفيما هي تفتح الباب، أطلقت صرخة ذعر، فعلى بعد بوصات قليلة منها رأت وجهًا وقبضة يد مسدّدة نحوها، وكان تصوّرها الأوّل هو أن تبدو بمظهر راديكالي، تنحدر الدموع من مآقيها، وتكسو الغشاوة عينيها، فتبتلّ شفتاها لتمتزج كلّها مع أنفها الذي لم تنظّفه، وتتحوّل إلى حالة من الحزن. استعادت رباطة جأشها، ووضعت كلتا يديها على الكتفين النحيفتين، وأدارت الجسد كلّه كي تلقي نظرة على الأذن اليسرى. إنّه جاكسون، وكان يوشك أن يقرع الباب، في يده الثانية جورب رمادي اللون، وعندما خطت خطوة إلى الوراء رأت أنّه يرتدي بنطالاً قصيرًا مكويًا، رمادي اللون، وقميصًا أبيض اللون، لكنّه كان حافي القدمين.

ـ أيّها الصديق الصغير! ما خطبك؟

لم يملك الجرأة على الكلام، أو الأمر، فرفع جوربه وأشار به إلى

نهاية الممرّ. مالت سيسليا إلى خارج الباب ورأت بياروت على بعد مسافة قصيرة، حافي القدمين هو الآخر، يحمل جوربًا، ويُراقب المشهد.

ـ لكلّ واحد منكما جورب واحد إذًا.

أومأ الصبي برأسه، وازدرد ريقه، وأخيرًا تمكّن من أن يقول:

ـ تقول الآنسة بيتي إنّنا سوف نُعاقب إذا لم نهبط إلى الطابق السفلي ونتناول الشاي، لكن لا يوجد سوى زوج واحد من الجوارب.

هزَّ جاكسون رأسه مؤكّدًا.

خرجت مع الصبيّين إلى غرفتهما، وأمسك بها الصبي الأوّل من يدها، ثم أمسك الصبي الثاني يدها الثانية، فاستولت عليها الدهشة عندما وجدت أنّهما ممتنّان لها. لكنّها لم تستطع أن تحوّل تفكيرها عن ثوبها.

ـ ألم تطلبا من أختكما المساعدة؟

ـ إنّها لا تكلّمنا.

ـ لماذا؟

ـ إنّها تكرهنا.

كانت غرفتهما في حالة من الفوضى، بسبب الملابس المبعثرة هنا وهناك، والمناشف المبلّلة، وقشور البرتقال، وقصاصات ممزّقة من رسوم متحرّكة رتّبت من حول ورقة، وكراسٍ مغطّاة بدثارات، علاوة على حشيّات فراش منسلخة. وكانت ثمّة بقعة رطبة كبيرة على السجّادة بين السريرين وفي وسطها قطعة من الصابون، ومجموعة مبلّلة من محارم المرافق الصحّيّة. كانت إحدى الستائر متدلّية والنوافذ مشرّعة، لكنّ الهواء كان فاسدًا، والأدراج مفتوحة كلّها وفارغة. كان الانطباع هو ضجرًا تتخلّله مشاجرات ومؤامرات، وقفز بين السريرين، ونصب خيمة ولعبة القفز، ثم التخلّي عن ذلك كلّه.

لم يهتمّ أحد في بيت آل تاليس برعاية التوأمين كوينسي.

قالت مبتهجة كي تخفي ذنبها:

ـ لن نعثر على أيّ شي في هذه الغرفة وهي على هذه الحالة.

بدأت ترتّب الأشياء، والسريرين، خلعت حذاءها ورمته جانبًا لتقف فوق كرسي وتثبّت الستارة، وتطلب إلى التوأمين إنجاز بعض الأعمال التي يتمكّنان من إنجازها، فكانا طوع بنانها، هادئين مكبّين على العمل كأنّه عقاب مسلّط عليهما وليس حرِّيّة بعد حبس وتأنيب، وليس رحمة. كانا خجلين من حال غرفتهما. وفيما هي واقفة فوق الكرسيّ، مرتدية ثوبها الأخضر الغامق وتراقب رأسي التوأمين وهما يرتفعان وينخفضان أثناء تأدية العمل، عنَّت على خاطرها فكرة بسيطة: إنّ وضعهما شاقّ وبائس بلا حبّ، وبناء حياة من لا شيء في ظلّ بيت غريب.

نزلت من فوق الكرسيّ بصعوبة لأنّها لم تتمكّن من ثني ركبتيها كثيرًا، وجلست فوق حافّة السرير، وعدَّلت من فسحة السرير من على جانبيها، لكنّ الصبيّين ظلاّ واقفين ينظران إليها بترقّب، ولجأت إلى نغمة باهتة لترنيمة كانت تدندن بها معلّمة مدرسة أُعجبت بها ذات يوم.

ـ لسنا بحاجة إلى البكاء بسبب ضياع جورب، أليس كذلك؟

قال بياروت:

ـ الحقّ أنّنا نفضّل العودة إلى بيتنا.

استأنفت حديثها قائلة:

ـ هذا مستحيل في الوقت الراهن، فوالدتكما في باريس تمضي إجازة قصيرة هناك، ووالدكما مشغول في الكلّيّة، لهذا يجب أن تبقيا هنا بعض الوقت. آسفة لعدم وجود من يهتمّ بكما، لكنّكما استمتعتما بوقت طيّب في المسبح...

قال جاكسون:

ـ كنّا نريد أن نمثّل في المسرحيّة، لكنّ بريوني خرجت ولم تعد.

ـ أأنت متأكّد؟

شخص آخر يستدعي القلق. كان ينبغي على بريوني أن تعود منذ زمن طويل، وذكَّرها هذا بدوره بالناس الذين ينتظرون في الطابق الأرضي: والدتها، الطاهية، ليون، الزائر، روبي. كما أنّ دفء المساء الذي كان يملأ جوّ الغرفة من خلال النوافذ المفتوحة التي توليها ظهرها، فرضت عليها مسؤوليّات، فقد كان هذا المساء الصيفي من النمط الذي حلمت به طوال العام، وها قد تحقّق الآن أخيرًا بعبقه الثقيل الوطأة، وكثرة مسرّاته، وكانت مشتّتة الذهن بسبب اضطرارها إلى تلبية طلبات، ومعالجة بعض المشكلات، لكن يتعيّن عليها تنفيذ هذه الواجبات بكلّ بساطة، ومن الخطأ أن لا تنفّذها. إنّ الجلوس على الشرفة واحتساء مشروب الجن والصودا رفقة ليون هو النعيم بعينه. الخطأ لم يكن خطأها عندما هربت الخالة هيرميوني مع شخص تافه يُلقي المواعظ عن الحياة البيتيّة كلّ أسبوع من خلف اللاسلكي. كفى حزنًا. نهضت سيسليا من مكانها وصفّقت.

ـ نعم، الأمر محزن بسبب المسرحيّة، لكن ليس في الإمكان عمل أيّ شيء. هيّا نبحث عن بعض الجوارب ونمضي قُدمًا.

كشف البحث عن أنّ الجوارب التي كانت في حوزتهما لدى وصولهما قد غُسلت، وأنّ الخالة هيرميوني، في غمرة عواطفها، نسيت أن تزوّدهما بأكثر من زوج إضافي. ذهبت سيسليا إلى غرفة بريوني وبحثت في أحد الأدراج عن أقلّ الجوارب البنّاتيّة تصميمًا، بيضاء اللون، تصل حدّ الكاحل، ومزركشة بفراولة باللونين الأحمر والأخضر من حول الحافّة العليا. وفكّرت أنّ شجارًا سينشب بسبب الجوارب الرماديّة. لكنّ الوضع كان على العكس من ذلك، ولكي تتفادى حدوث حالة حزن أخرى، اضطرّت إلى العودة إلى غرفة بريوني لتبحث عن زوج آخر. ولكنّها، في هذه المرّة، توقّفت لتلقي نظرة إلى ما وراء النافذة باتّجاه الظلمة وتفكّر أين عسى أختها أن تكون؟ وفكّرت تفكيرًا

متأنّيًا، كأنّها تمارس طقسًا شعائريًّا معيّنًا، بأنّ أختها ربّما غرقت في البحيرة، أو اختطفها الغجر، أو صدمتها سيّارة عابرة. إنّ المبدأ العام يتمثّل في أنّه ما من شيء يمكن أن يشبه ما يتخيّله المرء وتلك وسيلة فعّالة لاستبعاد الأسوأ.

عادت إلى الصبيّين، ومشّطت شعر جاكسون بمشط بلّلته بالماء من زهريّة الورود، بعد أن أمسكت بحنكه بقوّة بين سبّابتها وإبهامها، وقسمته إلى قسمين، أمّا بياروت فقد انتظر دوره صابرًا، ولكنّهما أسرعا إلى الطابق السفلي دون أن ينبسا بكلمة، ليجدا بيتي أمامهما وجهًا لوجه.

لحقت بهما سيسليا، ولكن بخطوات وئيدة، ومرّت من أمام المرآة الحاسمة، ورمقتها بنظرة وشعرت بالرضى التامّ لمظهرها، أو ربّما لم تُبد إلاّ قليلاً من الاكتراث، لأنّ مزاجها انقلب منذ أن كانت مع التوأمين، واتّسعت أفكارها لتحوي قرارًا غامضًا اتّخذ شكلاً دون محتوًى محدّد، ولم يدفعها إلى وضع خطّة معيّنة. لا بدّ لها من الذهاب، الفكرة مهدّئة، وتبعث على السرور، وليست يائسة بأيّة حال من الأحوال. وصلت فسحة الدرج الكائنة عند الطابق الأوّل، فتوقّفت هنيهة، ففي الطابق الأرضي ستُثير والدتها، التي تشعر بالذنب من جرّاء غيابها، القلق والفوضى بسبب غيابها عن الأسرة، ولا بدّ أن يُضاف إلى هذا الخليط خبر ضياع بريوني، إنْ كانت ضاعت فعلاً، وسوف ينفق الوقت ويسود القلق قبل أن يتمّ العثور عليها، وستتّصل الوزارة لتقول إنّ السيّد تاليس مضطرّ إلى العمل حتى ساعة متأخّرة، وإنّه تبعًا لذلك سيبقى في المدينة. أمّا ليون، الذي يمتلك موهبة في تفادي تحمّل المسؤوليّة، فلن يؤدّي دور أبيه، وستنتقل المسؤوليّة اسميًّا إلى السيّدة تاليس، لكنّ نجاح الأمسية، في نهاية المطاف، سيكون بيدي سيسليا. الأمر كلّه واضح ولا يحتاج إلى جهد كبير لمقاومته، فهي لن تهمل نفسها من أجل ليلة صيف مترفة، إذْ لن تكون هناك جلسة طويلة برفقة ليون، أو لن تمشي حافية القدمين على الحشائش تحت نجوم منتصف الليل. أحسَّت من تحت قدميها بحاجز السلالم المصنوع من خشب الصنوبر اللمّاع الذي تكسوه بقع سوداء اللون، الذي يشبه

الطراز القوطي المحدث، صلدًا وزائفًا. وتدلّت من فوق رأسها ثريّا من الحديد الصبّ معلّقة بسبب ضخامة حجمها بثلاث سلاسل، ولكنّها لم تشاهدها مُضاءة طوال حياتها، إذْ كان الاعتماد يتمّ على زوج من مصابيح مثبّتة على الجدران، يظلّلها ربع دائرة من ورق جلدي اصطناعي. سارت بتؤدة من جانب هذه الأضواء ذات الألق الأصفر الشبيه بصفار المساء، واجتازت فسحة السلالم لتُلقي نظرة إلى غرفة والدتها، ولمّا رأت الباب مفتوحًا قليلاً وعمودًا من الضوء تسلّل من فوق سجّادة الممرّ، تأكّدت من أنّ إميلي تاليس كانت قد نهضت من سريرها الذي تحوّله نهارًا إلى أريكة. عادت سيسليا أدراجها إلى السلالم، وتردّدت ثانية في الهبوط إلى الطابق الأرضي، لكن لم يكن هناك خيار آخر أمامها.

ما من جديد في الترتيبات، ولم يراودها قلق أو ضيق. قبل سنتين اختفى والدها في خضمّ إعداده وثائق استشاريّة سرّيّة لوزارة الداخليّة، وظلّت والدتها تعيش في أرض حزينة معتلّة، في حين كانت بريوني تطلب دومًا من شقيقتها الكبرى أن تكون أُمًّا، بينما ظلّ ليون طليقًا، متحرّرًا في حياته، فأحبّته لذلك السبب. ولم تعتقد أنّ تمثيل الأدوار القديمة سيكون أمرًا غاية في السهولة. لقد غيّرتها كيمبردج تغييرًا جوهريًّا، وظنّت أنّها قويّة، لكن ما من أحد في أسرتها لاحظ هذا التحوّل الذي طرأ عليها، ولم تقدر على مقاومة سطوة توقّعاتهم. لم تلق باللائمة على أيّ أحد، بل ظلّت في المنزل طوال الصيف، تشجّعها فكرة غامضة بأنّها تعيد من جديد إقامة صلة مهمّة بأسرتها. لكنّها أدركت الآن أنّ صلاتها بأسرتها لم تنقطع البتّة، وأنّ والديها غائبان في كلّ الأحوال، كلٌّ على طريقته، وأنّ بريوني أسيرة خيالها الجامح، وأنّ ليون في البلدة. آن الأوان كي تتقدّم، إنّها بحاجة إلى مغامرة ـ ثمّة دعوة من خال وخالة لمرافقتهما إلى نيويورك. الخالة هيرميوني في باريس، يمكنها السفر إلى لندن والبحث عن عمل ـ وهو ما كان والدها يتوقّعه منها. شعرت بالاهتياج، وليس القلق، ولن تسمح لهذا المساء أن يسبّب لها أيّ إحباط. وستكون هناك

أماسٍ أخرى تشبه هذه الأمسية، وإذا ما رغبت في الاستمتاع بها فينبغي لها أن تكون في مكان آخر.

بعد أن فاضت بالحيويّة لهذا اليقين الجديد ـ الذي ساعدها على تحقيقه اختيار الثوب الجديد بلا ريب ـ اجتازت الردهة، ودفعت الباب الأخضر، وخطت خطوات واسعة على امتداد الممرّ المرصوف ببلاط ذي نقوش مربّعة الشكل، وسارت نحو المطبخ. ولجت في سحابة تعلّقت فيها وجوه تحرّرت من أجسادها، وعلى ارتفاعات متباينة، كأنّها رسوم تجريبيّة في دفتر رسم فنّان ما، وتحلّقت العيون كلّها لتنظر إلى أسفل باتّجاه ما هو معروض على مائدة المطبخ، وإنْ كانت سيسليا غير قادرة على رؤيته لأنّ ظهر بيتي العريض المنكبين حال دون ذلك. كان الألق الأحمر على مستوى الكاحل سببه النار المتّقدة في الفحم. وكان البخار يتصاعد من وعاء كبير فيه ماء مغليّ تُرك وشأنه، وكانت دول، مساعدة الطاهية وهي فتاة قرويّة نحيفة البنية، تسريحة شعرها تشبه الكعكة، تُثير جلبة صاخبة وهي تنظّف أغطية القدور، ولكنّها التفتت قليلاً لترى ما الذي وضعته بيتي فوق المنضدة. وكان أحد الوجوه هو وجه إميلي تاليس، والوجه الآخر لداني هاردمان. أمّا الوجه الثالث فهو وجه والد داني. أمّا جاكسون وبياروت فربّما كانا يقفان على كرسيّين، لأنّهما كانا يعلوان على الآخرين. كانت ملامحهما جادّة. أمّا سيسليا فشعرت بالشابّ هاردمان يتفرّس فيها، فما كان منها إلاّ أن بادلته نظرة قويّة، وشعرت بالامتنان عندما وجدته يشيح بنظرته جانبًا. كان العمل الشاقّ جاريًا على قدم وساق منذ مدّة طويلة في المطبخ، شاقًّا في ظلّ الحرارة العالية طوال النهار. كانت الفضلات منتشرة في كلّ مكان، وكان بلاط الأرضيّة زلقًا بسبب الشحوم المترشّحة عن اللحم المشوي، والقشور ومناشف الشاي المبلّلة. ولامست ساق سيسليا سلّة مملوءة بخضراوات كانت بيتي قد عزمت على حملها إلى بيتها لتناولها في مكانها القديم في غلوشستر. رمقتها الطاهية من فوق منكبها لتواكب القادم الجديد، وقبل أن تنصرف كان هناك وقت كافٍ لملاحظة

الغضب في عينيها اللتين ضاقتا وأصبحتا أشبه بشريحتين من الجيلاتين، بسبب الشحم المتكدّس في وجنتيها.

هتفت:

ـ أبعديه!

ممّا لا ريب فيه أنّ الانزعاج كان موجّهًا إلى السيّدة تاليس. قفزت دول من أمام حوض الغسيل واتّجهت نحو الموقد، وهي توشك أن تنزلق، وأمسكت بقطعتي قماش لجذب القدر من فوق النار. وكشفت الرؤية التي باتت واضحة أكثر قليلاً عن بولي، الخادمة المسؤولة عن ترتيب غرف النوم والتي كان الآخرون يُجمعون على أنّها بسيطة، وأنّها كانت تسهر حتى ساعة متأخّرة من الليل، كلّما كان هناك عمل يقتضي منها أن تنجزه. كانت عيناها الواسعتان والواثقتان ثابتتين على منضدة المطبخ. تحرّكت سيسليا من وراء بيتي لترى ما يراه الآخرون ـ صينيّة كبيرة مسودّة أُخرجت قبل قليل من داخل الفرن ومن فوقها كمِّيّة من البطاطس المشويّة التي لا تزال تئزّ باعتدال. ربّما كان عددها زهاء المائة قطعة رُتّبت في صفوف غير منتظمة، ذات لون ذهبي فاتح، وحفرت فيها ملعقة بيتي المعدنيّة وكشطتها وقلبتها، في حين اكتسبت الجوانب التحتيّة منها ألقًا أصفر اللون ولزوجة أكبر، بينما لاحت جوانبها الأخرى اللامعة هنا وهناك ذات لون بنّي بلون عرق اللؤلؤ، فضلاً عن الحواشي المخرّمة تخريمًا دقيقًا، كانت، أو ستكون، بطاطس رائعة.

بعد أن قلّبت بيتي الصفّ الأخير من البطاطس قالت:

ـ أتريدين هذه يا سيّدتي في طبق سلطة بطاطس؟

ـ تمامًا، ارفعي الجوانب المحترقة منها، وامسحي عنها الدهون، ثم ضعيها في طاس كبير واغمريها بزيت الزيتون، وبعد ذلك...

وهنا أشارت إميلي إشارة غير واضحة باتّجاه أطباق فاكهة وُضعت قرب باب المخزن الصغير الذي تُحفظ فيه الأطعمة، والذي ربّما كان يحتوي على

ثمرة ليمون، أو لا يحتوي عليها.

قالت بيتي وهي ترفع صوتها نحو السقف:

ـ أترغبين في سلطة الكرنب ذي الرؤوس الصغيرة الناعمة؟

ـ نعم يا بيتي.

ـ أم تريدين سلطة الغراتن[1] بالكرنب، أو سلطة الجرجير بالصلصة؟

ـ إنّك تثيرين جعجعة من أجل لا شيء.

ـ أم تريدين سلطة البودنغ بالخبز والزبدة؟

وهنا أطلق أحد التوأمين صوتًا كالشخير.

وحدث تمامًا ما كانت سيسليا تتوقّعه، إذ استدارت بيتي نحوها وأمسكت بذراعها وتوسّلت قائلة:

ـ لقد طلب إلينا إعداد اللحم المشوي يا آنسة سي، وها نحن قد انشغلنا في إعداده طوال النهار، وفي ظلّ حرارة تجاوزت درجة غليان الدم.

المشهد هو مشهد رواية، والمشاهدون هم عنصر غير مألوف، لكنّ المعضلة كانت مألوفة إلى حدٍّ كافٍ، كيف السبيل إلى حفظ السلام دون إذلال والدتها؟ فضلاً على ذلك، قرّرت سيسليا من جديد أن تكون برفقة أخيها على الشرفة، لهذا فإنّ من المهمّ أن تكون مع الفريق الفائز، والدفع باتّجاه نتيجة سريعة. جذبت والدتها جانبًا، وطلبت بيتي من الجميع، وهي تعرف التقاليد والأعراف جيّدًا، أن يعودوا إلى أعمالهم، وقفت إميلي وسيسليا تاليس قرب الباب المفتوح المؤدّي إلى حديقة المطبخ.

ـ ثمّة موجة حرّ يا عزيزتي، ولا أريد أن أتجاذب أطراف الحديث عن السلطة.

---

(١) الغراتن Gratin: قشرة سمراء تتكوّن عند الطهو على سطح الطعام المكسوّ بطبقة من كسر الخبز أو من الجبن المبروش (المترجم).

ـ أعرف أنّ الجوّ حارّ جدًّا، يا إميلي، لكنّ ليون سيموت من أجل قطعة من مشويّات بيتي وهو يدور من حولها طوال الوقت، كما أنّني سمعته يتباهى بها أمام السيّد مارشال.

قالت إميلي:

ـ آه، يا الله.

ـ إنّني متّفقة وإيّاك، لا أريد مشويّات، الأفضل أن نقدّم لكلّ فرد خيارًا، أرسلي بولي كي تأتينا ببعض الخسّ. وهناك شمندر في مخزن الأطعمة، وبإمكان بيتي إعداد بطاطس جديدة وتركها حتى تبرد.

ـ أنت على حقّ يا عزيزتي، وكما تعلمين فإنّني لا أريد ان أخذل ليون الصغير.

وهكذا تقرّرت الأمور، وأُنقذت المشويّات، وطلبت بيتي بكلّ دماثة من دول أن تعدّ بطاطس جديدة، في حين خرجت بولي تحمل سكّينًا.

خرجت إميلي برفقة سيسليا من المطبخ ووضعت نظّارتها الداكنة على عينيها، وقالت:

ـ إنّني سعيدة بالتوصّل إلى ذلك الحلّ، لأنّ ما يقلقني هو بريوني، أعرف أنّها منزعجة، وأنّها هائمة على وجهها خارج الدار، ولهذا سأخرج وآتي إلى هنا.

قالت سيسليا:

ـ فكرة رائعة، فأنا أيضًا قلقة عليها.

لم تكن سيسليا لترغب في أن تثني والدتها عن الابتعاد كثيرًا عن الشرفة.

كانت غرفة الاستقبال التي شلّت من حركة سيسليا في صبيحة ذلك اليوم، بسبب أضوائها التي اتّخذت شكل متوازي المستطيلات، قد باتت الآن معتمة لا يُنيرها سوى مصباح واحد على مقربة من المدفأة الجداريّة. وكانت

الأبواب الزجاجيّة المفتوحة قد كشفت عن سماء مائلة إلى الخضرة، وعلى بعد مسافة قصيرة منها شاهدت من أحد الجوانب رأس شقيقها ومنكبيه. وفيما هي تجتاز الغرفة تناهى إلى سمعها صوت مكعّبات الثلج داخل كأسه، وعندما خرجت شمّت رائحة نعناع الماء والبابونج والكافور وهي تنسحق تحت القدمين، عطرها أقوى بكثير ممّا كانت عليه في الصباح. ما من أحد يتذكّر اسم البستاني الموقّت، ولا مظهره، بعد أن جعل مهمّته، قبل بضعة أعوام، تنحصر في غرس النباتات في الشقوق الكائنة بين البلاط. كما لم يعرف أحد في ذلك الوقت ما الذي كان يدور في ذهنه، لعلّ ذلك هو السبب الذي أدّى إلى طرده.

ـ سيس! لقد أمضيت أربعين دقيقة هنا، وأشعر الآن أنّني أتصبّب عرقًا من شدّة الحرارة.

ـ آسفة! أين هو مشروبي؟

ثمّة مصباح زيتي فوق منضدة خشبيّة واطئة تستند إلى جدار المنزل، ومن حولها زجاجات شراب، أخيرًا أصبح الجن والصودا بين يديها. أشعلت سيكارة من سكائره وتبادلا الأنخاب.

ـ تروقني خصلة الشعر.

ـ وهل يمكنك أن تراها؟

ـ استديري، مذهل، لقد نسيت شامتك.

ـ كيف حال المصرف؟

ـ مثير للسأم والسرور معًا، إنّنا نحيا من أجل الأمسيات وإجازة نهاية الأسابيع، متى ستأتين إلينا؟

سارا بعيدًا عن الشرفة باتّجاه الممشى المرصوف بالحصباء والذي يتوسّط الورود، وظهرت أمامهما بركة تريتون، كتلة جيريّة ارتفعت ملامحها المعقّدة باتّجاه سماء بدا لونها يميل إلى اخضرار أكبر إثر سقوط الضوء. كان

في وسعهما أن يسمعا صوت خرير الماء، وفكّرت سيسليا أنّ بإمكانها أن تشمّ الرائحة أيضًا، فضّيّة وحادّة، لعلّ سبب ذلك هو الشراب الذي في يدها.

قالت بعد هنيهة:

ـ سأُصاب بالجنون في هذا المكان.

ـ لأنّك أصبحت والدة الجميع مرّة أخرى، أتدرين أنّ هناك فتيات يحصلن على مختلف الوظائف اليوم؟ بل ذهب الأمر بهنّ حدّ الجلوس لأداء اختبار من أجل الحصول على وظيفة حكوميّة ممّا يجعل العجوز مسرورًا.

ـ لن يقبلوني.

ـ ما إن تبدئي مسيرة حياتك حتى تجدين أنّ هذا الشيء الذي تفكّرين فيه لا معنى له.

وصلا النافورة، واستدارا ليقفا في مواجهة البيت، وظلاّ على تلك الحالة صامتين برهة وجيزة، واستندا إلى المتراس عند الموقع الذي شهد عارها. طائشة، سخيفة، وقبل هذا كلّه مجلّلة بالخزي والعار. الزمن، وحده، حجاب من ساعات، مفرط في الاحتشام هو الذي حال دون رؤية شقيقها لها على حقيقتها، لكنّها مجرّدة من مثل هذه الحماية عندما تكون رفقة روبي. لقد رآها، وسوف يتمكّن دومًا من رؤيتها، حتى وإنْ حوَّل الزمان الذكرى إلى حكاية من حكايات الحانات. كانت لا تزال منزعجة من أخيها بسبب الدعوة، لكنّها كانت محتاجة إليه، تريد أن تشاركه في حرِّيّته. ثم طلبت منه أن يقصّ عليها أخباره.

في حياة ليون، أو في حياته التي يحوكها بنفسه، لا يوجد من هو وضيع ولا من هو متآمر أو كذّاب أو خائن. لكلّ واحد احتفاله الخاصّ به، بهذا القدر أو ذاك، وكأنّ ذلك هو السبب في وجود الجميع. تذكّر جميع أسر أصدقائه. وكان أحد آثار حكايات ليون هو أن يجعل مستمعه يشعر أنّه إنسان، وأنّه معرّض للإخفاق، فكلّ إنسان، وفي أقلّ تقدير، هو «بيضة جيّدة»، أو هو

«نمط مهذّب»، وأنّ الدافع، أو المحرّك، لم يحكم عليه قطّ على أنّه يناقض المظهر. وإذا كان هناك غموض أو سرّ في أحد الأصدقاء فإنّ ليون ينظر نظرة بعيدة ليجد التفسير المعتدل، فالأدب والسياسة والعلم والدين لم تتسبّب في ضجره، إنّها، بكلّ بساطة، لا مكان لها في عالمه، كما هو شأن أيّة قضيّة يختلف فيها الناس اختلافًا جدّيًا.

لقد حاز شهادة في القانون، وكان سعيدًا لأنّه نسي التجربة بكاملها. يصعب تخيّله وحيدًا أو ضجرًا أو جزعًا. كانت رباطة جأشه بلا حدود، تمامًا مثل افتقاره للطموح، وقد ظنّ أنّ الجميع يشبهونه، لكن برغم هذا كلّه، كانت رقّته محتملة، بل مهدّئة.

تكلّم أوّلاً عن نادي التجذيف الذي ينتمي إليه. كان كبير المجذّفين في الثمانية الثانية مؤخّرًا، وعلى الرّغم من كياسة الجميع إلاّ أنّه فكّر بأنّه سيكون أسعد حالاً لو أخذ المنصّة من شخص آخر، كما جرى الحديث في المصرف عن ترقية، ولمّا لم يحدث أيّ شيء من هذا القبيل شعر بالارتياح. ثم هناك الفتيات: ماري الممثّلة التي أدّت دورًا مدهشًا في (حياة خاصّة)، وانتقلت على حين غرّة، ودون تفسير، إلى مدينة كلاسكو، ولم يعرف أحد سبب ذلك. راوده الشكّ في أنّها كانت تعتني بقريب يُحتضر، وكذلك فرانسيس التي كانت تتكلّم اللغة الفرنسيّة بعذوبة، وتسبّبت في هيجان عالمي عندما وضعت على عينيها نظّارة أُحاديّة الزجاجة، ورافقته إلى جلبرت وسوليفان في الأسبوع الفائت، وفي أثناء الاستراحة شاهدا الملك الذي بدا وهو يرنو باتّجاههما، وهناك باربرة الرائعة التي يعتمد عليها، ذات الصلات الجيّدة التي ظنَّ جاك وإميلي أنّه ينبغي له أن يتزوّجها، والتي سبق لها أن وجّهت له الدعوة لقضاء أسبوع في قلعة أبويها في منطقة الهايلاندز(١). وشعر أنّ عدم ذهابه سيكون تصرّفًا فظًّا.

---

(١) منطقة الهايلاندز Highlands: وهي المرتفعات المشهورة بطبيعتها الساحرة في اسكتلندا بالمملكة المتّحدة (المترجم).

وكلّما بدا أنّه يوشك أن ينعقد لسانه بسبب النسيان، نبّهته إلى ما نسي بسؤال آخر. لقد انخفض إيجاره في ألباني على نحو يتعذّر تفسيره، وثمّة صديق قديم تسبّب في حمل فتاة تلثغ في كلامها، ولكنّه تزوّجها وعاش عيشة سعيدة. وثمّة صديق آخر اشترى درّاجة ناريّة، كما أنّ والد أحد أصدقائه اشترى مصنعًا لصناعة المكانس الكهربائيّة، وقال إنّ مصنعه رُخِّص لطبع النقود. وهناك جدّة أحدهم كانت تمتلك الشجاعة بما يمكّنها من السير مسافة نصف ميل بساق مكسورة. دار هذا الحديث العذب عذوبة هواء المساء من حولها، وفيها، خالقًا عالمًا من الأهداف النبيلة والنتائج المرضية. واجه الاثنان، وقد اتّكأ أحدهما على كتف الآخر وهما نصف واقفين ونصف جالسين، بيت طفولتهما الذي بدت في هذه اللحظة سماته المعماريّة القروسطيّة المشوّشة بسيطة، وكان داء الشقيقة الذي تعانيه والدتهما فاصلاً هزليًّا في أوپرا خفيفة، وحزن التوأمين غلوًّا عاطفيًّا، وحادثة المطبخ ليست سوى متعة أرواح مفعمة بالحيويّة والنشاط.

ولمّا حان دورها لتقديم روايتها عن الأشهر الماضية كان يستحيل عليها أن لا تتأثّر بنغمة ليون، على الرّغم من أنّ تفسيرها للأحداث بدا أضحوكة وسخرت من محاولاتها في ذكر الأنساب، فشجرة العائلة كانت شتويّة، وعارية عن الأوراق، فضلاً عن أنّها بلا جذور.

فالجدّ هاري تاليس كان ابن عامل زراعي غيّر اسمه الأوّل كارترايت لسبب من الأسباب. أمّا مولده وزواجه فلم يثبتا في أيّة سجلاّت. وأمّا بخصوص كلاديسّا ـ التي أمضت ساعات النهار مضطجعة على السرير والخدر يسري في ذراعها ـ فقد أثبتت قضيّة الفردوس المفقود[1] على نحو عكسي، إذْ

---

(١) «الفردوس المفقود» Paradise Lost: قصيدة ملحميّة للشاعر جون ملتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤) صدرت طبعتها الأولى في ١٦٦٧ وتنقسم إلى اثني عشر قسمًا. تعدّ الملحمة الوحيدة الكاملة المكتوبة بالإنكليزيّة، وتعالج موضوع الخطيئة الأولى عمومًا، وإن كانت تصوّر أصلاً تناقضات الإنسان وحالات الأمل واليأس التي تنتابه. القصيدة مكتوبة بالشعر

أضحت البطلة أكثر مدعاة لاشمئزاز النفس بعد أن تمّ الكشف عن فضيلتها المرتكزة في الموت. أومأ ليون برأسه، وزمَّ شفتيه، إذْ لم يكن يرغب في التظاهر بأنّه يعرف الموضوع الذي كانت تتحدّث فيه، ولم يرغب في مقاطعتها أيضًا. قدّمت لونًا هزليًّا للأسابيع التي أنفقتها في سأم وعزلة، وكيف وجدت نفسها مع الأسرة، وعوّضت عن الأيّام التي كانت فيها بعيدة، وحاولت، بتشجيع من ضحكة أخيها الكريمة الفاترة، أن تضع رسومًا مضحكة، مستندة إلى حاجتها اليوميّة إلى السكائر، وإلى تمزيق بريوني ملصقها الإعلاني، وإلى التوأمين خارج غرفتها وفي يد كلّ منهما جورب، وإلى رغبة الأمّ بحدوث معجزة في المأدبة ـ بطاطس مشويّة في سلطة بطاطس. لم يفهم ليون الإشارة الإنجيليّة في هذا الصدد، ثمّة قنوط ويأس يلفّ حديثها كلّه، فراغ في جوهره، أو ثمّة شيء مستبعد، أو بلا اسم، جعل حديثها يتسارع فتبالغ دون قناعة به. كان بُطلان حياة ليون اللطيفة نتاجًا لامعًا من صنع يديه، مظهرها الخدَّاع البسيط، وحدودها تحقّقت بفعل عمل شاقّ غير مرئي، والأحداث التي صادفت شخصيّاتها لا يمكن لها أن تضاهيها. شبكت ذراعها بذراعه، وضغطت عليها، تلك قضيّة أخرى تخصّ ليون، إنّه لطيف وحلو المعشر، لكنّ ذراعه بدت من تحت سترته وقد اكتسبت صلابة الخشب الاستوائي. شعرت بالنعومة في كلّ المستويات، وبالشفافيّة، أمّا هو فكان يرمقها بنظرات شوق.

ـ ماذا جرى يا سي؟

ـ لا شيء، لا شيء تمامًا.

ـ لا بدّ لك من المجيء والبقاء معي والاطّلاع على المكان.

في هذه الأثناء لاح شكل يتحرّك فوق الشرفة، وكانت الأضواء تنبعث من غرفة الاستقبال، ونادت بريوني على أخيها وأختها، أمّا ليون فهتف:

= المرسل. تأثّر بأسلوب الملحمة الشعري عدد كبير من شعراء القرن الثامن عشر. لعلّ أجمل ما فيها تصويره الشيطان وآدم وحوّاء في الجنّة (المترجم).

ـ نحن هنا.

قالت سيسليا:

ـ لا بدّ لنا من الدخول.

وبدا الاثنان يسيران عائدين إلى المنزل متشابكي الذراعين، وفيما هما يجتازان الورود فكّرت إن كان هناك شيء ينبغي لها أن تكلّم أخاها عنه. أمّا الاعتراف بخصوص سلوكها في صباح هذا اليوم فهو مستحيل على وجه التوكيد.

ـ أحبّ أن أزور البلدة.

تفوّهت بالكلمات وهي تتخيّل نفسها وقد انجذبت إلى الوراء، لا تقوى على توضيب حقيبتها أو تلحق بالقطار، ربّما لم ترغب في السفر تحديدًا، لكنّها كرّرت لتؤكّد رأيها:

ـ أحبّ أن أزور البلدة.

كانت بريوني تنتظر فارغة الصبر على الشرفة لملاقاة أخيها وتحيّته، وعندما تكلّم أحدهم من داخل غرفة الاستقبال ردّت مجيبة من فوق منكبها. ولمّا اقترب ليون وسيسليا سمعا الصوت ثانية ـ كانت أمّهما تحاول أن تبدو صارمة.

ـ سأكرّر القول مرّة واحدة لا غير، يجب الصعود إلى الطابق العلوي للاستحمام وتبديل الثياب.

رمقتهما بريوني بنظرة طويلة وحزينة، واتّجهت صوب الباب الزجاجي حاملة شيئًا ما بيدها.

قال ليون:

ـ بإمكاننا إعداد كلّ شيء بأسرع وقت.

عندما دلفا إلى الغرفة، حيث المصابيح تُنير المكان، كانت بريوني لا

تزال واقفة في مكانها، حافية القدمين، بثوبها الأبيض المتّسخ، في حين كانت والدتها تقف بجانب الباب في أقصى طرف الغرفة، تبتسم ابتسامة مفرطة في التسامح والتدليل. بسط ليون ذراعيه وتكلّم بلهجة الكوكني[1] التي وفّرها ليكلّمها بها:

ـ إنّها أختي الصغيرة سيس.

أسرعت بريوني في خطاها وهي تضع في يد سيسليا قصاصة ورق مطويّة طيّتين، ثم هتفت باسم أخيها ووثبت لتعانقه.

شعرت سيسليا أنّ والدتها تراقبها، فما كان منها إلاّ أن تظاهرت بأنّها متشوّقة لمعرفة ما في الورقة، ففتحتها. أدركت محتويات القصاصة المكتوبة على الآلة الكاتبة بحروف صغيرة، واستوعبتها كلّها وحدَة معنى استمدّ قوّته ولونه من كلمة واحدة مكرّرة. كانت بريوني تقف إلى جانبها تقصّ على ليون قصّة المسرحيّة التي كتبتها من أجله، وتعبّر عن أساها لإخفاقها في عرضها. ظلّت تكرّر: محاكمات أرابيلاّ، محاكمات أرابيلاّ، لم تبد من قبلِ بمثل هذه الحيويّة والانفعال. كانت ذراعاها لا تزالان تطوّقان رقبته وهي واقفة على رؤوس أصابعها لتضع خدَّها على خدّه.

ظلّت كلمة واحدة تتردّد في البداية في ذهن سيسليا، إنّها كلمة مؤكّدًا، مؤكّدًا. كيف لم تلاحظها؟ كلّ شيء واضح، النهار بطوله، الأسابيع المنصرمة وطفولتها، حياتها، كلّ شيء بات واضحًا الآن، وإلاّ ما سبب إنفاقها كلّ ذلك الوقت من أجل اختيار الثوب؟ أو الخصام بشأن الزهريّة؟ أو رؤيتها الأشياء بعين مختلفة؟ أو عدم قدرتها على الرحيل؟ ما الذي جعلها عمياء إلى هذا الحدّ؟ وبليدة؟ مرّت بضع ثوان، ولم يعد مقبولاً منها أن تظلّ واقفة وتحدّق في قصاصة ورق، وكان طيّها إيّاها قد جعلها تُدرك إدراكًا واضحًا أنّ إرسالها بلا مظروف لم يكن ممكنًا، استدارت لتنظر إلى أختها. كان ليون يقول لها:

---

[1] الكوكني Cockney: هي لهجة سكّان حيّ الإيست أند في لندن (المترجم).

ـ ما رأيك بهذا؟ إنّ صوتي جميل، بل أنت أفضل، وسوف نقرأها معًا.

دارت سيسليا من حوله لتصبح في مواجهة بريوني.

ـ بريوني! هل قرأت هذه الورقة يا بريوني؟

كانت بريوني منشغلة في الحديث مع شقيقها وهي بين ذراعيه، وأشاحت بوجهها المدفون إلى حدٍّ ما، في سترة ليون عن أختها.

قالت إميلي، وهي في مكانها من الغرفة، مهدّئةً:

ـ هدوء الآن.

غيّرت سيسليا من موضوعها ثانية، فأصبحت في الجانب الآخر من كتف شقيقها.

ـ أين المظروف؟

أشاحت بريوني بوجهها ثانية، وضحكت ضحكة وحشيّة عندما تفوّه ليون بشيء ما أثارها.

ثم تنبّهت سيسليا إلى وجود شخص آخر ضمن نطاق الرؤية يتحرّك من خلفها، ولمّا التفتت رأت پول مارشال، كان يحمل بإحدى يديه صينيّة فضِّيّة ومن فوقها خمس كؤوس مملوءة إلى نصفها بشراب كوكتيل بنّي اللون. رفع كأسًا وقدّمها لها قائلاً:

ـ أُصرُّ على أن تتذوّقي هذا الشراب.

* * *

الفصل العاشر

تأكّدت بريوني من تعقيد مشاعرها بأنّها كانت تدخل ميدان العاطفة والتظاهر بغير ما تبطن، وهما من سمات البالغين، الأمر الذي ستُفيد منه في كتابتها. أيّة حكاية من حكايات الجنّ هي تلك التي عاشت طويلاً بفضل ما فيها من تناقض؟ لقد راودها فضول وحشي متهوّر إلى أن تفضّ مظروف الرسالة ـ وأن تقرأها في الردهة بعد أن سمحت لها بولي بدخولها ـ وعلى الرّغم من أنّ صدمة الرسالة برّأتها تبرئة تامّة، إلاّ أنّها لم تحل دون إحساسها بالذنب، لأنّ فضّ رسائل الآخرين خطأ، لكنّ من حقّها، ومن الضروري أيضًا، أن تعرف كلّ شيء. لقد فرحت برؤية أخيها ثانية، لكنّ رؤيتها له لم تمنعها من المبالغة في إظهار عواطفها كي تتفادى اتّهام شقيقتها. كما أنّها تظاهرت، في ما بعد، بأنّها توّاقة لإطاعة أوامر والدتها والصعود إلى غرفتها. كما أنّها أرادت أن تهرب من سيسليا، وأن تخلو إلى نفسها لتفكّر في روبي من جديد، ولتضع إطار الفقرة الأولى لقصّة مستمدّة من الحياة الواقعيّة. لا مزيد من الأميرات! لا بدّ من إعادة النظر في مشهد النافورة وما انطوى عليه من تهديد قبيح، وفي النهاية عندما مضى كلّ في سبيله، غياب الألق المتلألئ على سطح الحصباء المبلّلة. لقد خلقت الرسالة شيئًا بدائيًّا ووحشيًّا، وربّما إجراميًّا أيضًا، مبدأ من مبادئ الظلام، فضلاً على أنّها في خضمّ انفعالاتها، التي

ولّدتها الاحتمالات الكثيرة، لم يغب عن بالها أنَّ شقيقتها تعرّضت، على نحو ما، إلى تهديد، وأنّها بحاجة إلى مساعدتها.

الكلمة: حاولت أن تمنع تردّد صداها في أفكارها، لكنّها، الكلمة، تراقصت وسط تلك الأفكار رقصًا بذيئًا فاحشًا، شيطانيًّا مطبعيًّا، غموضًا مخادعًا، جناسًا تصحيفيًّا[١] مدسوسًا مثل الكلمتين: uncle وa unt. مثل ملك إنكليزي من سالف العصور يحاول أن يغيّر مجرى الأمور. إنَّ الكلمات المقفّاة، أو المتساجعة، تستمدّ شكلها من كتب الأطفال ـ أصغر خنزير في القمامة، كلاب الصيد تطارد الثعلب، القوارب المسطّحة القعر على نهر (الكام)[٢] بالقرب من حدائق غرانتشستر. الحقّ أنّها لم تسمع أحدًا يتلفّظ بالكلمة، ولم تشاهدها مطبوعة، ولم تصادفها في أيّة هوامش، ولم يشر أحد، ولا حتى والدتها، إلى وجود ذلك العضو الكائن فيها الذي أشارت إليه الكلمة. بريوني متأكّدة من ذلك، كانت على ثقة من أنّ الكلمة تُشير إلى ذلك العضو، لقد ساعدها السياق، لكنّ الأهمّ من هذا هو أنّ الكلمة لها دلالتها، وأنَّ لفظها يوحي بمعناها. الأشكال المجوّفة الصقيلة المغلقة جزئيًّا لحروفها الثلاثة الأولى كانت واضحة وضوح مجموعة من الرسوم التشريحيّة. ثلاثة أشكال تربض عند أسفل الصليب، لكنّ ما أثار نفورها نفورًا عميقًا هو أن تكون الكلمة قد كتبها رجل يعترف أمام صورة متخيّلة في ذهنه، يسرُّ بفكرة واحدة شغلت باله.

قرأت الملاحظة واقفة دون حياء في وسط الردهة، وهي تشعر بالخطر الكامن وراء مثل هذه الفجاجة، ثمّة شيء إنساني، أو ذكوري، يتعذّر اختزاله،

---

(١) الجناس التصحيفي anagram: تغيير يُجرى في ترتيب أحرف كلمة ما بغية تشكيل كلمة جديدة، وقد أراد المؤلّف هنا استخدام الكلمتين uncle (العم) و aunt (العمّة) لكنّه بدلاً من العمّة استخدم كلمة anut (أي بندقة واحدة)، الجناس بالإنكليزيّة واضح، لكنّه ضائع هنا باللغة العربيّة لأنّ كلمة (بندقة) لا تتجانس وكلمة (عمّ) (المترجم).

(٢) نهر الكام Cam River: نهر في مقاطعة كيمبردجشاير شرقي إنكلترا ويصبّ في نهر الاوس، يبلغ طوله ٦٤ كم (المترجم).

يهدّد نظام الأشياء في منزلهم، وأدركت بريوني أنّ كلّ أفراد المنزل سيتألّمون ما لم تمدّ يد العون لأختها. والشيء الواضح أيضًا هو أن تأتي مساعدتها على قدر كبير من الدقّة والحذق، وإلاّ فإنّ سيسليا سوف تقاومها. هكذا علّمتها التجارب.

شغلت هذه الأفكار ذهنها وهي تغسل يديها ووجهها وتختار ثوبًا نظيفًا، لكنّها لم تتمكّن من العثور على الجوارب التي كانت تبغي لبسها، ولهذا لم تهدر الوقت بحثًا عنها، فلبست جوارب أخرى وربطت سيور حذائها وجلست من وراء مكتبها. كان الآخرون يحتسون شراب الكوكتيل في الطابق السفلي، لهذا ستخلد إلى نفسها على مدى عشرين دقيقة في الأقلّ. في إمكانها أن تمشّط شعرها وهي في طريقها إلى الخروج، ثمّة جُدْجُدٌ يطلق صوته بالغناء من وراء نافذتها المفتوحة. أمامها ورقة حجم فولسكاب من مكتب والدها. مصباح المكتب يسلّط بقعته الصفراء المهدّئة، وقلم الحبر في يدها. اصطفّت مجموعة منتظمة من حيوانات المزرعة على امتداد حافّة النافذة، واتّخذت الدمى مكانها في مختلف غرف المنزل المفتوح على جميع الجهات، وانتظرت جوهرة جملتها الأولى. وفي تلك اللحظة كانت رغبتها في الكتابة أقوى من أيّة فكرة يمكنها أن تكتبها. لقد أرادت أن تضيع أمام فكرة لا تقاوم، أن ترى الخيط الأسود وهو ينسلّ من سنّ قلمها الحبر الفضّي ليتحوّل إلى كلمات. لكن كيف يمكنها أن تكون عادلة إزاء التغيّرات التي جعلتها كاتبة حقيقيّة في نهاية المطاف، وإزاء فيض الانطباعات الفوضوي، وإزاء النفور والعجب اللذين شعرت بهما. لا بدّ من فرض النظام، وكما قرّرت في وقت مبكر، ينبغي لها أن تبدأ بشرح مبسّط لما رأته أمام النافورة. لكنّ تلك الحادثة التي جرت تحت نور الشمس لم تكن مثيرة للاهتمام، على العكس من لحظات الغروب والدقائق التي أنفقت بالتراخي والكسل وأحلام اليقظة من فوق الجسر، ومن بعدها ظهور روبي للعيان في العتمة مناديًا إيّاها، وحاملاً بيده المظروف الأبيض الصغير المربّع الشكل الذي كان يحوي الكلمة، ثم ما الذي حوته الكلمة؟

فكتبت: ثمّة سيّدة ابتلعت ذبابة.

المؤكّد أنّ القول بضرورة وجود حكاية ليس طفوليًا، وها هي قصّة رجل يهواه الجميع، لكنّ البطلة تراودها الشكوك من حوله دومًا، وفي نهاية المطاف تتمكّن من أن تظهر أنّه كان يمثّل ذروة الشرّ. لكن ألا يفترض بها ـ وهي بريوني المؤلّفة ـ أن تكون الآن خبيرة بالحياة والناس وتنأى بنفسها عن مثل هذه الأفكار الطفوليّة كالخير والشرّ؟ لا بدّ من وجود مكان سامٍ يمكن أن يُحكم به على جميع الناس، سواسية، دون أن يُحرَّض واحدهم على الآخر، كما يحدث عادةً في مباراة هوكي، وأنّ من الضروري مشاهدة هؤلاء اللاعبين وهم يتدافعون بضوضاء، وبكلّ ما لديهم من عيوب ونواقص. لو وُجد مثل هذا المكان فإنّها غير جديرة به، إذ لا يمكنها أن تغفر لروبي عقليّته المثيرة للاشمئزاز.

بقيت بريوني جالسة دقائق طويلة أسيرة رغبتها الجامحة في كتابة شرح بسيط عن أحداث يومها، ورغبتها في أن تجعل من تلك الأحداث شيئًا عظيمًا برّاقًا ومتّزنًا وغامضًا. وقطّبت جبينها وهي ترنو إلى الورقة أمامها التي لم تكن قد كتبت عليها سوى ذلك الاستشهاد الطفولي، ولم تكتب كلمة أخرى. وفكّرت أن في إمكانها أن تصف الأحداث وصفًا جيّدًا، وأنّ لها أُسلوبها في صياغة الحوار، لكن كيف يمكنها التعبير عن المشاعر؟ شعرت بالحزن لأنّها تستطيع أن تكتب، أو تصف ما يمكن أن يفعله إنسان حزين، لكن كيف تعبّر عن الحزن نفسه؟ كيف يمكنها أن تكتب عنه على نحو يمكن الإحساس بكلّ ما فيه من بداهة تضعف النفس. والأصعب من هذا كلّه هو التهديد، أو التشوّش الذي ينطوي عليه الإحساس بالأشياء المتناقضة. جالت ببصرها في جميع أرجاء الغرفة والقلم في يدها، ورمقت الدمى ذات الوجوه الجامدة، الرفيقات المغتربات منذ طفولتها التي مضى عهدها وانقضى، بحسب رأيها. يا له من شعور مهدّئ عندما يفكّر الإنسان بأنّه ينمو ويترعرع. فهي لن تجلس بعد اليوم في حضن إميلي، ولا في حضن سيسليا، إلاّ على سبيل المزاح حسب. قبل

صيفين اثنين، وفي يوم عيد ميلادها الحادي عشر، صحبها والدها وشقيقها وشقيقتها وشخص خامس، لم تعد تتذكّره، إلى الحديقة وبدأوا يقذفون بها إلى أعلى، وهي ملفوفة بدثار، إحدى عشرة مرّة، أعقبوها بمرّة أخرى تيمّنًا بحظٍّ سعيد. أيمكنها أن تؤمن بذلك الآن، بتلك الحرّيّة البهيجة وهي تطير إلى أعلى، وبتلك الثقة العمياء، بقبضة أيادي البالغين الرقيقة، حيث يمكن للشخص الخامس أن يكون بكلّ بساطة روبي نفسه؟

سمعت صوتًا لأنثى تتنحنح برقّة، فرفعت بصرها وهي ذاهلة، إنّها لولا وقد مالت قليلاً داخل الغرفة معتذرة، ولمّا التقت عيناها بعيني بريوني طرقت الباب برفق بأصابعها.

ـ أيمكنني الدخول؟

ثم دخلت على أيّة حال، بخطوات مقيّدة سببها الثوب الأزرق الضيّق الذي كانت ترتديه.

كان شعرها منسدلاً، وقدماها حافيتين، وعندما اقتربت دفعت بريوني قلمها جانبًا وغطّت الجملة التي كتبتها بزاوية أحد الكتب. جلست لولا على حافّة السرير وهي تنفث، على نحو درامي، من وجنتيها. بدا الأمر وكأنّهما تجلسان دائمًا في نهاية النهار لتبادل الحديث كأيّة أختين.

ـ كان المساء مروّعًا جدًّا لي.

وعندما اضطرّت بريوني إلى أن ترفع من حاجبها بسبب نظرة ابنة خالتها الثاقبة استرسلت:

ـ لقد عذّبني التوأمان.

ظنّت أنّ العبارة استعارة كلاميّة، لكنّ لولا مالت بكتفها لتريها خدشًا طويلاً في أعلى ذراعها.

ـ فظيع!

ثم رفعت رسغيها، فبان من حول كلّ رسغ شريط مبقّع من أثر التقيّح.

ـ حروق صينيّة[1]!

ـ تمامًا.

ـ سأحضر لك بعض المعقّمات لتعقيم ذراعك.

ـ لقد فعلت ذلك بنفسي.

صحيح، فعبق عطر لولا النسائي لم يتمكّن من إخفاء نفحة الجيرمولين الطفوليّة. وكان أقلّ ما في وسع بريوني عمله هو أن تنهض من وراء مكتبها وتذهب للجلوس بجانب ابنة خالتها.

ـ أيّتها المسكينة!

انتفخت عينا لولا لتعاطف بريوني وإيّاها وبات صوتها خشنًا.

ـ الجميع يظنّون أنّهما ملاكان لأنّهما يبدوان متشابهين، لكنّهما وحشان صغيران.

منعت نفسها من أن تجهش بالبكاء، وبدت كأنّها تكتبه بالضغط على فكّها، ثم تنفّست تنفّسًا عميقًا عدّة مرّات من خلال منخريها المنتفخين. أمسكت بريوني بيدها، وفكّرت أنّ في إمكانها أن تلاحظ كيف يمكن للمرء أن يغرم بلولا. اتّجهت صوب خزانة الأدراج، وأخرجت منديلاً وطوته وناولته للولا. كادت لولا أن تستعمله، لكنّ الصورة المطبوعة عليه والتي تمثّل مجموعة من راعيات البقر والحبال من ذوات الأنشوطة، جعلتها تطلق صوتًا رقيقًا بنغمة متعالية على نمط الضوضاء التي يحدثها الأطفال عندما يقلّدون صوت الأشباح. رنَّ جرس الباب في الطابق السفلي، وبعد لحظات قصيرة سُمع صوت وقع خطوات سريعة بكعب عالٍ على بلاط أرضيّة الردهة. لا بدّ

(١) حروق صينيّة Chinese burns: هي ليست حروقًا بالمعنى الحرفي للعبارة، بل أثر من آثار تعذيب، إن جاز التعبير، يمارسه تلاميذ المدارس، ويتمّ بالإمساك برسغ الضحيّة وليّها في جميع الاتّجاهات (المترجم).

أنّه روبي، ولا بدّ أنّ سيسليا هي التي ذهبت لتفتح الباب بنفسها، نهضت بريوني من مكانها ثانية، وأغلقت باب غرفة النوم خشية أن يسمع الموجودون في الطابق الأرضي بكاء لولا. كان ضيف لولا قد دفع بريوني إلى التململ والاهتياج الذي يوشك أن يتحوّل إلى بهجة، فعادت أدراجها إلى السرير، وطوّقت لولا بذراعها، فرفعت هذه يديها نحو وجهها وبدأت تذرف الدموع. شعرت بريوني بالدهشة وهي ترى فتاة بهذه الهشاشة وبهذا النزوع إلى الاستبداد وقد لقيت المذلّة على أيدي صبيّين في التاسعة من عمريهما، ومنحها هذا الشعور إحساسًا بقوّتها، القوّة الكامنة من وراء هذا الشعور الذي يكاد ينطوي على الفرحة. ربّما هي ليست بتلك الدرجة من الضعف والهشاشة التي تتظاهر بها دائمًا، فالمرء لا بدّ له أخيرًا من أن يقيس نفسه على وفق ما يراه الآخرون. الحقّ ليس ثمّة مقياسًا آخر. فبين الحين والآخر يعلمك شخص ما، على نحو غير مقصود، شيئًا ما عن دواخل نفسك. انعقد لسان بريوني من الارتباك، ولم تُحر جوابًا، فأخذت تربّت بلطف وحنان على كتف ابنة خالتها، وفكّرت في أنّ جاكسون وبياروت لا يمكنهما أن يكونا وحدهما المسؤولين عن مثل هذا الحزن، وتذكّرت أنّ هناك أحزانًا أخرى في حياة لولا، بيت الأسرة في الشمال، وتخيّلت بريوني شوارع الطواحين المكسوّة بالسواد، ورجالاً مكفهرّين يمشون بتثاقل وبطء نحو عملهم، حاملين معهم شطائر في علب معدنيّة. لقد أُغلق منزل آل كوينسي الكائن هناك، ولعلّه لن يفتح أبوابه من جديد.

بدأت لولا تعود إلى وضعها السوي، فسألتها بريوني برقّة:

ـ ماذا جرى؟

فخطت الفتاة الأسنّ، وفكّرت للحظة.

ـ كنت أستعدّ للاستحمام، فما كان منهما إلاّ أن اقتحما غرفة الاستحمام ووثبا من فوقي ثم طرحاني أرضًا...

توقّفت هنيهة وهي تتذكّر تلك اللحظة لمقاومة نوبة أخرى من البكاء.

ـ لكن ما الذي دفعهما إلى ذلك العمل؟

تنفّست تنفّسًا عميقًا، وتمالكت نفسها، وحملقت في الجانب الآخر من الغرفة.

ـ إنّهما يريدان العودة إلى المنزل، فقلت لهما إنّ ذلك غير ممكن. إنّهما يظنّان أنّي أنا السبب في إبقائهما هنا.

أدركت بريوني أنّ التوأمين كانا يصبّان جام غضبهما، دونما مبرّر، على شقيقتهما، لكنّ الذي أربك روحها المنظّمة الآن هو أنّ هناك من سينادي عليها عمّا قريب لتهبط إلى الطابق الأسفل، وأن على قريبتها أن تتمالك نفسها وتهدأ.

قالت بريوني بتعقّل وهي تتّجه صوب المغسلة وتملأها بماء حارّ:

ـ إنّهما لا يفهمان فحسب، إنّهما طفلان لطمتهما الأيّام لطمًا عنيفًا.

خفضت لولا من رأسها وهي غارقة في الحزن، وأومأت على نحو جعل بريوني تشعر بدفقة حنان تجاهها، وبعد ذلك، وبسبب مزيج من دوافع متباينة ـ ضرورة عمليّة لتغيير دفّة الحديث والرغبة في أن تشاطرها الأخت الكبرى سرًّا من الأسرار، ولأن تثبت لها أنّها بدورها تمتلك خبرات بالحياة والناس، ولكن، قبل هذا وذاك، لأنّها استشعرت المحبّة والمودّة تجاه لولا، وأرادت أن تجذبها إليها على نحو أشدّ ـ أخبرتها بريوني بقصّة لقائها روبي على الجسر والرسالة، وكيف فضّتها. وما هي محتوياتها. وبدلاً من أن تتفوّه بالكلمة بصوتٍ عالٍ، وهو أمر لا يمكن التفكير فيه، تهجّأتها بصورة معكوسة. كان أثر ذلك في لولا مرضيًا وسارًّا، ورفعت وجهها من فوق المغسلة وهو يقطر ماءً وفغرت فاها.

ناولتها بريوني منشفة، ومرّت بضع ثوان تظاهرت فيها لولا بأنّها تحاول أن تعثر على الكلمات المناسبة، ولكنّها بالغت قليلاً، لا بأس، على أيّة حال، وهمست بصوت أجشّ:

ـ فكّرت بذلك طوال الوقت؟

أومأت بريوني برأسها، وأشاحت بوجهها إلى الجانب كأنّها تصارع مأساة. في إمكانها أن تتعلّم كيف تكون قادرة على التعبير بصورة أفضل، وذلك من خلال ابنة خالتها التي جاء دورها الآن لتضع يدها المطمئنّة على كتف بريوني.

ـ يا له من تصرّف فظيع، الرجل مهووس.

مهووس! للكلمة وقعها اللطيف، وثقل التشخيص الطبّي. لقد عرفته طوال تلك السنوات المنصرمة. هكذا كان حاله. وعندما كانت صغيرة اعتاد أن يحملها على ظهره ويتظاهر بأنّه وحش. وكانت تنفق الوقت معه وحيدة، مرّات ومرّات، قرب المسبح حيث علّمها، في صيف ما، كيف تتجنّب الغرق بتحريك القدمين إلى أعلى وإلى أدنى والسباحة على الصدر. وبعد أن شخّصت حالته الآن بالاسم، شعرت بقدر من العزاء، على الرّغم من أنّ لغز حادثة النافورة ازداد غموضًا. سبق لها أن قرّرت عدم البوح بتلك الحادثة، ورأت أنّ التفسير بسيط، وأنّ الأفضل عدم الكشف عن جهلها.

ـ ما الذي ستفعله شقيقتك؟

ـ لا أدري.

مرّة أخرى لم تذكر أنّها كانت تخشى لقاءها القادم مع سيسليا.

ـ أتدرين؟ في أوّل عصر مرَّ بنا، ظننت أنّه وحش عندما سمعته يصرخ في وجه التوأمين بالقرب من المسبح.

حاولت بريوني أن تتذكّر لحظات مشابهة يمكن أن تكون أعراض الهوس قد ظهرت.

قالت:

ـ لطالما تظاهر بأنّه لطيف. لقد خدعنا على مدى سنوات.

كان تغيير دفّة الحديث مفيدًا، لأنّ المنطقة المحيطة بعيني لولا، والتي التهبت، عادت وأصبحت شاحبة يعلوها النمش ثانية، وعادت إلى وضعها الطبيعي من جديد.

أمسكت بيد بريوني.

ـ أعتقد أنّ الشرطة ينبغي أن تعرف بأمره.

كان شرطي القرية رجلاً حليمًا ورؤوفًا، ذا شارب يزداد طولاً ونموًّا، تربّي زوجته الدجاج، وتتردّد على البيوت لتسلّم البيض الطازج، وهي على درّاجتها الهوائيّة. وكان يتعذّر تمامًا نقل الرسالة والبوح بالكلمة التي تحتويها، ولا حتى تهجئتها معكوسة له.

أرادت بريوني أن تبعد يد لولا عنها، لكنّ الأخيرة شدّدت من قبضتها، وبدت وكأنّها تقرأ ما يجول في ذهن الفتاة الصغيرة من أفكار.

ـ كلّ ما نحتاج إليه هو إطلاعهم على الرسالة.

ـ قد لا توافق على ذلك.

ـ أراهن أنّها ستوافق، فالمهووسون في إمكانهم مهاجمة أيّ شخص.

بدت لولا فجأة مستغرقة في التفكير، وتوشك أن تخبر قريبتها بشيء جديد، ولكنّها بدلاً من ذلك وثبت بعيدًا وأمسكت بفرشاة شعر بريوني، ووقفت أمام المرآة تمشّط شعرها بحيويّة ونشاط. ولم تكد تبدأ حتى تناهى إلى سمعها صوت السيّدة تاليس تناديهما من الطابق الأرضي وتدعوهما لتناول طعام العشاء. وعلى الفور تكدّر مزاج لولا، وخمّنت بريوني أن يكون انزعاجها الأخير هو سبب هذه التغيّرات السريعة في مزاجها.

قالت وهي توشك أن تجهش بالبكاء ثانية:

ـ مستحيل! إنّني لست مهيّأة بعد، بل لم أبدأ بتجميل وجهي.

هدّأتها بريوني قائلة:

ـ سأهبط إلى الطابق الأرضي الآن، وسأخبرهم بأنّك ستتأخّرين قليلاً.

لكنّ لولا كانت في طريقها للخروج من الغرفة، ولم يبدُ عليها أنّها سمعت ما قالته بريوني لها.

بعد أن صفّفت بريوني شعرها، ظلّت واقفة أمام المرآة تتفحّص وجهها وتتساءل عمَّا يمكن أن تفعله به عندما تبدأ بتجميله، وهو أمر تعلم جيّدًا أنّها ستفعله حتمًا في يوم ما، وفي القريب العاجل. مطلب آخر تنفق عليه وقتها في الأقلّ، ليس في وجهها من النمش ما يجعلها تخفيه أو تخفّف من شكله ممّا يجعلها توفّر الوقت على وجه التوكيد. كانت قد قرّرت منذ زمن بعيد، وهي في سنّ العاشرة، أنّ أحمر الشفاه يجعلها تبدو مثل مهرّج، لكنّ تلك الفكرة بحاجة إلى إعادة نظر، ولكن ليس الآن، لأنّ هناك أمورًا كثيرة تحتاج إلى تفكير. وقفت بجانب المكتب وأعادت ذاهلةً غطاء قلم الحبر إلى مكانه. كان تأليف القصّة عملاً ميؤوسًا منه، ومشروعًا سقيمًا بلا جدوى، ما دامت مثل هذه القوى الجبّارة والفوضويّة تقف ضدّها، وما دامت أحداث اليوم المتعاقبة قد استوعبت كلّ ما حدث قبلها، أو حتى غيّرت منها. ثمّة سيّدة عجوز ابتلعت ذبابة. وفكّرت إن كانت قد ارتكبت غلطة فظيعة عندما كشفت لقريبتها عن السرّ ـ إذْ ما من شأن سيسليا أن تشعر بالسرور إذا ما بدأت لولا السريعة الاهتياج، تقصّ متباهية ما تعرفه عن رسالة روبي. ثم كيف يمكنها أن تهبط إلى الطابق الأرضي وتجلس من حول مائدة مع مهووس؟ وإذا ما قامت الشرطة باعتقاله فإنّ بريوني قد تُستدعى إلى المحكمة وتتفوّه بالكلمة بصوت عالٍ مؤكّدةً إيّاها.

غادرت غرفتها على مضض، وشقّت طريقها على امتداد الممرّ، ذي الألواح الزجاجيّة المعتمة، صوب أعلى السلالم حيث توقّفت وأصاخت سمعها. كانت الأصوات لا تزال تنبعث من غرفة الاستقبال. سمعت صوت والدتها، وصوت السيّد مارشال، أو المهووس. وشعرت بريوني أنّ معدل خفقان قلبها آخذ بالازدياد عندما بدأت تهبط السلالم على مضض. لم تعد حياتها بسيطة. فقبل ثلاثة أيّام لا أكثر كانت قد انتهت من تأليف مسرحيّة

محاكمات أرابيلاّ وباتت تنتظر أقرباءها. كانت قد أرادت أن يبدو كلّ شيء مختلفًا تمامًا، لكن ها هي الآن، فالأمور ليست سيّئة فحسب، بل ازدادت سوءًا. توقّفت ثانية عند فسحة الدرج الأولى لتوطّد أركان خطّتها. سوف تنأى بنفسها عن قريبتها المتقلّبة المزاج، ولن تلفت نظرها، إذْ لا يمكنها أن تتورّط في مؤامرة، ولم ترغب أيضًا في أن تتسبّب بانفجار كارثي، كما أنّ سيسليا، التي ينبغي لها أن تحميها، لم تملك الجرأة على الاقتراب منها. أمّا روبي فلا بدّ من تجنّبه حفظًا للسلامة. أمّا والدتها، القلقة دومًا، فلا فائدة تُرجى منها، ويستحيل التفكير تفكيرًا مباشرًا أمامها. لهذا يتعيّن عليها أن تلجأ إلى التوأمين ـ سوف يكونان ملاذًا لها، وستكون قريبة منهما وترعاهما. إنّ العشاء في أيّام الصيف يبدأ دائمًا في وقت متأخّر ـ فقد تجاوزت الساعة العاشرة ليلاً ـ ولا بدّ أنّ الولدين يشعران بالتعب الآن. وبخلاف ذلك ينبغي لها أن تكون مجاملة مع السيّد مارشال وأن تسأله عن الحلوى ـ من الذي ابتكرها، وكيف صُنعت؟ إنّها خطّة جبان. لكنّها لم تتمكّن من التفكير في خطّة بديلة.

إنّ هذه اللحظة التي يوشك فيها تقديم العشاء غير ملائمة لاستدعاء رئيس الشرطة فوكنز من القرية.

استمرّت في نزولها السلالم. فكّرت أنّه كان ينبغي لها أن تنصح لولا بتغيير ثيابها لكي تخفي أثر الخدش من على ذراعها، إذْ إنّ أيّ استفسار يطرحه أحدهم عليها قد يؤدّي بها إلى أن تجهش بالبكاء ثانية، ولكن في مثل هذه الحالة ربّما يكون صعبًا عليها أن توضح ما حدث لذراعها وهي ترتدي ثوبًا ضيّقًا جدًّا يحدُّ من مشيتها. إنَّ بلوغ سنّ الرشد يعني تقبّل مثل هذه العراقيل عن طيب خاطر، فهي التي تضطلع بالولدين التوأمين، والخدش ليس خدشها، ولكنّها شعرت أنّها مسؤولة عنه وعن كلّ ما قد يحدث. فعندما كان والدها في البيت كان أفراد الأسرة يتحلّقون من حول المائدة في أماكن محدّدة، هو لم يرتّب أيّ شيء، ولم يتجوّل في أرجاء المنزل قلقًا بالإنابة عن الآخرين، ولم يقل لأحد ما الذي عليه أن يفعله إلاّ لمامًا ـ الحقّ أنّه كان يجلس في المكتبة

طوال الوقت، لكنّ حضوره فرض النظام وسمح بالحرّيّة ورفع الأعباء. عندما كان حاضرًا لم يكن اعتزال أمّها في غرفتها قضيّة مهمّة، إذْ يكفي أن يكون هو في الطابق الأرضي وقد وضع كتابه في حضنه. عندما كان يتّخذ مجلسه من وراء مائدة العشاء، هادئًا أنيسًا عذب المعاشرة جديرًا بالاعتماد عليه، فإنّ أيّة أزمة قد تنشب في المطبخ مثلاً لا تعدو كونها أكثر من مشهد مسرحي هزلي. أمّا في غيابه فإنّ تلك الأزمة تغدو مشهدًا دراميًا ينقبض له القلب. كان يعرف معظم الأشياء التي تستحقّ المعرفة، وإذا لم يكن يعرف فإنّه كان يمتلك فكرة واضحة عن المرجع الذي ينبغي له استشارته، وكان يصحبها إلى المكتبة لمساعدته في العثور على ذلك المرجع. ولو لم يكن عبدًا للوزارة، على حدّ وصفه، ولقسم التخطيط للطوارئ، ولو كان في المنزل ليرسل هاردمان لجلب النبيذ، وإدارة دفّة الحديث مقرّرًا، دون أن يبدو عليه أنّه اتّخذ القرار للبدء في الحديث، لما اجتازت الردهة الآن بمثل هذا التثاقل في خطواتها.

هذه الأفكار التي راودتها عنه هي التي جعلتها تبطئ في مشيتها وهي تمرّ من أمام باب غرفة المكتبة الذي عادةً ما يكون مغلقًا. توقّفت وأصاخت السمع، فتبيّنت صوت أوانٍ معدنيّة ترتطم بالخزف من جهة المطبخ، في حين طرق سمعها صوت أمّها تتحدّث برقّة من غرفة الاستقبال. ومن جهة أقرب تناهى إلى سمعها صوت أحد التوأمين يقول بصوت عالٍ وواضح: «هناك الحرف u فيها»، لكنّ شقيقه ردّ عليه مجيبًا: «لا يهمّني، ضعها في داخل المظروف». ومن وراء باب المكتبة سمعت جلبة سببها حكّ وكشط أعقبها صوت مكتوم وهمس قد يكون مصدره رجلاً أو امرأة، وعلى حدِّ ما تتذكّر بريوني ـ التي منحت هذه القضيّة قدرًا من تفكيرها فيما بعد ـ فإنّها لم تتوقّع أيّ شيء محدّد عندما وضعت يدها على مقبض الباب وجذبته، ولكنّها كانت قد رأت رسالة روبي، وجعلت من نفسها حامية لأختها، فضلاً عن أنّ قريبتها أرشدتها ببعض التعليمات: لا بدّ أنّ ما شاهدته كان قد تشكّل جزئيًا بما كانت تعرفه حتى الآن أو اعتقدت أنّها تعرفه.

في البدء، عندما دفعت الباب وفتحته ودلفت إلى الغرفة، لم تشاهد شيئًا. كان الضوء الوحيد في الغرفة ينبعث من مصباح مكتبي زجاجي أخضر اللون، لا يُضيء إلاّ المساحة الجلديّة الصغيرة التي وضع من فوقها. وعندما تقدّمت بضع خطوات أخرى شاهدتهما: شكلين مظلمين في الركن القصي. على الرّغم من أنّهما كانا ساكنين لا يتحرّكان، إلاّ أنّها أدركت على الفور أنّها أوقفت هجومًا وشجارًا بالأيدي. كان المشهد قد حقّق أسوأ مخاوفها التي عاشتها، والمتمثّلة في أنّ خيالها الموغل في القلق عكس الشكلين على الكتب المتراصّة. وتبدّد هذا الوهم، أو الأمل بالوهم، عندما اعتادت عيناها على العتمة. لم يتحرّك أحد، حدّقت بريوني مليًّا في ما وراء كتف روبي لتشاهد عيني شقيقتها الفزعتين. التفت روبي ليشاهد من الذي تطفّل عليهما ودخل المكتبة، لكنّه لم يدع سيسليا تخرج، بل ظلّ جسده ملتصقًا بجسدها التصاقًا قويًّا بعد أن كان قد رفع ثوبها إلى ما فوق ركبتيها وحصرها في ركن تلتقي فيه رفوف الكتب بزاوية قائمة. كانت يده اليسرى وراء رقبتها، ممسكًا بشعرها، في حين أمسك بيده اليمنى ذراعها التي رفعتها احتجاجًا أو دفاعًا عن النفس.

بدا ضخمًا ومتوحّشًا، في حين كانت سيسليا مكشوفة الكتفين، هشّة الذراعين، ممّا جعل بريوني محتارة لا تدري ما تفعل، عندما بدأت تتقدّم نحوهما أرادت أن تصرخ بهما، لكنّها لم تستطع التقاط أنفاسها، وكان لسانها بطيئًا ومنعقدًا. تحرّك روبي على نحو حجب عن بريوني رؤية شقيقتها تمامًا. ثم جاهدت سيسليا لتحرّر نفسها، فتركها وشأنها. توقّفت بريوني، وتلفظّت باسم شقيقتها، لم تعبّر سيسليا عن امتنانها، ولم تبدِ أيّ ارتياح عندما مرّت من أمام بريوني، بل كان وجهها جامدًا، وكانت رابطة الجأش، تنظر أمامها صوب الباب الذي توشك أن تخرج منه. ثم مضت في طريقها، وتوارت عن الأنظار، في حين بقيت بريوني وحدها وإيّاه.

لم يحاول أن يلفت نظرها بعينيه، بل ظلّ ينظر صوب ركن الغرفة،

وشغل نفسه بتعديل سترته وربطة عنقه. ابتعدت عنه بحذر واحتراس، لكنّه لم يظهر أيّة حركة تنمّ عن نيّته في الهجوم عليها، بل لم يرفع بصره نحوها. فاستدارت وهرعت خارجة من الغرفة لتفتّش عن سيسليا، لكنّ المدخل كان فارغًا، ولم يتّضح لها الطريق الذي سلكت.

* * *

الفصل الحادي عشر

على الرّغم من الطبق الإضافي المتأخّر الذي كان يتألّف من النعناع الطازج ومزيج الشوكولا المُذابة وصفار البيض وحليب جوز الهند وشراب الروم والجن والموز المهروش والسكّر المثلج، فإنّ هذا الكوكتيل لم يكن منعشًا، فالشهيّة المتخمة بحرارة الليل تضاءلت كثيرًا. وكان جميع البالغين تقريبًا، الداخلين غرفة الطعام المفتقرة إلى الهواء النقي، أصابهم الغثيان بمشهد المشويّات، أو حتى اللحم المشوي مع السلطة، تكفيهم كأس من ماء بارد لا أكثر. لكنّ الماء لا يتوفّر إلاّ في المطبخ، في حين يوشك الجميع على إنعاش أنفسهم بالنبيذ، في ظلّ درجة حرارة غرفة اعتياديّة. ثمّة ثلاث زجاجات مفتوحة على المنضدة، كانت بيتي تلجأ عادة إلى تخمين ينطوي على الإلهام في ظلّ غياب جاك تاليس. لم يكن ممكنًا فتح النوافذ الثلاث العالية لأنّ إطاراتها معوجّة منذ زمن طويل. كما ارتفع عبق غبار دافئ من السجّادة الفارسيّة، مستقبلاً القادمين وهم يتقاطرون داخل الغرفة، لكنّ الشيء المريح هو أنّ عربة بائع السمك التي تأتي بالصنف الأوّل من الطعام، وقوامه السرطان المتبّل، قد تعطّلت.

وزاد من تأثير الاختناق الألواح المطليّة باللون الأسود والممتدّة من الأرض لتصل السقف وتغطّيه، وكذلك اللوحة الوحيدة في الغرفة المعلّقة فوق

المدفأة الجداريّة منذ بنائها ـ ثمّة خطأ في التصاميم المعماريّة لم يسمح بوجود مدخنة أو منفذ للهواء الساخن. كانت اللوحة المرسومة وفق أسلوب غاينزبورو[١] تظهر أسرة أرستقراطيّة ـ أبوين ومراهقتين وطفلاً رضيعًا، كلّهم من ذوي الشفاه الرقيقة والوجوه الشاحبة كالغيلان ـ وقد وقفوا أمام منظر طبيعي في توسكانيا[٢]. ما من أحد يعرف هويّة هؤلاء الناس، لكنّ الأرجح أنّ هاري تاليس ظنَّ أنّهم سيعطون الانطباع بمتانة أسرته وصلابتها.

وقفت إميلي على رأس المائدة لتؤشّر لكلّ زائر مكانه من حولها، فأجلست ليون إلى يمينها، وپول مارشال إلى يسارها، وإلى يمين ليون جلست بريوني والتوأمان، في حين جلست سيسليا إلى يسار مارشال، ومن بعدها روبي، ثم لولا. وقف روبي خلف كرسيّه متشبّثًا بها ومستندًا إليها، ومندهشًا، لأنّ ما من أحد، كما يبدو، يسمع خفقان قلبه المتواصل. لقد هرب من تناول الكوكتيل وإنْ لم تكن له شهيّة. التفت قليلاً ليبعد نظره عن سيسليا، ولمّا اتّخذ الجميع أماكنهم على المقاعد تنبّه، وقد ساوره الارتياح، إلى أنّ مكانه بين الأطفال.

أومأت الأمّ إلى ليون فتمتم بصلاة المائدة ـ تيمّنًا بما سنأكل ـ وكانت زحزحة الكراسي بمثابة قول (آمين).

كان من شأن الصمت الذي أعقب ذلك، وبعد أن استقرّ الجميع في مقاعدهم وفرشوا مناديلهم، أن يقطعه جاك تاليس وهو يتحدّث في موضوع مثير للاهتمام، في حين دارت بيتي من حول الجالسين وهي توزّع اللحم، عليهم، لكن جاك تاليس غائب، كما أنّ الجالسين راقبوها وأصغوا إليها وهي تنحني وتتمتم عند كلّ فرد، وتحكّ بالملعقة والشوكة، اللتين تقدّم بهما اللحم طبق اللحم الفضّي الكبير. ما الذي يمكن أن يقدّم لهم بعد هذا كلّه، في حين

---

(١) توماس غاينزبورو (١٧٢٧ ـ ١٧٨٨) Thomas Gainsborough: رسّام إنكليزي اشتهر برسم البورتريهات والمناظر الطبيعيّة (المترجم).

(٢) توسكانيا Tuscany: إقليم في شمال غربي إيطاليا عاصمته فلورنسا (المترجم).

لم يعد هناك من شيء يمكن عمله في الغرفة سوى الصمت؟ المعروف عن إميلي تاليس أنّها لا تُجيد الكلام المقتضب، كما أنّها لن تلقي بالاً إلى ذلك الأمر. أمّا ليون، الذي انكفأ على نفسه، فقد سكن في مقعده وبيده زجاجة نبيذ يتفحّص علامتها، في حين انهمكت سيسليا بالتفكير في الدقائق العشر الماضية، ولم تفلح في نطق جملة واحدة. أمّا روبي، الذي كان يعرف أفراد الأسرة، فقد كان في وسعه أن يقول شيئًا ما، لكنّه كان مضطربًا ومرتبكًا بدوره، يكفيه أن يتظاهر بتجاهله ذراع سيسليا العارية الجالسة إلى جواره ـ وكان في ميسوره أن يحسّ بحرارتها وبالنظرة العدائيّة التي كانت تسدّدها إليه بريوني الجالسة على خطّ منحرف في الجهة الأخرى من المائدة. وإذا كان من المناسب أن يطرح الأطفال موضوعًا ما، فإنّهم كانوا غير قادرين على طرحه: فهذه بريوني لا تستطيع التفكير إلاّ بما شاهدته، كما أنّ لولا صُدمت بالاعتداء جسديًا عليها، فضلاً عن مجموعة أخرى من المشاعر المتناقضة، في حين استغرق التوأمان في التخطيط لشيء ما.

لهذا كان پول مارشال هو الذي قطع ما يزيد على ثلاث دقائق من الصمت الخانق عندما اعتدل في كرسيّه ليكلّم روبي من وراء رأس سيسليا.

ـ من فضلك! هل نحن على موعدنا للعب كرة المضرب يوم غد؟

تنبّه روبي إلى وجود ندبة يبلغ طولها زهاء بوصتين تمتدّ من زاوية إحدى عيني مارشال حتى تصل إلى محاذاة أنفه، مثيرة الانتباه إلى ملامح وجهه العليا، لا سيّما عند أسفل العينين. ولم تنقذ ملامح وجهه من القسوة إلاّ جزيئات البوصة. كانت سحنته عبثيّة ـ فمنطقة الذقن الخالية من كلّ شيء يقابلها جبينه القلق المزدحم بالشعر. وعلى سبيل المجاملة اعتدل روبي في جلسته ليستمع إلى عبارة مارشال، ولكنّه أحجم عن الكلام وهو في تلك الحالة. كان تصرّف مارشال غير مناسب لأنّه أشاح بوجهه عن مضيفته في بداية تناول الطعام ليبدأ حديثًا خاصًا.

قال روبي باقتضاب:

ـ أعتقد أنّنا كذلك.

ثم استرسل بعد هنيهة لإصلاح الموقف:

ـ هل مرّت إنكلترا بفترة أشدّ حرارة من الآن؟

مال بعيدًا عن نطاق جسد سيسليا الدافئ، ونأى بنفسه عن عيني بريوني ليجد نفسه تحت أنظار بياروت الجالس إلى اليسار على الجهة الأخرى من المائدة. تثاءب الصبيّ كما يتثاءب في الصفّ الدراسي، وجاهد ليعرف إن كان السؤال يخصّ التاريخ أم تراه سؤالاً في الجغرافية، أم في العلوم؟

مالت بريوني نحو جاكسون لتلمس كتف بياروت، في حين ظلّت عيناها تحدّقان في بريوني.

قالت بهمسة آمرة:

ـ دعه وشأنه من فضلك.

ثم أردفت موجّهة كلامها للصبيّ الصغير:

ـ لست مضطرًّا إلى الجواب.

تكلّمت إميلي من مكانها عند رأس المائدة.

ـ إنّها ملاحظة عابرة عن الطقس يا بريوني، عليك أن تعتذري وإلاّ فاذهبي إلى غرفتك.

كلّما مارست السيّدة تاليس سلطتها، في ظلّ غياب زوجها، شعر الأطفال أنّهم مضطرّون إلى حمايتها كي لا تبدو بلا نفوذ. أمّا بريوني، التي ما كان من شأنها أن تترك أختها ضعيفة لا أحد يدافع عنها، فقد خفضت من رأسها وقالت، ووجهها نحو غطاء المائدة:

ـ آسفة جدًّا، أتمنّى لو أنّني لم أتفوّه بذلك.

مُرِّرت أطباق الخضراوات المغطّاة، أو المنتظمة في آنية من الخزف

السَّبودي[1] من هنا وهناك. وبلغ بالحاضرين عدم انتباههم الجماعي أو رغبتهم المؤدّبة في إخفاء فقدانهم شهيّتهم، درجة جعلت معظم البطاطس المشويّة وسلطة البطاطس والكرنب والشمندر وأوراق الخسّ ينتهي بها المطاف غارقة في الصلصة.

نهض ليون واقفًا على قدميه، وقال:

ـ لن يكون الرجل العجوز مسرورًا أكثر ممّا ينبغي، إنّها زجاجة نبيذ علامة بارساك ١٩٢١، وقد فُتحت الآن.

ثم ملأ كأس والدته وكأس أخته وكأس مارشال، وعندما كان واقفًا بجوار روبي قال:

ـ وهو سائل شافٍ للطبيب الصالح، إنّني أُريد أن أعرف شيئًا عن الخطّة الجديدة.

لكنّه لم ينتظر إجابةً، فعاد إلى مقعده وهو يقول:

ـ أحبّ إنكلترا عندما تضربها موجة حرّ، إنّها بلاد مختلفة. كلّ القوانين تتغيّر.

أمسكت إميلي تاليس بسكّينها وشوكتها، فقلّدها الجالسون.

قال پول مارشال:

ـ هراء! اذكر اسم قانون واحد تغيّر.

ـ حسنًا، إنّ المكان الوحيد الذي يسمح فيه للمرء بخلع سترته داخل النادي هو حجرة البليارد، لكن إذا وصلت درجة الحرارة إلى تسعين درجة (فهرنهايت) قبل الساعة الثالثة، عندئذٍ يمكن خلع السترات في المشرب الكائن في الطابق العلوي في اليوم التالي.

---

(١) السبودي Spode: علامة تجاريّة لأحد أرقى أنواع الخزف (المترجم).

ـ اليوم التالي! إنّها بلاد مختلفة حقًّا.

ـ أنت تعرف ماذا أعني، إنّ الناس يشعرون بارتياح أكبر ـ يومان من أشعّة الشمس ونصبح إيطاليّين.

في الأسبوع الماضي تناول الناس طعام العشاء من حول موائد الأرصفة في شارع شارلوت.

قالت إميلي:

ـ ظلّ والداي يؤمنان بأنّ الطقس الحارّ يشجع على انفلات الأخلاق بين الشباب، ملابس قليلة شفّافة، وألف مكان للّقاءات. خارج الأبواب، خارج عن السيطرة. ولم تكن جدّتك، على وجه الخصوص، تشعر بالارتياح عند حلول فصل الصيف. وكانت تخلق ألف سبب كي أبقى أنا وشقيقاتي داخل المنزل.

قال ليون:

ـ حسن إذًا، ما رأيك يا سي؟ هل تصرّفت تصرّفًا أسوأ من المعتاد في هذا اليوم؟

انتقلت العيون كلّها إليها، لكنّ المزاح الأخوي استمرّ بلا هوادة.

ـ يا الله، لقد احمرَّ وجهك خجلاً، لا بدّ أنّ الجواب هو بالإيجاب.

شعر روبي أنّ عليه أن يتدخّل، فبادر بالقول:

ـ الحقّ...

لكن سيسليا رفعت صوتها قائلة:

ـ كلّ ما هنالك أنّني لا أُطيق هذا الحرَّ. كما أنّ جوابي هو «نعم». لقد تصرّفت تصرّفًا سيّئًا، وأقنعت إميلي على كره منها بوجوب أن نعدّ المشويّات إكرامًا لك بصرف النظر عن الجوّ. والآن ها أنت تأكل السلطة وحدها، في حين أنّنا نتألّم كلّنا بسببك. ناوليه الخضراوات يا بريوني، وربّما سوف يمسك لسانه.

شعر روبي أنّ في صوتها رعشة.

قال ليون:

ـ أيّتها الطيّبة سي، سلوك مهذّب.

قال مارشال:

ـ سيمنعك هذا من التمادي.

ابتسم ليون لبريوني الجالسة إلى جانبه وقال:

ـ أعتقد أنّ عليَّ أن أخصَّ باللوم من هو أصغر، هل أقدمت على عمل سيّئ في هذا اليوم بسبب شدّة الحرّ الفظيعة؟ هل خرقت القواعد والقوانين؟ أرجوك قولي نعم.

ثم أمسك بيدها متوسّلاً توسّلاً مصطنعًا، لكنّها جذبتها بعيدًا.

فكّر روبي بأنّها لا تزال طفلة لا يمكنها أن تعترف، أو تقول بغير تبصُّر، إنّها قرأت رسالته، الأمر الذي يمكن أن يدفعها إلى أن تصف المشهد الذي قاطعته. كان يراقبها مراقبة دقيقة وهي تماطل كسبًا للوقت، فتمسك بمنديل المائدة وتمسح شفتيها بلمسة خفيفة، لكنّه لم يرتعد البتّة. إذا قُدِّر لها أن تتكلّم فلتتكلّم، فالعشاء لن يستمرّ إلى ما لا نهاية مهما كان فظيعًا، ولسوف يجد طريقة تجمعه بسيسليا ثانية في تلك الليلة، وسيواجه الاثنان الحقيقة الجديدة والاستثنائيّة في حياتهما ـ حياتهما المتغيّرة ـ ويستأنفان من جديد. تقلّصت معدته لهذه الفكرة، فحتى ذلك الوقت كان كلّ شيء عديم الصلة بالموضوع، ولم يكن يهاب أيّ شيء. رشف رشفةً طويلة من النبيذ الحلو الدافئ وانتظر.

قالت بريوني:

ـ إنّني ضجرة، ولكنّني لم أرتكب غلطة اليوم.

كان قد قلَّل من شأنها لأنّ التوكيد لا يمكن أن يكون موجّهًا إلاّ إليه

وإلى شقيقتها.

قال جاكسون الجالس على مقربة من مرفقها:

ـ آه، بل ارتكبت غلطة. فأنت لم توافقي على عرض المسرحيّة. لقد أردنا أن نؤدّي أدوارنا فيها.

نظر الصبي من حوله والتمعت عيناه بألم.

ـ وأنتِ أردت أن نمثّل فيها.

أومأ شقيقه برأسه.

ـ نعم، لقد أرادت أن نؤدّي أدوارنا فيها.

ليس في وسع أحد أن يعرف مدى خيبة أملهما.

قال ليون:

ـ أرأيت الآن، هذا هو قرار بريوني العنيد، في يوم أكثر برودة سنجلس في المكتبة ونشاهد العرض المسرحي.

* * *

هذه التفاهات الكلاميّة غير الضارّة والأفضل بكثير من الصمت، سمحت لروبي، أن يتراجع وراء قناع من الاهتمام المسلّي. كانت يد سيسليا تحت خدّها لتبعده، على ما يفترض، من نطاق رؤيتها. وعندما تظاهر روبي بأنّه يصغي إلى ليون الذي بدأ الآن يشرح لهم كيف لمح الملك في أحد مسارح حيّ الويست أند[١]، فإنّه تمكّن من إمعان النظر في ذراعها وكتفيها العاريتين. وفيما هو مستغرق في نظرته، فكَّر أنّ بوسعها أن تشعر بأنفاسه على

---

(١) الويست أند The West End: هو الحيّ الغربي في وسط مدينة لندن المشهور بمتاجره العصريّة ومسارحه ونواديه وفنادقه ومطاعمه ومنطقة ماي فير السكنيّة الراقية وسوهو، ويمتدّ الحيّ في المنطقة المحصورة بين حديقة هايدبارك وشارع تشارنغ غروس (المترجم).

جسدها، فاهتاج من أعماقه لهذه الفكرة. ثمّة انبعاج صغير في الجزء الأعلى من كتفها محفور في العظم، أو معلّق بين عظمين مع زغب على امتداد حافّته، سرعان ما سوف يقتفي لسانه أثر هذه الحافّة ويندفع في التجويف. كان هيجانه أقرب إلى ألم زاد من حدّته ضغط التناقضات، فهي حميمة مثل أخت، وهي غريبة مثل حبيبة. لقد عرفها دومًا، ولكنّه لم يعرف شيئًا عنها. كانت واضحة، وكانت جميلة، وكانت قويّة ـ استطاعت بكلّ يسر وسهولة أن تحمي نفسها من أخيها ـ وكانت تذرف الدموع قبل عشرين دقيقة. لقد أثارت رسالته الغبيّة نفورها، ولكنّها حرّرتها. ندم على فعلته، ولكنّه ابتهج لغلطته، عمّا قريب سيلتقيان من جديد، بتناقضات أكبر ـ مرح صاخب وشهوانيّة، الرغبة والخوف من تهوّرهما، ترويع ونفاد صبر بادئ ذي بدء، في غرفة مهجورة في مكان ما من الطابق الثاني، أو بعيدًا عن البيت تحت الأشجار، وبجانب النهر. أين؟ إنّ السيّدة تاليس ليست امرأة حمقاء. في الهواء الطلق سوف يغطّيان جسديهما بالظلمة الأطلسيّة الحريريّة ويستأنفان من جديد. هذه ليست فانتازيا، بل حقيقة، هي مستقبله القريب الذي يرغب فيه، والذي يتعذّر عليه تجنّبه، لكنّ هذه هي الأفكار التي راودت مالفوليو البائس، الذي أدّى دوره مرّة واحدة على حدائق الكلّيّة ـ «ما من شيء، مهما يكن، يستطيع أن يحول دوني ودون التحقيق التامّ لما أرى أمامي من أمل»[١].

قبل نصف ساعة من الزمان لم يكن ثمّة أمل قطّ، فبعد أن توارت بريوني عن الأنظار داخل المنزل حاملة رسالته معها، استأنف سيره معذّبًا بالالتفات إلى الوراء. وحتى عندما وصل الباب الرئيس لم يكن قد اتّخذ قرارًا بعد، وأمضى بضع دقائق متسكّعًا تحت مصباح الشرفة، ودودته المخلصة الوحيدة، محاولاً أن يختار بين أحلى الأمرين الكارثيّين، وتوصّل إلى ما يأتي: أن يدخل الآن ويواجه غضبها ونفورها، ويقدّم لها تفسيرًا لن تقبل به

(١) إحدى مناجيات مالفوليو في الفصل الأوّل ـ المشهد الرابع من مسرحيّة «الليلة الثانية عشرة» لوليم شكسبير (المترجم).

وعلى الأرجح يطرد بعد ذلك ـ يا له من إذلال لا يُطاق. أو أن يذهب إلى منزله دون كلمة، تاركًا الانطباع بأنّ الرسالة كانت هدفه، فيتعذّب طوال الليل وعلى مدى الأيّام المقبلة يفكّر ولا يعرف شيئًا عن ردّ فعلها ـ وهو أمر لا يُطاق بدرجة أكبر. إنّه ضعيف الإرادة، يعوزه الحزم والعزم، قلَّب الفكرة في ذهنه، لكن دونما تغيير. لا مخرج، عليه أن يكلّمها.

وضع يده فوق زرّ الجرس، ومع هذا لا يزال الابتعاد عنها مغريًا. بإمكانه أن يكتب لها اعتذارًا من ملاذه الآمن في مكتبه. جبان! قطعة الخزف الباردة تحت سبّابته، فحثَّ نفسه على الضغط عليها قبل أن تبدأ الحلقة المفرغة من التفكير ثانية. ابتعد عن الباب، وراوده الإحساس بأنّه أشبه بإنسان بلع حبّة لكي ينتحر ـ لا شيء يفعله سوى الانتظار. وتناهى إلى سمعه صوت وقع خطوات من الداخل، خطوات أنثى غير منتظمة تجتاز الردهة.

وعندما فتحت الباب شاهد الورقة المطويّة في يدها، ظلّ أحدهما يحدّق في وجه الآخر لبضع ثوان دون أن ينبسا بكلمة. وعلى الرّغم من كلّ تردّده، لم يكن قد أعدَّ أيّة كلمة يتفوّه بها. فكرته الوحيدة هي أنّها أكثر بهاءً ممّا كان خياله يصوّرها له. بدا ثوبها الحريري وهو يبجّل كلّ ثنيّة من ثنيّات جسدها اللدن، لكنّ فمها الشهواني الصغير ظلّ مطبقًا علامة الاستهجان، أو ربّما الاشمئزاز.

كانت الأضواء المنبعثة من داخل المنزل ساطعة أمام عينيه ممّا زاده صعوبةً في قراءة التعابير المرتسمة على وجهها.

أخيرًا قال:

ـ كانت غلطة يا سي.

ـ غلطة؟

تناهت إلى سمعه أصوات قادمة من وراء مدخل الردهة، حيث باب غرفة الاستقبال المفتوح، سمع صوت ليون فصوت مارشال، ربّما كان خوفها من

المقاطعة هو الذي جعلها تخطو إلى الوراء وتفتح الباب على مصراعيه أمامه.

لحق بها داخل الردهة، ومنها إلى المكتبة التي كانت غارقة في الظلام، وانتظر بجانب الباب ريثما تعثر على زرّ مصباح المكتب. وعندما أُضيء المصباح دفع الباب وأغلقه من خلفه. وخمّن أنّه سوف يعود أدراجه بعد بضع دقائق ويعبر رحبة الأرض المحيطة بالبيت ويتّجه نحو البيت الصغير.

ـ إنّها ليست الرسالة التي كنت أنوي إرسالها إليك.

ـ لا.

ـ لقد وضعت رسالة أخرى عن خطأ في المظروف.

ـ نعم.

لم يستطع أن يفهم شيئًا من هذه الإجابات المبتسرة، وكان عاجزًا حتى هذه اللحظة عن رؤية ملامحها بوضوح، ابتعدت عن مصدر الضوء، واتّجهت نحو الرفوف، فما كان منه إلاّ أن واصل تقدّمه داخل الغرفة، دون أن يقتفي أثرها تمامًا، .ولكنّه لم يكن راغبًا في أن تبتعد كثيرًا عنه. كان في وسعها أن تبعده عن الباب الرئيس، لكن ها هي الفرصة سانحة أمامه ليشرح لها ما حدث قبل أن ينصرف.

قالت:

ـ لقد قرأتها بريوني.

ـ يا الله! آسف.

كان على وشك أن يستحضر لها لحظة خاصّة من الحيويّة والحماس، نفاد صبر عابر بالأعراف، ذكرى قراءة طبعة أوريولي من رواية «عشيق الليدي تشاترلي»[1] التي سبق له أن اشتراها خفيةً من حيّ سوهو. غير أنّ هذا العنصر

---

(١) عشيق الليدي تشاترلي Lady Chatterley's Lover: آخر رواية من روايات الكاتب الإنكليزي دي. اج. لورنس (١٨٨٥ ـ ١٩٣٠)، كتبها بين عامي ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧، نشرت بثلاث طبعات مختلفة (نيويورك ١٩٤٤ وطبعة سرّيّة في فلورنسة ١٩٢٨ وأُعيدت طبعة =

الجديد ـ الطفلة البريئة ـ جعل من الصعب عليه إصلاح هفوته، وكان الاستمرار في ذلك عبثًا لا طائل من ورائه، ولم يتمكّن إلاّ من تكرار عبارته السابقة، ولكن بهمس هذه المرّة:

ـ آسف. . .

ابتعدت أكثر باتّجاه ركن الغرفة حيث الظلمة حالكة. وعلى الرّغم من أنّه فكّر بأنّها كانت تبتعد عنه إلاّ أنّه خطا خطوتين أخريين باتّجاهها، قال:

ـ كان أمرًا سخيفًا، ولم يكن القصد من ورائه أن تقرأي الرسالة، ولا أن يقرأها أيّ شخص آخر.

ظلّت تنأى بعيدًا عنه. أسندت أحد مرفقيها إلى الرفوف، وأخذت تنزلق على امتدادها كأنّما توشك على الاختفاء بين الكتب. سمع صوتًا ناعمًا نديًّا يشبه الصوت الذي يصدر عندما يوشك المرء على الكلام، لكنّ لسانه ينفصل عن سقف حلقه، إلاّ أنّها لم تقل شيئًا. وفي تلك اللحظة عينها مرَّت بخاطره فكرة أنّها ربّما لم تكن تريد الابتعاد عنه، بل كانت تجذبه نحو ظلمة أشدّ، لم يكن لديه أيّ شيء يفقده منذ اللحظة التي ضغط فيها على زرّ الجرس. لهذا مشى نحوها. توقّفت وهي تنسلّ بعيدًا إلى الخلف حتى وصلت ركن الغرفة، حيث توقّفت وراقبته وهو يقترب. لكنّه توقّف بدوره على بعد أربعة أقدام. بات قريبًا بما فيه الكفاية الآن، وكان الضوء كافيًا لأن يراها تذرف الدموع وهي تحاول الكلام. بدت للحظة غير قادرة على الكلام، فهزّت رأسها مشيرة إلى أنّ عليه الانتظار. أشاحت بوجهها، وغطّت أنفها وفمها بيديها، وضغطت بأصابعها على زاويتي عينيها.

تمالكت نفسها وقالت:

ـ إنّه هناك منذ أسابيع. . .

١٩٢٨ في ١٩٦١)، ونُشرت عن دار بنغوين. استمدّت شهرتها من مشاهد الجنس الفاضحة فيها ممّا تسبّب في وقوع مؤلّفها في مشكلات مع السلطات (المترجم).

تقلّصت حنجرتها فاضطرّت إلى التوقّف، وعلى الفور كانت لديه فكرة عمّا كانت تعنيه بكلامها، لكنّه أبعدها عن ذهنه، أخذت نفسًا عميقًا ثم استأنفت كلامها بتفكير أكبر.

ـ ربّما منذ شهور، لا أدري، لكن اليوم. . . كان كلّ شيء غريبًا اليوم. أعني، أنّني أنظر إلى الأشياء نظرة غريبة كأنّني أراها للمرّة الأولى، بدا كلّ شيء مختلفًا وجادًّا وحقيقيًّا، حتى يداي بدتا مختلفتين. وفي أوقات أخرى أبدو كأنّني أراقب الأحداث كأنّها حدثت منذ زمن بعيد، كما أنّني كنت غاضبة طوال اليوم، منك ومن نفسي، فكّرت أنّني قد أكون سعيدة إذا ما التقيتك أو كلّمتك ثانية. فكّرت أنّك ستلتحق بكلّيّة الطبّ، وسأكون عندئذٍ سعيدة، كنت غاضبة منك غضبًا شديدًا. أعتقد أنّ غضبي كان وسيلة كي لا أفكّر فيك، ربّما يكون الأمر مناسبًا أكثر لو. . .

وهنا ضحكت ضحكة قصيرة.

قال:

ـ فيَّ؟

كانت نظراتها خفيضة حتى الآن، وعندما تكلّمت ثانية رنت إليه، ولكنّه لم يشاهد سوى ألق بياض عينيها.

ـ أنت تعرف قبلي أنّ شيئًا ما قد حدث، أليس كذلك؟ كنت تعرف قبلي. الأمر يشبه كونك على مقربة من شيء ما كبير جدًّا، حتى إنّك لا تستطيع رؤيته، وحتى هذه اللحظة لست متأكّدة من أنّني قادرة، لكنّني أعلم أنه موجود.

خفضت بصرها وانتظرت، ثم استأنفت:

ـ أعلم أنّه موجود لأنّه جعلني أسلك سلوكًا مضحكًا، وأنت تعرف هذا مؤكّدًا. . . لكنّني في هذا الصباح لم أفعل شيئًا مثل ذلك من قبل، ثم شعرت بغضب شديد من جرّاء ذلك. حتى عند زمن حدوثه قلت لنفسي إنّني أعطيتك

سلاحًا كي تستخدمه ضدّي. لكن في هذا المساء، وعندما بدأت أفهم ـ حسنًا كيف أمكنني أن أكون جاهلة بدواخل نفسي؟ وأن أكون غبيّة؟

وهنا استبدّت بها فكرة بغيضة:

ـ أنت تعرف عن أيّ شيء أتكلّم، قل لي إنّك تعلم.

كانت تخشى من أن لا يكون هناك شيء مشترك بينهما، وأنّ كلّ افتراضاتها لا صحّة لها، وأنّها بكلماتها التي تفوّهت بها إنّما عزلت نفسها أكثر من ذي قبل، وأنّه سيظنّ أنها حمقاء، طائشة.

ـ أعلم... أعلم تمامًا. لكن ما سبب بكائك؟ أهناك شيء آخر؟

ظنَّ أنّها توشك أن تتكلّم عن عقبة كأداء، وكان يعني بذلك وجود شخص ما، لكنّها، لم تفهم. لم تعرف كيف تردّ عليه، فنظرت إليه حائرة ذاهلة. ما سبب بكائها؟ كيف يمكنها أن تبدأ بإخباره، وهي الغارقة في لجّة عواطف لا حدود لها؟ وشعر بدوره أنّ سؤاله ظالم، غير مناسب، وجاهد مفكّرًا في أسلوب آخر يصوغ به فكرته. رمق أحدهما الآخر بنظرات مشوّشة. كانا عاجزين عن الكلام، معتقدين أنّ شيئًا ما بُني بناءً هشًّا بينهما يوشك أن ينهار. فصداقتهما القديمة وطفولتهما المشتركة باتتا الآن عقبة ـ شعرا بالارتباك من مواجهة نفسيهما اللتين يعرفانهما حقّ المعرفة. صداقتهما أضحت باهتة، بل متوتّرة في السنوات الأخيرة، لكنّها لا تزال عادة قديمة، وأمّا تحطيمها الآن ليصبحا غريبين على أسس حميمة فيتطلّب وضوح الهدف الذي غاب عنهما الآن موقّتًا. وبدت الكلمات في هذه اللحظة بلا جدوى.

وضع يديه على كتفيها، فشعر بجسدها العاري باردًا. وفيما اقترب وجه كلّ واحد منهما من الآخر لم يكن متأكّدًا، إلى حدٍّ كافٍ، من أنّها قد تهرب منه، أو تضربه، وفق أسلوب الأشرطة السينمائيّة، على خدّه بيدها المبسوطة. كان فمها يشوبه طعم أحمر الشفاه وطعم الملح، ابتعدا قليلاً، ثم طوّقها بذراعيه وتبادلا قبلة أخرى بثقة أكبر، ولمس أحدهما طرف لسان الآخر بجرأة

كبيرة، وعندئذٍ تنهّدت وتأوّهت فأدركت، فيما بعد، أنّ التحوّل قد بدأ، فحتى تلك اللحظة كان وجهاهما المألوفان المتقاربان يوحيان بشيء مضحك. شعرا أنّ طفولتهما تراقبهما، لكنّ تلامس اللسانين، العضلتين الحيّتين اللزجتين، اللسان الرطب فوق اللسان، والصوت الغريب الذي صدر عنها، غيَّر كلّ شيء. بدا الصوت وكأنّه يغور في أعماقه، يخترقه من الأعلى إلى الأسفل، فانفتح جسده وأضحى قادرًا على أن يخرج من نفسه ويقبّلها بحرِّيّة. الوعي الذاتي تحوّل الآن إلى شيء لا شخصي، إلى شيء مجرّد تقريبًا. كان صوت آهاتها دليلاً على جوعها، فجعله جائعًا بدوره. دفعها بقوّة نحو ركن الغرفة بين الكتب، وفيما هما يتبادلان القبل بدأت تجذب ثيابه، تجذب بلا طائل قميصه وحزامه. تحوّلت قبلاتهما إلى التهام، وظلّ رأساهما يدوران، فعضّت شفته السفلى عضّة أقوى هذه المرّة. قبّل رقبتها، وضغط على رأسها باتّجاه الرفوف، فجذبت شعره، ودفعت وجهه بين نهديها، وبسبب قلّة خبرته في المداعبة فقد استغرق بعض الوقت حتى عثر على حلمتها الصغيرة والصلبة فاحتضنها بشفتيه، تصلّب عمودها الفقري واهتزّ هزّة قويّة، وخُيّل له للحظة أنّها قضت نحبها. كان ذراعاها يطوّقان رأسه وعندما شدَّدت من قبضتها عليه، انسلّ من بينهما متقطّع الأنفاس، وانتصب واقفًا، وطوّقها بذراعيه، وضغط رأسها بكلّ قوّة على صدره. عضّته مرّة أخرى، وجذبت قميصه، وعندما سمعا صوت أحد الأزرار وهو يرتطم بألواح الأرضيّة اضطرّا إلى كتم ضحكتهما والنظر بعيدًا. من شأن الموقف الكوميدي أن يدمّرهما، طوّقت حلمة صدره بأسنانها، فكانت النشوة تفوق الاحتمال، حرَّك رأسها قليلاً إلى أعلى وضغط عليه فوق أضلاع صدره، وقبّل عينيها، ثم دسَّ لسانه بين شفتيها. مرّة أخرى، صدر عن عجزها صوت يشبه تنهيدة تنمّ عن الخيبة.

وأخيرًا أصبحا غريبين، ماضيهما طيّ النسيان، كما أنّهما غريبان أيضًا أمام نفسيهما اللتين نسيتا هويّتيهما ومكانيهما. كان باب غرفة المكتبة سميكًا، وما كان لأيّ صوت من الأصوات العاديّة، التي يمكن أن تذكّرهما بشيء ما،

أن يقدر على وقفهما أو الوصول إليهما. إنّهما خارج منطقة الزمن الراهن، خارج الزمان، بلا ذكريات وبلا مستقبل. لا شيء سوى نشوة مدمّرة مثيرة وبهيّة، وصوت القماش يحتكّ بالقماش، والجسد يحتكّ بالقماش، في وقت كانت فيه أطراف أحدهما تنزلق على أطراف الآخر في خضمّ هذا الصراع الشهواني الذي لا يهدأ. كانت تجربته محدودة، ولم يكن يعرف إلاّ شيئًا واحدًا وهو أنّهما لا ينبغي لهما أن يضطجعا. أمّا هي فلم تكن لديها أيّة تجربة إطلاقًا باستثناء ما كانت تشاهده من أشرطة سينمائيّة، أو تقرأه من روايات وقصائد غزليّة. لكن برغم هذا القصور، فإنّهما لم يندهشا عندما أدركا بوضوح مدى الحاجة المستبدّة بهما. تبادلا القبلات من جديد، يداها متشابكتان من وراء رأسه، لسانها يلعق أذنه، ثم يعضّ على شحمة أذنه، أثارته هذه العضّات، وحفّزته، وأطلقت شهوته، مدَّ يده من تحت ثوبها وتحسّس مؤخّرتها وضغط عليها بكلّ قوّة، وأراد أن يغيّر من اتّجاهها نحوه قليلاً كي يصفعها ردًّا على عضّاتها، لكنّ فسحة المكان كانت ضيّقة جدًّا. رمقته بنظرة ثاقبة، ومدّت يدها إلى أسفل لتخلع حذاءها، وازدادت حركات التحسّس من جانبيهما لتشمل الأزرار ووضع السيقان والأذرع. كانت عديمة التجربة تمامًا، فقاد قدمها نحو الرفّ الأسفل دون أن ينبس بكلمة. كانا مرتبكين، لكنّ نفسيهما غادرتاهما فلم يعد أحدهما يشعر بالحرج من الآخر. ولمّا رفع ثوبها الحريري ثانية خُيّل له أنّ نظراتها المرتابة كانت تعكس نظراته أيضًا. لكن لا توجد سوى نهاية واحدة حتميّة، ولم يكن في وسعهما عمل شيء سوى المضيّ في طريقهما للوصول إليها.

ساعدها ثقل جسمه على الاستناد إلى ركن الغرفة، وشبكت يديها من جديد من حول رأسه، وأسندت مرفقيها إلى كتفه وظلّت تقبّل وجهه. كانت اللحظة سهلة بخصوصيّتها. حبسا أنفاسهما قبل أن يفترق جسداهما، وهنا ابتعدت قليلاً عنه، وبسرعة، لكن دون أن تحدث أيّ صوت، إنّها لحظة كبرياء كما يبدو. اقترب أحدهما من الآخر، والتصقا، ثم توقّف كلّ شيء، وبدلاً من

النشوة العارمة بقيا ساكنين، وكان سبب سكونهما لا يرجع إلى الدهشة من الوصول إلى هنا، بل من الإحساس المرعب بالعودة. كانا وجهًا لوجه في العتمة، يحدّق أحدهما في الشيء القليل ممّا يراه من عيني الآخر. والآن تلاشى ما هو غير شخصي. لا يوجد أيّ تجريد في الوجه. فها هو ابن غريس وإرنست تيرنر، وابنة إميلي وجاك تاليس، صديقا الطفولة، زميلا الجامعة، في حالة من الابتهاج الهادئ الذي لا حدود له، يواجهان التغيّر الحاسم الذي حقّقاه. إنّ قرب وجه مألوف من وجه آخر ليس بالشيء المضحك، بل هو شيء مدهش تمامًا. تفرّس روبي في المرأة، في الفتاة التي طالما عرفها منذ زمن بعيد، مفكّرًا في التغيير الشامل الذي حدث في نفسه، كان تغييرًا جوهريًّا من الناحية البيولوجيّة، يشبه الولادة.

لم يحدث في حياته أيّ حدث فريد أو مهمّ منذ يوم ولادته. بادلته النظرات وصُدمت للتحوّل الذي طرأ عليها، وغمرها وجهه الوسيم الذي علّمتها العادة اليوميّة أن تتجاهله. همست باسمه متعمّدة مثل طفل يحاول أن يلفظ الأصوات لفظًا صحيحًا. وعندما ردَّ عليها بلفظ اسمها بدا وكأنّه اسم جديد. صحيح أنّ المقاطع ظلّت كما هي لم تتغيّر، لكنّ المعنى كان مغايرًا، وأخيرًا تلفّظ بالكلمة البسيطة التي لا يمكن لأيّ فنّ قبيح أو سوء نيّة أن تجعل منها كلمة رخيصة، فكرّرتها بالتشديد نفسه وكأنّها هي التي ينبغي لها أن تتفوّه بها أوّلاً. لم يكن مؤمنًا بأيّ دين، ولكن كان يستحيل عليه التفكير بوجود شخص أو شاهد غير مرئي في الغرفة، وأنّ التلفّظ بهذه الكلمات بصوتٍ عالٍ يجعلها تشبه تواقيع على عقد غير مرئي.

ربّما بقيا ساكنين لا يتحرّكان على مدى نصف دقيقة. ولو بقيا مدّة أطول لتطلّب ذلك منهما إتقان فنّ من الفنون المدهشة. وبدا الاثنان يمارسان الحبّ مستندين إلى رفوف المكتبة التي كانت تصدر صريرًا بسبب حركتهما. من الشائع، في مثل هذه الأوقات، أن يتخيّل المرء وصوله إلى مكان بعيد ومرتفع. فيتخيّل نفسه يسير فوق قمّة جبل ملساء ودائريّة، معلّقًا بين قمّتين أشدّ

ارتفاعًا. كانت حالته المزاجيّة استكشافيّة لا تنمّ عن أنّه في عجالة من أمره، بل إنّ لديه الوقت الكافي للوصول إلى حافّة صخريّة وإلقاء نظرة على الصخرة شبه العموديّة الممتدّة إلى أسفل، والتي سوف يرمي بنفسه فوقها عمّا قريب. الإغراء شديد في أن يقفز في الفضاء الصافي الآن، ولكنّه رحل من هذا العالم، وفي وسعه أن يبتعد وينتظر. ليس الأمر سهلاً لأنّ الجاذبيّة قويّة وعليه أن يقاوم. وما دام أنّه لا يفكّر بالحافّة فإنّه لن يقترب منها، ولن يخضع للإغراء. أرغم نفسه على أن يتذكّر أكثر الأشياء التي عرفها إثارة للسأم ـ ماسح الأحذية، استمارة تقديم، منشفة مبتلّة على أرضيّة غرفة نومه. ثم هناك غطاء سلّة مهملات مقلوب رأسًا على عقب وبداخله مياه أمطار يبلغ ارتفاعها بوصة واحدة، وبقعة شاي بهيئة نصف حلقة على غلاف ديوان قصائد هاوسمان. سمع صوتها فانقطع هذا الجرد بالأشياء. كانت تناديه، وتدعوه وتهمس في أذنه. تمامًا. سوف يقفزان معًا. كان بصحبتها الآن يتفرّس في هاوية، وشاهدا الصخرة في الأسفل من خلال غطاء السحب. سيرجعان إلى الخلف يدًا بيد. كرّرت ثانية وهي تهمس في أذنه، فسمعها بوضوح هذه المرّة.

ـ لقد دخل شخص ما.

فتح عينيه، المكان مكتبة في بيت ، في ظلّ صمت مطبق. كان يرتدي أفضل بذلاته. نعم تذكّر كلّ شيء بارتياح نسبي. بذل جهده كي ينظر من فوق منكبه، لكنّه لم يشاهد سوى المكتب الذي يُنيره ضوء خافت، كما كان عليه حاله سابقًا وكأنّه يتذكّره في حلم راوده. لم يتمكّنا من رؤية الباب، وهما في ذلك الركن من المكتبة، لكن ليس ثمّة صوت، ولا شيء يذكر، كانت مخطئة. كان يتمنّى لو أنّها مخطئة. وكانت مخطئة حقًّا.

التفت نحوها موشكًا أن يخبرها بذلك عندما شدّدت من قبضتها على ذراعه، فنظر إلى الوراء مرّة أخرى. سارت بريوني بتؤدة على مرأى منهما وتوقّفت قرب المكتب، وشاهدتهما. تسمّرت في مكانها مذهولة وهي تحدّق

بهما وقد تهدّل ذراعاها إلى جنبيها، مثل شقيّ مسلّح في مواجهة من مواجهات رعاة البقر السينمائيّة. في تلك اللحظة المنكمشة اكتشف أنّه لم يكره أحدًا في حياته حتى الآن. شعوره نقي كالحبّ، نزيه، وعقلاني إلى أبعد الحدود، لا شيء شخصيًا في الموضوع وإلاّ لكره الشخص الذي دلف إلى الغرفة أيًّا كان. ثمّة مشروبات في غرفة الاستقبال، وعلى الشرفة، ويفترض أن تكون بريوني في ذينك المكانين برفقة والدتها وأخيها المتيّمة به، وأولاد خالتها الصغار. وما من سبب وجيه يدعوها إلى أن تأتي إلى المكتبة إلاّ إذا كانت تريد العثور عليه وتحرمه ممّا يملكه.

رأى ما حدث بكلّ وضوح، فقد فضّت مظروف الرسالة المغلق لقراءتها، فاشمأزّت منها، وشعرت بأنّها مخدوعة. لقد جاءت بحثًا عن شقيقتها ـ معتقدة، بلا ريب، أنّها تريد حمايتها، أو تحذّرها، أو تنصحها، وأنّها سمعت جلبة من وراء باب المكتبة المغلق. لقد جاءت لتوقف الحدث، مدفوعة من أعماق جهلها بخيال ساذج واستقامة صبيانيّة، وهي غير مضطرّة إلى ذلك ـ افترقا بملء إرادتيهما، وأعرضا بوجهيهما، وعدّلا من وضع ثيابهما بتحفّظ وحذر، انتهى كلّ شيء.

* * *

مضت مدّة زمنيّة طويلة منذ أن أُزيلت أطباق الطعام الرئيسة من فوق المائدة، وعادت بيتي حاملة طبق البودنغ المكوّن من الخبز والزبدة. وفكّر روبي إن كان خياله المحض، أو نيّتها الخبيثة، هما اللذين يجعلان حصّة البالغين من الطعام ضعف حصّة الأطفال. انهمك ليون بصبّ النبيذ من الزجاجة الثالثة من نبيذ بارساك. كان قد خلع سترته، ممّا دفع بالرجلين الآخرين إلى أن يحذوا حذوه. ثمّة نقر خفيف على ألواح النافذة الزجاجيّة، حيث رمت مختلف الحشرات الليليّة الطائرة بنفسها على الزجاج. مسحت السيّدة تاليس وجهها بمنديل المائدة، ورمقت التوأمين بنظرة عطف وحنان، كان بياروت يهمس في أذن جاكسون:

ـ لا أسرار من حول مائدة العشاء أيّها الصبيّان، لكنّنا نريد أن نسمع لو سمحتما.

ازدرد جاكسون ريقه بصعوبة، في حين حدّق شقيقه في حضنه.

ـ معذرة يا عمّتي إميلي. هل يمكننا الذهاب إلى المرافق الصحِّيّة؟

ـ مؤكّد، ولكن قُلْ أيجوز لنا، ولا تقل هل يمكننا، ثم لا ضرورة لكلّ هذه الخصوصيّة.

انسلّ التوأمان من فوق كرسيّيهما، وعندما وصلا الباب هتفت بريوني وأشارت:

ـ جوربيّ! إنّهما يلبسان جوربيّ بعلامة الفراولة.

توقّف الصبيّان والتفتا، وبدا عليهما الخجل من كاحليهما. كانت بريوني نصف واقفة. وشعر روبي أنّ الانفعالات الحادّة في أعماق الفتاة وجدت لها منفذًا.

ـ لقد ذهبتما إلى غرفتي وأخذتماهما من الدرج الخاصّ بي.

تكلّمت سيسليا للمرّة الأولى خلال وجبة العشاء. وكانت المشاعر العميقة تختلج بدورها في صدرها.

ـ اخرسي بالله عليك أيّتها المدلّلة المتفرعنة. لم يكن الصبيّان يملكان جوارب نظيفة، فأخذت عددًا منها من بين جواربك.

حملقت بريوني بها مصعوقة. ها هي تتعرّض للهجوم والخداع على يدي البنت التي لا تتوق دومًا إلاّ لحمايتها. ظلّ جاكسون وبياروت ينظران صوب خالتهما التي طلبت منهما الانصراف الآن بهزّة من رأسها وإيماءة ضعيفة. أغلقا الباب من ورائهما بعناية، أو ربّما بسخرية مبالغ فيها، وفي اللحظة التي تركا فيها مقبض الباب، أمسكت إميلي بملعقتها، فحذا الآخرون حذوها.

قالت بلطف:

ـ كان في وسعك أن تكوني أقلّ قسوة مع أختك.

وفيما كانت سيسليا تلتفت إلى والدتها، شمَّ روبي نفحة عرق من تحت الإبط، فتذكّر العشب المجزوز حديثًا، عمَّا قريب سيخرجون. أغمض عينيه برهة وجيزة. ثمّة وعاء كبير نسبيًّا يحتوي على الكاسترد إلى جانبه، وتساءل إنْ كانت لديه القوّة ليرفعه من مكانه.

ـ آسفة يا إميلي، لقد تخطّت هي الحدود طوال هذا اليوم.

تكلّمت بريوني بهدوء البالغين.

ـ عبارتك شديدة الوقع.

ـ ماذا تعنين؟

أدرك روبي أنّ مثل هذا السؤال لم يكن خليقًا به أن يُطرح. فقد كانت بريوني تحتلّ في هذه المرحلة من حياتها منطقة انتقاليّة غير واضحة المعالم بين عالمي الطفولة والراشدين، اجتازتها مرّات ومرّات على نحو غير متوقّع. وفي المرحلة الراهنة، كانت فتاة صغيرة أقلّ خطرًا، على ما تتّصف به من حنق وتذمّر.

الحقّ أنّ بريوني نفسها لم تكن تملك أيّة فكرة واضحة عمّا كانت تعنيه، ولم يُدرك روبي هذا الأمر، إذْ إنّه تدخّل ليغيّر من دفّة الحديث. التفت إلى لولا الجالسة إلى يساره وقال، على نحو أراد به أن يشرك جميع الجالسين من حول المائدة:

ـ إنّ أخويك صبيّان لطيفان.

تدخّلت بريوني بوحشيّة، ولم تمنح ابنة خالتها الوقت للكلام.

ـ هه! هذا يكشف عن قصور معلوماتك.

وضعت إميلي ملعقتها جانبًا.

ـ إذا استمرّ هذا الكلام يا عزيزتي فسوف أطلب منك الخروج من هنا.

ـ لكن انظري إلى ما فعلاه بها. لقد خدشا وجهها وأصابها بحروق صينيّة!

اتّجهت كلّ الأنظار صوب لولا، فازدادت سمرة سحنتها من تحت نمشها، ممّا جعل الخدش يبدو أقلّ وضوحًا.

قال روبي:

ـ لا يبدو سيّئًا كثيرًا.

حدجته بريوني بنظرة غاضبة، في حين قالت والدتها:

ـ إنّها أظافر ولدين صغيرين، ينبغي أن نأتيك بمرهم.

لاحت الشجاعة على مُحيّا لولا.

ـ الحقّ أنّني وضعت قليلاً من المرهم على الخدش، وأنا أشعر الآن أنّه أفضل بكثير.

تنحنح پول مارشال.

ـ شاهدت ذلك بنفسي ـ واضطررت إلى جذبهما بعيدًا عنها. لا بدّ لي من القول إنّ الدهشة استولت عليّ لمرأى هذين الصغيرين، لقد ذهبا إليها مباشرةً...

نهضت إميلي من فوق كرسيّها، وتقدّمت نحو لولا ووقفت بجانبها ورفعت ذراعها.

ـ انظري إلى ذراعيك! إنّها ليست آثار حكّة. ثمّة كدمات تصل إلى مرفقيك. كيف فعلا هذا يا إلٰهي!

ـ لا أعرف يا خالتي إميلي.

تراجع مارشال في كرسيّه إلى الوراء ثانية، وتكلّم من وراء رأسي

سيسليا وروبي إلى الفتاة الشابّة التي حدّقت فيه والدموع تملأ مآقيها.

ـ لا عيب في إثارة جلبة. كانت شجاعة كما تعلمين، لكنّك أُصبت إصابة قويّة.

بذلت لولا محاولة شاقّة كي لا تبكي، فما كان من إميلي إلاّ أن جذبتها نحو بطنها وأخذت تمسّد رأسها.

قال مارشال مخاطبًا روبي:

ـ أنت على حقّ، فهما صبيّان لطيفان، لكنّني أعتقد أنّهما مرَّا بوقت عصيب مؤخّرًا.

أراد روبي أن يعرف السبب الذي دفع مارشال إلى عدم ذكر الموضوع من قبل إن كانت لولا قد أُصيبت إصابة شديدة، لكنّ المائدة كانت في حالة فوضى واهتياج. فهذا ليون يهتف بأمّه من الجهة الأخرى للمائدة:

ـ أتريدين أن أتّصل بالطبيب؟

نهضت سيسليا من وراء المائدة، فلمس روبي ذراعها فالتفتت إليه، والتقت عيونهما للمرّة الأولى منذ أن كانا في المكتبة. ليس هناك متّسع من الوقت لتأسيس أيّ شيء غير العلاقة نفسها. ثم حثّت خطاها حتى أضحت بجانب والدتها التي بدأت تعطي التعليمات بإحضار كمَّادة باردة.

تمتمت إميلي بكلمات مطمئنة من فوق رأس ابنة أختها، في حين ظلّ مارشال جالسًا في كرسيّه وملأ كأسًا ثانية. نهضت بريوني واقفة أيضًا، وفيما هي تقف أطلقت صرخة صبيانيّة مدوّية أخرى، وأخذت مظروفًا من فوق مقعد جاكسون ورفعته عاليًا ليراه الجميع.

ـ رسالة!

كانت توشك أن تفضّ المظروف، لكنّ روبي لم يستطع منع نفسه من أن يطرح السؤال:

ـ من المرسل إليه؟

ـ إنّها موجّهة إلى الجميع.

أفلتت لولا من بين يدي خالتها وكفكفت دموعها بمنديل المائدة، في حين استمدّت إميلي مصدرًا جديدًا ومدهشًا لسلطتها.

ـ لا تفضّي المظروف، افعلي ما قلت لك، وهاتي الرسالة.

شعرت بريوني بنغمة غير اعتياديّة في صوت والدتها، فما كان منها إلاّ أن مشت بخنوع من حول المائدة وبيدها المظروف. ابتعدت إميلي خطوة واحدة عن لولا وهي تجذب قصاصة ورق مخطّطة، وعندما قرأتها كان في وسع روبي وسيسليا أن يقرآ ما جاء فيها أيضًا.

«سوف نهرب لأنّ لولا وبيتي مقرفتان ونريد العودة إلى بيتنا. المعذرة لأنّنا أخذنا معنا بعض الفواكه، ولأنّ المسرحيّة لم تُعرض».

وقّع الاثنان باسميهما الأوّلين بخطّ مُزوَّق.

ران الصمت بعد أن قرأت إميلي الرسالة بصوتٍ عالٍ، في حين نهضت لولا وخطت خطوتين باتّجاه النافذة، ولكنّها غيّرت من رأيها وسارت نحو رأس المائدة. كانت تنظر يسارًا ويمينًا على نحو مشتّت، وتتمتم مرّات ومرّات:

ـ يا للمصيبة! يا للكارثة!

تقدّم مارشال منها، ووضع يده على ذراعها.

ـ سيكون كلّ شيء على ما يرام، وسوف ننظّم فرقًا للبحث عنهما، وسنعثر عليهما بأسرع وقت.

قال ليون:

ـ مؤكّد، إذْ لم يمرّ على ذهابهما سوى بضع دقائق. لكنّ لولا لم تكن مصغية لما يُقال، وبدت كأنّها قد اتّخذت قرارًا ما، وفيما هي تتّجه نحو الباب قالت:

ـ سوف تقتلني أمّي.

حاول ليون أن يمسكها من كتفها، لكنّها ابتعدت عنه وخرجت من الباب. ثم سمعوا صوت وقع أقدامها وهي تركض في الردهة.

التفت ليون إلى أخته.

ـ سأذهب أنا وإيّاك يا سي.

وقال مارشال:

ـ لم يطلع القمر بعد، وقد أرخى الظلام سدوله خارجًا.

تحرّك الجميع نحو الباب، وكانت إميلي تردّد:

ـ لا بدّ من بقاء أحد هنا في البيت، ربّما سأبقى أنا.

قالت سيسليا:

ـ ثمّة مشاعل وراء باب القبو.

وقال ليون مخاطبًا والدته:

ـ أعتقد أنّك يجب أن تتّصلي برئيس الشرطة.

كان روبي آخر من خرج من غرفة الاستقبال، وكان آخر من يكيّف نفسه للوضع الجديد بحسب ظنّه. كان ردّ فعله الأوّل، الذي لم يتلاش عندما خطا نحو برودة مدخل الردهة النسبيّة، هو أنّه تعرّض للخديعة، إذْ لم يستطع أن يصدّق أنّ التوأمين في خطر. فالأبقار ستخيفهما وسيعودان إلى البيت، كما أنَّ اتّساع رقعة ظلام الليل خارج البيت، والأشجار التي تلفّها الظلمة، والظلال المرهبة، والعشب البارد الذي جُزَّ مؤخّرًا، كلّها كانت محجوزة، وجعلها من ممتلكاته هو وسيسليا. إنّها في انتظاره، في انتظارهما، لاستخدامها والمطالبة بها، ولن يفيد الغد ولا أيّ وقت آخر سوى الوقت الراهن. لكنّ المنزل أفرغ محتوياته على حين غرّة في جوف ليلة ترجع الآن لأزمة بيتيّة شبه كوميديّة. سوف يظلّون خارج المنزل ساعات طويلة ملوّحين بمشاعلهم وهاتفين، وسيتمّ

العثور على التوأمين في نهاية المطاف مرهقين وقذرين، وسوف تهدأ لولا، وبعد تبادل تهانٍ ذاتيّة على وقع شرب الأنخاب، سيصل المساء إلى نهايته. وفي غضون أيّام، أو حتى ساعات، يصبح كلّه ذكرى مسلّية يدور الحديث عنها في المناسبات العائليّة. إنّها ليلة هروب التوأمين.

انطلقت فرق البحث عندما اقترب من الباب الأمامي. شبكت سيسليا ذراعها بذراع أخيها وانطلقا وهي تنظر إلى الوراء. فشاهدته يقف تحت الضوء. رمقته بنظرة وهزّت كتفها بمعنى ـ ليس في وسعنا عمل شيء الآن ـ وقبل أن يتمكّن من إرسال أيّة إشارة إليها تنمّ عن حبّ ومودّة، التفتت وواصلت سيرها مع ليون وهي تهتف باسم الصبيّين. كان مارشال قد سبقهما في السير منطلقًا نحو الطريق الرئيس، واضحًا بسبب المشعل الذي كان يحمله بيده.

أمّا لولا فكانت غائبة عن الأنظار، في حين كانت بريوني تسير من حول البيت. المؤكّد أنّها لم ترغب في أن تكون بمعيّة روبي ممّا بعث قدرًا من الارتياح في نفسها، لأنّه كان قد قرّر سلفًا: إذا لم يكن في وسعه أن يكون برفقة سيسليا، وإذا لم يتمكّن من أن يجعلها ملكًا له، فإنّه بدوره سيخرج ويبحث عن الصبيّين بمفرده، شأنه شأن بريوني. لقد غيَّر هذا القرار من حياته، وهو ما سيعترف به لاحقًا مرّات ومرّات.

* * *

الفصل الثاني عشر

بصرف النظر عن مدى أناقة المبنى القديم المشيّد وفق طراز آدم، وبصرف النظر عن مدى الجمال الذي أضفاه على الأرض الرحبة المحيطة به، فإنّ جدرانه لم تكن بتلك القوّة التي عُرف بها البناء الباروني[1]، كما أنّ غرفه لم تمتلك خاصّيّة الصمت العنيد الذي أخمد أنفاس منزل تاليس بين حين وآخر. شعرت إميلي بالمنزل وهو رابض في مكانه الآن وهي تغلق الباب الرئيس بعد خروج فرق التفتيش، واستدارت لتجتاز مدخل الردهة مفترضةً أنّ بيتي ومساعديها لا يزالون يأكلون الحلويات في المطبخ، دون أن يدركوا أنّ غرفة الطعام مهجورة. صمت مطبق، الجدران، الألواح الخشبيّة التي تغلّفها، وطأة الأشياء الجديدة المثبتة في المنزل، مساند المدفأة الضخمة، المدافئ الصخريّة الكبيرة البرّاقة والجديدة التي ترقى إلى قرون مضت، عندما كانت القلاع شامخة وحيدة في غابات خرساء. افترضت أنّ والد زوجها كان يفكّر في خلق جوّ من التضامن والتقاليد الأسريّة، فالإنسان الذي أنفق حياته كلّها يصنع المسامير والأقفال كان يفهم قيمة الخصوصيّة. فقد استبعدت الضوضاء القادمة من خارج البيت استبعادًا نهائيًّا، كما أنّ الأصوات المنبعثة من داخل

---

(١) الباروني baronial: نسبة إلى البارونات (المترجم).

المنزل كانت مكبوتة، بل غير موجودة إلى حدّ ما. تنهّدت إميلي، ولمّا أخفقت في سماع نفسها تمامًا تنهّدت من جديد. كانت على مقربة من جهاز الهاتف الذي كان ينتصب فوق منضدة شبه دائريّة من الحديد المطاوع وُضعت بجانب باب المكتبة. وضعت يدها فوق سمّاعة الهاتف، وفكّرت أنّها لا بدّ أن تتحدّث أوّلاً إلى زوجة رئيس الشرطة فوكنز، إذا ما أرادت أن تكلّم فوكنز نفسه، وكانت زوجته امرأة ثرثارة تهوى الحديث عن البيض والأمور ذات الصلة ـ سعر الدجاج وهشاشة الأكياس الورقيّة الحديثة ـ رفض زوجها أن يظهر الاحترام الذي يمكن أن يتوقّعه المرء من شرطي. كان له أسلوبه الصادق في إبداء ملاحظته التي يجعل صداها يرنّ مثل حكمة مكتسبة عن جدّ في صدره المحكم الشدّ. لم تمطر، بل هطلت الأمطار مدرارًا، وخلق الشيطان عملاً للأيدي الكسولة. تفّاحة فاسدة واحدة أفسدت البرميل. تقول الشائعة في القرية إنّه كان عضوًا في اتّحاد نقابات العمّال قبل أن يلتحق بالقوّة الجوِّيّة وينمو له شارب. وقد شوهد في الأيّام التي عمَّ فيها الإضراب، حاملاً المنشورات في أحد القطارات.

فضلاً على ذلك ما الذي ستطلبه من شرطي القرية؟ ففي الوقت الذي يكون قد قال لها فيه لا تتوقّعي من الصغار أن يتصرّفوا تصرّف الكبار، ويكون قد نظّم فيه فريق تفتيش يتألّف من نصف دزّينة من أهل المنطقة، بعد أن يكون قد أيقظهم من نومهم، فإنّ ساعة من الوقت تكون قد انقضت ويكون التوأمان قد عادا بملء إرادتيهما إلى البيت، فزعين من سعة العالم الخارجي في الليل. الحقّ أنّ الصبيّين لم يكونا هما مصدر انشغال بالها، بل أمّهما، أختها، أو على وجه الدقّة، مثالها المتجسّد ضمن هيكل لولا النحيل. عندما نهضت إميلي من وراء مائدة العشاء لتهدّئ الفتاة، استولت عليها الدهشة بسبب إحساس لولا بالاستياء والامتعاض. وكلّما ازداد ذلك الشعور ازداد قلقها، وطلبت منها أن تخفيه. الخدش على وجهها لا سبيل إلى إنكاره، والكدمة على ذراعها صدمة، مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الصبيّين هما اللذان ألحقا بها

الأذى. غير أنّ عداءً قديمًا استبدّ بإميلي وعذّبها. فهي كانت تهدّئ من روع أختها هيرميوني ـ هيرميوني سارقة المشاهد، عاشقة التمثيل المسرحي الصغيرة ـ التي كانت تأخذها بالأحضان بكلّ قوّتها. وفي الكبر كلّما ازداد اهتياج إميلي ازداد انتباهها. وعندما وجدت بريوني المسكينة رسالة الصبيّين، فإنّ العداء نفسه هو الذي دفع إميلي إلى أن تهاجمها بحدّة غير مألوفة. يا له من ظلم! لكنّ احتمال قيام ابنتها، أو أيّة بنت أصغر سنًّا منها، بفضّ الرسالة وتوتير الجوّ أكثر ممّا مضى بفضّها على نحو بطيء، ومن ثم قراءتها بصوت عالٍ أمام الحاضرين، والإعلان عن الخبر العاجل، وتحويل نفسها إلى مركز الحدث الدرامي، كلّ ذلك جعلها تستعيد ذكريات قديمة وأفكارًا حقيرة.

في طفولتيهما، كانت هيرميوني تطفر مرحًا، وتتكلّم بطريقة صبيانيّة، وتدور وهي ترقص على قدم واحدة، متباهية في كلّ لحظة سانحة لها، دون أن تفكّر ـ وهذا ما اعتقدته أختها الأكبر سنًّا منها، الصامتة العابسة ـ بمظهرها المضحك اليائس الذي ظهرت به. هناك باستمرار بالغون يشجّعون هذا الاعتزاز الذي لا يُقهر. وعندما أثارت إميلي، وهي في سنّ الحادية عشرة، هلع حشد من الزوّار لمّا ركضت إلى الباب الزجاجي وصدمته وجرحت يدها جرحًا بليغًا، حتى إنّ رذاذ لطخة دم صنع باقة ورد قرمزيّة على الثوب الأبيض المصنوع من قماش الموسلين الذي كانت ترتديه طفلة على مقربة منها، فإنّ هيرميوني البالغة من العمر تسع سنوات، هي التي أضحت قبلة الأنظار بسبب صراخها وزعيقها. وفي حين كانت إميلي مستلقية بإهمال على الأرض، وفي ظلّ إحدى الأرائك، حيث كان أحد أخوالها يضغط على الجرح ليوقف النزيف، عمد عديد الأقارب إلى تهدئة أختها. أمّا اليوم فهي في باريس تلهو وتمرح برفقة رجل كان يشتغل في دائرة اللاسلكي، بينما كانت إميلي ترعى أطفالها وتهتمّ بهم. لكن يمكن أن يتغيّر هذا كلّه، بحسب قول رئيس الشرطة فوكنز.

أمّا لولا، فلم يكن هناك من يكبح جماحها، أسوةً بوالدتها، إذْ ما إن قرئت الرسالة حتى حوّلت الانتباه عن شقيقيها الهاربين بخروجها الدرامي

المثير من الغرفة. سوف تقتلني أمّي بالتأكيد، لكنّها كانت تبقي روح أمّها على قيد الحياة. وعندما رجع التوأمان، فإنّ الرهان المؤكّد هو ضرورة العثور على لولا. ولمّا كانت ملزمة بمبدأ لا يلين من حبّ الذات، فإنّها سوف تظلّ خارجًا في الظلام مدّة أطول، مستغرقة في مصيبة مصطنعة، لهذا فإنّ الارتياح العامّ عند ظهورها سيكون أشدّ عنفًا، وستصبح موضع الاهتمام. في عصر ذلك اليوم خمّنت إميلي، دون أن تتحرّك في سريرها النهاري، أنّ لولا كانت تقوّض مسرحيّة بريوني، وكان ذلك التخمين شكًّا تأكّد بتمزيق الملصق الإعلاني المثبت على المسند. وكما توقّعت، فإنّ بريوني، كانت في مكان ما خارج المنزل، واجمة، يصعب العثور عليها. كيف يمكن للولا أن تبقى مثل هيرميوني بريئة، في حين دمَّر الآخرون أنفسهم بدفعها إيّاهم دفعًا إلى ذلك؟

وقفت إميلي في الردهة متردّدة متحيّرة، ومتمنّية أن لا تكون في غرفة معيّنة، مجهدة نفسها لسماع أصوات فرق التفتيش خارج المنزل، وشعرت بالارتياح - إنْ كانت صادقة مع نفسها - لأنّها لم تتمكّن من سماع أيّ صوت. إنَّ الصبيّين المفقودين مسرحيّة عن لا شيء، بل إنَّ حياة هيرميوني هي التي فُرضت على حياتها. ما من سبب يبعث على القلق بشأن التوأمين، من غير المرجّح أن يذهبا ناحية النهر، وممّا لا ريب فيه أنّهما سوف يشعران بالتعب ويرجعان إلى البيت. كانت محاصرة بأسوار سميكة من الصمت تسمع هسيسها بأذنيها، مرتفعًا ومنخفضًا وفق نظام خاصّ به. جذبت يدها من فوق سمّاعة الهاتف، ومسحت جبينها - حمدًا لله، لا أثر لداء الشقيقة الوحشي - واتّجهت ناحية غرفة الاستقبال. سبب آخر يدفعها إلى عدم الاتّصال برئيس الشرطة فوكنز هو أنّ جاك سوف يتّصل ويعتذر. سيتمّ الاتّصال بواسطة سنترال هاتف الوزارة، وعندئذٍ ستسمع صوت المساعدة الشابّة وهو يخرج من أنفها، ومن ثم صوت زوجها من وراء مكتبه يتردّد في الغرفة الفسيحة ذات السقف المزيّن بنقوش غائرة. إنّها لا ترتاب في أنّه يشتغل حتى ساعة متأخّرة من الليل، لكنّها تعلم أيضًا أنّه لا ينام في ناديه، وكان هو يعرف أنّها على علم بهذا الأمر،

لكن ما من شيء يمكن قوله، أو هناك، على وجه الدقّة، كلام كثير ينبغي قوله. كان أحدهما يشبه الآخر من حيث خشية اندلاع شجار، وكانت اتّصالاته الهاتفيّة المسائيّة المنتظمة مبعث ارتياح لكليهما، وإنْ كانت لا تصدّقه. فإذا كان هذا الزيف نفاقًا مألوفًا فلا بدّ لها أن تعترف بأنّ له فوائده. فهي تملك وسائل الراحة والاطمئنان في حياتها ـ البيت، ورحبة الأرض الواسعة المحيطة به، والأهمّ من هذا كلّه أطفالها ـ وكانت مصمّمة على الاحتفاظ بهم، وذلك بعدم تحدّي جاك. كما أنّها لم تفتقد حضوره قدر ما تفتقد صوته من خلال الهاتف. وحتى كذبه المستمرّ عليها، وإن لم يكن كالحبّ، كان اهتمامًا مستدامًا، إذْ لا بدّ له من الاهتمام بها كي يلفّق تلفيقًا مفصّلاً، وعلى مدى فترة زمنيّة طويلة. كان خداعه شكلاً من أشكال الوفاء لأهمِّيّة زواجهما.

طفلة مظلومة، زوجة مظلومة، لكنّها ليست شقيّة أو حزينة كما ينبغي، فهذا الدور الذي تؤدّيه يؤهّلها لذلك الدور. توقّفت عند مدخل غرفة الاستقبال، ولاحظت أنّ أقداح الكوكتيل المبقّعة بالشوكولا لا تزال على المائدة، لم تُرفع من مكانها بعد، وأنّ الأبواب المؤدّية إلى الحديقة لا تزال مفتوحة.

كما اهتزّت نبتة البردي المنتصبة أمام المدفأة، عند هبوب نسمة خفيفة من الهواء، وحامت فراشتان، أو ثلاث، متينة البنيان من حول المصباح المنتصب فوق آلة البيانو. هل هناك من أحد سيعزف عليه ثانية في يوم ما؟ في تلك الليلة انجذبت المخلوقات إلى الأضواء، حيث يمكن أن تلتهمها بكلّ سهولة ويسر مخلوقات أخرى. ذلك أحد الألغاز التي منحتها متعة متواضعة، ففضّلت أن لا تستمع لأيّ توضيح بخصوص ذلك اللغز. في أثناء عشاء رسمي، أراد أستاذ في العلوم، أو في موضوع آخر، أن يتكلّم قليلاً فأوضح أنّ بعض الحشرات تتمحور من فوق شمعدان زيتي ذي شعب، وأخبرها أنّ التأثير الصوري لظلمة أشدّ من وراء الضياء هو الذي يجذبها. وعلى الرّغم من

أنّها قد تتعرّض للالتهام، فإنّها مضطرّة إلى إطاعة الغريزة التي تجعلها تنشد المكان الأشدّ ظلمة في الجانب البعيد من الضوء ـ وهو وهم في هذه الحالة. بدا لها هذا كلّه وكأنّه سفسطة، أو إيضاح لمجرّد الإيضاح، كيف يمكن للمرء أن يفترض أنّه يعرف العالم بعيني حشرة؟ ليست لكلّ معلول علّة، والادّعاء بخلاف ذلك ما هو إلاّ تدخّل في آليّات العالم، وهو تدخّل عبثي، ولا يمكن أن يقود إلاّ إلى حزن وهمّ. هكذا هي بعض الأشياء فحسب.

لم ترغب في أن تعرف السبب الذي يكمن وراء بقاء جاك ليالي متعاقبة في لندن، أو أنّها لم ترغب في أن يخبرها أحد عن السبب. كما لم ترغب أيضًا في معرفة نوع العمل الذي يستغرقه حتى وقت متأخّر في الوزارة.

قبل بضعة أشهر، ولم يكن قد مضى وقت طويل على عيد الميلاد بعد، دلفت إلى المكتبة لتوقظه من غفوة ما بعد الظهيرة، فشاهدت ملفًّا مفتوحًا فوق مكتبه، فما كان من فضولها كزوجة إلاّ أن دفعها إلى اختلاس نظرة سريعة لأنّها لم تكن مهتمّة إلاّ اهتمامًا قليلاً بالإدارة المدنيّة. رأت على إحدى الصفحات قائمة من العناوين: أجهزة قيادة متبادلة، تقنين إخلاء مدن كبيرة إخلاءً تامًّا، أعمال السخرة. أمّا الصفحة المقابلة فكانت مكتوبة بخطّ اليد، وكانت تحتوي على نصوص وسلسلة من الحسابات الرياضيّة. وعلمت من كليشيه جاك النحاسيّة أنّه يفترض بها أن تجري عمليّة ضرب في خمسين، فإذا افترضت أنّ مائة ألف طنّ من القنابل أُلقيت في أسبوعين فإنّ النتيجة هي: خمسة ملايين إصابة. لم تكن قد أيقظته بعد، وكان صوت تنفّسه يمتزج بزقزقة عصفور قادمة من مكان ما بين الأعشاب. تسلّلت أشعّة الشمس المائيّة الشكل فوق الكتب وانتشرت رائحة التراب الدافئ في كلّ مكان. اتّجهت صوب النافذة، ورنَت إلى الخارج محاولةً أن ترى الطير وسط أغصان البلّوط العارية من الأوراق التي انتصبت معتمة، ومن فوقها سماء امتزج لونها الرمادي باللون الأزرق الشاحب. كانت على يقين من أنّه لا بدّ من وجود مثل هذه الأشكال ذات الفرضيّة البيروقراطيّة. نعم هناك بعض الإداريّين الحذرين المولعين

بالتأمين ضدّ جميع المخاطر. لكنّ المؤكّد أنّ هذه الأرقام الغريبة كانت شكلاً من أشكال تعظيم الذات، وتهوّرًا يصل حدّ اللامسؤوليّة. فقد كان الاعتماد على جاك في أن يفكّر تفكيرًا بعيد المدى طالما أنّه كان حامي أفراد الأسرة وضامن الهدوء. لكنّ هذا الرأي ساذج، إذْ تذمّر عندما أيقظته، ومال إلى أمام بحركة مفاجئة ليغلق الملفّ، ثم جذب يدها وهو ما يزال جالسًا، وطبع عليها قبلة بطريقة جافّة.

* * *

قرّرت ألاّ تغلق الباب الزجاجي، وجلست عند طرف إحدى الأرائك من طراز تشسترفيلد. شعرت أنّها لم تكن تنتظر أحدًا تمامًا، إذْ ما من أحد غيرها يمكنه أن يظلّ ساكنًا على حدّ علمها، حتى دون كتاب في حضنها، أو أن يسترسل في الأفكار وكأنّه يطوف في حديقة جديدة.

لقد تعلّمت الصبر من خلال سنوات من تجنّب داء الشقيقة. التذمّر والتفكير المركّز، والقراءة، والنظر والرغبة ـ ينبغي تجنّبها كلّها والاستعاضة عنها بتداعي الأفكار البطيء، في حين تراكمت الدقائق كأنّها كومة ثلج، وران الصمت عميقًا من حولها. شعرت وهي جالسة في هذا المكان بنسيم الليل يعبث بحاشية ثوبها على قصبة ساقها، كانت تحسّ بطفولتها مثلما تحسّ الآن بثوب الحرير بمذاق، بصوت، برائحة، وقد امتزجت كلّها في وحدة كانت، على وجه التوكيد، أكثر من حالة مزاجيّة. هناك الآخر في الغرفة نفسها، الحزينة، المهملة، البالغة من العمر عشرة أعوام، فتاة أهدأ من بريوني التي اعتادت أن تفكّر في خواء الزمن، وفي أنّ القرن التاسع عشر يوشك أن يصل نهايته. كيف يمكن لها أن تجلس في مثل هذه الغرفة دون أن «تشاركهم». إنّ هذا الشبح لم تستدعه لولا وهي تقلّد هيرميوني أو التوأمين المحيّرين المتواريين تحت جنح الظلام، بل إنّ التراجع البطيء، والانسحاب نحو الاستقلال الذاتي، هما ما دلَّ على النهاية القريبة لطفولة بريوني. إنّها تطارد إميلي من جديد، كانت بريوني آخر أطفالها، ولا يوجد في حياتها بين الحاضر والقبر ما هو أكثر أهمّيّة أو مدعاة

للرضى من العناية بطفل. لم تكن حمقاء. كانت تُدرك أنّ هذا المدى الرخيم ليس سوى إشفاق على الذات عندما بدأت تتأمّل في ما يبدو أنّه دمارها وتحطّمها. سوف تذهب بريوني مؤكّدًا إلى كلّيّة شقيقتها، إلى غيرتون، أمّا هي، إميلي، فسوف تصبح أطرافها أشدّ صلابة، لا صلة لها بأيّ شيء بمرور الأيّام، ولسوف يُعيد العمر الطويل والإنهاك جاك إليها، وعندئذٍ لن يكون هناك أيّ كلام يُقال، أو تكون هناك ضرورة لقوله. ها هو شبح طفولتها ينتشر في جميع أرجاء الغرفة ليذكّرها بمساحة وجودها الضيّقة. يا لها من نهاية سريعة للقصّة، لم تكن قصّة هائلة، ولا خاوية، بل متهوّرة قاسية.

لم تتأثّر معنوياتها بهذه التأمّلات العاديّة، بل حلّقت فوقها محدّقةً إلى أسفل على نحو حيادي، مازجةً إيّاها بذهول مع غيرها من الشواغل الذهنيّة. خطّطت لزرع مجموعة من الأشجار على امتداد الطريق المؤدّي إلى المسبح، فقد أراد روبي أن يقنعها بنصب تعريشة وذيل على امتداد النبات المتسلّق الذي كان يهوى زهوره ورائحته. لكن قبل أن يتحقّق هذا كلّه سيكون الموت قد طواها هي وجاك منذ زمن طويل، وستنتهي القصّة. فكّرت في روبي أثناء تناول طعام العشاء عندما شخصت عيناه وبدتا مهووستين، أتراه يدخّن سيكارة محشوّة بالحشيش كتلك التي قرأت عنها في إحدى المجلاّت، تلك السكائر التي كانت تدفع بالشبّان من ذوي النزعة البوهيميّة إلى ما وراء حافّة الجنون؟ كان يروقها بما فيه الكفاية، وكانت مسرورة من أجل غريس تيرنر لأنّ ولدها ذكي، لكنّه في حقيقة الأمر كان صقر جاك، الدليل الحيّ على مبدأ ظلّ يجري وراءه طوال حياته. وعندما تحدّث عن روبي، وهو أمر نادر الحدوث، كانت تشوب حديثه روح التبرئة الذاتيّة. لقد أسّس شيئًا ما، لكنّ إميلي نظرت إليه على أنّه نقد موجّه إليها. فقد عارضت جاك عندما اقترح أن يدفع بنفسه نفقات تعليم الصبيّ، واشتمّت من ذلك الاقتراح تدخّلاً غير مناسب، وظلمًا بحقّ ليون والبنتين. لم تنظر إلى نفسها على أنّها كانت مخطئة عندما تخرّج روبي من كيمبردج متفوّقًا.

الحقّ أنّ الأمور ازدادت صعوبة بالنسبة لسيسليا التي جاء ترتيبها الثالث، على الرّغم من أنّ الادّعاء بأنّها أُصيبت بخيبة أمل كان أمرًا منافيًا للطبيعة وللعقل. سموّ روبي، كانت العبارة التي ردّدتها هي: لن يكون نافعًا في شيء، غير أنّ جاك كان يردّ عليها قائلاً بأنّ نفعًا كثيرًا قد صدر منه حتى الآن.

على الرّغم من ذلك كلّه، كانت بريوني قد تصرّفت تصرّفًا لا يليق بها عندما كلّمت روبي على ذلك النحو، وشعرت إميلي بالتعاطف وإيّاها معتقدة أنّ بريوني كانت مستاءة بطبيعتها. شيء متوقّع. لكنّ التفوّه بذلك لا ينمّ عن حسن تصرّف، فكّرت في العشاء من جديد، كم كان مارشال رائعًا عندما هدَّأ الجميع، أتراه مناسبًا؟ إنّ شكله يدعو إلى الأسى، إذْ يبدو أحد نصفي وجهه وكأنّه حجرة نوم مزدحمة بالأثاث، لعلّ ذقنه الذي يشبه اليوم ضربًا من الجبن سيغدو في يوم ما مخدّدًا، أو ضربًا من الشوكولا. وإذا كان حقًّا سيجهّز الجيش البريطاني برمّته بشوكولا آمو فإنّه سوف يصبح واسع الثراء، لكنّ سيسليا التي تعلّمت أنماطًا حديثةً من التعالي في جامعة كيمبردج، كانت تنظر إلى من يحمل شهادة في الكيمياء على أنّه إنسان غير كامل، إنّها كلماتها تمامًا. لقد استرخت وتكاسلت على مدى ثلاثة أعوام تقريبًا في غيرتون، رفقة الكتب التي كان يمكن لها أن تطالعها في البيت أيضًا ـ جين أوستن، وديكنز وكونراد، وهي متوفّرة بطبعة الأعمال الكاملة في المكتبة في الطابق الأرضي. كيف سمح لها ذلك المسعى، قراءة الروايات التي كان يعدّها الآخرون تزجية للوقت، بالتفكير بأنّها متفوّقة على الجميع؟ فالكيميائي نفسه له منافعه، وقد وجد هذا الكيميائي أسلوبًا لصنع الشوكولا من السكّر والموادّ الكيمياويّة واللون البنّي والزيت النباتي بلا زبدة الكاكاو. وكما أوضح أثناء تناول الكوكتيل المدهش الذي أعدّه، فإنّ صنع طنّ واحد من الشوكولا لا يكلّف شيئًا يذكر، وفي وسعه أن يقلّل من حجم منافسيه وزيادة هامش ربحه. وإذا ما أردنا أن نسأل بشكل سوقي، وإن كان السؤال لا يبعث على الراحة، فإنّنا نقول: أيّة سنوات غير مضطربة ستتمخّض عن هذه القوالب الرخيصة الثمن؟

مرّت أكثر من ثلاثين دقيقة دون أن تتنبّه لها، في حين أخذت هذه النتف الصغيرة من الذكريات والأحكام والقرارات المبهمة والأسئلة تتراءى أمامها، دون أن تكون حتى قد غيّرت من وضعها، ولم تسمع الساعة تدقّ كلّ ربع الساعة. كانت واعية بالنسمة، وقد ازدادت قوّة، إذْ دفعت أحد الأبواب الزجاجيّة وأغلقته قبل أن تهدأ ثانية. وفي وقت لاحق أزعجتها بيتي ومساعدوها في تنظيف غرفة الطعام، لكنّ أصوات هؤلاء هدأت مرّة أخرى، وانتقلت إميلي إلى خارج البيت بأفكارها، وتخيّلت نفسها تمشي على امتداد الطرقات المتفرّعة عن أحلام يقظتها، تاركةً العنان لأفكارها تتداعى، ومتجنّبةً، بالخبرة التي تملكها، والمتولّدة عن آلاف المرّات التي شعرت فيها بالصداع، كلّ ما هو مفاجئ أو عنيف، وعندما رنَّ جرس الهاتف أخيرًا نهضت من محلّها على الفور دون أن تستبدّ بها الدهشة، وعادت إلى مدخل الردهة، ورفعت سمّاعة الهاتف وهتفت، وهو الأسلوب الذي تلجأ إليه، بلهجة سؤال:

ـ آل تاليس؟

تناهى إليها صوت المساعدة، ثم وقفة قصيرة، وصوت خرخشة المكالمة من مكان بعيد، ليأتي بعد ذلك صوت جاك الحيادي.

ـ يا أعزّ الناس، متأخّر أكثر من المعتاد، آسف جدًّا.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف، ولكنّها لم تكن لتمانع، لأنّه سيعود في عطلة نهاية الأسبوع، وفي يوم ما سيكون في المنزل ولا يغادره أبدًا، ولن يتفوّه أحد بأيّة كلمة نابية.

قالت:

ـ أبدًا، لا بأس.

ـ إنّني منهمك بتنقيح البيان المتعلّق بالدفاع. سيُطبع طبعة ثانية، بسبب هذه الصعوبات وغيرها.

قالت بلهجة مهدّئة:

ـ إعادة التسلّح.

ـ أعتقد ذلك.

ـ الجميع ضدّه كما تعلم.

ضحك وأردف:

ـ باستثناء الموجودين في هذه الدائرة.

ـ وأنا.

ـ حسنًا يا عزيزتي، أرجو أن أتمكّن من إقناعك يومًا ما.

ـ وأنا أيضًا أتمنّى إقناعك.

كان تبادل الحديث مشوبًا بالودِّ، حميميّته راحة. وسألها، كدأبه، عن تفاصيل أحداث النهار الذي مرَّت به، فأخبرته عن ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعًا شديدًا، وعن إخفاق مسرحيّة بريوني، ووصول ليون مع صديقه الذي قالت عنه:

ـ إنّه في معسكرك، ولكنّه يُطالب بالكثير من الجند كي يبيع للحكومة الشوكولا التي يصنعها.

ـ فهمت. شفرة محراث في ورق فضّي.

وصفت له العشاء، ونظرة روبي الحادّة من حول المائدة.

ـ هل نحن مضطرّون إلى إدخاله كلّيّة الطبّ؟

ـ نعم، إنّها حركة جريئة. تصرّف يلائم طبعه، وأنا أعلم أنّه سيحقّق نجاحًا.

ثم قدّمت له شرحًا عن الطريقة التي انتهى بها طعام العشاء، ورسالة التوأمين، وفرق التفتيش التي خرجت تبحث عنهما في رحبة الأرض المحيطة بالمنزل.

ـ وغدان صغيران، وأين هما الآن؟

ـ لا أدري، لا زلت أنتظر سماع الأخبار.

ران صمت في الجانب الآخر من الخطّ، لم تقطعه إلاّ طقطقة ميكانيكيّة بعيدة، وعندما تكلّم الموظّف الحكومي في نهاية المطاف، كان قد اتّخذ قراراته. دلَّ استخدام اسمها الأوّل على مدى جدّه.

ـ سوف أُنهي المكالمة الآن يا إميلي لأنّني سوف أستدعي الشرطة.

ـ هل هذا ضروري حقًّا؟ في الوقت الذي تصل الشرطة هناك...

ـ اتّصلي بي حالما تصلك أخبار عنهما.

ـ انتظر...

التفتت لدى سماعها صوتًا.

كان ليون قد اجتاز الباب الرئيس ومن ورائه سيسليا التي كانت نظراتها ذاهلة. ثم دخلت بريوني وقد طوّقت بذراعها ابنة خالتها. كان وجه لولا شاحبًا، جامدًا كأنّه قناع من طين، فأدركت إميلي على الفور أنّ الأمور سيّئة جدًّا، ولكنها لم تفهم ماذا جرى، أين التوأمان؟

اجتاز ليون الردهة واتّجه ناحيتها مادًّا يده نحو الهاتف. كان الطين يغطّي بنطاله من حافّته وحتى ركبته. طين في مثل هذا الطقس؟ كان متقطّع الأنفاس من فرط الجهد الذي بذله، كما تأرجحت خصلة دهنيّة من شعره فوق وجهه عندما أمسك بسمّاعة الهاتف واستدار.

ـ أهذا أنت يا أبي؟ نعم، انظر، أعتقد أنّ الأفضل أن تأتي إلينا، لا.. ثم هناك ما هو أسوأ من هذا، لا.. لا.. لا يمكنني إخبارك الآن، الليلة إن استطعت، علينا أن نتّصل بهم هاتفيًّا، الأفضل أن تأتي.

وضعت يدها فوق فؤادها، وتراجعت خطوتين إلى الوراء، إلى حيث كانت سيسليا تراقب صحبة الفتيات. كان ليون قد خفض صوته مغمغمًا بسرعة

من خلال سمّاعة الهاتف. لم تتمكّن إميلي من سماع كلمة واحدة، بل لم ترغب في سماع أيّ شيء. كانت تفضّل أن تخلو إلى غرفتها، ولكنّ ليون أنهى المكالمة بوضعه سمّاعة الهاتف بقوّة في مكانها والتفت نحوها. كانت عيناه حادّتين قاسيتين، وفكّرت في نفسها إن كانت قد رأت الغضب في عينيه. كان يحاول أن يتنفّس تنفّسًا أعمق، ومطَّ شفتيه مكشّرًا تكشيرة غريبة.

قال:

ـ سنذهب إلى غرفة الاستقبال حيث يمكننا أن نجلس.

فهمت مراده. لن يخبرها الآن لأنّه لا يريدها أن تنهار فوق البلاط فتصيب رأسها بكسور. حملقت فيه ولكنّها لم تتحرّك.

قال:

ـ هيّا يا إميلي.

كانت يد ابنها حارّة، وثقيلة على كتفها، وشعرت برطوبتها من خلال ثوبها الحريري. تركت نَفْسها يقودها صوب غرفة الاستقبال بلا حول ولا قوة، كلّ رعبها يتركّز في حقيقة بسيطة مفادها أنّه يريدها أن تجلس قبل أن يبلغها الخبر.

* * *

الفصل الثالث عشر

في خلال نصف الساعة سترتكب بريوني جريمتها، كانت تُدرك أنّها تشاطر المهووس هذا الليل البهيم، ولذلك ظلّت في بادئ الأمر تسير على مقربة من جدران البيت المكسوّة بالظلال، وتخفض رأسها كلّما مرَّت من تحت حافّة نافذة مُضاءة. وكانت تعرف أنّه سوف يمضي قدمًا نحو نهاية الطريق الرئيس، لأنّه الطريق الذي سلكته شقيقتها رفقة ليون. وحالما شعرت بريوني أنَّ مسافة آمنة انفتحت أمامها، اندفعت بعيدًا عن المنزل باتّجاه مبنى الإسطبل والمسبح. المؤكّد أنّ هذا التصرّف معقول لتتأكّد إن كان التوأمان هناك يعبثان بأنابيب المياه، أو يطوفان على وجهيهما وقد قضيا نحبهما، وبات صعبًا التعرّف إليهما. فكّرت في الأسلوب الذي يمكن أن تصف فيه هذا المشهد، الطريقة التي طافا بها على صفحة الماء المنيرة، وكيف انتشر شعرهما مثل نباتات متسلّقة، واصطدم جسداهما وانجرفا منفصلين. انسلّ هواء الليل الجافّ بين تلافيف ثوبها وجسدها، وشعرت بالهدوء والانتعاش في الظلمة. لم يعد هناك شيء لم تتمكّن من وصفه: خطوة المهووس الرقيقة وهو يسير سيرًا متعرّجًا على امتداد الطريق دون أن يخرج عن حافّته كي لا يسمع أحد صوت اقترابه.

لكنّ أخاها يرافق سيسليا، وبذلك أُزيل عنها ذلك العبء. يمكنها أن

تصف هذا الهواء العذب أيضًا، والأعشاب التي تفوح منها رائحة الحيوانات اللطيفة، التربة الساخنة التي لا تزال فيها جمرات حرارة النهار، وتنبعث منها رائحة الطين، والنسمة الخفيفة التي تأتي من البحيرة حاملةً نكهة خضراء وفضّيّة.

بدأت تركض على امتداد العشب، وظنّت أنّ بإمكانها أن تركض طوال الليل، تشقّ طريقها وسط الهواء الناعم نعومة الحرير، وتقفز إلى أمام بسبب تلافيف الأرض القويّة من تحت قدميها، فيما ضاعف الظلام من الانطباع عن السرعة. راودتها أحلام كانت تركض فيها على هذا النحو، ثم مالت إلى أمام مبسوطة الذراعين، ثم ارتفعت عن الأرض واستسلمت للإيمان ـ وهو الجزء الصعب الوحيد، وإنْ كان سهلاً عند النوم، وحلّقت فوق الأعشاب والبوّابات والسطوح، وزادت من ارتفاعها في الجوّ، وحامت بنشوة من تحت السحاب وفوق الحقول قبل أن تهبط ثانية. شعرت الآن كيف يمكن تحقيق ذلك ـ من خلال الرغبة وحدها. كان العالم الذي تركض فيه يحبّها، وسوف يمنحها ما تريد، ويحقّق لها ذلك، وبعد ذلك عندما يتحقّق هذا الأمر سوف تصفه. أليست الكتابة نوعًا من التحليق العالي، نمطًا من الطيران الذي يمكن تحقيقه، نمطًا من الخيال، من الوهم؟

لكنّ ثمّة مهووسًا يجوس وسط الليل بقلب أسود لم تتحقّق رغباته ـ فقد أحبطت رغبته مرّة قبل قليل ـ وينبغي لها أن تكون عادلة لكي تصفه أيضًا. لا بدّ لها، أوّل الأمر، أن تحمي شقيقتها منه، وبعدها تجد وسائل لتستحضره استحضارًا واثقًا على الورق. أبطأت بريوني في مشيتها، وفكّرت بأنّه لا بدّ قد كرهها الآن كراهية شديدة لأنّها قاطعته في المكتبة. وعلى الرّغم من أنَّ إحساسها بأنّ هناك إنسانًا بالغًا يكرهها جعل الرعب يدبّ في أوصالها، فإنّه يشكّل مدخلاً مغايرًا، ولحظة نشوء، لحظة أولى في حياتها.

الأطفال محمّلون بالكراهية، أصحاب نزوات، لكن قلّما يهمّ ذلك. لكن أن تكون موضع كراهية إنسان بالغ يعني دخول عالم جديد هادئ. ترقية.

ربّما يرتدّ على عقبيه وينتظرها بأفكاره الدمويّة من خلف مبنى الإسطبل. لكنّها كانت تحاول أن لا تشعر بالخوف، لقد استحوذت على انتباهه في المكتبة، بينما مرّت أختها من أمامها دون كلمة تعبّر عن شكرها لإنقاذها إيّاها. كانت تعرف أنّ القضيّة لا صلة لها بالشكر ولا العرفان، لأنّ الحبّ الذي لا ينطوي على أنانيّة لا يحتاج إلى كلمات، ولسوف تحمي أختها حتى لو أخفقت هذه الأخت في التعبير عن دينها. ولا يمكن لبريوني أن تخشى روبي الآن، بل سيصبح موضع ازدرائها واشمئزازها. لقد وفّروا كلّ الأشياء المريحة والسارّة ـ أسرة تاليس: البيت الذي ترعرع فيه، رحلات لا تُحصى إلى فرنسا، وزيَّه في المدرسة الثانويّة، وكتبه، ومن ثم جامعة كيمبردج. وها هو، لقاء هذا كلّه، يستخدم كلمة نابية ضدّ أختها، ولجأ إلى استخدام قوّته ضدّها أيضًا في إهانة صارخة لأصول الضيافة، وجلس بكلّ وقاحة من حول مائدة عشائهم متظاهرًا بأنّ كلّ شيء كما هو لم يتغيّر. الخديعة! كم تتألّم وهي تحاول الكشف عنها. الحياة الحقيقيّة، حياتها، هي التي تبدأ الآن، أرسلت لها وغدًا بشكل صديق قديم من أصدقاء الأسرة له أطراف قويّة، مرتبكة، ووجه ودود أجعد، اعتاد أن يحملها على ظهره ويسبح وإيّاها في النهر، ممسكًا بها كي لا تنجرف مع التيّار. يبدو هذا كلّه صوابًا ـ فالحقيقة غريبة وخدّاعة، ولا بدّ من الكفاح من أجل الوصول إليها ضدّ سريان كلّ ما هو يومي. هذا ما لم يتوقّعه أحد، فالأوغاد لم يعلنوا عن أنفسهم همسًا، أو مناجاة، ولم يأتوا خلسة مجلّلين بالسواد وقبيحي الملامح. في الجهة الأخرى من المنزل، كان ليون وسيسليا يسيران بعيدًا عنها. ربّما ستخبره عن الاعتداء، وإذا ما أخبرته فسوف يضع ذراعه من حولها. سوف يعمد أطفال أسرة تاليس إلى إخراج هذا الوحش من حياتهم، عليهم أن يواجهوا والدهم ويبدّلوا من رأيه، ويهدّئوا من ثورته وخيبة أمله بعد أن انقلب محظيّه إلى مهووس! حرّكت كلمة لولا الغبار من فوق كلمات أخرى ـ «رجل، مجنون، فأس، اعتداء، اتّهام» وأكّدت التشخيص.

شقّت طريقها من حول مبنى الإسطبل، وتوقّفت من تحت المدخل

المقوّس تحت برج الساعة مباشرةً. نادت باسمي التوأمين، لكنّها لم تسمع سوى صوت حوافر، وجسم ثقيل يضغط على مربط الخيل. كانت سعيدة لأنّها لم تغرم بحصان أو مهر، لأنّها كانت واثقة من أنّها ستهمله في هذه المرحلة من عمرها. لم تقترب من الحيوانات الآن، وإنْ شعرت هذه بوجودها، شعرت أنّ هناك عبقريًّا إلٰهًا، يتسكّع على حدود عالمها، وأنّها تحاول أن تستحوذ على انتباهه. لكنّها استدارت واتّجهت ناحية المسبح. وتساءلت إن كانت المسؤوليّة الأخيرة تجاه شخص ما، حتى وإنْ كان مخلوقًا، مثل جواد أو كلب، تتعارض تعارضًا تامًّا مع رحلتها الداخليّة والشاقّة في الكتابة.

إنّ القلق من أجل توفير الحماية، ومشاغلة عقل آخر كأنّك تدخل أعماقه، وأداء دور رئيس وكأنّك تحدّد مصير الآخر، قلّما يعني ذلك كلّه حرّيّة عقليّة. ربّما في إمكانها أن تصبح واحدة من النساء ـ اللواتي يبعثن على الشفقة أو الحسد ـ اللواتي قرّرن عدم إنجاب الأطفال. تابعت سيرها على الممرّ المرصوف بالحصباء الذي يدور من حول مبنى الإسطبل. كانت الحصباء الرمليّة كالأرض تمامًا، تشعّ بحرارة النهار المكبوتة في داخلها. شعرت بها على خدّها وعلى ساقها العارية وهي تسير على امتداد الممرّ. تعثّرت عندما أسرعت وسط الظلام الحالك من تحت نفق أشجار الخيزران، لتخرج بعدها إلى هندسة الحجارة المستخدمة في رصف الممرّ.

كانت المصابيح من تحت الماء، والتي نُصبت في ذلك الربيع، لا تزال شيئًا مستخدمًا، وأضفت بريقها المائل إلى الزرقة، والمسلّط من تحت ضوء القمر. وعلى المنضدة المعدنيّة القديمة شاهدت دورقًا زجاجيًّا، وقدحين، وقطعة من قماش، وثمّة قدح ثالث يحتوي على قطع صغيرة من فاكهة ليّنة عند حافّة منصّة القفز. لم يكن هناك أحدٌ في المسبح، ولا ضحكة من ظلمة السرادق، ولا همسة بلزوم الصمت من ظلال أجمة الخيزران. دارت من حول المسبح بتؤدة، مهملة البحث، ولكنّها منجذبة إلى بريق الماء الزجاجي الساكن، فعلى الرّغم من كلّ التهديدات التي كان يشكّلها المهووس لأختها فإنّ البقاء

خارج البيت، في هذه الساعة المتأخّرة، برخصةٍ، كان بهيجًا، ولم تعتقد أنّ التوأمين كانا في خطر حقًّا. فلو كانا قد شاهدا خارطة المنطقة المؤطّرة بإطار، والمثبّتة في المكتبة، وكانا ذكيّين وقرآها، وكانا عازمين على الخروج من الأرض الرحبة المحيطة بالمنزل، وسارا نحو جهة الشمال طوال الليل، فإنّه يتعيّن عليهما السير على امتداد الطريق الفرعي المتوغّل في الغابة، والذي تحاذيه سكّة حديد القطار. في هذا الوقت من السنة، عندما تكون الأشجار ممتدّة بكثافة فوق الطريق، فإنّ هذا الطريق يغرق في ظلام دامس، وما من طريق آخر للخروج من هذا المكان إلاّ من خلال بوّابة القبلة التي تؤدّي إلى النهر. لكنّ هذه المنطقة تفتقر بدورها إلى الضوء، ولا توجد أيّة وسيلة سوى المحافظة على السير على الطريق، أو خفض الرأس لتفادي الأغصان الواطئة التي تعلوه، أو تفادي نبات القرَّاص الذي كان ينمو بسرعة على الجانبين. إنّ التوأمين لا يمتلكان ما يكفي من الشجاعة كي يوقعا نفسيهما في خطر.

كانا بمأمن. سيسليا مع ليون، وهي، بريوني، حرّة في تجوالها في الظلام والتفكير في يومها العجيب، وقرّرت، وهي تبتعد عن المسبح، أنّ طفولتها انقضت في اللحظة التي مزّقت فيها الملصق الإعلاني. خلّفت قصص الجنّ من ورائها، وفي غضون بضع ساعات شهدت أحداثًا غامضة، وقرأت كلمة لا يجوز النطق بها، وحالت دون إكمال مشهد سلوك وحشي، وأصبحت مشاركة في دراما الحياة الممتدّة وراء غرفة الحضانة، بعد أن جلبت على نفسها كراهية إنسان بالغ وثق به الجميع. كلّ ما ينبغي لها أن تفعله الآن هو أن تعثر على القصص، لا على المواضيع فحسب، بل على أسلوب لسردها، ممّا سينصف معرفتها الجديدة. أم تراها تعني إدراكها المتعقّل لجهلها؟

تأمّلها صفحة الماء لبضع دقائق متواصلة جعلها تتذكّر البحيرة، لعلّ الصبيّين يختبئان في معبد الجزيرة المنعزل الذي لا يبعد كثيرًا عن المنزل. كما أنّه مكان صغير يبعث على الألفة، عزاؤه وجود الماء وافتقاره إلى الظلال الكثيفة.

ربّما ذهب الآخرون إلى الجهة الأخرى بعد أن عبروا الجسر مباشرة دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء النظر إلى أسفل. قرّرت أن تحافظ على طريقها، والوصول إلى البحيرة بالالتفاف من خلف المنزل.

بعد دقيقتين، اجتازت المكان المخصّص للأزهار، والممشى الكائن أمام نافورة تريتون، المشهد الذي انطوى على لغز آخر، وكان نذيرًا بالأعمال الوحشيّة التي حدثت مؤخّرًا.

وفيما هي تجتاز المكان ظنّت أنّها سمعت صرخة خفيفة، واعتقدت أنّها رأت من طرف عينها ضوءًا يومض وينطفئ، فتوقّفت وأصاخت السمع من فوق خرير الماء. صدرت الصرخة والضوء من الغابة المجاورة للنهر على بعد بضع مئات من الياردات، سارت بذلك الاتّجاه مدّة نصف ساعة، وتوقّفت لتنصت من جديد، ولكن لم يكن هناك أيّ صوت. لا شيء سوى الظلام المخيّم على الغابة التي لا يمكن تمييزها إلاّ بصعوبة تحت زرقة السماء الرماديّة إلى جهة الغرب. وبعد أن انتظرت قليلاً قرّرت أن تعود أدراجها. ولكي تحافظ على مسار الطريق، فقد مشت مباشرة نحو المنزل باتّجاه الشرفة حيث المصباح الزيتي الكروي يبعث بضوئه وسط الأقداح والقناني ودلو الثلج. كانت الأبواب الزجاجيّة في غرفة الاستقبال لا تزال مفتوحة على مصاريعها في وجه الليل، كان بإمكانها أن ترى ما يدور داخل الغرفة، أن ترى من تحت نور مصباح واحد تحجبه، إلى حدٍّ ما، ستارة مخمليّة، طرف إحدى الأرائك، ومن فوق إحدى زواياها جسمًا أسطوانيّ الشكل. وبعد أن قطعت مسافة خمسين ياردة أدركت أنّها كانت تنظر إلى ساق بشريّة محرّرة من جسدها. وعندما اقتربت أكثر أدركت أبعاد المشهد. إنّها ساق أمّها على وجه التوكيد، وإنّ أمّها كانت تنتظر عودة التوأمين. كانت الستائر تحجب رؤية أمّها تقريبًا، وكانت إحدى ساقيها، وهي داخل جوربها، تستند إلى ركبة الساق الأخرى ممّا جعلها تبدو مائلة ومرتفعة على نحو غريب.

سارت بريوني نحو نافذة إلى جهة اليسار عندما وصلت إلى المنزل كي

تتمكّن إميلي من رؤيتها، كانت خلف والدتها تمامًا، وعلى مسافة أبعد من أن تتمكّن من رؤية عينيها. ولم تتبيّن سوى عظم وجنتها من تحت محجر عينها. كانت بريوني متأكّدة من أنّ عينيها مغمضتان. كان رأسها متّكئًا إلى الخلف، شابكة يديها على حضنها، فيما كانت كتفها اليمنى تعلو وتهبط بلطف مع تنفّسها، ولكنّها لم تتمكّن من مشاهدة فمها، بل شاهدت ميله إلى أسفل، وهو ميلٌ ـ علامة هيروغليفيّة ـ وقد يُعطي انطباعًا خاطئًا باللوم والتأنيب. لكنّ الأمر لم يكن كذلك، لأنّها كانت دومًا لطيفة وعذبة وطيّبة بلا حدود، وكانت رؤية بريوني لأمّها جالسة وحيدة، وفي ساعة متأخّرة من الليل، مبعث حزن وسرور في الوقت نفسه. أشغلت بريوني نفسها بإلقاء نظرة من خلال النافذة كأنّها تُلقي نظرة وداع. كانت والدتها في السادسة والأربعين، شاخت من حيث وهن عزيمتها وثبوط همّتها. يومًا ما ستوافيها المنيّة، وستجري مراسم تشييعها في القرية، وسيُوحي صمت بريوني المهيب بحزنها الرهيب. وعندما يأتي الأصدقاء إليها ليهمسوا بعزائهم لها، سيراودها شعور بالرعب من حجم المأساة التي حلّت بها. تخيّلت نفسها واقفة وحدها في ساحة عظيمة مترامية الأطراف، وسط مدرّج عالٍ لا تكون فيه محطّ أنظار كلّ الناس الذين تعرفهم وحسب، بل وكلّ الذين سوف تعرفهم، كلّ الممثّلين في حياتها وقد اجتمعوا ليعبّروا لها عن حبّهم، في ظلّ الخسارة التي ألمّت بها. وفي باحة الكنيسة، في المكان الذي يسمّونه ركن الأجداد، ستقف هي وليون وسيسليا متعانقين عناقًا لا متناهيًا فوق العشب الطويل وبجانب شاهد القبر، وسيكونون محطّ الأنظار أيضًا. لا بدّ من أن تكون محطّ الأنظار. وكانت شفقة أولئك الذين تمنّوا لها الخير هي التي استحوذت على انتباهها.

كان بإمكانها أن تذهب إلى والدتها وتدنو منها، وتسرد عليها خلاصة بأحداث النهار. ولو أقدمت على هذا السرد لما ارتكبت جريمتها، ولما حدثت أحداث كثيرة، ولما حدث أيّ شيء، ولجعلت يد الزمان اللطيفة تلك الأمسية، الأمسية التي هرب بها التوأمان، اعتياديّة قلّما يتذكّرها أحد. الرابعة

والثلاثون، أم الخامسة والثلاثون أم السادسة والثلاثون؟ لكن دون ما سبب باستثناء الالتزام الواهي بالبحث، ومتعة الوجود خارج المنزل في مثل هذا الوقت المتأخّر من الليل. برحت المكان، وفيما هي تبتعد، صدمت إحدى كتفيها حافّة أحد الأبواب الزجاجيّة فانغلق. كان الصوت حادًّا ـ خشب صنوبر مجفّف على خشب صلب ـ ورنَّ مثل توبيخ عنيف.

لو بقيت لتحتّم عليها أن تقدّم تفسيرًا، لهذا انسلّت خارجةً إلى الظلام، ومشت على رؤوس أصابعها بسرعة فوق البلاط الحجري والأعشاب العطرة النامية بينها، حتى أصبحت فوق الحشائش الممتدّة بين أماكن الأزهار حيث يمكنها الهروب دون أيّة جلبة. التفّت من حول المنزل حتى وصلت واجهته، فسارت من فوق الحصباء التي اجتازتها عارية القدمين عصر ذلك اليوم.

أبطأت من سيرها عندما استدارت عند الطريق الفرعي، واتّجهت نحو الجسر. عادت إلى نقطة بدايتها، وفكّرت بضرورة رؤية الآخرين، أو سماع نداءاتهم، لكن لا أحد. أمّا الأشكال المظلمة للأشجار المتباعدة، في رحبة الأرض المحيطة بالمنزل، فجعلتها تتردّد في سيرها. لا بدّ لها من أن تتذكّر أنَّ شخصًا ما كرهها، وأنّ تصرّفاته لا يمكن التنبّؤ بها، وأنّه عنيف، ولا بدّ أنّ ليون وسيسليا ومارشال قد قطعوا شوطًا طويلاً وابتعدوا الآن. كانت الأشجار الأقرب إليها، أو جذوعها في الأقلّ، تبدو بشكل البشر، أو ربّما تراها تخفي بشرًا من ورائها. ولكن حتى إن وقف إنسان أمام جذع شجرة فإنّها لن تتمكّن من رؤيته. شعرت، أوّل الأمر، بالنسمة تهبّ عليها من فوق قمم الأشجار، وأقلقها ذلك الصوت المألوف، وهجمت عليها ملايين المشاعر المحرّضة، وعندما انتعشت الريح مدّة وجيزة، ومن ثم هدأت ثانية، ابتعد الصوت عنها ورحل بعيدًا نحو الجهة المظلمة من رحبة الأرض، كأنّه مخلوق حيّ. توقّفت وفكّرت إنْ كانت تملك ما يكفي من الشجاعة لمواصلة السير نحو الجسر وعبوره، والهبوط إلى أسفل الضفّة المنحدرة باتّجاه معبد الجزيرة، خاصّةً عندما لا يكون هناك أيّ شيء معرّض لخطر كبير سوى إحساسها الغريزي بأنّ

الصبيّين ضلاً طريقهما إلى أسفل هذا المكان. لم يكن لديها مشعل، بخلاف بقيّة البالغين، ولم يكن أحد يتوقّع منها عمل أيّ شيء، فهم يرونها طفلة في كلّ الأحوال، والتوأمان ليسا في خطر.

ظلّت واقفة على الحصباء دقيقة أو دقيقتين، ولم تكن خائفة على نحو يدفعها إلى النكوص إلى الوراء، ولا واثقة الثقة كلّها فتواصل سيرها. يمكنها أن تعود أدراجها إلى أمّها والبقاء وإيّاها في غرفة الاستقبال والانتظار. وفي إمكانها أن تسلك دربًا أكثر أمانًا يمتدّ على طول الطريق الفرعي، والعودة منه قبل أن يوغل في الغابة، وتظلّ رغم ذلك تعطي الانطباع بأنّها كانت منهمكة في البحث. ولكن، بعد أن أثبت النهار لها أنّها لم تعد طفلة، وأنّها الآن شخصيّة في قصّة أكثر ثراءً وغنًى، ويتعيّن عليها أن تكون جديرة بها، أرغمت نفسها على الاستمرار في السير وعبور الجسر، ومن تحتها تناهى إلى سمعها هسيس النسمة الذي وصلها مبكّرًا بفعل القوس الحجري وهو يداعب النبات، فضلاً عن ضربة أجنحة على الماء سرعان ما توقّفت. كانت تلك الأصوات مألوفة يوميًّا، ويزيد الظلام من حدّتها، ولم يكن الظلام شيئًا، فهو ليس مادّة، وليس حضورًا، وهو ليس بأكثر من غياب الضوء. لم ينته الجسر بأكثر من جزيرة اصطناعيّة في بحيرة اصطناعيّة وقد مضت عليه مائتا سنة تقريبًا، وكانت عزلته تبرزه عن بقيّة الأرض، وكان يعود إليها أكثر ممّا يعود إلى أيّ شخص آخر. وكانت الوحيدة التي جاءت إلى هذا المكان، وكان الآخرون لا يرون فيه سوى ممرٍّ يمتدّ من البيت وإليه، جسر بين جسرين، زخرفة مألوفة تكاد تغيّبه عن الأنظار. وكان هاردمان يأتي إلى هذا المكان رفقة ولده مرّتين في العام ليجزّ العشب من حول المعبد، وكان المتشرّدون يمرّون من هناك، وكانت النعامات التائهة المهاجرة تشارف الشاطئ المعشوشب الصغير. وفيما عدا ذلك فإنّه كان مملكة منعزلة للأرانب وطيور الماء وجرذان الماء.

لهذا فإنّ سلوكها الطريق المؤدّي إلى أسفل الضفّة، والسير إلى الجانب الآخر من العشب ثانية باتّجاه المعبد، كان ينبغي أن يكون قضيّة بسيطة،

ولكنّها تردّدت ثانية، ورمقت المكان بنظرة دون أن تُنادي على التوأمين. تلألأ الشحوب الواضح الذي اكتسبه المبنى في لجّة الظلام، وعندما تفرّست فيه مباشرة ذاب أمامها ذوبانًا كاملاً. كان على بعد مائة قدم تقريبًا، وعلى مسافة أقرب، وجدت شجرة ذات سيقان متعدّدة في وسط الأرض المعشوشبة لم تتمكّن من تذكّرها، أو ربّما تذكّرت أنّها كانت على مسافة أقرب إلى الشاطئ، ولم تكن الأشجار، أو ما تراه منها، في مكانها الصحيح أيضًا، فشجرة البلّوط كانت بصليّة الشكل، والدردار في غير انتظام أو اتّساق، وبدت متواطئة في غرابتها، وعندما همّت بوضع يدها على حاجز الجسر أفزعتها بطّة بصوت عالٍ كريه يكاد يكون انسيابيًّا بنغمته الهابطة إلى أسفل. المؤكّد أنّ شدّة انحدار الضفّة هي التي حالت دون استمرارها في الهبوط، فاستقرّت في مكانها فوق كومة من الحشائش، وتوقّفت لتمسح يديها بثوبها.

اتّجهت مباشرة ناحية المعبد، وارتقت سبع درجات أو ثماني، وكادت أن تنادي على اسمي التوأمين عندما بدأت الشجيرة الكائنة في طريقها ـ الذي ظنّته أقرب إلى النهر ـ تتبدّد أمامها، أو يتضاعف عددها، أو تتمايل قبل أن تتفرّع. كانت تغيّر من شكلها على نحو معقّد، فتضعف عند قاعدتها كأنّها عمود يبلغ ارتفاعه خمسة أقدام أو ستّة. ربّما كان يتعيّن عليها أن تتوقّف على الفور لو لم تكن حتى الآن مرتبطة بفكرة أنّ هذه الشجيرة هي شجيرة وأنّها تشهد حيلة من حيل الظلام وأبعاده. ثانية أو ثانيتان، درجتان أخريان، وعندئذٍ أدركت أنّ ما رأته لم يكن كذلك، فتوقّفت. كانت الكتلة العموديّة شكلاً، شخصًا يبتعد عنها ليتوارى في حلكة ظلام الأشجار، وكانت البقعة المظلمة الأخرى على الأرض شخصًا أيضًا، شكلاً متغيّرًا ثانيةً، جلس على الأرض ونادى باسمها:

ـ بريوني؟

سمعت يأسًا في صوت لولا ـ فهو الصوت الذي ظنّته صوت بطّة ـ وفي لمح البصر فهمت بريوني كلّ شيء تمامًا. أصابها الغثيان من شدّة

الاشمئزاز والهلع. وهنا بدا للعيان الشكل الأكبر حجمًا وهو يدور من حول حافّة فسحة الأرض ويتّجه ناحية أسفل الضفّة إلى الجهة التي جاءت منها توًّا. علمت أنّها يجب أن تهتمّ بأمر لولا، لكنّها لم تتمكّن من منع نفسها من مراقبة الشخص وهو يرتقي المنحدر بسرعة، ودون جهد، ليختفي على امتداد الطريق. سمعت صوت وقع خطواته وهو يتّجه صوب المنزل، لا ريب في ذلك، بإمكانها أن تصفه، ما من شيء لا يمكنها وصفه، جثت بجانب ابنة خالتها:

ـ أأنت بخير يا لولا؟

لمست بريوني كتفها، وفتّشت عن يدها دون طائل. كانت لولا مائلة إلى أمام، شابكة ذراعيها من حول صدرها، حاضنةً نفسها ومرتعشة قليلاً. كان صوتها ضعيفًا مشوّشًا كأنّ شيئًا ما، فقّاعة، مخاطًا، يحول دون خروجه. كانت مضطرّة إلى أن تتنحنح.

قالت بوهن:

ـ آسفة.

همست بريوني:

ـ من هو؟

وقبل أن تحصل على الجواب أضافت بكلّ ما وسعها من هدوء:

ـ لقد شاهدته.. لقد شاهدته.

قالت لولا صاغرةً:

ـ نعم.

شعرت بريوني، للمرّة الثانية في ذلك المساء، بدفقة حنان تجاه ابنة خالتها. واجهت الاثنتان رعبًا حقيقيًّا. كانت هي وابنة خالتها متقاربتين، وكانت بريوني جاثية على ركبتيها تحاول أن تطوّق لولا بذراعيها وتشدّها

إليها، لكنّ الجسد كان كتلة من عظام لا يرضخ، منكمشًا من حول نفسه مثل قوقعة حلزون بحري. طوّقت لولا جسدها بذراعيها وتمايلت.

قالت بريوني:

ـ كان هو، أليس كذلك؟

شعرت لولا، ولم تشاهد إيماءة ابنة خالتها على صدرها، ربّما كان ذلك إعياءً.

بعد بضع ثوان قالت لولا بصوت ضعيف مستسلم:

ـ نعم، لقد كان هو.

وفجأة أرادت بريوني أن تنطق لولا باسمه، إذْ تحتاج خاتمة الجريمة إلى إطار، مع لعنة الضحيّة وإنهاء مصيرها بسحر التلفّظ بالفاعل.

همست بريوني، ولم تتمكّن من إنكار النشوة الغريبة التي ألمّت بها:

ـ لولا.. لولا، من هو؟

توقّف ميلانها، وباتت الجزيرة ساكنة، وبدت لولا دون حتى أن تتحرّك حقًّا من مكانها وهي تتحرّك مبتعدة، أو تحرّك كتفيها، تهزّهما إلى حدٍّ ما كي تحرّر نفسها من لمسة بريوني الحانية. أشاحت بوجهها بعيدًا، ورنت إلى ما وراء الفضاء الخاوي إلى حيث توجد البحيرة. لعلّها كانت توشك على الكلام، لعلّها كانت تريد أن تبدأ باعتراف طويل تجد فيه مشاعرها كما نطقت بها، وأخرجت نفسها من حالة الخدر باتّجاه شيء ما، يشبه كلاًّ من الرعب والفرح.

كما أنّ إشاحة وجهها بعيدًا قد لا تعني الابتعاد، بل تصرّف حميم، طريقة لتمالك نفسها، وتبدأ بالتحدّث عن مشاعرها أمام الشخص الوحيد الذي اعتقدت أنّ في إمكانها أن تثق به وهي على هذه المسافة البعيدة عن المنزل. لعلّها أخذت نفسًا وفتحت فمها، لكنّ المسألة ليست مهمّة، لأنّ بريوني كانت

توشك أن تقاطعها وتضيّع الفرصة. إذًا، مرّت الدقائق ـ ثلاثون؟ خمس وأربعون؟ ولم تستطع الفتاة الأصغر سنًّا الاحتمال أكثر من ذلك. الأشياء متّصلة. ذلك هو اكتشافها، قصّتها، القصّة التي كتبت نفسها بنفسها من حولها.

ـ كان ذلك روبي، أليس كذلك؟

المهووس، أرادت أن تنطق بهذه الكلمة.

لم تقل لولا شيئًا ولم تتحرّك.

تلفّظت بريوني بالاسم ثانية، ولكن بلا سؤال هذه المرّة، كانت عبارتها جملة تعبّر عن حقيقة.

ـ كان ذلك روبي.

على رغم أنّ لولا لم تلتفت، ولم تتحرّك قطّ، إلا أنَّ الواضح هو أنّ هناك تغييرًا بدأ يطرأ على لولا، دفء يشعّ من بشرتها وصوتها وهي تزدرد ريقها، تقلّص عضلات وهي تتنهّد في حنجرتها على نحو مسموع يشبه سلسلة من دقّات في العصب.

تلفّظت بريوني بالاسم مرّة أخرى ببساطة.

ـ روبي.

تناهى إلى سمعها صوت سمكة تقفز في الجهة البعيدة من البحيرة، صوت وحيد لا يُخطئ، لأنّ الريح كانت هادئة تمامًا. لا يوجد ما يبعث على الرعب والهلع فوق قمم الأشجار، أو بين النباتات الآن. أخيرًا التفتت لولا نحوها وأصبحت في مواجهتها.

قالت:

ـ لقد رأيته أنتِ.

تأوّهت بريوني:

ـ كيف يمكنه، كيف يتجرّأ؟

وضعت لولا يدها على ساعد بريوني العاري وتشبّثت به، كلماتها الرقيقة متباعدة.

ـ أنتِ شاهدته.

اقتربت بريوني وغطّت يد لولا بيدها.

ـ أنتِ حتى لا تعرفين ماذا جرى في المكتبة قبيل العشاء، بعد أن كنّا نتجاذب أطراف الحديث. لقد كان يعتدي على شقيقتي، ولا أدري ما الذي كان سيفعله لو لم أدخل المكتبة...

بصرف النظر عن مدى قرب إحداهما من الأخرى، فإنّه كان من الصعب قراءة الملامح، فوجه لولا، المدوّر الغارق في الظلمة، لم يظهر أيّ شيء، ولكن بريوني شعرت أنّ لولا لم تكن تصغي إلاّ قليلاً، الأمر الذي تأكّد لها عندما قاطعتها لتكرّر:

ـ لكنّك شاهدته، أنتِ شاهدته حقًّا.

ـ نعم شاهدته حقًّا، واضحًا وضوح النهار، لقد كان هو.

على الرّغم من دفء الليل بدأت لولا ترتجف، وتمنّت بريوني لو كان معها أيّ شيء تخلعه وتضعه من حول كتفيها.

قالت لولا:

ـ أتدرين! لقد جاء من خلفي وطرحني أرضًا... ثم... دفع رأسي إلى الخلف ووضع يده على عينيّ. الحقّ أنّني لم أتمكّن، ولم أستطع....

قالت بريوني:

ـ آه يا لولا.

ثم بسطت يدها لتلمس وجه ابنة خالتها، فعثرت على وجنتها، كانت

وجنتها جافّة، لكنّها لن تظلّ جافّة، إذْ كانت تعلم أنّها لن تظلّ جافّة زمنًا طويلاً، أردفت:

ـ أصغي إليَّ، لا يمكن أن أخطئ في شكله، فقد عرفته طوال حياتي، لقد رأيته.

ـ لا يمكنني أن أقول إنّني متأكّدة، أعني، اعتقدت أنّه قد يكون هو بعد أن سمعت صوته.

ـ ماذا قال؟

ـ لا شيء، أعني نغمة صوته، تنفّسه، ضوضاءه، لكنّني لم أتمكن من رؤيته. لا يمكنني أن أقول إنّني متأكّدة.

ـ حسنٌ، أنا يمكنني أن أقول وسوف أقول.

وهكذا اتّضح موقفا الفتاتين الشخصيّان، وهما الموقفان اللذان سيجدان لهما تعبيرًا علنيًا في الأسابيع والأشهر المقبلة، ومن ثم تتمّ متابعتهما كأنّهما شيطانان، متابعة خاصّة على مدى السنوات الآتية. اتّضحا في تلك اللحظات، وباتا راسخين قرب البحيرة مع ازدياد يقين بريوني كلّما بدا على ابنة خالتها أنّها ترتاب في نفسها. ولم يُطلب من لولا، بعد ذلك، الشيء الكثير، لأنّها كانت تستطيع أن تتوارى من خلف ستار من التشوّش الجريح وتترك نفسها مثل مريض عزيز، ضحيّة تستردّ عافيتها، طفلة ضائعة تنغمر في مشاغل البالغين وذنبهم في حياتها. كيف أمكننا أن نسمح بحدوث هذا لطفلة؟ إنّ بريوني لم تستطع، ولم تضطرّ إلى مساعدتهم. منحتها بريوني فرصة، فانتهزتها غريزيًّا، والأقلّ من هذا ـ جعلتها ملكها، ولم يعد أمامها ما تفعله أكثر من التزام الصمت من وراء حماس ابنة خالتها. لم تكن لولا مضطرّة إلى الكذب، أن تواجه بكلّ شجاعة وجرأة المعتدي عليها وتتّهمه، لأنّ كلّ ذلك العمل أنجزته لها، على نحو بريء، دون مواربة البنت الأصغر سنًّا منها. لم يكن مطلوبًا من لولا سوى عدم البوح بالحقيقة، بل إبعادها ونسيانها نسيانًا تامًّا وإقناع نفسها، لا بحكاية أخرى مناقضة لها، بل بعدم يقينها. لم تتمكّن

من رؤيته، إذْ كانت يده فوق عينيها، كانت في حالة من الهلع والرعب، ولم تتمكّن من القول إنّها متأكّدة منه.

كانت بريوني على مقربة منها لمساعدتها في كلّ مرحلة، وبقدر ما يتعلّق الأمر بها، فإنّ كلّ شيء مناسب: فالراهن الفظيع حقّق الماضي القريب، والأحداث التي شهدتها بنفسها تنبّأت بالمصيبة التي ألمّت بابنة خالتها. آه لو كانت بريوني أقلّ براءة، أقلّ غباء. والآن شهدت كلّ شيء، فالقضيّة مترابطة ترابطًا جيّدًا جدًّا، ومتّسقة اتّساقًا شديدًا، ولهذا لا يمكن أن تكون قضيّة أخرى، بل القضيّة التي قالت إنّها جرت هذا المجرى. لامت نفسها لافتراضها الطفولي بأنّ روبي سوف يصبّ جُلّ اهتمامه على سيسليا. ما الذي كانت تفكّر فيه؟ فهو مهووس، على كلّ حال، ومن شأن أيّ فرد أن يفكّر بمثل هذا التفكير. إنّه متّجه نحو أضعف ضحيّة ـ فتاة مغزليّة القوام، متعثّرة في الظلمة في مكان غريب، تفتّش بكلّ شجاعة من حول معبد الجزيرة عن أخويها. تمامًا مثلما كانت بريوني عازمة على أن تفتّش. وازداد غضب بريوني وهيجانها عندما فكّرت بأنّها هي نفسها ربّما كانت ستقع فريسة سهلة له. وإذا لم تكن ابنة خالتها قادرة على التحكّم في الحقيقة فإنّها سوف تتحكّم بها بالإنابة عنها. أنا يمكنني أن أقول، وسوف أقول.

في وقت مبكّر من الأسبوع الذي أعقب ذلك، لم يكن سطح الإدانة والتجريم الباهت ليخلو من تصدّعاته الرقيقة وعيوبه. وكلّما فكّرت فيها من وقت لآخر وجدت نفسها مدفوعة إلى الوراء، وشعور قوي يراودها لإدراك أنّ ما عرفته لم يكن مستندًا إلى ما هو مرئي تمامًا، فليست عيناها هما اللتين أخبرتاها بالحقيقة، لأنّ الظلمة كانت حالكة تحول دون ذلك. كما أنّ وجه لولا كان شكلاً بيضويًّا، خاويًا، وكان هذا الشخص على بعد عدّة أقدام، موليًا إيّاها ظهره عندما تحرّك وتراجع صوب فسحة الأرض. لكن لم يكن هذا الشخص خفيًّا، كما أنّ حجمه وطريقة تحرّكه مألوفان عندها. وقد أكّدت عيناها خلاصة كلّ ما عرفته ومرّت به من تجارب مؤخّرًا. الحقيقة ماثلة في

النسق الذي يُفيد بأنّها تستند إلى الفطرة. الحقيقة هي التي أرشدت عينيها. لهذا فعندما كرّرت مرّات ومرّات أنّها شاهدته، فإنّها كانت جادّة في قولها، وكانت صادقة، فضلاً عن أنّها غاضبة. الذي عنته بكلامها كان أشدّ تعقيدًا ممّا فهمه أيّ شخص آخر. وحانت لحظات قلقها عندما شعرت أنّها عاجزة عن التعبير عن هذه الظلال الرقيقة في المعنى، بل لم تحاول التعبير عن جدّ. لم تكن أمامها الفرص، ولا الوقت، ولا الإذن. وفي غضون يومين اثنين، لا، في غضون ساعات، كانت العمليّة تسير بسرعة فائقة وخارج حدود سيطرتها، واستحضرت كلماتها قوًى رهيبة من البلدة المألوفة ذات المناظر الرائعة. بدا كأنّ هذه السلطات الرهيبة، هؤلاء العملاء من أصحاب الزيّ الموحّد، كانوا يكمنون من وراء واجهات المباني الجميلة، منتظرين كارثة يعلمون أنّها ستحدث مؤكّدًا.

كانوا يعرفون عقولهم، وما يريدون، وكيف السبيل إلى المضيّ قدمًا. طُرح عليها السؤال مرارًا وتكرارًا، وهي تردّد في نفسها بأنّ عبء الاتّساق كان يضغط عليها. ولا بدّ من أن تقول ثانية ما سبق لها قوله. وكانت الانحرافات البسيطة سببًا في تقطيبات صغيرة بانت على حاجبيها الحكيمين، أو درجة من الانجماد وغياب العاطفة. كانت توّاقة لبثّ السرور، وعلمت، على وجه السرعة، أنّ الصفات الثانويّة التي يمكنها أن تصنّفها ربّما ستؤدّي إلى انفصام عرى العمليّة التي أطلقتها بنفسها متسلسلة.

كانت أشبه بعروس تبدأ بالشعور بهواجس تثير الغثيان مع اقتراب يوم الزفاف، ولا تملك الجرأة على التفوّه بما يخامرها من أفكار، لأنّ عديد الاستعدادات جرت بالإنابة عنها، فسعادة عدد كبير من الناس الطيّبين وراحتهم ستكونان محفوفتين بالخطر. هذه لحظات قلق خاصّة، وعابرة، لا يمكن طردها إلاّ بالسماح لنفسها في أن تستغرق بفرح أولئك الذين يحيطون بها وبهجتهم. لم ترغب بريوني في أن تُلغي كلّ الترتيبات ولم تفكّر في أنّها تملك الشجاعة بعد كلّ يقينها الأوّلي، وبعد مضي يومين، أو ثلاثة أيّام من مقابلات

رقيقة طويلة الأناة لسحب شهادتها، لكنّها برغم ذلك كانت تفضّل لو عدَّلت، أو عقَّدت، من استخدامها لكلمة «شاهدت». القضيّة هي قضيّة معرفة أكثر ممّا هي قضيّة مشاهدة، وكان في وسعها بعدئذٍ أن تترك الأمور للمحقّقين كي يقرّروا إنْ كانوا سيواصلون معًا باسم هذا النمط من الرؤية. كانوا هادئين كلّما ارتعشت، وسعوا إلى تذكيرها ببياناتها الأوّليّة، كان سلوكهم يبيّن أنّهم يتساءلون إنْ كانت فتاة ساذجة، ومن الذي هدر وقت الآخر. ونظروا نظرة صارمة إلى ما هو بصري. واضح أنّ هناك ضوءًا ينبعث عن النجوم، وعن منطلق السحب التي تعكس أضواء الشارع من أقرب بلدة. إمّا أن تكون قد شاهدت أو لم تشاهد. ما من خيار ثالث. لم يقيموا وزنًا لذلك، ولكن خشونتهم كانت تشي بذلك. في تلك اللحظات، التي شعرت فيها ببرودهم، أنعشت حماسها الأوّلي وردّدت العبارة ثانية، لقد شاهدته، أعرف أنّه كان هو. ثم اطمأنّت عندما شعرت أنّها كانت تؤكّد ما كانوا يعرفون.

لن يكون في وسعها طمأنة نفسها بأنّها تعرّضت للضغط أو الإرهاب. لا، لم يحدث هذا قطّ. لقد أوقعت نفسها في الفخّ، وسارت نحو متاهة من صنع يديها، وكانت صغيرة السنّ، فزعة، توّاقة لإدخال البهجة، مصرّة على الرجوع. لم تكن تملك، ولم تكن كبيرة بما يكفي كي تملك مثل هذه الاستقلاليّة في الروح. لقد فرض حشد من الناس نفسه من حول حقائقها الأولى، وهم الآن ينتظرونها، ولا يمكنها أن تخيّب أملهم عند المذبح. لا يمكن لشكوكها أن تكون غير منحازة إلاّ بالتوغّل فيها أكثر فأكثر، وكانت قادرة على أن تبعد عن ذهنها الضرر الذي لم تشعر إلاّ شعورًا واهيًا بأنّها أحدثته، إلاّ بالتشبّث بقوّة بما آمنت أنّها كانت تعلمه، وبتركيز أفكارها، وترديد شهادتها. وعندما أُغلقت القضيّة، بعد إصدار الحكم وانصراف الجمع الحاشد، كان نسيانها القاسي وهي شابّة، والإلغاء بملء إرادتها هو الذي حماها في مراهقتها.

* * *

ـ أنا يمكنني أن أقول وسوف أقول.

جلستا صامتتين برهة وجيزة، وبدأ ارتعاش لولا يخمد، واعتقدت بريوني أنّها يجب أن ترافق ابنة خالتها إلى البيت، إلاّ أنّها تردّدت في وضع نهاية لهذا الموقف الحميمي في هذه اللحظة ـ فقد كانت بريوني تطوّق كتفي الفتاة الأكبر سنًّا منها، وبدت مستسلمة للمسة بريوني. شاهدت الفتاتان على الجانب البعيد من البحيرة ضوءًا يتراقص ـ مشعلاً محمولاً على امتداد الطريق الفرعي ـ لكنّهما لم تقولا شيئًا بخصوصه. ولمّا تكلّمت لولا أخيرًا كانت نبرتها تأمّليّة، كأنّها تفكّر في اتّجاهات مضادّة في النقاش.

ـ لكنّ هذا لا معنى له، فهو صديق مقرّب إلى أسرتك، ربّما لم يكن هو.

تمتمت بريوني:

ـ لو كنت وإيّاي في المكتبة لما قلت هذا الكلام.

تنهّدت لولا، وهزّت رأسها ببطء كأنّها تحاول أن تنسجم والحقيقة التي يتعذّر قبولها.

ران عليهما الصمت من جديد، وربّما بقيتا جالستين مدّة أطول لولا رطوبة ـ لم تتحوّل بعد إلى قطرات ندى ـ بدأت تستقرّ على العشب، فيما أصبحت السماء صافية والحرارة منخفضة.

همست بريوني في أذن ابنة خالتها:

ـ أتظنّين أنّك قادرة على السير؟

أومأت لولا برأسها بشجاعة، فساعدتها بريوني على النهوض والوقوف على قدميها متشابكتي الأذرع في بداية المطاف، ولكنّ لولا استندت بكامل ثقلها إلى كتف بريوني وشقّت الاثنتان طريقهما من فوق فسحة الأرض واتّجهتا ناحية الجسر. وصلتا أسفل المنحدر، وفي هذا المكان أجهشت لولا أخيرًا بالبكاء.

بذلت محاولات متعدّدة كي تقول:

ـ لا يمكنني الصعود إلى أعلى، فأنا غاية في الضعف.

فقرّرت بريوني أنّ الأفضل هو أن تركض نحو البيت لإحضار من يساعدها في مهمّتها، وكانت توشك أن توضح هذا الشيء للولا وتجلسها على الأرض عندما سمعت البنتان أصواتًا قادمة من الطريق الكائن من فوقهما، ومن ثم سُلّطت أضواء المشاعل على عيونهما. فكّرت بريوني أنّ معجزة حدثت عندما سمعت صوت شقيقها. كان أشبه ببطل حقيقي عندما هبط إلى أسفل الضفّة بخطوات واسعة، وطوّق لولا بذراعيه دون أن يسأل عمّا جرى لها، حملها بين ذراعيه كأنّها طفلة صغيرة.

كانت سيسليا تنادي من فوق بصوت مبحوح من شدّة قلقها، ولكن لم يردّ عليها أحد. كان ليون قد بدأ يشقّ طريقه صاعدًا إلى أعلى المنحدر على نحو جعل الآخرين يجدون مشقّة في مجاراته، ولكن حتى قبل بلوغهم الطريق الفرعي، وقبل أن يضعها على الأرض، كانت بريوني قد بدأت تقصّ عليه ما حدث على النحو الذي رأته تمامًا.

* * *

الفصل الرابع عشر

لم يكن شأن ذكرياتها عن التحقيق وتوقيع البيانات والشهادات، أو عن الهلع الذي استبدّ بها خارج قاعة المحكمة، التي استبعدت من دخولها بسبب صغر سنّها، أن تزعجها في السنوات المقبلة قدر ما ستزعجها ذكرياتها المتشظّية عن ذلك الوقت المتأخّر من تلك الليلة، وذلك الفجر من ذلك الصيف. كم يهذّب الذنب وسائل تعذيب الذات، ويجمع خرزات التفاصيل بخيط يشكّل أنشوطة أبديّة، مسبحة للتسبيح طوال الحياة.

بعد العودة أخيرًا إلى البيت، بدأ وقت أشبه بالحلم، وقت الوصول المهيب والدموع والأصوات الخفيضة، ووقع خطوات الأقدام المسرعة وهي تجتاز مدخل الردهة وهيجانها الجدير بالازدراء الذي أبعد عنها النعاس.

نعم، كانت بريوني قد بلغت من العمر حدًّا يجعلها قادرة على أن تعرف أنّ اللحظة هي لحظة لولا، لكنّها سرعان ما اقتيدت بعيدًا بأيدٍ نسائيّة رقيقة إلى غرفة نومها لتنتظر الطبيب ومعاينته لها. راقبت بريوني المشهد من مكانها أسفل السلالم، بينما كانت لولا تصعد إلى الطابق الأعلى وهي تجهش بالبكاء بصوتٍ عالٍ، تحيط بها كلٌّ من إميلي وبيتي، ومن ورائهنّ بولي حاملة وعاء ماء ومناشف. ابتعاد ابنة الخالة ترك بريوني قبلة الأنظار ـ وإن لم تكن هناك أيّة إشارة تدلّ على وجود روبي ـ وكان الأسلوب الذي يستمتع به الآخرون

إليها، وهو أسلوب كان مؤجّلاً ولكن بات معجّلاً به إلى حدٍّ ما، قد بدا مناسبًا تمامًا لنضوجها الجديد.

لا بدّ أنّ سيّارة من طراز هامبر توقّفت في تلك الآونة خارج باب المنزل، وترجّل منها ضابطان من الشرطة وشرطيّان ودخلوا المنزل. كانت بريوني مصدرهم الوحيد، وبذلت جهدها كي تتكلم بهدوء، دورها الحيوي يغذّي يقينها. حدث هذا في الوقت غير النظامي قبل بدء المقابلات الرسميّة عندما كانت واقفة قبالة الضابطين في مدخل الردهة، وكان ليون يقف من جانب، ووالدتها من جانبها الآخر. لكن كيف ظهرت أمّها بهذه السرعة بعد أن كانت قرب سرير لولا؟ كان للضابط الأقدم وجه جادٌّ ورصين، صارخ بالتجاعيد، كأنّه قُدَّ من حجر الصوّان. دبَّ الخوف في عروق بريوني منه عندما بدأت تسرد قصّتها لهذا القناع الجامد اليقظ، وفيما كانت تتكلّم، شعرت بثقل ينزاح من فوقها ليحلّ محلّه شعور باستسلام دافئ انتشر من معدتها إلى أطرافها. إنّه شعور يشبه الحبّ، الحبّ المفاجئ لهذا الرجل الحذر الذي وقف دون أن يوجّه سؤالاً واحدًا من أجل قضيّة خير، الذي يخرج في كلّ الأوقات ليخوض معارك باسم الخير، والذي تسانده كلّ قوى البشر وحكمتهم. وتهدّج صوتها من تحت نظرته الثاقبة، كانت تريد من الضابط أن يطوّقها بذراعيه، ويطمئنها، ويغفر لها حتى وإن لم تكن مذنبة، لكنّه اكتفى بمواصلة النظر والاستماع إليها.

إنّه هو، لقد شاهدته، وكانت دموعها دليلاً آخر على الحقيقة التي شعرت بها وتكلّمت عنها. وعندما حضنتها والدتها من مؤخّر عنقها، انهارت تمامًا، فأخذوها إلى غرفة الاستقبال.

لكن لو كانت هناك وأمّها تواسيها، جالسة على مقعد من طراز تشسترفيلد، فكيف يتسنّى لها أن تتذكّر وصول الطبيب ماك لارين، بصدرته السوداء وقبّة قميصه المنتصبة إلى أعلى، العتيقة الطراز، حاملاً حقيبة علامة غلادستون، شهدت الولادات الثلاث، وكلّ أمراض الطفولة في أسرة تاليس.

تحدّث ليون إلى الطبيب، ومال نحوه ليهمس في أذنه خلاصة ما حدث من وجهة نظر رجل. أين خفّة ليون ومرحه الآن؟ لقد كانت تلك المشاورات نموذجًا للساعات المقبلة، فكلّ قادم جديد أُحيط علمًا على هذا النحو: الناس، الشرطة، الطبيب، أفراد الأسرة، الخدم ـ كلّهم وقفوا في مجموعات تلتئم وتلتمّ في أركان الغرف والمدخل والشرفة خارج الأبواب الزجاجيّة. لم يتمّ التوصّل إلى شيء، ولم يعلن عن أيّ شيء أيضًا، كلّ واحد يعلم بالحقائق الرهيبة لحادثة الانتهاك، لكنّها ظلّت سرًّا شخصيًّا عند كلّ فرد، يتحدّثون عنها همسًا وهم يقفون في جماعات سرعان ما ينفرط عقدها لتبدأ مهامّ جديدة. بل كانت القضيّة الأكثر أهمِّيّة هي قضيّة الطفلين المفقودين، لكنّ الرأي العامّ الذي قيل مرارًا وتكرارًا كأنّه تعويذة سحريّة هو أنّهما ينامان قريري العين الآن في رحبة الأرض الواسعة. وهكذا ظلّ الاهتمام كلّه تقريبًا على محنة البنت في الطابق العلوي.

جاء پول مارشال بعد أن شارك في البحث عن التوأمين، وعلم بالأخبار من الضابطين. سار على الشرفة جيئةً وذهابًا رفقتهما، كلّ ضابط من جانب، وقدّم لهما سكائر من علبة ذهبيّة. وعندما انتهى حديثهم ربَّت على كتف الضابط الأقدم وبدا كأنّه يودّعهما، ودخل ليتحدّث إلى إميلي تاليس. أرشد ليون الطبيب إلى الطابق العلوي، ولكنّ الطبيب هبط ثانية إلى الطابق الأرضي بعد مدّة وجيزة، وقد ازدادت أهمِّيّته بفعل مواجهته المهنيّة للقضيّة التي شغلت بالهم جميعًا، ووقف بدوره في مؤتمر مطوّل برفقة شرطيّي التحرّي، وبعد ذلك وقف مع ليون، وأخيرًا مع ليون والسيّدة تاليس. وقبل أن ينصرف الطبيب جاء ووضع يده الصغيرة، الجافّة والمألوفة، على جبين بريوني وجسَّ نبضها، واطمأنّ، ثم حمل حقيبته، ولكن قبل أن يرحل ساد لغط أخير بالقرب من الباب الرئيس.

أين سيسليا؟ كانت تتسكّع في التخوم الخارجيّة، لا تكلّم أحدًا، دائمة التدخين، ترفع السيكارة إلى شفتيها بحركة سريعة، نهمة، لتجذبها بعيدًا

مشمئزّة منزعجة، وفي أوقات أخرى كانت تدعك منديلاً بيدها وهي تذرع مدخل الردهة. لقد كانت تمتلك زمام السيطرة عادة في مثل هذه الحالة، فتوجّه بالاعتناء بلولا، وتطمئن والدتها، وتصغي لنصيحة الطبيب، وتستشير ليون. كانت بريوني على مقربة عندما جاء ليون ليكلّم سيسليا التي ابتعدت عنه لا تقوى على تقديم المساعدة، أو حتى الكلام. أمّا بخصوص والدتهما فقد ارتفعت إلى مستوى الأزمة على نحو غير معتاد، وفارقها داء الشقيقة والرغبة في أن تُترك وشأنها. الحقّ أنّها كبرت، في حين انكمشت ابنتها الكبرى من بؤس وتعاسة خاصّين بها. ثمّة أوقات كان يطلب فيها من بريوني ثانية سرد حكايتها، وإلقاء الضوء على بعض التفاصيل، فتجد شقيقتها تقترب على مسمع منها وتنظر إليها نظرة متفرّسة تجيش بالغضب، فتزداد بريوني توتّرًا منها، وتبقى إلى جنب أمّها. كانت عينا سيسليا محتقنتين، وفي حين كان الآخرون يتبادلون الأحاديث همسًا فيما بينهم، كانت هي قلقة، تذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، أو تنتقل من غرفة إلى أخرى، وهذا ما حدث في مناسبتين في الأقلّ، تخرج من المنزل وتقف أمام الباب الرئيس، وكانت تحوّل المنديل من يد إلى أخرى بعصبيّة، تجعّده بيد واحدة بين أصابعها، ثم تحرّره، تضغط عليه حتى يغدو مثل كرة، وتحوّله إلى اليد الثانية، وتشعل سيكارة أخرى، وعندما أحضرت بيتي وبولي الشاي لم تشربه سيسليا.

جاءت أخبار مطمئنة تُفيد بأنّ لولا خلدت إلى النوم أخيرًا بمساعدة الطبيب، فكان ذلك مبعث ارتياح موقّت. اجتمع أفراد الأسرة على نحو غير مألوف في غرفة الاستقبال لاحتساء الشاي وسط صمت مطبق. لم يقل أحد شيئًا، ولكنّ الجميع كانوا في انتظار روبي، وكانوا يتوقّعون وصول السيّد تاليس قادمًا من لندن في أيّة لحظة. كان ليون ومارشال ينحنيان من فوق خارطة يرسمانها ويشيران بها إلى المنطقة المحيطة بالمنزل، كي يستفيد منها الضابط الذي أمسك بها، في نهاية المطاف، وتفحّصها بعناية ثم ناولها إلى مساعده. أمّا الشرطيّان فقد أُرسلا للانضمام إلى فريق البحث عن بياروت

وجاكسون، وساد الاعتقاد بأنّ أعدادًا أخرى من رجال الشرطة في طريقهم إلى البيت الريفي الصغير الذي قد يكون روبي لجأ إليه. جلست سيسليا، شأنها شأن مارشال، على كرسيّ بعيد قليلاً، ولكنّها نهضت ليشعل لها أخوها سيكارتها، ولكنّ ضابط الشرطة هو الذي أشعل لها السيكارة بقدّاحته. أمّا بريوني فكانت تجلس على الأريكة بجوار والدتها، فيما انهمكت بيتي وبولي بتوزيع الشاي. لا تريد بريوني أن تتذكّر السبب الذي دفعها فجأة إلى كلّ ما يحدث الآن. لقد استبدّت بها فكرة لا تعرف أصلها، ولكنّها فكرة واضحة ومقنعة، ولم تكن مضطرّة إلى الإفصاح عن نواياها، أو طلب الإذن من شقيقتها. برهان مفحم، مستقلّ عن روايتها. التحقّق، أو جريمة أخرى منفصلة أثارت فزع الحاضرين في الغرفة بشهقة إلهام، وكادت أن تسكب الشاي في حضن والدتها عندما نهضت واقفة على قدميها.

راقبها الجميع وهي تخرج مسرعة من الغرفة، لكن لم يسألها أحد عن إيضاح. كانوا في حالة إعياء من جهة أخرى. ارتقت السلالم درجتين في كلّ مرّة، بعد أن دبَّ النشاط في أوصالها بفعل الإحساس بعمل الخير، وبأن تكون طيّبة، وهي توشك أن تعلن عن مفاجأة يمكن أن تنال المديح عنها. كان ذلك أشبه بصباح يوم عيد الميلاد عندما راودها إحساس بأن تقدّم هديّة من شأنها أن تشيع البهجة والفرحة ومشاعر السرور بحبّ الذات الذي لا غبار عليه.

ركضت مسرعة على امتداد ممرّ الطابق الثاني باتّجاه غرفة سيسليا. أيّة فوضى وقذارة هذه التي تعيش فيها أختها! كان بابا خزانة ثيابها مفتوحين على مصراعيهما. بعض ثيابها مائل عن صفّ بقيّة الثياب، في حين تهدّل البعض الآخر من أحد طرفي حمّالة الملابس. ثوبان على الأرض أحدهما أسود اللون والثاني وردي، وأشياء حريريّة باهظة الثمن، كما يبدو، مرميّة كأنّها كتلة متشابكة بعضها ببعض، ومن حولها حذاء خُلع من القدمين برفسة وإهمال. تقدّمت بريوني وعبرت فوق هذه الكومة من الأغراض، ومن حول الفوضى

تريد الوصول إلى منضدة الزينة. ما الدافع الذي حدا بسيسليا إلى عدم إعادة الأغطية فوق أدوات التجميل وزجاجات العطور؟ لماذا لم تفرغ منفضة سكائرها النتنة الرائحة؟ لماذا لم ترتّب سريرها، أو تفتح نافذتها لتسمح بدخول الهواء النقي؟ جذبت أوّل درج، لكنّها لم تتمكّن من فتحه إلاّ مسافة بوصتين ـ كان مملوءًا بالزجاجات وبالعلب الورقيّة. قد تكون سيسليا أكبر سنًّا بعشر سنوات، لكن يبدو أنّ هناك شيئًا ميؤوسًا منه، بلا أمل، يُحيط بها. وعلى الرّغم من أنّ بريوني كانت فزعة من نظرة الغضب والاستياء التي رمقتها بها أختها في الطابق الأرضي، إلاّ أنّها كانت نظرة صائبة. وفكّرت الأخت الأصغر سنًّا، وهي تفتح الدرج الآخر، أنّها أتت لتكون عونًا لأختها، وأنّها تفكّر بالإنابة عنها.

وبعد مرور خمس دقائق، عادت فدخلت غرفة الاستقبال ثانية منتصرة، لكن لم يولها أحد انتباهه، وكانت الأمور كلّها متشابهة ـ بالغون مرهقون وبائسون يرتشفون الشاي صامتين. وفي غمرة اهتياجها وانفعالها لم تفكّر في الشخص الذي ينبغي لها أن تسلّمه الرسالة. وفي نوبة من نوبات تخيّلها أرادت أن يقرأ الحاضرون كلّهم الرسالة على الفور. وقرّرت أنّ ليون ينبغي له أن يتسلّمها، فاجتازت الغرفة، ومضت ناحية شقيقها، ولكن عندما وصلت إلى الرجال الثلاثة غيّرت رأيها، ودسّت الورقة المطويّة في يدي ضابط الشرطة صاحب الوجه الصوّاني الجامد الذي لم تتغيّر ملامحه عندما تسلّم الرسالة، ولا عندما قرأها قراءة سريعة جدًّا بنظرة واحدة تقريبًا. التقت نظراته بنظراتها، ثم تحوّلتا إلى سيسليا التي كانت تشيح بوجهها جانبًا. وبحركة صغيرة جدًّا من رسغه أشار إلى أنّ على الشرطي الآخر أن يأخذ الرسالة، وعندما فرغ منها مرّرها إلى ليون الذي قرأها وطواها وأعادها إلى الضابط الأقدم. استبدّت الدهشة ببريوني لدى مشاهدتها هذا كلّه الذي حدث أمامها بصمت تامّ، هذا هو عالم الرجال الثلاثة، وفي هذه اللحظة أدركت إميلي تاليس الشيء الذي كان محور اهتمامهم.

قال ليون مجيبًا عن استفسارها غير اللافت للنظر:

ـ إنّها رسالة لا غير.

ـ سأقرأها.

اضطرّت إميلي للمرّة الثانية، في ذلك المساء، إلى توكيد حقوقها بشأن الرسائل المكتوبة المتبادلة في أروقة بيتها. ولمّا شعرت بريوني أنّ وجودها لا ضرورة له في هذا المكان، ذهبت لتجلس على أريكة من طراز تشسترفيلد، وراقبت من منظور والدتها عدم الارتياح الذي تنقَّل بين ليون والشرطي.

ـ سأقرأها.

الواضح أنّها لم تغيّر من نبرة صوتها. هزَّ ليون كتفه، وأرغم نفسه على أن يبتسم ابتسامة اعتذار ـ أيّ اعتراض يمكنه أن يحصل عليه؟ ـ واستقرّت نظرة إميلي الثابتة على الضابطين، إنّها تنتمي إلى جيل يعامل رجال الشرطة وكأنّهم وضيعون، بغضّ النظر عن رتبهم. امتثل الضابط الأصغر سنًّا لإيماءة الضابط الأقدم، واجتاز الغرفة، وسلّمها الرسالة، أخيرًا تنبّهت سيسليا بعد أن كانت قد حلّقت بعيدًا بأفكارها، ثم بقيت الرسالة في حضن والدتها، فنهضت سيسليا واقفة على قدميها وتحرّكت باتّجاههم.

ـ كيف تتجرّئين؟ كيف تتجرّؤون كلّكم؟

نهض ليون على قدميه، وأشار براحة يده مهدّئًا.

ـ يا سي...

وثبت سيسليا في هذه اللحظة لتخطف الرسالة، لكنّها وجدت شقيقها والشرطيّين في طريقها، وكان مارشال واقفًا أيضًا، ولكنّه لم يتدخّل.

هتفت بصوتٍ عالٍ:

ـ إنّها ملكي، ليس لأحد الحقّ فيها.

لم ترفع إميلي بصرها من فوق الرسالة التي كانت منهمكة في قراءتها،

ومنحت نفسها الوقت الكافي لقراءتها مرّات ومرّات. ولمّا فرغت واجهت ثورة ابنتها وهيجانها بكلّ برود.

ـ لو كنت فعلت الشيء الصواب، أيّتها السيّدة الشابّة، بكلّ ما حظيت به من تعليم، وجئت إليّ بهذه الرسالة، لكان في وسعنا أن نتصرّف في الوقت المناسب، ولكنّا وفّرنا على ابنة خالتك كلّ هذا الكابوس.

مكثت سيسليا واقفة للحظة وحدها في وسط الغرفة، تحرّك أصابع يدها اليمنى بعصبيّة، وتنظر إليها الواحدة تلو الأخرى، عاجزة عن تصديق ارتباطها بمثل هؤلاء الناس، عاجزة عن رواية ما تعرفه. على الرّغم من أنّ بريوني شعرت أنّ ساحتها بُرّئت بردود أفعال البالغين، وأنّها تعيش الآن بداية نشوة داخليّة عارمة، فإنّها كانت مسرورة أيضًا لجلوسها مع والدتها على الأريكة يحجبها الرجال الواقفون عن رؤية احتقار عيني أختها المحتقنتين. ظلّت نظرات سيسليا ثابتة عليها بضع ثوان قبل أن تستدير وتخرج من الغرفة. وفيما هي تجتاز مدخل الردهة أطلقت صرخة غيظ زاد من شدّتها بلاط الغرفة العاري.

ساد شعور بالارتياح جميع أرجاء الغرفة، شعور أقرب إلى الاسترخاء، عندما سمع الجميع سيسليا ترتقي السلالم. عندما تذكّرت بريوني أن تلقي نظرة بعد هذا كلّه، كانت الرسالة في يدي مارشال، فأعادها بدوره إلى الضابط الذي وضعها بين دفّتي إضبارة كان الضابط الأصغر سنًّا يرفعها مفتوحة بين يديه.

استطالت ساعات الليل، ولكنّها ظلّت غير ضجرة، ولم يخطر ببال أحد أن يطلب منها أن تأوي إلى فراشها. وبعد أن مضى وقت طويل على انصراف سيسليا إلى غرفتها، ذهبت بريوني ووالدتها إلى المكتبة لتبدأ أوّل مقابلة رسميّة لها مع الشرطة. ظلّت السيّدة تاليس واقفة، في حين جلست بريوني على أحد جانبي منضدة الكتابة، وجلس الضابطان على الجانب الآخر. تبيّن أنّ الضابط الذي يشبه وجهه صخرة قديمة، والذي يوجّه الأسئلة،

رجل رقيق الجانب إلى أبعد الحدود، يطرح أسئلته البطيئة بصوت غليظ، أجشّ، ولكن برقّة وحزن أيضًا. ولمّا كانت قادرة على أن تطلعهم على المكان الذي اعتدى فيه روبي على سيسليا، فقد نهض الجميع واتّجهوا إلى ركن رفوف الكتب لإلقاء نظرة دقيقة. حشرت بريوني نفسها بينهم مولية ظهرها الكتب لتوضح لهم كيف كان وضع شقيقتها، وشاهدت من موقعها تباشير الفجر الزرق من خلال ألواح نوافذ المكتبة الزجاجيّة العالية. خطت إلى الوراء، واستدارت موضحةً موقف المعتدي والمكان الذي كانت تقف فيه.

قالت إميلي:

ـ ولكن لماذا لم تخبريني؟

نظر الضابطان إلى بريوني وانتظرا. سؤال وجيه، ولكن لم يخطر ببالها قطّ أن تزعج والدتها، فلن ينجم عن ذلك سوى الصداع.

ـ نودي علينا لتناول العشاء وبعد ذلك هرب التوأمان.

ثم تحدّثت عن كيفيّة وقوع الرسالة بين يديها فوق الجسر وقت المغيب. ما الذي دفعها إلى فضّ الرسالة؟ يصعب وصف تلك اللحظة المتهوّرة عندما لم تسمح لنفسها بالتفكير في العواقب قبل البدء بتمثيل المسرحيّة، أو كيف أنّها بوصفها المؤلّفة المسرحيّة التي ليس أمامها سوى ذلك اليوم الذي باتت تحتاج إليه كي تعرف وتفهم كلّ ما صادفته في طريقها.

قالت:

ـ لا أدري، كنت فضوليّةً متدخّلةً في أمور لا تعنيني. لكم كرهت نفسي!

في هذا الوقت بالذات أدخل أحد الشرطيّين رأسه من وراء الباب لينقل خبرًا بدا منسجمًا ومصيبة تلك الليلة. فقد اتّصل سائق السيّد تاليس من هاتف عمومي قرب مطار كرويدون وأفاد بأنّ سيّارة الوزارة التي خصّصها له الوزير عن طيب خاطر، من غير إعطاء مهلة كافية لأخذ الحيطة والاستعداد، قد

تعطّلت في الضواحي، وكان جاك تاليس نائمًا تحت دثار في المقعد الخلفي، وأنّه سيواصل رحلته، على الأرجح، مستقلاً القطار الصباحي الأوّل. وما إن استوعبت بريوني هذه الحقائق وتألّمت بسببها حتى أُعيدت إلى المشهد نفسه، إلى أحداث جزيرة البحيرة. كان ضابط التحرّي حذرًا في هذه المرحلة المبكرة، لا يريد أن يضغط على الفتاة الصغيرة بأسئلة استفهاميّة، وتمكّنت بدورها، في هذا الجوّ الذي نشأ على درجة بالغة من الحساسيّة، من بناء قصّتها وتشكيلها بكلماتها الخاصّة بها ووضع الحقائق الأساسيّة:

كان الضوء كافيًا لها كي تتعرّف على وجه مألوف، وعندما انكمش بعيدًا عنها ودار من حول فسحة الأرض، كانت حركاته وطول قامته مألوفين لها أيضًا.

ـ شاهدته إذًا.

ـ أعرف أنّه هو.

ـ لننس ما تعرفين، أنت تقولين إنّك شاهدته.

ـ نعم شاهدته.

ـ تمامًا مثلما تشاهدينني.

ـ نعم.

ـ شاهدته بأمّ عينيك.

ـ نعم، شاهدته. . شاهدته.

هكذا انتهت مقابلتها الرسميّة الأولى. وعندما جلست في غرفة الاستقبال، مرهقة أخيرًا وإن غير راغبة في أن تأوي إلى سريرها، بدأ استجواب والدتها، ثم ليون فپول مارشال. كما جيء بهاردمان العجوز وابنه داني لاستجوابهما، وسمعت بريوني من بيتي أنّ داني كان داخل المنزل طوال المساء برفقة والده الذي كان في وسعه أن يكفله. وحضر عدد من رجال

الشرطة إلى الباب الرئيس بعد مشاركتهم في البحث عن التوأمين وأُرشدوا إلى المطبخ. في ذلك الوقت المشوّش وغير الجدير بأن يتذكّره أحد، من ذلك الفجر المبكر، فكّرت بريوني أنّ سيسليا كانت ترفض مغادرة غرفتها، وأنّها ترفض الهبوط إلى الطابق الأرضي لاستجوابها. وفي الأيّام المقبلة لن يكون أمامها أيّ خيار. وعندما قدّمت روايتها للأحداث التي جرت في المكتبة ـ التي كانت أكثر إثارة للرعب من رواية بريوني، بصرف النظر عن طابع الرضا المتبادل الذي انطوى عليه ذلك اللقاء ـ فإنّها أكّدت الرأي العامّ الذي بات واضحًا: السيّد تيرنر رجل خطر. وأصغى الحاضرون صامتين أمام اقتراح سيسليا المتكرّر بضرورة استجوابهم داني هاردمان، وبات مفهومًا أنّ هذه الشابّة تريد التغطية على صديقها بإلقاء ظلال الشكّ على صبيّ بريء.

في وقت ما، وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحًا وبدأ الحديث عن إعداد وجبة الفطور، خاصّة للشرطيّين، إذْ لم يكن أحد جائعًا غيرهما، انتشر خبرٌ بسرعة البرق مفاده أنّ شخصًا، ربّما هو روبي، يقترب من جهة فسحة الأرض المحيطة بالمنزل، لعلّ أحدًا ما كان يراقب من نافذة في الطابق العلوي. لم تعرف بريوني كيف اتُّخذ قرار بضرورة خروج الجميع من المنزل لملاقاته، وفجأة أصبح الجميع خارج المنزل، الأسرة وبول مارشال وبيتي ومساعدوها والشرطة، واحتشدت مجموعة من المستقبلين متلاصقة من حول المدخل الرئيس، ولم تبق في الطابق العلوي سوى لولا، وكأنّها في حالة غيبوبة من أثر مخدّر، وسيسليا وهي في حالة غليان. ربّما لم تكن السيّدة تاليس راغبة في أن يدخل هذا الدنس منزلها، وربّما خشي الضابط من حدوث مواجهة عنيفة، وعندئذٍ يمكن السيطرة عليها ومعالجتها خارج المنزل بسهولة أكبر، والمكان يتّسع للاعتقال. تلاشى الآن كلّ سحر الفجر، وحلّت محلّه تباشير الصباح الرماديّة الواضحة من خلال ضباب الصيف الذي سرعان ما سيختفي.

في البدء لم يشاهدوا أيّ شيء، على الرّغم من أنّ بريوني كان في

وسعها أن تتبيّن وقع الحذاء على امتداد الطريق الفرعي.

ثم أصبح في وسع الآخرين سماع الصوت أيضًا، وسرت همهمة عامّة جماعيّة، وتحوّل في الثقل عندما رأوا شخصًا يصعب تحديد ملامحه، إذْ لم يكن أكثر من لطخة رماديّة اللون وسط البياض على بعد مائة ياردة تقريبًا. وعندما بدأ شكل الشخص يتّضح، التزم الحاضرون الصمت، إذْ لم يصدّق أحد منهم ما تراه عيناه، المؤكّد أنّ ما يرونه خدعة بصريّة سببها الضباب والضوء. ولم يستطع أحد في عصر الهاتف والسيّارات أن يصدّق بوجود عمالقة يبلغ طولها سبعة أقدام أو ثمانية في منطقة ساري المحتشدة بالسكّان. لكن ها هو، شبح وحشي قدر ما هو وطيد العزم، شيء مستحيل، ولكن يتعذّر إنكاره، يتّجه ناحيتهم. رسمت بيتي شارة الصليب على صدرها، فيما احتشد الجمع الصغير بالقرب من المدخل، ولم يتحرّك سوى الضابط الأقدم الذي خطا خطوتين إلى أمام. وعندئذٍ بات كلّ شيء واضحًا، ثمّة شيء صغير آخر يثب على طول طريق الشكل الأوّل. أخيرًا اتّضح أنّ هذا ليس سوى روبي وقد وضع أحد الصبيّين على كتفه والآخر يمسك بيده ويسير إلى جانبه. توقّف روبي عندما أصبح على مسافة ثلاثين قدمًا، وبدا كأنّه يريد أن يتكلّم، لكنّه آثر الانتظار عندما شاهد الضابط وغيره من رجال الشرطة يتقدّمون ناحيته. بدا الصبيّ نائمًا من فوق كتفه، أمّا الصبيّ الآخر فقد ترك يده مسترخية عند خصر روبي، وجذب يد الرجل من فوق صدره يلتمس الحماية أو الدفء.

كان شعور بريوني، بداية الأمر، الارتياح عندما شاهدت الصبيّين بأمان، ولكن عندما نظرت إلى روبي، الذي كان يقف منتظرًا وهادئًا، انتابتها نوبة من الغضب. أتراه يستطيع أن يخفي جريمته من وراء حنانه الظاهر، ومن وراء إظهار نفسه على أنّه الراعي الطيّب؟ المؤكّد أنّ هذه محاولة ساخرة لكسب الغفران بسبب ارتكابه عملاً لا سبيل إلى غفرانه.

وازدادت يقينًا بأنّ الشرّ معقّد ومضلّل. وفجأة ضغطت أمّها بكلتا يديها على كتفيها وجعلتها تستدير نحو البيت وتسلّمها لبيتي كي تعتني بها. أرادت

إميلي من ابنتها أن تكون بعيدة عن روبي تيرنر. أخيرًا حان وقت النوم. أمسكت بيتي بيدها وقادتها داخل البيت، فيما تقدّمت والدتها وشقيقها إلى أمام لتسلّم التوأمين. كانت آخر نظرة من عيني بريوني من فوق منكبها وهي منقادة نحو البيت قد كشفت لها عن روبي وهو يرفع كلتا يديه عاليًا كأنّه يستسلم، لكنّه رفع الصبيّ من فوق رأسه ووضعه على الأرض برفق.

بعد مضي ساعة من الوقت كانت مضطجعة على سريرها، مرتدية ثوب النوم القطني الأبيض الناصع الذي هيّأته لها بيتي. كانت الستائر مسدلة، ولكنّ ألق ضوء النهار من حول حافّاتها كان قويًّا، ومع هذا فلم تستطع النوم برغم كلّ الإحساس بالتعب الذي أحاط بها، فقد كانت الأصوات والصور تتردّد من حولها، غاضبة، وجودها يُثير من انزعاجها، تتدافع وتظهر للعيان مقاومةً كلّ محاولاتها لتنظيمها. أتراها كلّها من نتاج يوم واحد، فترة زمنيّة واحدة من يقظةٍ متّصلة بدأت من التمرينات البريئة على مسرحيّتها وانتهت بظهور الغول من وسط الضباب! ما حدث بين هاتين الفترتين من النهار كان مدوّيًا أكثر ممّا ينبغي، عصيًّا على الفهم، وإنْ شعرت بأنّها نجحت، بل انتصرت. دفعت ملاءة الفراش برفسة من ساقيها، وقلبت الوسادة لتجد بقعة أكثر برودة تضع عليها خدّيها، ولكنّها لم تقدر، وهي في حالة الذهول، من الإفصاح عن طبيعة نجاحها. فإذا كانت قد اكتسبت نضوجًا جديدًا فإنّها قلّما تشعر به في الوقت الراهن بعد أن أضحت يائسة، بل وطفوليّة أيضًا، من خلال افتقارها إلى النوم، حتى إنّها فكّرت أنَّ في مستطاعها أن تذرف الدموع وتبكي بكلّ يسر وسهولة. وإذا كانت شجاعة في التعرّف على شخص شرّير تمامًا فإنّه أخطأ بظهوره على هذا النحو برفقة التوأمين، وشعرت أنّها ضحيّة خداع. من ذا الذي سيصدّقها الآن، وها هو روبي يقف بوصفه منقذ الطفلين الضائعين الحنون؟ كلّ ما فعلته بلا فائدة ـ عملها، كلّ شجاعتها، كلّ صفاء ذهنها، وكلّ ما بذلته من أجل إحضار لولا إلى المنزل. سوف يولونها ظهورهم الآن، والدتها والشرطة وشقيقها، وسيذهبون صحبة روبي تيرنر ويطلقون العنان

لأنفسهم في مؤامرة ما. احتاجت إلى والدتها، واحتاجت إلى أن تضع ذراعيها من حول رقبة والدتها وتجذب وجهها الجميل نحوها، لكنّ والدتها لن تأتي إليها الآن، لن يأتي أحد إلى بريوني، ولن يكلّمها أحد الآن. وضعت وجهها فوق الوسادة، وسمحت لدموعها بالانهمار فوقها، وشعرت أنّ هناك خسارة أخرى، إذْ لا وجود لأيّ شاهد على أشجانها. ظلّت مستلقية في شبه عتمة تهدّئ من هذا الحزن السائغ على مدى نصف ساعة، بعدها سمعت صوت أزيز محرّك سيّارة الشرطة الواقفة عند أسفل نافذتها وهي تطوي الطريق المرصوف بالحصباء لتتوقّف بعد قليل. تناهت إلى مسامعها بعض الأصوات، ووقع خطوات، فنهضت ودفعت الستارة إلى الجانب. كان الضباب مخيّمًا على المنطقة، لكنّ الجوّ كان صحوًا كأنّ أشعّة تُنيره من الداخل، فأغمضت عينيها قليلاً حتى تألفا وهج الأشعّة. كانت أبواب سيّارة الشرطة الأربعة مفتوحة على مصاريعها، وإلى جانبها ثلاثة رجال من الشرطة. كانت الأصوات تنبعث من مجموعة واقفة إلى أسفل نافذتها مباشرةً، وبجانب الباب الرئيس، ولكنّها لم تتمكّن من رؤيتهم، ثم سمعت صوت وقع خطوات من جديد، وظهر الضابطان للعيان وبينهما روبي، وكان مقيّدًا! شاهدت الآن ذراعيه موثوقين من الأمام، كما شاهدت، من موقعها الممتاز، البريق الفضّي من تحت طرف كمّ قميصه. أرعبها مشهد العار، فكان توكيدًا جديدًا على ذنبه وبداية عقابه. إنّه مشهد اللعنة الأبديّة.

وصلوا السيّارة وتوقّفوا واستدار روبي نصف استدارة، لكنّها لم تستطع قراءة ملامحه، وقف منتصبًا أطول من الضابط ببضع بوصات، مرفوع الرأس، لعلّه كان فخورًا بفعلته. استقلّ أحد رجال الشرطة السيّارة ليقودها، في حين سار الضابط الأصغر سنًّا من حولها واتّجه نحو الباب الخلفي. في الجهة البعيدة، بينما كان الضابط الأقدم يوشك أن يقتاد روبي إلى المقعد الخلفي، تناهى إلى الأسماع صوت هرج ومرج من تحت نافذة بريوني مباشرةً، وصوت إميلي تاليس وهي تنادي بحدّة. وفجأة اندفعت سيسليا نحو السيّارة بأسرع ما

تستطيع مرتدية ثوبًا ضيّقًا، وعندما اقتربت منها تمهّلت، فاستدار روبي وخطا نصف خطوة ناحيتها، فتراجع الضابط، ويا للعجب، إلى الوراء. كانت الأغلال واضحة للعيان، لكن لم يبدُ على روبي أنّه كان خجلاً، ولا حتى واعيًا بوجودها في يديه عندما واجه سيسليا واستمع بوقار لما كانت تقول. نظر رجال الشرطة بشعور فاتر إليهما. إذا كانت سيسليا تقاضي روبي بالتهمة القاسية التي يستحقّ أن يسمعها، فذلك ما لم يظهر على سيمائه. فكّرت بريوني أنّ سيسليا، وإن كانت تشيح بوجهها بعيدًا عن جهتها، إلاّ أنّها كانت تتكلّم بحيويّة قليلة جدًّا، ومن شأن اتّهاماتها أن تكون أقوى بعد أن نطقت بها. اقتربا أكثر، فتكلّم روبي باقتضاب، ورفع يديه المقيّدتين قليلاً ليتركهما تسقطان ثانية. لمستهما بيديها، ووضعت أصابعها على ياقة سترته، ثم تشبّثت بها وهزّتها بلطف، فبدت كأنّها علامة رقيقة ممّا جعل بريوني تتأثّر بقدرة شقيقتها على الغفران، إن كان هذا غفرانًا. الغفران، إنّ هذه الكلمة لم تكن ذات مغزى في يوم من الأيّام، على الرّغم من أنّ بريوني سمعتها في ألف مناسبة، في المدرسة وفي الكنيسة. وكانت أختها تُدرك كلّ شيء دومًا، حقًّا هناك أشياء كثيرة لا تعرفها بريوني عن أختها سيسليا، لكنّ الوقت سيحين لذلك، لأنّ هذه المأساة سوف تقرّب بينهما أكثر.

لا بدَّ أنّ ضابط الشرطة الطيّب، وصاحب الوجه الصوّاني الجامد، قد فكّر أنّه كان مفرطًا في التسامح والتدليل لأنّه تقدّم إلى أمام لإبعاد يد سيسليا ومقاطعتها. أمّا روبي فقد قال لها بضع كلمات على وجه السرعة ومن فوق منكب الضابط، واستدار ناحية السيّارة. وهنا رفع الضابط يده عن حذر إلى أعلى رأس روبي، وضغط عليه إلى أسفل كي لا يرتطم بالسيّارة عندما انحنى ليستقلّها ويجلس في المقعد الخلفي. أمّا الشرطيّان فقد جلس كلّ واحد منهما إلى أحد جانبي سجينهما، وأُغلقت الأبواب بقوّة.

أمّا الشرطي الآخر الذي بقي وحده فقد لمس خوذته محيّيًا، فيما اندفعت السيّارة إلى أمام.

ظلّت سيسليا واقفة في مكانها في مواجهة امتداد الطريق الفرعي تراقب السيّارة وهي تتوارى عن الأنظار، ولكنّ الرعشات التي اعترت كتفيها كشفت عن أنّها كانت تبكي. أمّا بريوني فقد أدركت أنّها لم تحبّ أختها أكثر ممّا تحبّها في هذه اللحظات.

كان لا بدّ لهذا اليوم الذي لفَّ نفسه من حول ليلة صيف أن ينتهي عند هذا الحدّ. كان لا بدّ له أن يصل نهايته بتواري سيّارة الشرطة في الطريق الفرعي. لكن بقيت هناك مواجهة أخيرة، إذْ ما إن ابتعدت السيّارة مسافة لا تزيد عن العشرين ياردة حتى خفضت من سرعتها. فثمّة شخص، لم تتنبّه له بريوني، كان يتقدّم نحو وسط الطريق، ولم يظهر عليه ما يُشير إلى أنّه سوف يتنحّى إلى جانب الطريق. كان هذا الشخص امرأة، قصيرة القامة نسبيًّا، تترنّح في سيرها، وترتدي ثوبًا مزركشًا بالأزهار، وتقبض، على ما يبدو لأوّل وهلة، على عصًا ولكن تبيّن أنّها مظلّة رجّاليّة برأس إوزّة. توقّفت السيّارة، وأطلق السائق البوق، في وقت أصبحت فيه المرأة ملتصقة بجهاز تبريد الماء حول محرّك السيّارة. كانت المرأة هي غريس تيرنر، والدة روبي. رفعت المظلّة وصاحت. ترجّل الشرطي الجالس في المقعد الأمامي وبدأ يكلّمها، ثم أمسك بها من ساعدها. أمّا الشرطي الآخر، الذي أدّى التحيّة، فقد حثَّ خطاه نحو السيّارة. حرّرت السيّدة تيرنر ذراعها، ورفعت المظلّة ثانية بيديها الاثنتين هذه المرّة، وهوت بها على غطاء محرّك السيّارة البرّاق محدثةً صوتًا قويًّا يشبه صوت إطلاق رصاصة من مسدّس. بدأ الشرطيّان يدفعانها تارةً، ويحملانها تارة أخرى إلى قارعة الطريق وهي تكرّر كلمة واحدة بصوت عالٍ جدًّا، حتى إنّ بريوني سمعتها وهي في غرفة نومها.

هدّدت السيّدة تيرنر:

ـ كذّابون! كذّابون! كذّابون!

تحرّكت السيّارة ببطء متجاوزة إيّاها، وبابها الأمامي لا يزال مفتوحًا على مصراعيه، لتتوقّف بعد قليل كي يستقلّها الشرطي. أمّا الشرطي الآخر

فكان يبذل ما في وسعه لتهدئتها. حاولت أن تسدّد ضربة أخرى، ولكنّ المظلّة ارتطمت بسطح السيّارة، فما كان منه إلاّ أن جذب المظلّة من يدها وطوّح بها من فوق كتفها صوب العشب.

صاحت غريس تيرنر ثانية:

ـ كذّابون! كذّابون!

ثم سارت بضع خطوات يائسة من وراء السيّارة، ولكنّها توقّفت واضعة يديها على خصرها، وراقبت السيّارة وهي تنطلق فوق الجسر الأوّل لتعبر الجزيرة والجسر الثاني، حتى اختفت وسط الضياء.

* * *

القسم الثاني

هناك ما يكفي من الأهوال، لكنّ التفاصيل غير المتوقّعة هي التي قذفت به ولم تتركه يفلت بعد ذلك. وعند وصولهم المعبر بعد ثلاثة أميال من السير على امتداد طريق ضيّق، شاهد الممشى الذي كان يبحث عنه وينعطف إلى جهة اليمين، ليهبط ويرتفع بعد ذلك باتّجاه غابة صغيرة تغطّي تلاً منخفضًا في الجزء الشمالي الغربي. توقّفوا كي يتمكّن من معاينة الخارطة، لكنّه لم يعثر عليها في المكان الذي ينبغي له أن يجدها فيه، فهي ليست في جيبه وليست مثبّتة داخل حزامه. أتراها سقطت منه؟ أم أنّه وضعها على الأرض عند آخر منطقة توقّفوا فيها؟ ترك معطفه يسقط على الأرض، ومدَّ يده داخل سترته عندما أدرك أنّ الخارطة كانت بيده اليسرى، وأنّها لا بدّ كانت في تلك اليد منذ أكثر من ساعة. رنا نحو الشخصين الآخرين، لكنّهما كانا ينظران بعيدًا عنه، متباعدين، ويدخّنان بصمت. لا تزال في يده. كان قد استحوذ عليها من بين أصابع نقيب في منطقة ويست كنت، مستلقٍ في ترعة خارج ـ خارج ماذا؟ كانت هذه الخرائط عن المناطق الخلفيّة نادرة. كما أنّه استولى على مسدّس النقيب الميّت أيضًا. إنّه لا يحاول تقليد أحد الضبّاط، فقدْ فقدَ مسدّسه وهو يريد بكلّ بساطة أن يبقى على قيد الحياة.

يبدأ الممشى الذي أثار اهتمامه من جانب أحد البيوت التي دُمّرت أثناء

القصف. كان بيتًا حديثًا نسبيًّا لعلّه بيت ريفي من طابق واحد لعامل بالسكّة الحديد أُعيد بناؤه منذ زمن. ثمّة دروب للحيوانات في الأوحال المحيطة ببركة ماء تجمّع في أخاديد تركتها عجلات السيّارات. ربّما هي الماعز. وانتشرت من حول المكان قطع من قماش ممزّقة ذات حافّات مسودّة، ربّما هي بقايا ستائر أو قماش ما، فضلاً عن إطار نافذة مهشّم فوق العشب في حين كان الجوّ معبقًا برائحة دخان رطب. هذا هو طريقهم، طريقهم المختصر. طوى الخارطة واحتفظ بها واعتدل بعد أن أمسك بمعطفه ووضعه من فوق كتفيه. وفي هذه اللحظة شاهدها. عندما شعر الآخران بنظرته استدارا ونظرا باتّجاه نظراته. كانت ثمّة ساق مرميّة فوق شجرة، شجرة دلْب أورقت مؤخّرًا. كانت الساق على ارتفاع عشرين قدمًا، محشورة في أوّل تفرّع من جذع الشجرة، ساق عارية مقطوعة بعناية من فوق الركبة. لم يكن هناك ما يُشير إلى وجود دم أو أشلاء ممزّقة في المكان الذي كانوا يقفون فيه. كانت ساقًا نموذجيّة، شاحبة، ملساء، وصغيرة، قد تكون لطفل، معلّقة وواضحة للعيان كأنّما لفائدتهم أو فتح عيونهم: هذه ساق.

أصدر العريفان صوتًا ينمّ عن الاشمئزاز والتقطا أغراضهما ورفضا التقدّم إلى أمام. يكفي ما شاهداه في الأيّام القليلة الماضية.

أخرج سائق الشاحنة نيتل سيكارة أخرى وقال:

ـ حسن. . أيّ طريق سنسلك أيّها الحاكم؟

كانا يناديانه بهذه الصفة لوضع حدّ لقضيّة الرتبة العسكريّة الصعبة. انطلق نحو أسفل الطريق بسرعة كأنّه يعدو عدوًا. كان يريد أن يسبقهما، أن يتوارى عن الأنظار كي يتمكّن من التقيّؤ أو التبرّز، لا يدري أيّهما. اختار جسده أوّل الخيارين من حول مستودع غلال، وعلى مقربة من كومة من ألواح صخريّة تُستخدم لإكساء السطوح. اشتدّ عليه الظمأ، لا يطيق فقدان سوائله. شرب من حافظة الماء الخاصّة به ومشى من حول المستودع. استغلّ هذه اللحظة كي يرى جرحه. كان جرحًا في جنبه الأيمن، تحت القفص الصدري

تمامًا وبحجم قطعة نقد معدنيّة من فئة نصف كراون، ولكنّه لم يكن جرحًا بليغًا، خاصّة بعد أن غسل الدم اليابس من فوقه يوم أمس. وعلى الرّغم من أنّ الجلد المُحيط بالجرح كان أحمر اللون إلاّ أنّه لم يكن متورّمًا كثيرًا.

لكنّ ثمّة شيئًا ما فيه، يشعر به وهو يتحرّك عندما يمشي، ربّما قطعة شظيّة. في الوقت الذي لحق به العريفان كان قد حشر قميصه في سرواله وتظاهر بأنّه يدرس الخارطة. الخارطة هي الملك الخاصّ الوحيد به في السريّة.

ـ لِمَ العجالة؟

ـ لقد شاهد فطيرة صغيرة.

ـ إنّها الخارطة، وقد بدأت الشكوك تداخله من جديد.

ـ لا مجال للشكوك أيّها السيّدان، هذا هو طريقنا.

أخرج سيكارة ثانية، فأشعلها له العريف ماسي. واصل روبي تيرنر سيره لكي يخفي رعشة يديه، فسارا من ورائه تمامًا مثلما سبق لهما أن سارا من خلفه على مدى اليومين الماضيين، أم ثلاثة أيّام؟ كان أدنى منهما رتبةً، لكنّهما سارا من خلفه ونفّذا كلّ ما اقترحه عليهما، ولكنّهما ظلاّ يشاكسان حفظًا لكرامتهما.

عندما كانوا يقطعون الطرقات والدروب بتثاقل، أو يجتازون الحقول فيما يخيّم الصمت عليه طويلاً، تجد ماسي يقول:

ـ أتراك تفكّر في الفطيرة أيّها الحاكم؟

وينشد نيتل قائلاً:

ـ وهو كذلك.. وهو كذلك.

كان الاثنان من أهل المدن لا يروقهما الريف ويتيهان فيه. عقارب البوصلة لا تعني شيئًا لهما، وذلك الجزء الخاصّ من التدريب عليها

تجاوزهما. كانا قد قرّرا أنّهما يحتاجان إليه إذا ما أرادا الوصول إلى الساحل، فالوصول صعب عليهما، وسلك معهما سلوك ضابط، ولكنّه لا يحمل ولا حتى شارة واحدة تدلّ على الرتبة العسكريّة. في الليلة الأولى، عندما كانوا قد لاذوا برحبة الدرّاجات الهوائيّة التابعة لمدرسة التهمتها النيران، قال العريف نيتل:

ـ ما الذي يفعله جندي نفر مثلك عندما يتكلّم مثل شخص متأنّق؟

لكنّه لم يردّ عليهما، كان قد صمّم على النجاة، لديه سبب واحد وجيه للبقاء على قيد الحياة، ولا يهمّه بعد ذلك إن لحقا به أم لا. كان الرجلان قد تشبّثا ببندقيّتيهما وهو شأن ما في الأقلّ، كما كان ماسي رجلاً ضخم الجثّة، متين البنيان، قوي المنكبين، يمكن ليديه أن تغطّيا مساحة واسعة من بيانو الحانة الذي كان يعزف عليه على حدّ قوله. ولم يمانع تيرنر تهكّمهما لأنّ كلّ ما كان يحتاج إليه الآن، وهم يشقّون طريقهم بعيدًا عن الشارع العامّ، هو أن ينسى موضوع الساق. والتقى دربهم بدرب آخر يمتدّ بين سورين حجريّين ويهبط نحو وادٍ لا يمكن رؤيته من فوق الطريق. وفي قعر الوادي جدول ماء بنّي اللون، اجتازوه بالعبور فوق صخور وُضعت لهذا الغرض فوق بساط يشبه البقدونس المائي.

انعطف طريقهم نحو جهة الغرب وهم يجتازون الوادي، وهم لا يزالون بين السورين القديمين. كانت السماء من فوقهم قد بدأت تصفو قليلاً وتتوهّج مثل دليل يبشّر بالنجاح، أمّا بقيّة السماء فكانت رماديّة اللون. وعندما اقتربوا من القمّة، بعد اجتيازهم غابة صغيرة من أشجار الكستناء، اخترقت الشمس غطاء السحاب مفاجئةً المشهد برمّته، مبهرةً أبصار الجنود الثلاثة لمَّا أصبحوا تحت أشعّتها الساطعة. كم هو رائع أن ينتهي تجوال نهار في الريف الفرنسي بالسير تحت أشعّة الشمس الغاربة! إنّه عمل مفعم بالأمل.

عندما خرجوا من الغابة سمعوا صوت قاذفات القنابل، فارتدّوا على أعقابهم، ودخّنوا السكائر وهم ينتظرون تحت الأشجار. لم يكونوا قادرين

على رؤية الطائرات من مكانهم، ولكنّ المنظر كان جميلاً، والتلال التي تمتدّ أمامهم على مسافات شاسعة ليست تلالاً بالمعنى الدقيق للكلمة بل هي تموّجات في المشهد الطبيعي، أصداء ضعيفة لارتفاعات أصابت قشرة الأرض في مكان ما. وكان كلّ مرتفع أشدّ شحوبًا في لونه من المرتفع السابق. ورأى جزءًا من اليابسة باللونين الرمادي والأزرق يتلاشى في السديم باتّجاه الشمس الغاربة، وكأنّه نقش شرقي على طبق عشاء.

بعد مرور نصف ساعة، قطعوا طريقًا يمتدّ من فوق منحدر سحيق يتّجه شمالاً حتى أوصلهم إلى وادٍ آخر، وإلى جدول ماء صغير آخر تيّاره أقوى من سابقه، فعبروا من فوقه مستخدمين جسرًا حجريًّا اكتسى بطبقة سميكة من روث الأبقار. فكّر العريفان اللذان لم يبلغ بهما الإعياء ما بلغه منه بعمل شيء على سبيل المزاح واللهو، فتظاهرا بالاشمئزاز وتقزّز النفس، ثم رمى أحدهما كتلة يابسة من الروث على ظهره، لكن تيرنر لم يلتفت لأنّه بدأ يفكّر في أنّ قطع القماش التي رآها ربّما تكون ثياب نوم طفل، ثياب صبيّ. في بعض الأحيان كانت القاذفات الانقضاضيّة تحلّق بعد وقت قصير من الفجر. حاول أن ينأى بتفكيره عن الثياب لكنّها لم تترك له المجال ليهرب منها. صبيّ فرنسي نائم في سريره. أراد تيرنر أن يترك مسافة أطول بينه وبين ذلك البيت الذي تعرّض إلى القصف. لم يعد الجيش الألماني والقوّة الجوّيّة الألمانيّة وحدهما اللذين يطاردناه الآن. لو كان القمر منيرًا لشعر بالسعادة وهو يسير طوال الليل، لكنّ العريفين لم ترقهما الفكرة. ربّما حان الوقت للتخلّص منهما.

انتظمت في خطّ مستقيم مجموعة من أشجار الحور على امتداد جدول الماء من تحت الجسر، وومضت قممها ببريق خاطف تحت آخر ضوء. انعطف الجنود إلى اتّجاه آخر، وسرعان ما تحوّل السبيل إلى درب ثانية مبتعدًا هذه المرّة عن جدول الماء. شقّوا طريقهم بالضغط أحيانًا وعلى نحو ملتوٍ وسط الأدغال ذات الأوراق السميكة اللامعة. ثمّة أشجار بلّوط أيضًا توقّفت عن النموّ، قليلة الأوراق. رائحة النباتات من تحت أقدامهم طيّبة ورطبة،

وراودته فكرة بأنّ شيئًا ما في هذا المكان يجعله مختلفًا الاختلاف كلّه عن أيّ شيء آخر سبق لهم أن شاهدوه. تناهت إلى أسماعهم دمدمة آلات ازدادت ارتفاعًا وغضبًا، موحيةً بأنّها ناجمة عن دولاب الموازنة وهو يدور بسرعة فائقة، أو عن تُربينة كهربائيّة تدور بسرعة مستحيلة. إنّهم يدخلون قاعة عظيمة قوامها الصوت والطاقة.

هتف بأعلى صوته:

ـ نحل!

اضطرّ إلى الالتفات ونطق الكلمة ثانية قبل أن يسمعوه. كان الهواء قد ازداد حلكة وكان يعرف أسلوب النحل بما فيه الكفاية. فلو التصقت نحلة بشعرك ولدغتك فإنّها ترسل بذلك رسالة كيميائيّة وهي تحتضر، كما أنّ النحل الذي يستقبلها يضطرّ كلّه إلى المجيء واللدغ والموت في المكان نفسه. تجنيد عامّ! هذه إهانة من الإهانات بعد كلّ هذا الخطر. رفعوا من معاطفهم وغطّوا رؤوسهم وهرولوا وسط سرب النحل حتى وصلوا ترعة طينيّة نتنة عبروا عليها من فوق لوح خشبي متذبذب، ليجدوا أنفسهم وراء مستودع غلال يشمله الهدوء والسكينة، وإلى مسافة أبعد منه فناء مزرعة، ما إن وطئوه حتى هبّت عليهم كلاب تنبح وامرأة عجوز تركض ناحيتهم ملوّحةً بيديها نحوهم كأنّهم دجاج تريد ترويعهم ليبتعدوا. اعتمد العريفان على معرفة تيرنر اللغة الفرنسيّة فتقدّم منها وانتظرها كي تدنو منه. كانت ثمّة حكايات تدور على الألسن مفادها أنّ المدنيّين يبيعون قناني الماء لقاء عشرة فرنكات، ولكنّه لم يشاهد ذلك قطّ، فالفرنسيّون الذين التقاهم كانوا إمّا كريمين أو مستغرقين في أحزانهم وشقائهم. كانت المرأة ضعيفة ولكنّها نشطة، لها وجه نكد الملامح ونظرة حرون، أمّا صوتها فكان حادًّا.

ـ مستحيل يا سيّد، لا يمكنكم البقاء هنا.

ـ سوف نبقى في المستودع، نحن بحاجة إلى الماء والنبيذ والخبز والجبن، وكلّ ما يمكنك توفيره لنا.

ـ مستحيل!

قال لها برقّة:

ـ كنّا نحارب من أجل فرنسا.

ـ لا يمكنكم البقاء هنا.

ـ سنرحل عند الفجر، لا يزال الألمان...

ـ ليس الألمان يا سيّد بل ولداي. إنّهما حيوانان وعمّا قريب سيعودان.

اندفع تيرنر متجاوزًا المرأة واتّجه صوب مضخّة ماء كانت في ركن الفناء على مقربة من المطبخ، فلحق به ماسي ونيتل. وفيما كانوا يشربون الماء راقبته فتاة في نحو العاشرة من عمرها مع شقيقها الصغير من مكانيهما عند مدخل البيت. ولمّا فرغ من شرب الماء وملأ حافظته به ابتسم لهما فأطلقا سيقانهما للريح. كان العريفان تحت مضخّة الماء يشربان في آن واحد، وفجأة وجد المرأة تقف من ورائه تمسك بتلابيبه، وقبل أن تنطق بكلمة أخرى، قال:

ـ من فضلك قدِّمي لنا ما طلبته منك، وإلاّ سوف ندخل ونأخذ الطعام بأنفسنا.

ـ ولداي متوحّشان وسوف يقتلانني.

كان يفضّل أن يقول: ليكن، لكنّه بدلاً من ذلك ابتعد وهتف من فوق منكبه:

ـ سأتحدّث إليهما.

ـ بعد ذلك سيقتلانك يا سيّدي، يمزّقانك إربًا إربًا.

كان العريف ماسي يعمل طبّاخًا في الوحدة نفسها التي كان فيها العريف نيتل، وهي وحدة تابعة لفيلق الخدمات الخاصّة بالجيش الملكي، وقبل أن يلتحق بهذه الوحدة اشتغل في مستودع لخزن البضائع تابع لشركة هيل في شارع توتنهام كورت رود.

وقال إنّه ملمّ حقّ الإلمام بمستلزمات الراحة، فبدأ يرتّب أماكنهم داخل المخزن. رمى تيرنر بنفسه فوق التبن في حين عثر ماسي على كومة من الأكياس، وبدأ يحشوها بمساعدة نيتل ليصنع منها ثلاث حشوات ينامون عليها، كما صنع ألواحًا رأسيّة من بالات القشّ وحملها بيد واحدة، ومدَّ بابًا من فوق أكوام القرميد ليكون منضدة، ثم أخرج نصف شمعة من جيبه.

ظلَّ يكرّر بصوت خفيت:

ـ قد يكون مريحًا أيضًا.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي ابتعدوا فيها عن الهمز واللمز الجنسي.

اضطجع الرجال الثلاثة فوق أسرّتهم يدخّنون وينتظرون، ولم يشعروا بالعطش بعد أن تركّزت أفكارهم في الطعام الذي سيحصلون عليه بعد أن سمع كلّ واحد منهم معدة الآخر وهي تقرقر في العتمة ممّا أثار ضحكهم.

أخبرهم تيرنر عن موضوع حديثه مع المرأة العجوز والكلام الذي تفوّهت به عن ولديها.

قال نيتل:

ـ إنّهم الطابور الخامس.

بدا ضئيلاً قرب صديقه، لكنّه كان يتمتّع بملامح رجل حادّة، ومظهر ودود يشبه مظهر القوارض، زادت من حدّته طريقة ارتكاز أسنان فكّه الأعلى على شفته السفلى.

قال ماسي:

ـ أيّها النازيّون الفرنسيّون، أيّها المتعاطفون مع الألمان تمامًا مثلما أنّ لدينا موزلي[1].

---

(١) سير أوزوالد إيرنالد موزلي (١٨٩٦ ـ ١٩٨٠) Sir Oswald Ernald Mosley سياسي بريطاني (المترجم).

ران الصمت برهة وجيزة، استرسل بعدها ماسي:

ـ أوتراهما يشبهان كلّ من هو ريفي، يتزوّجان بالأقارب.

قال تيرنر:

ـ بصرف النظر عن كلّ هذا، أعتقد أنّ عليك أن تفحص أسلحتك الآن وتجعلها جاهزة.

امتثلا لما قاله، فأشعل ماسي شمعة وبدأ الاثنان عملهما الاعتيادي.

فحص تيرنر مسدّسه ووضعه في متناول يده. ولمّا فرغ العريفان من عملهما أسندا لي أنفيلدز إلى صندوق خشبي واستلقيا على فراشيهما ثانية.

جاءت الفتاة الآن حاملة سلّة ووضعتها قرب باب المخزن وهربت. أحضر نيتل السلّة ووضعوا ما لديهم من طعام فوق المنضدة، خبز دائري أسمر وقطعة صغيرة من جبن طري وحبّة بصل وزجاجة نبيذ.

كان الخبز صلبًا يصعب تقطيعه وله مذاق فطريّات. أمّا الجبن فكان لذيذًا التهموه في ثوانٍ، احتسوا من زجاجة النبيذ حتى فرغت، وعندئذٍ بدأوا يلوكون الخبز المتعفّن والبصل.

قال نيتل:

ـ لن أقدّم لكلبي مثل هذا الطعام.

قال تيرنر:

ـ سأذهب إلى هناك للحصول على طعام أفضل.

ـ سنأتي معك.

لكنّهم ظلّوا مستلقين على ظهورهم صامتين، إذْ لم يشعر أيّ واحد منهم برغبة في مواجهة السيّدة العجوز. وفجأة سمعوا صوت وقع أقدام، فالتفتوا ورأوا رجلين يقفان عند باب المخزن وفي يد كلّ واحد منهما شيء ما، ربّما

هراوة أو بندقيّة رشّاشة، إذْ يصعب التأكّد بسبب الضوء الخافت، كما لم يتمكّنوا من رؤية وجهي الأخوين الفرنسيّين.

كان الصوت رقيقًا:

ـ مساء الخير أيّها السادة.

ـ مساء الخير.

نهض تيرنر من فوق سريره وأمسك مسدّسه كما أمسك العريفان ببندقيّتيهما أيضًا.

همس تيرنر:

ـ على رسلكما.

ـ إنكليز؟ بلجيك؟

ـ إنكليز.

ـ لدينا شيء لكم.

ـ ما هو؟

قال أحد العريفين:

ـ ماذا يقول؟

ـ يقول إنّ لديه شيئًا لنا.

ـ يا للهول!

خطا الرجلان خطوتين إلى أمام واقتربا وكشفا عمّا كانت تحمله أيديهما، بنادق على وجه التأكيد.

وضع تيرنر سلاحه في موضع التأهّب وسمع ماسي ونيتل يحذوان حذوه، همس:

ـ على رسلكما.

ـ أبعدوا أسلحتكما أيّها السادة.

ـ بل أبعدا أنتما سلاحيكما.

ـ انتظروا لحظة.

مدَّ الرجل المتكلّم يده داخل جيبه وأخرج مشعلاً وأشعله على وجه شقيقه وعلى ما في يده وليس على وجوه الجنود. خبز فرنسي، كذلك على ما كان يحمله في اليد الأخرى، كيس من الخيش. ثم أطلعهم على قطعتين مستطيلتي الشكل كان يحملهما بنفسه.

ـ لدينا زيتون وجبنة وباتيه وطماطم ولحم ونبيذ أيضًا.

ـ عاشت إنكلترا.

ـ وعاشت فرنسا.

تحلّقوا من حول منضدة ماسي التي أثارت إعجاب الفرنسيّين هنري وجان ماري بونيت، مثلما أثارت إعجابهما حشوات الفراش الثلاث. كان الفرنسيّان قصيري القامة ممتلئي الجسم في الخمسينيّات من العمر. وكان هنري يضع نظّارات على عينيه، علّق عليها نيتل بالقول إنّها لا تنسجم مع عيني فلاّح، ولكنّ تيرنر لم يترجم هذا التعليق. علاوة على النبيذ، أحضر الرجلان أقداحًا رفعوها عاليًا ليشربوا نخب الجيوش الفرنسيّة والبريطانيّة ونخب سحق ألمانيا.

راقب الأخوان الجنود المنهمكين في الأكل، ومن خلال ترجمة تيرنر قال ماسي إنّه لم يذق ولم يسمع في حياته عن باتيه كبد الإوزّ؟ وإنّه من الآن فصاعدًا لن يأكل شيئًا عداها، فابتسم الفرنسيّان ولكنّ سلوكهما كان منضبطًا ولم يبدُ عليهما أنّهما يريدان أن يشربا حتى الثمالة. قالا إنّهما ذهبا إلى مكان بعيد، إلى قرية صغيرة على مقربة من أرّاس[1]، مستقلّين شاحنتهما الزراعيّة

---

(١) أرّاس Arras: مدينة في شمال فرنسا على نهر سكارب قاعدة محافظة بادوكاليه (المترجم).

المسطّحة من دون جوانب، بحثًا عن قريبة شابّة وأطفالها، وقد دارت رحى معركة عنيفة من أجل السيطرة على القرية، ولكنّهما لا يعرفان من الذي استولى عليها أو الذي يُدافع عنها، أو الذي له اليد الطولى عليها. وقد اضطرّا إلى سلوك طرق خلفيّة لتجنّب فوضى اللاجئين. وشاهدا بيوت المزارع تلتهمها النيران. ثم صادفا زهاء دزّينة من الجنود الإنكليز القتلى، على الطريق، فترجّلا من الشاحنة وسحبا الجثث عن قارعة الطريق كي لا يصطدما بها، وانشطر جسدان منها إلى شطرين تقريبًا، وخمّنا أنّ هجومًا كبيرًا بالبنادق الآليّة قد اندلع ربّما مصدره من الجوّ وربّما كمين. وعندما قفلا راجعين إلى الشاحنة أُصيب هنري بالغثيان في حين سيطر الرعب والهلع على جان ـ ماري الذي كان يقود الشاحنة فهوى بها في ساقية. سارا مشيًا على الأقدام حتى وصلا قريةً واستعارا جوادين من أحد المزارعين، وسحبا شاحنتهما من طراز رينو. استغرق ذلك منهما ساعتين، وعندما انطلقا على الطريق من جديد شاهدا دبّابات وعربات مدرّعة محترقة كلّيًّا، ألمانيّة وبريطانيّة وفرنسيّة، لكنّهما لم يشاهدا أيّ جندي، يبدو أنّ المعركة انتقلت إلى مكان آخر.

وفي الوقت الذي وصلا فيه القرية كان الوقت قد بلغ الأصيل، وكانت القرية مدمّرة تدميرًا شاملاً ومهجورة، وكان منزل قريبتهما محطّمًا، جدرانه مملوءة بثقوب الطلقات الناريّة، لكنّ السقف لا يزال سليمًا. توغّلا في جميع الغرف وشعرا بالارتياح لعدم وجود أحد، لا بدّ أنّها أخذت الأطفال والتحقت بآلاف الناس الذين احتشدوا على الطرقات. قرّرا البقاء في الغابة ومحاولة النوم في الشاحنة لأنّهما خشيا العودة إلى البيت ليلاً. وعلى امتداد الليل تناهى إلى مسامعهما صوت المدفعيّة تدكّ بلدة أرّاس، وبدا لهما أنّ من المستحيل أن ينجو أحد أو أيّ شيء من ذلك القصف. قفلا راجعين بعد أن سلكا دربًا آخر يمتدّ مسافة أطول، كي يتجنّبا المرور بالجنود القتلى. وأوضح هنري أنّ الإرهاق أخذ منه ومن أخيه كلّ مأخذ الآن، وأنّهما كلّما أغمضا عيونهما شاهدا تلك الأشلاء البشريّة.

ملأ جان ـ ماري الأقداح ثانية واستغرق في سرد قصّته مع ترجمة تيرنر ما يقرب من ساعة، ولم يبق من الطعام شيء. وفكّر في أن يقصّ قصّته بتفاصيلها المروّعة، ولكنّه لم يرغب في أن يضيف إلى الأهوال هولاً جديدًا، ولم يرغب في أن يُعيد الحياة إلى صورة ظلّت بعيدة، يبعدها النبيذ والرفقة. لهذا حكى عوضًا عن ذلك كيف انفصل عن وحدته العسكريّة مع بداية الانسحاب أثناء هجوم ستوكا. لم يذكر شيئًا عن إصابته لأنّه لم يرغب في أن يعرف العريفان بها، لهذا شرح كيف كانوا يسيرون على امتداد الريف نحو دنكرك لتجنّب الغارات الجوّيّة المتواصلة على الطرق الرئيسة.

قال جان ـ ماري:

ـ إذًا ما يقولونه صحيح، أنتم منسحبون.

أجاب دون أن يؤمن بما يقول:

ـ سنعود.

كان النبيذ قد استولى على العريف نيتل، وبدأ ينتقل من حديث إلى حديث، مادحًا ما أسماه فطيرة الضفدع، وكم كانت كبيرة ومتوفّرة ولذيذة، إنّها خيال محض، رمق الأخوان تيرنر بنظرة.

ـ يقول إنّ النساء الفرنسيّات أجمل نساء العالم.

أومأ الأخوان برأسيهما ورفعا كأسيهما.

ران الصمت برهة وجيزة، أمسيتهما توشك على النهاية، فأصغيا إلى الأصوات الليليّة التي اعتادوا عليها ـ هدير المدفعيّة والقذائف العشوائيّة البعيدة والانفجارات المدوّية ـ لعلّ خبراء وضع الألغام ينسفون جسرًا أثناء تقهقرهم.

قال ماسي مقترحًا:

ـ اسألهما عن والدتهما كي يتّضح كلّ شيء.

قال هنري موضحًا:

ـ كنّا ثلاثة أشقّاء توفي الابن الأكبر لوالدتي، وهو پول، على مقربة من فردون سنة ١٩١٥، إذْ أصابته قذيفة إصابة مباشرة ولم نعثر على شيء من جسده كي ندفنه سوى خوذته. أمّا نحن فقد كنّا محظوظين إذْ خرجنا سالمين دون أن يمسَّنا أذًى، ومنذ ذلك الوقت كرهت والدتنا الجنود. اليوم هي في الثالثة والثمانين من عمرها وقد بدأت تفقد عقلها. إنّها مهووسة بالفرنسيّين والإنكليز والبلجيكيّين والألمان لا تفرّق بينهم. أنتم سواسية في رأيها. إنّنا نشعر بالقلق تجاهها، إذْ قد يأتي الألمان فتواجههم بالمذراة وعندئذٍ سيطلقون النار عليها.

نهض الأخوان واقفين، مرهقين، ونهض الجنود الثلاثة أيضًا.

وقال جان ـ ماري:

ـ إنّنا نرغب في أن تكونوا ضيوفًا عندنا لتناول الطعام في المطبخ، لكن علينا أوّلاً أن نقفل عليها باب غرفتها إذا ما أردنا ذلك.

قال تيرنر:

ـ لكنّ الطعام الذي قدّمتماه لنا كان مأدبة رائعة.

همس نيتل في أذني ماسي وأومأ برأسه ثم أخرج علبتي كرتون من السكائر من داخل حقيبته. هذا هو الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله على وجه التوكيد، لكنّ الفرنسيّين أظهرا علامة مؤدّبة تدلّ على رفضهما، فما كان من نيتل إلاّ أن التفّ من حول المنضدة ووضع الهديّة بين أذرعهما، وأراد من تيرنر أن يترجم له.

ـ كان ينبغي لكما مشاهدة مستودعات السكائر عندما وصلتنا الأوامر بتدميرها، عشرون ألف سيكارة وقد حملنا كلّ ما كنّا نريد.

كان الجيش برمّته يهرب إلى جهة الساحل، مسلّحًا بالسكائر لإبعاد شبح الجوع.

أعرب الفرنسيّان عن شكرهما الجزيل، وجاملا تيرنر على لغته الفرنسيّة، وانحنيا من فوق المنضدة لجمع القناني والأقداح الفارغة ووضعها في كيس من الخيش. لم يتظاهرا بأنّهما سيلتقيان بهم ثانية.

قال تيرنر:

ـ سنرحل مع الضياء الأوّل، لهذا سنقول لكما وداعًا.

ثم تصافحت الأيادي.

قال هنري بونيت:

ـ لقد حاربنا قبل خمس وعشرين سنة، وقُتل كلّ هؤلاء الناس. وها هم الألمان قد عادوا إلى فرنسا، وبعد يومين اثنين سيصلون إلى هذا المكان ويأخذون كلّ ما نملك. من يصدّق ذلك؟

شعر تيرنر للمرّة الأولى بالانسحاب المخزي، شعر بالعار وقال بإيمان أقلّ ممّا سبق:

ـ سنعود ونرميهم خارجًا، أعدكما.

أومأ الأخوان رأسيهما وابتسما ابتسامة وداع أخيرة، وتركا الدائرة المعتمة التي يصنعها ضوء الشمعة، وسارا في الظلمة ناحية باب المستودع المفتوح، وفيما الأقداح ترتطم بالقناني وترنّ.

* * *

ظل مستلقيًا على ظهره مدّة طويلة يدخّن سيكارة ويحدّق في ظلمة السقف الغائر، وشخير العريفين يعلو ويهبط، أحدهما تلو الآخر. كان مرهقًا ولكن غير نعسان، جرحه ينبض على نحو غير مريح، كلّ نبضة دقيقة ومشدودة. مهما كان الشيء الموجود داخل الجرح فإنّه حادّ وقريب من السطح، يرغب في لمسه بأطراف أصابع يده. الإرهاق حوّله إلى إنسان ضعيف مستسلم للأفكار التي قلّما كان يريد أن تراوده. كان يفكّر في الصبيّ الفرنسي

النائم في فراشه وفي اللامبالاة التي يمكن فيها للإنسان أن يسدّد القذائف نحو الطبيعة، أو يفرغ حجيرة القنابل ويقصف بها بيتًا سكّانه نيام على مقربة من خطّ سكّة الحديد، دون اهتمام أو معرفة بمن قد يكون فيه. إنّها عمليّة صناعيّة، وقد رأى بنفسه وحدات السلاح الجوّي أثناء العمل، مجموعات منتظمة انتظامًا شديدًا، يعمل أفرادها على مدار الساعة. يفخرون بالسرعة التي يمكن أن ينجزوا بها إنشاء خطّ، ويفخرون بنظامهم وتدريباتهم وتمريناتهم وعملهم الجماعي المشترك.

ليسوا بحاجة إلى رؤية نتيجة عملهم ـ اختفاء صبيّ. . اختفاء.

وفيما هو يصوغ الكلمة في ذهنه غالبه النعاس ولكن لثوانٍ معدودة، استيقظ بعدها في فراشه على ظهره محدّقًا في الظلمة التي تلفّ زنزانته.

يمكن أن يشعر أنّه عاد إلى ذلك المكان، يمكنه أن يشمّ رائحة الأرضيّة الكونكريتيّة، والبول في الدلو والطلاء البرّاق على الجدران وأن يسمع شخير الرجال النائمين على امتداد الصفّ. ثلاث سنوات ونصف السنة من ليالٍ تشبه هذه الليلة، لم يقدر فيها على النوم مفكّرًا في صبيّ آخر اختفى، حياة أخرى اختفت وكانت ذات يوم حياته هو، منتظرًا طلوع الفجر الذي يبزغ ليبدأ يوم آخر هدرًا.

لا يعرف كيف نجا من الغباء اليومي، الغباء والخوف المرضي من الأماكن المقفلة. اليد التي كانت تضغط على عنقه، البقاء في هذا المكان، الاحتماء داخل مستودع برفقة جيش مهزوم هزيمة نكراء، وحيث طرف من أطراف طفل معلّق فوق شجرة لا يمكن أن يبالي به الإنسان الاعتيادي، وحيث بلدٌ بأكمله، حضارة بأكملها توشك أن تنهار ـ كلّ ذلك أفضل من أن تكون في المكان الآخر، على سرير ضيّق وتحت ضوء خافت منتظرًا لا شيء. في هذا المكان وديان تحفّ بها الغابات وجداول وأشعّة شمس تنهمر فوق أشجار الحور التي لا يمكن لهم أن يقتلعوها إلاّ إذا قتلوه. ثم هناك الأمل. «سأنتظرك . . ارجع إليَّ».

ثمّة فرصة، فرصة لا غير، للعودة. لديه رسالتها الأخيرة في جيبه وعنوانها الجديد، لهذا السبب ينبغي له أن يبقى على قيد الحياة وأن يستخدم ذكاءه للابتعاد عن الطرق الرئيسة حيث كانت القاذفات الانقضاضيّة تحوم، منتظرة فريستها كأنّها طيور كاسرة. نهض في وقت لاحق من تحت معطفه، وانتعل حذاءه الثقيل، وتحسّس طريقه خلال المستودع ليقضي حاجته خارجًا.

كان التعب قد أخذ منه كلّ مأخذ، لكنّه لا يزال غير مستعدّ للنوم.

تجاهل نباح كلاب المزرعة، وحثَّ خطاه نحو درب ترابي يؤدّي إلى مرتفع معشوشب ليشهد الوميض في الجزء الجنوبي من السماء.

هذه هي زوبعة المدرّعات الألمانيّة المتقدّمة. لمس جيبه العلوي حيث كان يحتفظ بداخله بقصيدة أرسلتها له، وكانت مرفقة برسالتها:

في حمأة كابوس الظلام

كلّ كلاب أوروبا تنبح

أمّا بقيّة رسائلها فكان يحتفظ بها في الجيب الداخلي من معطفه. وقف فوق عجلة شاحنة مهجورة، وتمكّن من مشاهدة بقيّة أطراف السماء. وميض المدفعيّة منتشر في جميع الأماكن باستثناء المنطقة الشماليّة. الجيش المندحر يهرب على امتداد طريق مقدّر له أن يزداد ضيقًا وأن يُقطع عمّا قريب.

لا مجال للهروب أمام وحدات الجيش المنتشرة في غير انتظام. في أفضل الأحوال سيكون هناك سجن ثانية، معسكر اعتقال، لكنّه في هذه الحال لن يبقى طويلاً. فإذا ما سقطت فرنسا فلن تكون هناك نهاية للحرب في المنظور القريب. لا رسائل من عندها ولا عودة إليها، ولا مساومة على إطلاق سراح مبكر مقابل الالتحاق بالمشاة. اليد تضغط على رقبته من جديد، النتيجة هي ألف أو آلاف الليالي داخل الحبس، ساهرًا يقلّب الماضي، منتظرًا أن يستأنف حياته، متسائلاً إن كان حقًّا سيستأنفها. ربّما يستحسن الرحيل الآن

قبل فوات الأوان والمضيّ قُدمًا ليلاً ونهارًا حتى يصل القنال. أخرج وأترك العريفين لمصيرهما. استدار وشقّ طريقه هابطًا المنحدر وفكّر، لا يمكنه أن يرى الأرض أمامه إلاّ بصعوبة، لا يمكنه التقدّم سيرًا وسط الظلام، ومن الممكن أن تُكسر ساقه. ربّما العريفان ليسا بهذه الدرجة من الغباء، ماسي بفراشه المصنوع من التبن، ونيتل بهديّته للأخوين. قفل راجعًا إلى فراشه مهتديًا بشخيرهما، لكنّ النوم جفاه، أو لم ينم إلاّ نومًا متقطّعًا، جاعلاً رأسه يدوخ بالأفكار التي لا قبلَ له بها، فلا هو يتمكّن من اختيارها ولا هو بقادر على توجيهها. لاحقته الموضوعات القديمة، ها هو من جديد، لقاؤه بها، ستّة أيّام خارج السجن، يوم واحد قبل حضوره إلى آلدرشوت. وعندما رتّبا أمورهما للّقاء في مقهى جولايونز في شارع ستراند سنة ١٩٣٩، كانت قد انقضت ثلاثة أعوام ونصف العام لم يَرَ فيها أحدهما الآخر. وصل المقهى مبكرًا واختار ركنًا يطلّ على الباب. كانت الحرِّيّة لا تزال شيئًا مستحدثًا، وقع الخطوات والضوضاء.. ألوان السترات والمعاطف والتنّورات، المناقشات الذكيّة المحتدمة لمتسوّقي حيّ الويست إند، طيبة الفتاة التي قدّمت لهما الخدمات، انعدام أيّ تهديد... جلس متّكئًا واستمتع بحنان ما هو يومي الذي لم يقدّر جماله سواه.

أثناء وجوده داخل السجن، كانت أمّه هي الأنثى الوحيدة التي سُمح لها بزيارته. قالوا إنّ ذلك قد يُثير ثائرته. كانت سيسليا تكتب له الرسائل كلّ أسبوع. يعشقها. يرغب في أن يبقى سليم العقل من أجلها، حقًّا إنّه مغرم بكلماتها. ولمّا ردَّ على رسائلها تظاهر بأنّه هو ذلك الشخص نفسه الذي عرفته، وتملّص شاقًّا طريقه نحو سلامة العقل بكذبة بعد أخرى، ولم تكن كلماته شهوانيّة ولا حتى عاطفيّة، خشيةً من الطبيب النفساني الذي كان رقيبًا عليها أيضًا. سجنه يُنظر إليه على أنّه سجن حديث متنوّر، على رغم برودته التي ترقى إلى العصر الفكتوري. شُخّصت حالته المرضيّة تشخيصًا سريريًّا دقيقًا على أنّه شهواني إلى حدٍّ وبيل، وأنّه بحاجة إلى مساعدة وإلى إصلاح

وتقويم، ولا يحتاج إلى إثارة أو تحفيز. وقد صودرت بعض الرسائل ـ رسائله ورسائلها على حدٍّ سواء ـ بسبب بعض العبارات العاطفيّة. لهذا كتبا عن الأدب ولجآ إلى استخدام الشخصيّات الأدبيّة لتكون شِفرات.

في كيمبردج التقيا مصادفة على الطريق يناقشان كلّ تلك الكتب، كلّ تلك الشخصيّات الثنائيّة السعيدة أو المأساويّة التي لم يلتقيا بها! تريستان وإيزولد[١]، دوق أورسينو وأوليڤيا[٢] (ومالڤوليو أيضًا) وترويلوس وكريسيدا[٣]، السيّد نايتلي وإيما[٤]، فينوس وأدونيس[٥]، تيرنر وتاليس. وفي

(١) تريستان وإيزولد Tristan and Isolde: تريستان هو أحد أبطال قصص الرومانس في القرون الوسطى وأحد فرسان المائدة المستديرة، تتلخّص قصّته في أنّه جُرح في إحدى المعارك وعالجته حتى شُفي إيزولد ابنة ملك إيرلندا. لدى عودته إلى كورنول أخبر عمّه الملك مارك عن الأميرة الجميلة فأرسله هذا لخطبتها فوافقت. وعند مرافقة تريستان الأميرة إيزولد إلى إنكلترا أُغرم أحدهما بالآخر لكنّها تزوّجت أخيرًا بالملك. ولمّا علم هذا بغرامها مع ترستان فرَّ الأخير إلى مقاطعة بريتاني الفرنسيّة وتزوّج بإيزولد ابنة دوق بريتاني. وعندما جُرح في معركة أخرى أُرسل في طلب إيزولد ابنة ملك إيرلندا لمعالجته وطُلب منها أن ترفع شراعًا أبيض اللون إن كانت على ظهر السفينة أو أسود إن لم تكن على ظهرها وعندما رأت زوجة تريستان السفينة تقترب أخبرت زوجها بدافع الغيرة أنّ الشراع أسود اللون فما كان من ترستان إلاّ أن مات حزنًا وكمدًا على الفور. ولمّا علمت إيزولد ابنة ملك إيرلندا بما حدث بعد فوات الأوان انتحرت (المترجم).

(٢) دوق أورسينو وأوليڤيا Duke Orsino and Olivia: بطلان في مسرحيّة شكسبير المعروفة، «الليلة الثانية عشرة» (المترجم).

(٣) ترويلوس وكريسيدا Troilus and Criseyde: بطلا مسرحيّة شكسبير المعروفة بهذا الاسم كتبها بحدود ١٦٠٢ وطبعت في ١٦٠٩، شخصيّات المسرحيّة هي شخصيّات الإلياذة (المترجم).

(٤) جورج نايتلي وإيما George Knightley and Emma: بطلا رواية «إيما» للكاتبة الإنكليزيّة جين أوستن (١٧٧٥ ـ١٨١٧) (المترجم).

(٥) فينوس وأدونيس Venus and Adonis: قصيدة الشاعر شكسبير كتبها في ١٥٩٣ وأهداها إلى إيرل أوف ساوث هامبتون، يعتقد أنّها أوّل أعمال شكسبير المطبوعة. تحاول فينوس يائسة أن تكسب حبّ أدونيس بلا طائل ويلقى مصرعه عند ذهابه لصيد الخنازير (المترجم).

إحدى حالات يأسه المرير يتذكّر بروميثيوس المكبّل إلى صخرة فيتغذّى نسر على كبده المتجدّدة يوميًا. في بعض الأحيان هي غريسلدا الصبور(١). وكان ذكر «الركن الهادئ من المكتبة» شفرة تشير إلى النشوة الجنسيّة. وكتبا عن الأحداث اليوميّة الاعتياديّة بتفاصيل مملّة وإن بشغف. كتب لها عن السجن ووصفه من جميع جوانبه، لكنّه لم يخبرها عن غباء ذلك السجن. هذا يكفي. لم يخبرها بأنّه يخشى أن يهلك. هذا أيضًا واضح جدًّا. ولم تكتب له أو تخبره بأنّها تحبّه لأنّها تعلم أنّ مثل هذا الكلام لو وصل إليه لأخبرته به لكنّه كان يعرف أنّها تحبّه. أخبرته أنّها انقطعت عن أسرتها تمامًا وأنّها لن تكلّم والديها أو شقيقها أو شقيقتها ثانية أبدًا. تابع خطواتها عن كثب على امتداد الطريق المؤدّي إلى تأهّلها وحصولها على شهادة التمريض. وعندما كتبت «ذهبت إلى المكتبة اليوم للحصول على كتاب التشريح الذي أخبرتك عنه، عثرت على ركن هادئ وتظاهرت بالقراءة» أدرك أنّها تعيش على الذكريات نفسها التي تستغرقه كلّ ليلة تحت دثار السجن الرقيق.



عندما دلفت إلى المقهى معتمرة قبّعتها الخاصّة بالممرّضات، استبدّ به الذهول حتى إنّه عندما أسرع بالوقوف قلب شايه. كان يدرك أنّ البذلة التي احتفظت بها أمّه له كانت كبيرة الحجم لأنّ السترة كانت متهدّلة الكتفين. جلسا يحدّق أحدهما بالآخر، وابتسما وأشاحا بوجهيهما جانبًا. ظلّ روبي وسيسليا يمارسان الحبّ على مدى سنوات بالمراسلة، واقترب أحدهما من الآخر بفعل الرسائل المتبادلة المشفّرة. ولكن كم يبدو ذلك القرب مصطنعًا الآن وهما يتجاذبان أطراف الحديث العابر، وتبادل الأسئلة والأجوبة على

---

(١) غريسلدا الصبور Patient Griselda: نموذج للزوجة المطيعة الصبور وبطلة آخر قصّة من قصص دي كاميرون للأديب بوكاشيو التي كتبها في العام ١٣٥٣ وملخّصها أنّ ماركيز سالوزو يتزوّج فتاة فقيرة رائعة الجمال ولكنّه يسومها سوء العذاب إلاّ أنّه يقتنع أخيرًا بوفائها وإخلاصها له (المترجم).

نحو مؤدّب. وفيما أخذت المسافة بينهما تقصر أدركا أنّهما أطلقا العنان كثيرًا لنفسيهما في رسائلهما.

لقد تخيّلا هذه اللحظة واحتاجا إليها منذ زمن بعيد جدًّا، ولم يستطيعا بلوغ المستوى المطلوب لها. كان خارج العالم مفتقرًا إلى الثقة للعودة إلى الوراء والوصول إلى الفكرة الأكبر.. أُحبّكِ، فأنتِ أنقذتِ حياتي، ثم سألها عن سكنها فحكت له.

ـ وهل أنتِ منسجمة مع صاحبة البيت؟

لم يستطع أن يفكّر بما هو أفضل من هذا السؤال، وخاف من الصمت الذي قد يعقب ذلك والارتباك الذي قد يكون مقدّمة تخبره فيها أنّها مسرورة من اللقاء ثانية. لا بدّ أن تعود إلى عملها الآن. كلّ ما يجمع بينهما بضع دقائق أنفقاها في المكتبة قبل سنوات. أتراها بالغة الضعف والرقّة؟ يسهل عليه أن يراها تتحوّل إلى أخت. أتراها خاب ظنّها؟ لقد نحل جسده وانكمش من جميع النواحي. جعله السجن يحتقر نفسه في حين بدت هي مدهشة رائعة، تمامًا كما يتذكّرها، خاصّةً وهي ترتدي زيّ ممرّضة. ولكنّها متوتّرة توتّرًا يبعث على الشفقة والرثاء أيضًا، عاجزة عن الالتفاف من حول التفاهات. وحاولت بدلاً من ذلك أن تكون خالية من الهموم، ناعمة البال بشأن مزاج صاحبة المنزل. وبعد بضع جمل تبادلاها في جلستهما كانت ترنو إلى ساعتها الصغيرة حقًّا والمعلّقة فوق نهدها الأيسر، وتقول له إنّ استراحة غدائها توشك على نهايتها. كان لديهما نصف ساعة.

سار وإيّاها إلى مقرّ الحكومة في الوايت هول باتّجاه موقف الحافلات. وفي غضون الدقائق الأخيرة الثمينة دوَّن عنوانه، مجموعة بائسة من الأرقام والكلمات، وأوضح لها أنّه لن يتمتّع بإجازة أخرى إلاّ بعد انتهاء تدريبه الأساس. أمّا بعده فسوف يتمتّع بإجازة أسبوعين. كانت تنظر إليه وتهزّ رأسها بتذمّر إلى حدٍّ ما، إلى أن أمسك بيدها أخيرًا وضغط عليها. هذه الإشارة ستحمل معها كلّ ما لم يقله، فردَّت عليه بضغط من يدها.

وصلت الحافلة التي ستقلّها، ولكنّها لم تجذب يدها. كانا يقفان وجهًا لوجه. قبّلها قبلة خفيفة أوّل الأمر، ولكنّهما اقتربا أكثر، وعندما تلامس لساناهما شعر أنّ جزءًا منه كان شديد الامتنان لأنّه علم أنّ لديه ذكرى معلّقة بالضفّة، وأنّه سوف يعيش عليها طوال الأشهر المقبلة، بل هو يعيش عليها الآن في مستودع فرنسي في الهزيع الأخير من الليل.

تعانقا عناقًا قويًا لا فكاك منه، واستمرّا يتبادلان القبلات فيما الناس يتجاوزونهما في صفّ الانتظار. تناهى إلى سمعه صوت بطاقة تنضغط وأدرك أنّها كانت تبكي على وجنته وأنّ حزنها مطّ من شفتيها فوق شفتيه. ووصلت حافلة أخرى فانسحبت عنه، وضغطت على رسغه، واستقلّت الحافلة دون أن تنبس بكلمة، دون أن تنظر إلى الوراء. راقبها حتى وجدت لها مقعدًا. وعندما بدأت الحافلة تتحرّك أدرك أنّه كان يتعيّن عليه أن يرافقها طوال الطريق حتى وصولها إلى المستشفى. لقد أنفق دقائق في صحبتها، ويجب عليه أن يتعلّم ثانية كيف يفكّر ويتصرّف من أجل نفسه. بدأ يهرول على امتداد مبنى الوايت هول، مؤمّلاً أن يلحق بها عند محطّة الوقوف القادمة، لكنّ حافلتها كانت قد مضت بعيدًا، وسرعان ما توارت عن الأنظار باتّجاه ساحة البرلمان. واصل الاثنان المراسلة طوال مدّة تدريبه، وبعد أن تحرّرا من الرقابة ومن الحاجة إلى الابتكار، واصلا الكتابة بحذر واحتراس. نفد صبرهما وهما يعيشان على الورق حذرين من الصعوبات وواعيين بتجاوز ما هو أكثر من لمسة يد وقبلة يتيمة عند محطّة انتظار الحافلة. قالا إنّهما متحابّان، مستخدمين الكلمتين حبيبي وحبيبتي، وكانا يعرفان أنّ مستقبلهما معًا، ولكنّهما توقّفا دون علاقات جنسيّة أشدّ عنفًا. مهمّتهما الآن البقاء مرتبطين حتى هذين الأسبوعين. ومن خلال أحد معارفها منذ أيّام الدراسة في كلّيّة غيرتون، تمكّنت من العثور على بيت ريفي صغير في ويلتشاير بإمكانهما البقاء فيه مدّة معيّنة، وعلى الرّغم من أنّهما لم يفكّرا في أيّ شيء آخر إلاّ نادرًا في لحظات الفراغ، فإنّهما لم يحاولا أن يحلما بها في رسائلهما. وعوضًا عن ذلك، فقد تحدّثا عن الأمور

الاعتياديّة، فهي الآن تعمل في قسم التوليد، وفي كلّ يوم كانت تأتي بمعجزات عاديّة، فضلاً على لحظات دراميّة أو هازلة. ثمّة مآسٍ أيضًا تلاشت أمامها مشاكلهما: ولادات ميتة، أمّهات توافيهنّ المنيّة، شبّان يبكون في الممرّات، أمّهات ذاهلات مراهقات تخلّت عنهنّ أسرهنّ، تشوّهات ولاديّة تستدعي الخجل والمحبّة بمقاييس مضطربة. وعندما كانت تصف حالة سعيدة، اللحظة التي تنتهي فيها المعركة وتحضن الأمّ المرهقة وليدها بين ذراعيها لأوّل مرّة، وترمقه بنظرة فرح وسرور، فتلك لحظة نداء صامت موجّه إلى سيسليا ومستقبلها، المستقبل الذي ستشاركه إيّاه، الذي يمنح الكتابة سطوتها البسيطة وإن كانت أفكاره في حقيقة الأمر لا تستند إلى الولادة قدر ما تستند إلى الحمل.

ووصف بدوره ساحة التدريب، ومدى البندقيّة، والتدريبات و«الأوامر» والثكنات. لم يكن مؤهّلاً لتدريب يصبح من بعده ضابطًا، ولو كان مؤهّلاً وأصبح ضابطًا لكان التقى، عاجلاً أو آجلاً، في المكان المخصّص لإقامة الضبّاط ومأكلهم من يعرف عن ماضيه. كان مغمورًا وسط الجنود، وتبيّن له أنّ من الضروري أن تكون له مكانة خاصّة إذا ما أراد أن يكون من أهل البيت. واكتشف أنّه كان مهيّأً على نحو جيّد للنظام العسكري، ولأهوال التفتيش العسكري، وثني البطّانيّات ثنيّات مربّعة ذات حجم محدّد. وعلى العكس من زملائه، كان يعتقد أنّ وجبات الطعام ليست سيّئة أبدًا. وبدت له الأيّام غنيّة بتنوّعها وإن كانت مرهقة، ومنحه سيره على امتداد الريف والحقول متعة لا يملك الشجاعة للتعبير عنها أمام غيره من المجنّدين. ازداد وزنه وقوّته، وأشّر تعليمه وعمره سقوطه، ولكنّ ماضيه عوّض عن ذلك، ولم يزعجه أحد. كانوا ينظرون إليه على أنّه طير حكيم عجوز يعرف «أساليبهم»، وأنّه كان دقيقًا عندما يتطلّب الأمر ملء استمارة. وحذا حذوها في أنّه اقتصر في الكتابة إليها على شرح ما هو يومي، وما ينطوي عليه اليوم من مفارقات مضحكة أو مفزعة: فهذا جندي يأتي إلى ساحة الاستعراض دون حذاء، وذلك خروف

دخل الثكنات العسكريّة خطأ وباتت مطاردته صعبة داخلها، في حين كاد العريف المعلّم أن يلقى حتفه برصاصة عند التصويب على الهدف.

ولكن حدث تطوّر خارجي وحيد، ظلٌّ واحدٌ لا بدّ له من الإشارة إليه. فقد كان متأكّدًا بعد ميونيخ في العام الماضي أنّ الحرب واقعة لا محالة، شأنه في ذلك شأن الجميع. وأصبح تدريبهم منظّمًا ومتسارعًا، قلقًا خوفًا من المعركة التي قد يخوضها، بل من التهديد الذي ينتظر حلم ويلتشاير. عكست مخاوفه بتفاصيل الترتيبات والطوارئ في المستشفى ـ أسرَّة إضافيّة، محاضرات متخصّصة، تدريبات على الطوارئ ـ لكنّهما كانا يشعران أنّ كلّ هذا ينطوي على شيء رائع بعيد وإن كان محتملاً. الناس يردّدون: ليس ثانية مؤكّدًا. وهكذا استمرّوا متشبّثين بآمالهم.

قضيّة أخرى أقرب من كلّ هذا هي التي أقلقته، فسيسليا لم تكلّم أبويها ولا أخاها ولا أختها منذ شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٥، عندما صدر الحكم على روبي. لم تكن ترغب في الكتابة إليهم، ولا في أن يعرفوا عنوانها. كانت رسائله تصلها عن طريق أمّه التي باعت البيت الريفي الصغير وانتقلت إلى قرية أخرى. ومن خلال غريس، جعلت أسرتها تعرف أنّها بخير وأنّها لا تريد أن يتّصل أحدٌ بها. كان ليون قد جاء إلى المستشفى مرّة واحدة، ولكنّها لم تكلّمه بعد أن انتظرها خارج البوّابة طوال فترة ما بعد الظهر. وعندما شاهدته، تراجعت إلى داخل المستشفى حتى انصرف، وفي صباح اليوم التالي كان ينتظر أمام باب فندق الممرّضات، لكنّها اندفعت من أمامه ولم تنظر نحوه. وعندما أمسك بمرفقها تخلّصت منه ومضت في سبيلها، غير مكترثة، ظاهريًا، بتوسّلاته.

كان روبي يعرف أكثر من غيره مدى حبّها لشقيقها، ومدى تعلّقها بأسرتها، وما يعنيه لها البيت والرحبة الواسعة المحيطة به. لا يمكنه العودة أبدًا، ولكنّه قلق بسبب اعتقاده أنّها كانت تدمِّر جزءًا من حياتها في سبيله.

أخبرها بأنّه يخمِّن أنّ التدريب سيستغرق شهرًا واحدًا، وليست هذه هي

المرّة الأولى التي يتدرّبون فيها، لكنّ القضيّة أضحت واضحة أكثر من ذي قبل.

ردَّت مجيبة على رسالته:

«لقد انقلبوا ضدّك، كلّهم، حتى أبي. عندما حطّموا حياتك، فإنّهم حطّموا حياتي أيضًا، اختاروا أن يصدّقوا دليلاً قدّمته فتاة صغيرة غبيّة ومهسترة، بل شجّعوها عندما لم يفسحوا لها المجال للعودة. أعرف أنّها طفلة في الثالثة عشرة، لكنّني لا أريد أن أكلّمها بعد الآن. أمّا الآخرون، فلا يمكنني أن أغفر لهم ما فعلوه. واليوم، وبعد أن انفصلت عنهم، فقد بدأت أفهم صفة التعالي المتوارية من وراء غبائهم. فأمّي لم تغفر لك تفوّقك وظهورك بالمركز الأوّل في الدراسة. أمّا أبي فقد فضَّل أن يستغرق في عمله، في حين كشف ليون عن نفسه معتوهًا، يبتسم ابتسامة عريضة، ضعيفًا، ينسجم مع أيّ شخص. وعندما حاول هاردمان أن يغطّي على داني، لم يرغب أيّ فرد من أفراد أسرتي أن تطرح الشرطة أسئلة بديهيّة عليه، وأرادت أن تقاضيك أنت. لم يرغبوا في اختلاط أوراق قضيّتهم. أعرف أنّني أبدو مستاءة جدًّا، لكنّني لا أريد أن أكون مستاءة يا حبيبي. إنّني سعيدة السعادة كلّها في حياتي الجديدة ومع أصدقائي الجدد. أشعر أنّ في وسعي أن أتنفّس الآن. الأهمّ من كلّ هذا هو أنّني أعيش من أجلك. لا بدّ من خيار على أرض الواقع: إمّا أنت أو هم، كيف يمكن الجمع بين خيارين؟ لم تراودني لحظة شكّ واحدة.. أحبّك.. أصدّقك تمامًا، أنت أعزّ الناس عندي، وسبب حياتي. سي».

كان يحفظ هذه الأسطر الأخيرة عن ظهر قلب، وردّدها وسط الظلمة، سبب حياتي، لا العيش بل الحياة. ذلكم هو بيت القصيد، كما أنّها سبب حياته أيضًا، والسبب الذي يدفعه إلى البقاء حيًّا.

مكث مستلقيًا على جنبه، محدّقًا في المكان الذي كان يعتقد أنّه مدخل المستودع، منتظرًا تباشير الضياء الأولى. لم يستطع الخلود إلى النوم الآن بسبب شدّة إرهاقه. كلّ ما كان يريده هو الانطلاق سيرًا على قدميه ناحية

الساحل. لا يوجد بيت ريفي صغير له في ويلتشاير. فقبل أن ينتهي تدريبه بثلاثة أسابيع أُعلنت الحرب، وكان ردّ الفعل العسكري سريعًا يشبه ردّ فعل الحليم، فأُلغيت كلّ الإجازات، وبعد وقت قصير تحوّلت كلمة أُلغيت إلى أُجّلت. أعطوا تاريخًا محدّدًا، ثم غيّروه وبعد ذلك ألغوه، وبعد ذلك صدرت تذاكر القطارات خلال أربع وعشرين ساعة. لديهم أربعة أيّام قبل أن يعودوا لتسجيل أسمائهم والالتحاق بسريّتهم الجديدة.

سَرتْ شائعة مفادها أنّهم سيتحرّكون. حاولت أن تنظّم تواريخ إجازاتها ولم تنجح إلاّ نجاحًا جزئيًّا. وعندما بذلت محاولة أخرى في سبيل ذلك، لم تُوفّق. ولمّا وصلت بطاقته التي يخبرها فيها عن موعد وصوله، كانت متّجهة إلى ليفربول لدراسة موضوع تمريض المصابين بالصدمات النفسيّة العنيفة في مستشفى ألدرهاي. وفي اليوم التالي لوصوله لندن، انطلق في أثرها شمالاً، لكنّ القطارات كانت بطيئة جدًّا، وكانت أولويّة المرور للقطارات العسكريّة المتّجهة جنوبًا. وفي محطّة نيوستريت بمدينة برمنغهام، فاته الالتحاق بقطار، في حين أُلغيت رحلة القطار التالي، واضطرّ إلى أن ينتظر حتى صباح اليوم التالي. ظلّ يذرع رصيف المحطّة لنصف ساعة غير قادر على اتّخاذ قرار، لكنّه اختار في نهاية المطاف أن يرجع من حيث أتى. فالتأخّر في الحضور لأداء الواجب قضيّة خطيرة. في الوقت الذي رجعت فيه من مدينة ليفربول، كان هو ينزل في بلدة تشيربورغ، أمامه أشدّ فصل شتاء مدعاة للكآبة يمرّ به في حياته. شاركها في تحمّل مشاقّ الدراسة، لكنّها شعرت أنّ مهمّتها هي أن تكون إيجابيّة ومهدّئة.

في أوّل رسالة أرسلتها له بعد رجوعها من مدينة ليفربول كتبت: «لن أهرب منك.. سأنتظرك.. ارجع». كانت تستشهد بنفسها، تعرف أنّه سيتذكّر، من ذلك اليوم فصاعدًا، أنّ هذه هي الطريقة التي كانت تختتم بها كلّ رسالة من رسائلها إلى روبي في فرنسا، حتى آخر رسالة، وهي التي وصلت قبل صدور الأوامر بالانسحاب إلى دنكرك.

كان شتاءً طويلاً وقاسيًا عانته الحملة البريطانيّة في شمال فرنسا. لم يحدث شيء كثير: حفروا الخنادق، وأمّنوا خطوط التموين، وأُرسلوا لإجراء تمرينات ليليّة رآها المشاة مثيرة للضحك لأنّ هدفها لم يوضّح لهم فضلاً عن نقص الأسلحة.

أمّا خارج أوقات الدوام، فكان كلّ واحد منهم جنرالاً، أدنى الجنود رتبة يقرّر أنّ الحرب لن تكون حرب خنادق هذه المرّة. لكنّ الأسلحة المضادّة للدبّابات التي كان يتوقّع وصولها لم تصل قطّ.

أمّا أسلحتهم الثقيلة فكانت قليلة العدد. الوقت هو وقت السأم، ولعب كرة القدم ضدّ وحدات أخرى، والسير طوال النهار وعلى امتداد طرقات ريفيّة بكامل تجهيزاتهم، لا شيء يؤدّونه على مدى ساعات متّصلة سوى المحافظة على تجانس الخطوات، والاستغراق في أحلام اليقظة على إيقاع وقع الأحذية الثقيلة على الإسفلت. كان منهمك التفكير فيها، ويخطّط لرسالته القادمة، مهذّبًا عباراته، محاولاً أن يعثر على الهزل في السأم.

لعلّ لمسات الاخضرار الأولى على امتداد الدروب الريفيّة الفرنسيّة وسديم الزهور الجرسيّة الصغيرة التي يمكن مشاهدتها في الغابة هي التي جعلته يشعر بالحاجة إلى المصالحة والبدء من جديد.

قرّر وجوب إقناعها الاتّصال بوالديها.

ليست مضطرّة إلى أن تغفر لهم، ولا الخوض مجدّدًا في جدال قديم.

كلّ ما عليها هو أن تكتب رسالة قصيرة وبسيطة تخبرهم فيها بعنوانها وحالها.

من يستطيع التنبّؤ بالتغييرات التي قد تحدث في السنوات القادمة؟

كان يعلم جيّدًا أن تبكيت ضميرها سيكون لا أوّل له ولا آخر، إذا لم تتصالح مع والديها قبل أن توافي المنيّة أحدهما، وإنّه لن يغفر لنفسه إذا لم يشجّعها على ذلك.

وهكذا كتب لها رسالة في شهر نيسان، لكنّ ردَّها لم يصله إلاّ في أواسط أيّار عندما كانوا يتقهقرون إلى خطوطهم، قبل أن يصلهم الأمر بالانسحاب انسحابًا شاملاً حتى القنال.

لم يحدث احتكاك مع نيران العدوّ، الرسالة في جيبه العلوي الآن، رسالتها الأخيرة التي وصلته قبل أن ينهار النظام البريدي انهيارًا تامًّا:

«. . لن أخبرك عن هذا الشيء الآن، فأنا ما زلت لا أعرف بماذا أفكّر، وأردت أن أنتظر حتى نلتقي معًا. والآن وصلتني رسالتك. لا فائدة إن لم أخبرك.

المفاجأة الأولى هي أنّ بريوني ليست موجودة في كيمبردج، ولم تذهب إلى هناك في فصل الخريف الماضي، ولم تأخذ مكانها هناك. لقد استولت عليّ الدهشة لأنّني سمعت من دكتور هال أنّهم يتوقّعون وصولها. المفاجأة الأخرى هي أنّها التحقت الآن بدورة تدريبيّة في التمريض في مستشفاي القديم. هل يمكنك أن تتصوّر بريوني ممسكة بمبولة سريريّة؟ أعتقد أنّهم كلّهم قالوا الشيء نفسه عنّي، لكنّها فتاة مغرقة في الخيال، ونحن نعلم أنّ هذا كلَّفنا الشيء الكثير. أشعر بالرثاء للمريض الذي تحقنه بيديها. رسالتها مرتبكة ومربكة. تريد أن نلتقي، فقد بدأت تُدرك إدراكًا كاملاً ماذا فعلتْ، وما الذي أدّى إليه فعلها. الواضح أنّ عدم التحاقها بالدراسة هو شأنها، وهي تقول إنّها تريد أن تكون نافعة نفعًا عمليًّا. لكن لديّ الانطباع أنّها قرّرت العمل في التمريض كفّارة عن ذنب اقترفته.

تريد أن تأتي لرؤيتي والحديث معي. ربّما أكون مخطئة في ظنّي، ولهذا السبب أريد الانتظار لمناقشة الموضوع وإيّاك وجهًا لوجه، ولكنّني أعتقد أنّها تريد أن تعترف علنًا بأنّها كانت مخطئة. وأعتقد أنّها تريد أن تبدّل شهادتها رسميًّا أو قانونيًّا. قد لا يكون هذا ممكنًا خاصّةً في ضوء رفض طلب استئنافك. نحن بحاجة إلى أن نعرف تفاصيل كثيرة عن القانون، ربّما سأذهب إلى محامٍ، لأنّني لا أريد أن نعلّق آمالنا من أجل لا شيء. ربّما قد لا تعني ما

أظنّ أنا شخصيًّا أنّها تعنيه، أو قد لا تكون مستعدّة لمتابعة القضيّة حتى النهاية. تذكر مدى استغراقها في الأحلام. لن أفعل شيئًا حتى أسمع منك. إنّني ما كنت أريد أن أخبرك عن هذا كلّه، لكنّك عندما كتبت إليَّ لتخبرني من جديد بوجوب أن أتّصل بوالدي (وأنا معجبة هنا بروحك الكريمة)، فقد توجّب عليَّ أن أخبرك لأنّ الموقف قد يتغيّر. وإذا لم يكن ممكنًا قانونيًّا لبريوني أن تقف أمام القاضي وتخبره بأنّها تريد إعادة النظر في إفادتها، عندئذٍ يمكنها في الأقلّ إخبار والدينا بالحقيقة، وبعدها يغدو في وسعهما اتّخاذ قرار بشأن ما يريدان عمله. فإذا استطاعا أن يحرّرا اعتذارًا مناسبًا لك، فربّما يمكننا بعد ذلك أن نبدأ بداية جديدة.

إنّ تفكيري بها لا ينقطع، فالتحاقها بالتمريض، وقطع كلّ صلة لها بجذورها، خطوة أكبر من خطوتي أنا شخصيًّا. فأنا في الأقلّ أنفقت ثلاث سنوات في كيمبردج، وكان لديّ سبب واضح في رفض أسرتي. لا بدّ أنّ لديها أسبابها أيضًا. لا يمكنني أن أنكر أنّني متشوّقة لمعرفة السبب، لكنّني في انتظارك يا حبيبي كي تخبرني بما يدور في ذهنك.. نعم، وعلى فكرة، قالت إنّ سيريل كونولي[(١)] رفض نشر مقالة في مجلّة هورايزون لها. وهنا يمكن للمرء أن يتخيّل مدى خيالها البائس. هل تتذكّر التوأمين الخديجين اللذين أخبرتك عنهما؟ لقد توفّي التوأم الأصغر. توفّي ليلاً أثناء نوبة عملي، وتألّمت الأمّ تألّمًا شديدًا، وسمعنا أنّ الأب كان يعمل مساعدًا لأحد البنّائين، وأعتقد أنّنا كنّا نتوقّع أن نرى شخصًا مشاكسًا تتدلّى سيكارته من شفته السفلى.

---

(١) سيريل كونولي (١٩٠٣ ـ ١٩٧٤) Cyril Connolly: كاتب وناقد وُلد في كوفنتري بإنكلترا لأب كان رائدًا في الجيش. درس في إيتون وأصبح رفيق الروائي المعروف لاحقًا غراهام غرين. بدأ حياته الصحافيّة بالكتابة في صحيفة نيوستيتسمان اليساريّة الهوى. وفي عام ١٩٣٩، أسّس مع الشاعر ستيفن سبندر مجلّة «هورايزون» (الأفق) الأدبيّة، وظلّ رئيسًا لتحريرها حتى توقّفها عن الصدور في عام ١٩٥٠. عمل محرّرًا أدبيًّا لصحيفة «الأوبزرفر» اللندنيّة (١٩٤٢ ـ ١٩٤٣)، وفي «الصاندي تايمز». أهمّ أعماله الأدبيّة مقالاته الأدبيّة الصادرة بمجلّدين (١٩٣٨ و١٩٥٣) (المترجم).

كان يعمل في مدينة إيست إنغليا مع مقاولين أُعيرت خدماتهم للجيش، لبناء خطوط دفاعيّة ساحليّة، وهذا هو السبب الذي جعله يصل متأخّرًا إلى المستشفى. وهناك تبيّن أنّه رجل وسيم، بهيّ الطلعة، في التاسعة عشرة من عمره، ويتجاوز طوله ستّة أقدام، شعره أشقر، يتهدّل على جبينه، مشوّه القدم مثل بايرون[1] ولهذا لم يلتحق بالجيش. قالت جيني إنّه يشبه إلٰهًا إغريقيًّا. كان غاية في الرقّة، والنعومة والصبر عندما واجه زوجته الشابّة. لقد تأثّرنا كلّنا لذلك، أكثر الأشياء مدعاة للحزن هو أنّه لم يكد يصل ويهدّئ من روع زوجته حتى انتهى وقت الزيارة، وجاءت رئيسة ممرّضات وأرغمته على الانصراف مع الآخرين، فبدأنا نحلّل وننتقد. فتاة مسكينة، لكن منذ أن تحين الساعة الرابعة حتى تغدو القوانين صارمة. لا بدّ لي من الإسراع لإرسال هذه الرسالة إلى دائرة بريد بيلهام للفرز. مؤمّلة أن تعبر القناة وتصلك قبل حلول عطلة نهاية الأسبوع. لكنّني لا أرغب في اختتام رسالتي بحكاية حزينة. فأنا سعيدة بهذه الأخبار الخاصّة بأختي، وما يمكن أن تعنيه لنا. لقد استمتعت بقصّتك عن مراحيض العرفاء، وقرأتها أمام الفتيات فضحكن ضحك المجانين، سعيدة جدًّا لأنّ ضابط الاتّصال عرف أنّك تتكلّم الفرنسيّة فمنحك عملاً تستفيد منه. ما الذي جعلهم يستغرقون وقتًا طويلاً كي يكتشفوا قدراتك ومؤهّلاتك؟ هل آثرت البقاء في الظلّ؟ أنت محقّ بشأن الخبز الفرنسي ـ ما إن تأكله حتى تشعر بالجوع من جديد بعد عشر دقائق، خبز منفوخ بداخله هواء وليس عجينة. بيلهام ليست سيّئة على النحو الذي وصفته لك، سأكتب مفصّلاً عن هذا

---

(١) جورج غوردون بايرون (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤) George Gordon Byron: درس في جامعة كيمبردج ونَشر في ١٨٠٧ مجموعة شعريّة لاقت النقد المرير في مجلّة «أدنبرة ريفيو». سافر خارج إنكلترا وزار البرتغال واليونان وإسبانيا ولبنان، ولدى عودته نشر مقاطع من ديوانه الكبير «تشايلد هارولد». تزوّج في ١٨١٥ ولكنّه انفصل عن زوجته بعد سنة واحدة غادر بعدها إنكلترا ولم يعد إليها، ساخطًا على قيود ما أسماه المجتمع المنافق. كتب أعمالاً شعريّة ومسرحيّة كثيرة. في بيزا بإيطاليا لاقى شعره شهرة واسعة بين القرّاء على رغم النقد الذي وُجّه إليه على أسس أخلاقيّة (المترجم).

الموضوع في المرّة القادمة. أرفق طيًّا قصيدة للشاعر أودن عن وفاة ييتس[1] وقد اقتطعتها من عدد قديم من أعداد مجلّة لندن ميركوري صدر في العام الماضي. سأذهب لزيارة غريس في عطلة نهاية الأسبوع، وسأفتّش في صناديقك عن ديوان هاوسمان. لا بدّ لي من الإسراع، أنت في أفكاري كلّ دقيقة.

أحبّك... سأنتظرك.. إرجع.

سي».

* * *

استيقظ على وخزة حذاء ثقيل على ظهره.

ـ هيَّا أيّها الحاكم، انهضْ واصحُ.

جلس في مكانه ورنا إلى ساعته، كان مدخل المستودع مستطيلاً أسود مائلاً إلى الزرقة.

فكّر أنّه نام أقلّ من خمس وأربعين دقيقة. أفرغ ماسي الأكياس وفكّك المنضدة، وجلسوا صامتين فوق بالات التبن يدخّنون أوّل سكائر الصباح. وعندما خطوا خارج المستودع وجدوا قدرًا من الفخّار بغطاء خشبي ثقيل، وبداخله رغيف خبز وقالبًا من الجبن ملفوفين بقطعة قماش من الموسلين، وسرعان ما بدأ تيرنر يقسم التموين بسكّينه.

---

(١) وليم بطلر ييتس (١٨٦٥ ـ ١٩٣٩) William Butler Yeats: وُلد في دبلن عاصمة إيرلندا ودرس فيها حيث بدأت اهتماماته بالصوفيّة، وأهمل دراسة الفنّ مفضّلاً عليه الأدب والتأليف. أسهم في إنشاء المسرح القومي الإيرلندي. درس الأساطير والخرافات الإيرلنديّة وكتب عنها. نحا أسلوبه الشعري في أوّل الأمر منحى أساليب شعراء ما قبل الرافائيليّة ولكنّه ابتعد عنه فيما بعد بسبب تعقيداته الشكليّة. نشر عددًا كبيرًا من الدواوين الشعريّة والمسرحيّات الشعريّة، وأصبح عضوًا في مجلس الشيوخ لدولة إيرلندا الحرّة (١٩٢٢ ـ ١٩٢٨) ونال جائزة نوبل في الأدب سنة ١٩٢٣ (المترجم).

تمتم:

ـ ربّما نفترق.

كان الضوء ينبعث من داخل المنزل الريفي، والكلاب مسعورة عندما مضوا في سبيلهم. تسلّقوا بوّابة وبدأوا يشقّون طريقهم في حقل زراعي، متّجهين ناحية الشمال، وبعد ساعة واحدة توقّفوا في غابة صغيرة ليشربوا من حافظات مائهم وليدخّنوا. درس تيرنر الخارطة. كانت القاذفات الأولى تحلّق عاليًا فوق الرؤوس، قوامها زهاء خمسين قاذفة من طراز هينيكلز، متّجهة، مثلهم، نحو الساحل. بدأت طلائع الصباح ولم تكن هناك سوى سحب قليلة. يوم مثالي للسلاح الجوّي الألماني، ساروا صامتين ساعة أخرى. الطريق خلو من أيّ ممشًى أو درب، لكنّه عثر على طريقه باستعماله البوصلة داخل حقول تحتشد بالأبقار والأغنام واللفت وسنابل القمح القصيرة. لم يكونوا بمأمن كما تصوّر، وهم بعيدون عن الطريق العامّ. ففي أحد حقول الماشية رأوا ستّ حفر أحدثتها القذائف، ورأوا أشلاء بشريّة، عظامًا وجلدًا تعلوه خطوط داكنة، على امتداد مائة ياردة. لكن كلّ رجل من هؤلاء الرجال كان مستغرقًا في أفكاره، لا ينبس بكلمة. اضطرب تيرنر بسبب الخارطة، وظنَّ أنّهم يبعدون عن دنكرك مسافة خمسة وعشرين ميلاً. ولكن كلّما اقتربوا في سيرهم، وجدوا صعوبة في الابتعاد عن الطريق العامّ. الأشياء كلّها تتّجه نحو نقطة واحدة. أمامهم أنهار وقنوات لا بدّ من عبورها، وعندما انطلقوا نحو الجسور، فإنّهم سوف يضيّعون الوقت إذا ما اختصروا الطريق إليها وسط الريف. بعد أن تجاوزت الساعة العاشرة توقّفوا ليحظوا بقسط آخر من الراحة.

كانوا قد صعدوا من فوق سور كي يصلوا إلى درب ترابي، لكن تيرنر لم يستطع العثور على الطريق على الخارطة. كان الدرب يتّجه نحو الاتّجاه الصحيح على أيّة حال، ممتدًّا فوق أرض منبسطة تخلو من الأشجار تقريبًا. مضى على سيرهم نصف ساعة أخرى سمعوا بعدها النيران المضادّة للطائرات على بعد ميلين من أمامهم، وكان بإمكانهم مشاهدة برج كنيسة أيضًا.

توقّف كي يتأكّد من الخارطة ثانية.

قال العريف نيتل:

ـ يا لهذه الخارطة!

ـ صه! لقد داخلته شكوك.

مال تيرنر بكلّ ثقة على وتد من أوتاد السور، فشعر بالجزء الحادّ منه ينخسه ويضايقه من فوق قميصه. يستحيل مقاومة التحسّس باستخدام سبّابته، لكنّه لم يجد شيئًا باستثناء جسده الغضّ المتمزّق. فبعد ليلة أمس، لم يكن على حقّ عندما أصغى مرّة أخرى لتوبيخ العريفين الساخر. الإعياء والألم يستفزّانه، لكنّه لم يقل شيئًا، بل حاول التركيز. عثر على القرية على الخارطة، ولكنّه لم يعثر على الدرب الترابي، على الرّغم من أنّه يؤدّي إلى ذلك المكان على وجه التوكيد. وكما كان يعتقد فإنّهم سوف يصلون الطريق ولا بدّ لهم من الالتزام بالسير عليه حتى يصلوا خطّ الدفاع عند قناة بيرجيس ـ فيرنيس. ما من طريق آخر، استمرّ مزاح العريفين، فطوى الخارطة وواصل سيره.

ـ ما الخطّة أيّها الحاكم؟

لم يجب.

ـ آه، لا.. لقد أهنتها.

تناهت إلى مسامعهم من وراء النيران المضادّة للطائرات نيران المدفعيّة، مدفعيّتهم، على مسافة أبعد قليلاً إلى جهة الغرب. وفيما هم يقتربون من القرية سمعوا صوت شاحنات بطيئة الحركة. ثم شاهدوها تمتدّ على خطّ يتّجه شمالاً، وكأنّها تمشي مشيًا. الإغراء كبير جدًّا في مواصلة الرحلة وإيّاها، لكنّه كان يعرف من خلال تجربته أنّهم سيكونون هدفًا سهلاً من الجوّ. بإمكانك أن تشاهد وأن تسمع ما هو قادم إذا كنت تقطع الطريق سيرًا على الأقدام.

التقى دربهما الطريق العامّ عند انعطافه بزاوية قائمة خارج القرية مباشرة. تركوا أرجلهم تستريح بالجلوس على حافّة حوض ماء صخري. كانت ثلاث شاحنات زنة عشرة أطنان، وعربات نصف مجنزرة، وعربات إسعاف، تشقّ طريقها وتصدر صريرًا لدى انعطافها من حول المنعطف الضيّق بسرعة تقلّ عن نصف ميل في الساعة، مبتعدة عن القرية، سالكةً طريقًا مستقيمًا طويلاً تحفّ بجانبه الأيسر أشجار الدلب. الطريق يؤدّي مباشرة إلى الشمال، باتّجاه سحابة سوداء من النفط المشتعل خيّمت على الأفق، وأوضحت معالم مدينة دنكرك. لم تعد هناك ضرورة لبوصلة الآن. على امتداد الطريق عربات عسكريّة كسيحة، معطّلة. لن يتركوا شيئًا يستفيد منه العدوّ. ومن فوق الشاحنات المتوارية عن الأنظار، رنا الجرحى بعيون تنمّ عن عدم الفهم أو الاهتمام. وكانت هناك أيضًا عربات مدرّعة وعربات ضبّاط وعربات تحمل مدافع برن، ودرّاجات ناريّة، فضلاً عن سيّارات وعربات مدنيّة وشاحنات زراعيّة وعربات نقل يدفعها رجال ونساء، أو تسحبها الخيول، محمّلة كلّها من الداخل، أو من فوقها، بأغراض منزليّة وحقائب. الهواء رمادي مشوب بأبخرة الديزل، ومن وراء هذا كلّه يمشي مئات من الجنود المرهقين الذين يجرّون خطاهم بتثاقل، متخلّفين عن السير وسط روائح كريهة تارة ويتجاوزون العربات المارّة تارة أخرى، يحملون، معظمهم، بنادقهم ومعاطفهم ـ عِبءٌ تحت دفء الصباح الآخذ بالازدياد. وكانت تسير إلى جانب هؤلاء الجنود عائلات تحمل الحقائب أو الرزم أو صغار الأطفال أو تمسك بأيدي الأطفال.

الصوت البشري الوحيد الذي وصل إلى مسامع تيرنر، مخترقًا طنين المحرّكات، هو صوت عويل الأطفال.

ثمّة أناس كبار السنّ يسيرون وحيدين، أحدهم رجل طاعن في السنّ يرتدي بذلة وربطة عنق فراشيّة الشكل، ويضع في قدميه خفًّا خاصًّا بالسير على البسط، معتمدًا على عكّازين، متقدّمًا تقدّمًا بطيئًا جدًّا حتى إنّ المارّين كانوا يتجاوزونه، متقطّع الأنفاس، عاجزًا عن مواصلة سيره حيثما أراد أن يذهب.

وعلى الجانب البعيد من الطريق، عند المنعطف تمامًا، فتح محلّ إسكافي أبوابه طلبًا للرزق. وشاهد تيرنر امرأة وإلى جانبها طفل صغير تتحدّث إلى صبيّ محلّ عرض فردتي حذاء مختلفتين، كلّ واحدة بيد. ولم يلتفت الثلاثة إلى الموكب من خلفهم. وعلى الجانب الآخر من الطريق، كان رتل من عربات مدرّعة لم تفسد المعركة طلاءها الحديث ينعطف من حول هذه الناصية ليتّجه جنوبًا إلى حيث يزحف الألمان. أملهم الوحيد هو أن ينجحوا في تأخير الفرقة الألمانيّة المدرّعة ساعة أخرى، يتمكّن فيها الجنود من إكمال انسحابهم.

نهض تيرنر واقفًا على قدميه، وشرب الماء من حافظة مائه، والتحق بالموكب، وسار من خلف جنديّين من وحدة مشاة الهايلاند الخفيفة. وهنا انضمّ إليه العريفان، ولم يعد يشعر بأنّه مسؤول بعد الآن عنهما بعد أن التحقوا بالقوّة الرئيسة من الجيش المنسحب. افتقاره إلى النوم زاد من شدّة عدائه. اليوم كدّرته مضايقتهما له وأغضبته، وبدت وقد أفسدت الروح الرفاقيّة التي سادت بينهم ليلة أمس. الحقّ أنّه شعر بمناوأته كلّ الذين من حوله. لقد تضاءلت أفكاره إلى أبعد الحدود، ولم تعد تتركّز إلاّ في بقائه على قيد الحياة ونجاته.

أراد أن يحثَّ العريفين في سيرهما، فأسرع خطاه وتجاوز الأسكتلنديّين، واخترق مجموعة من الراهبات ترعى دزّينتين من الأطفال، وبدا الجميع كأنّهم بقيّة باقية من مدرسة داخليّة كتلك التي مارس التعليم فيها قرب مدينة ليل في الصيف الذي سبق سفره إلى كيمبردج. بدت الحياة له الآن كأنّها حياة رجل آخر، حضارة ميتة. في البدء، تحطّمت حياته، ثم تحطّمت حياة الجميع، سارع من خطواته غاضبًا، مدركًا أنّها خطوات واسعة لا قِبَلَ له بالاستمرار عليها مدّة طويلة.

سبق له أن سار مع رتل كهذا الرتل، في اليوم الأوّل، وكان يعرف ما الذي يبحث عنه.

إلى يمينه ترعة ماء، لكنّها ضحلة ومكشوفة، وعلى الجانب الآخر صفّ من الأشجار.

وفجأة عبر الطريق أمام سيّارة رينو، فما كان من سائقها إلاّ أن ضغط على البوق فجفل تيرنر وثارت ثائرته.. كفى! قفز إلى الوراء نحو باب السائق وفتحه. في داخل السيّارة رجل حسن الهندام، قصير القامة، يرتدي بذلة رماديّة وقبّعة، فضلاً عن حقائب جلديّة رُكنت إلى جانبه. أمّا أفراد أسرته فجلسوا في المقعد الخلفي. أمسك تيرنر بالرجل من ربطة عنقه وكاد أن يوجّه صفعة إلى وجهه الغبي بيده اليمنى المبسوطة، فيما شدَّ يده الأخرى بقوّة كبيرة على رسغه.

ـ ليس هذا بعدوّ أيّها الحاكم!

جذبه العريف ماسي جانبًا دون أن يرخي قبضته في حين سدَّد نيتل، الذي كان خلفه مباشرة، ركلة إلى باب السيّارة فانغلق بقوّة أسقطت المرآة الجانبيّة. وهنا صفّق الأطفال وهتفوا فرحين.

عبر الثلاثة صوب الجهة الأخرى وساروا تحت صفّ الأشجار. كانت الشمس مشرقة تمامًا والطقس دافئًا، لكنّ الظلال لم تستوِ فوق الطريق بعد. كانت بعض العربات المنتشرة في الترع قد دُمِّرت أثناء غارات جوِّيّة. ووُزّعت الأغذية على الجنود الباحثين عن الطعام أو الشراب أو الوقود، وهم من حول الشاحنات المهجورة التي مرّوا بها. مشى تيرنر والعريفان بتثاقل وسط بكرات أشرطة تُستخدم في الآلات الكاتبة وقد تدلّت من داخل علبها، دفاتر قيد مزدوج، ودائع عن مكاتب معدنيّة وكراسيّ دوّارة، وأدوات طبخ وقطع غيار محرّكات، وسروج وركاب وأطقم جياد، ومكائن خياطة، وكؤوس تذكاريّة للعبة كرة القدم، وكراسيّ يتداخل أحدها في الآخر، وعارضة أشرطة سينمائيّة ومولّد كهرباء يعمل بالوقود، حطّمهما شخص ما بعتلة حديديّة مرميّة على مقربة منهما.

مرّوا بسيّارة إسعاف، نصفها في الترعة وقد خُلع أحد دواليبها من مكانه. ثمّة لوحة برونزيّة صغيرة كُتبت عليها: سيّارة الإسعاف هديّة من البريطانيّين المقيمين في البرازيل.

اتّضح لتيرنر أنّ النعاس قد يغالبه وينام وهو سائر في طريقه، وعندئذٍ لن يشعر بهدير محرّكات الشاحنات، وسترتاح عضلات رقبته، ويتدلّى رأسه، وسيصحو عند انحراف قدمه عن السير. نيتل وماسي يرغبان في أن يوصلهما شخص بسيّارته، لكنّه سبق أن أخبرهما، يوم أمس، عمَّا شاهده في ذلك الرتل الأوّل ـ عشرون رجلاً على ظهر شاحنة تزن ثلاثة أطنان وكلّهم لقوا مصرعهم إثر انفجار قنبلة واحدة.

في تلك الأثناء كان قد انكمش في ساقيه ورأسه في مجرور ماء عندما تلقّى الشظيّة في جنبه.

قال:

ـ واصلا سيركما، أمّا أنا فسأبقى هنا.

ولكنّ القضيّة حُسمت، إذ رفضا الانطلاق دونه ـ إنّه بطاقتهما المحظوظة ـ.

وصلوا في سيرهم إلى وراء جنود من وحدة مشاة الهايلاند الخفيفة.

كان أحدهم يعزف على موسيقى القربة، مستحثًّا العريفين كي يبدآ كلاهما بالإنشاد، لكن تيرنر تظاهر بعبور الطريق.

ـ إذا ما بدأت شجارًا فلن أقف إلى جانبك.

وهنا التفت اثنان من الجنود الأسكتلنديّين وبدأ أحدهما يكلّم الآخر كلامًا خافتًا.

هتف نيتل بصوت عالٍ بلهجة الكوكني:

ـ ربّما كان مقدّرًا أن يحدث شيء مربك لو لم يسمعوا صوت عيار

ناري ينطلق من مسدّس من فوق رؤوسهم.

وعندما لحقوا بهم، كانت موسيقى القربة قد توقّفت. في حقل مترامي الأطراف، تجمّع أفراد الخيّالة الفرنسيّة بعد أن ترجّلوا عن جيادهم ليشكّلوا صفًّا طويلاً. وعند رأس القوّة، وقف ضابط وبدأ يطلق النار على رؤوس الجياد واحدًا تلو الآخر. أفراد القوّة في حالة استعداد تامّ، قبّعاتهم على صدورهم في مشهد احتفائي، الجياد تنتظر دورها. زاد هذا الفعل الانهزامي من هبوط معنويّات الجميع. ولم يكن العريفان يقويان على الاشتباك في مجادلة مع الأسكتلنديّين اللذين لم يلتفتا للعريفين أو يلقيا بالاً لهما. وبعد مرور بضع دقائق، صادفتهم خمس جثث في إحدى الترع: ثلاث نساء وطفلان، حقائبهم مرميّة من حولهم. كانت إحدى النساء تضع في قدميها خُفًّا مثل ذلك الرجل العجوز الذي سبق لهم مشاهدته على الطريق. أشاح تيرنر بوجهه جانبًا، موطّدًا العزم على أن لا يقترب. إذا كان يريد البقاء على قيد الحياة، يتعيّن عليه أن يظلّ يقظًا، مراقبًا السماء. لقد بلغ به الإعياء مبلغًا لا قِبَلَ له به، وبدأ ينسى، واشتدّت الحرارة الآن، وترك بعض الجنود معاطفهم تسقط على الأرض. يوم رائع في زمن آخر غير هذا الزمن. سيوصف هذا اليوم بأنّه يوم رائع. الطريق يرتفع ارتفاعًا بطيئًا على مسافة طويلة، يكفي لأن يجرَّ ساقيه جرًّا، ولأن يزداد جرحه إيلامًا.

كلّ خطوة قرارٌ واعٍ، تقرُّحٌ آخذٌ بالتورّم في عقبه الأيسر، ممّا اضطرّه إلى السير على حافّة حذائه. أخرج الخبز والجبنة من حقيبته دون أن يتوقّف، ولكنّه ظمآن لا يقوى على المضغ، فأشعل سيكارة أخرى ليخفّف من غلواء جوعه، وحاول أن يقلّل من مهمّته إلى القضايا الأساسيّة: أن يسير على امتداد الريف حتى البحر. أهناك ما هو أسهل من هذا بعد التخلّص من العائق الاجتماعي؟ إنّه الرجل الوحيد على الأرض، ذو هدف واضح، يسير على امتداد الريف حتى البحر.

الواقع اجتماعي أكثر ممّا ينبغي، وهو يدرك ذلك إدراكًا جيّدًا. الرجال

الآخرون يلحقون به، ولكنّه يلتمس الراحة بالتظاهر، ثمّة إيقاع محدّد في قدميه.

يسير على امتداد الريف حتى البحر، جملة من ستّ كلمات، يسير على إيقاع هذه الكلمات الآن.

عشرون دقيقة أخرى، ثم بدأ الطريق يستوي ثانية. ألقى نظرة خاطفة من فوق كتفه فشاهد الرتل يمتدّ مسافة ميل حتى أسفل التلّ، ولم يتمكّن من مشاهدة نهاية الرتل.

عبروا خطّ سكّة حديد حسب خارطته، يبعدون الآن مسافة ستّة عشر ميلاً عن القنال.

بدأوا يسيرون في أرض تمتدّ عليها مختلف المعدّات المدمّرة: نصف دزّينة من مدافع زنة القذيفة الواحدة خمسة وعشرون رطلاً، متراكمة وراء الترعة كأنّ جرّافة ثقيلة لشقّ الطرق دفعتها بعيدًا. وإلى أعلى، حيث بدأت الأرض تنخفض، تقاطع، وطريق خلفي، وهرج ومرج، ضحكة تتعالى من بين صفوف الجند المشاة، وأصوات مرتفعة من على جانب الطريق. وفيما هو يتقدّم إلى هذه البقعة، رأى رائدًا من المتحمّسين، رجلاً متورّد الوجنتين من المدرسة القديمة، في الأربعينيّات من عمره، يصرخ ويؤشّر باتّجاه غابة على بعد ميل تقريبًا من وراء حقلين زراعيّين. كان يجذب الرجال من وسط الرتل، أو يحاول أن يجرّهم، لكنّ معظم الرجال تجاهلوا أمره وواصلوا سيرهم، ضحك بعضهم منه، لكنّ عددًا قليلاً فقط شعر بالخوف من رتبته العسكريّة فتوقّفوا مع أنّه كان يفتقر إلى السلطة الشخصيّة.

تجمّعوا من حوله وبنادقهم بأيديهم، لكنّهم كانوا غير واثقين.

ـ أنت.. نعم أنت.

وضع الرائد يده على كتف تيرنر، توقّف وأدّى التحيّة قبل أن يعرف ما المطلوب منه، والعريفان من خلفه. كان للرائد شارب قصير يشبه فرشاة

أسنان، يتدلّى إلى أسفل قليلاً، وشفتان ضيّقتان أطبقتا على كلماته بقوّة.

ـ هناك ألماني متخندق مع مدفعي رشّاش في الغابة. لا بدّ أنّه طليعة متقدّمة، سنذهب إليه ونقضي عليه.

شعر تيرنر بالرعب يسري في أوصاله ويضعف ساقيه، وكشف للرائد عن راحتي يديه الفارغتين.

ـ بأيّ شيء يا سيّدي؟

ـ بالحيلة والعمل الجماعي.

كيف يمكن مقاومة هذا الأحمق؟ كان تيرنر مرهقًا، عاجزًا عن التفكير، على الرّغم من أنّه كان يعلم أنّه لن يذهب.

ـ والآن لديّ بقايا فصيلين في منتصف الطريق المؤدّي إلى أعلى. . .

«بقايا» هي الكلمة التي تحكي القصّة وهي التي دفعت ماسي إلى مقاطعته بكلّ مهارته التي اكتسبها من غرف الثكنات:

ـ معذرة يا سيّدي، أرجو السماح لي بكلمة.

ـ ممنوع أيّها العريف.

ـ شكرًا لك يا سيّدي، الأوامر من القيادة العامّة تُفيد بالتقدّم بسرعة وبعجالة، دون تأخير، الانعطاف أو التحوّل إلى دنكرك بهدف الإخلاء الفوري على أساس اجتياحنا اجتياحًا رهيبًا وشاقًّا من جميع الجهات يا سيّدي.

التفت الرائد ونخس بسبّابته صدر ماسي.

ـ والآن انظر إليّ، هذه هي فرصتنا الوحيدة والأخيرة لكي نُظهر. . .

وهنا قال نيتل حالمًا:

ـ إنَّ اللورد غورت هو الذي كتب ذلك الأمر يا سيّدي وأرسله إلينا شخصيًّا.

شعر تيرنر أنّ مخاطبة ضابط على هذا النحو أمر غريب، بل ينطوي على مخاطرة أيضًا، إذْ لم يفهم الرائد أنّه كان موضع سخرية، وظنَّ أنّ تيرنر هو الذي كان يتكلّم لأنّ الكلام الذي تفوّه به بعد ذلك كان موجّهًا إليه.

ـ الانسحاب فوضى عارمة، بالله عليك يا رجل، هذه هي فرصتك الوحيدة والأخيرة الجيّدة لكي نُظهر ما يمكننا عمله عندما نكون حازمين وذوي عزم، الأكثر من هذا...

استرسل في كلامه قليلاً، لكن تيرنر أدرك أنّ صمتًا مطبقًا خيَّم على مشهد الضحى الساطع. لم يكن نائمًا في هذه الأثناء بل كان ينظر من فوق منكب الرائد باتّجاه مقدّمة الرتل. فعلى مسافة بعيدة، وعلى أرض ترتفع حوالى ثلاثين قدمًا عن مستوى الطريق، بدا له شيء ما أشبه بلوح خشبي تلفّه حرارة الشمس ومعلّق أفقيًا وقد انبعج في وسطه.

كلمات الرائد لم تصله، ولا حتى أفكاره الواضحة. حلّق الشبح الأفقي في السماء دون أن يكبر حجمه، وعلى الرّغم أنّه بدأ يفهم معناه، إلاّ أنّه كان يصعب البدء بإظهار ردّ فعل أو تحريك أطرافه، كأنّه في حلم. ردّ فعله الوحيد هو أنّه فتح فاه، لكنّه لم يتمكّن من إصدار أيّ صوت، فضلاً على أنّه لم يعرف ما يقول حتى لو تمكّن من الكلام.

وأخيرًا، وفي اللحظة التي تردّد فيها الصوت تمكّن من أن يصرخ بأعلى صوته:

ـ اذهبوا!!

وانطلق يهرول نحو أقرب ملجأ يلوذ به. كانت صرخته أقلّ النصائح التي تنمّ عن روح الجنديّة وأكثرها غموضًا، ولكنّه شعر أنّ العريفين لا يبعدان كثيرًا عنه.

كما أنّه لم يتمكّن من تحريك ساقيه بسرعة كافية كأنّه في حلم أيضًا. لم يشعر بالألم من تحت أضلاعه بل بشيء ما يخدش العظم، ترك معطفه

يسقط عنه. على مسافة خمسين قدمًا شاحنة زنة ثلاثة أطنان مقلوبة على أحد جانبيها، هيكلها الدهني الأسود، شكلها البصلي المميّز، ملاذه الوحيد الآن. لم يبق أمامه وقت طويل كي يصلها، فهناك طائرة مقاتلة تهاجم الرتل برمّته، رذاذ النيران الواسع يتقدّم باتّجاه الطريق بسرعة مائتي ميل في الساعة، ودويّ إطلاق نيران المدفع الذي يشبه دويّ زوبعة ثلجيّة يهدر مرتطمًا بالمعادن والزجاج. لم يصدر أيّ ردّ فعل بعد من الموجودين داخل العربات شبه المتوقّفة، إذْ كان السائقون ينظرون إلى المشهد من وراء زجاج عرباتهم. كانوا في البقعة التي كان يسير عليها قبل ثوانٍ معدودة. أمّا الرجال الجالسون في مؤخّرة الشاحنات فلم يعرفوا شيئًا، في حين وقف رقيب في وسط الطريق رافعًا بندقيّته. وصرخت امرأة، وانطلقت النيران من فوقهم في الوقت الذي رمى فيه تيرنر بنفسه نحو ظلال الشاحنة المنقلبة. اهتزّ الهيكل الحديدي عندما أُصيب بنيران المدفع إصابة سريعة جنونيّة، واستمرّت النيران تندفع اندفاعًا قويًّا عند نهاية الرتل، يطاردها هدير الطائرة المقاتلة ووميض ظلالها. ضغط تيرنر بنفسه على ظلمة هيكل العربة بالقرب من العجلة الأماميّة.

لم يشمّ من قبل زيت قاع محرّك سيّارة بمثل هذه العذوبة. انتظر طائرة أخرى، متكوّرًا كالجنين، رأسه مطوّقٌ بذراعيه، عيناه مغمضتان تمامًا، لا يفكّر إلاّ في النجاة والبقاء على قيد الحياة. لكن لم يحدث أيّ شيء، بل ظلّت أصوات الحشرات تنبعث في هذا الوقت المتأخّر من الربيع فيما، استأنفت الطيور سقسقتها بعد توقّف قصير.

وهنا بدأ الجرحى يئنّون ويتأوّهون وينادون كأنّهم استمدّوا إشارة البدء بذلك من الطيور، فيما تعالى بكاء الأطفال. وكما هو مألوف، فقد صبَّ أحدهم اللعنات على سلاح الجوّ الملكي. نهض تيرنر واقفًا على قدميه ونفض عنه الغبار عندما برز نيتل وماسي وسارا نحو الرائد الذي كان جالسًا على الأرض، ممتقع الوجه، يعالج يده اليمنى.

قال عندما وصلا ناحيته:

ـ اخترقتها رصاصة تمامًا، محظوظ جدًّا.

ساعداه حتى نهض واقفًا على قدميه، واقترحا عليه أن يأخذاه إلى سيّارة الإسعاف حيث بدأ نقيب وممرّضان من الفيلق الطبّي التابع للجيش الملكي بمعالجة الجرحى، ولكنّه هزَّ رأسه رافضًا، ووقف دون مساعدة من أحد، يهذر من فعل الصدمة بصوت أرقّ.

ـ إم. إي ١٠٩. لا بدّ أنّ هذا هو مدفعه الرشّاش. كان في وسع المدفع أن يفجّر يدي المتورّدة ويبترها، أتدريان؟ عشرون مليمترًا. لا بدّ أنّه انشقّ عن مجموعته وتنبّه لنا وهو في طريقه إلى بلده فلم يستطع المقاومة. حقًّا، لا تثريب عليه، لكنّ هذا يعني أنّ طائرات أخرى ستأتي عمّا قريب.

أمّا الرجال الستّة الذين كان قد اختارهم فقد نهضوا وحملوا بنادقهم من فوق الترعة ومضوا في سبيلهم، وعندما شاهدهم الرائد ثاب إلى رشده.

ـ حسنٌ أيّها الرجال. تراصفوا!

بدا الرجال غير قادرين على مقاومته فتراصفوا في صفّ واحد.

أمّا الرائد فقد بدأ يرتعش قليلاً الآن وهو يكلّم تيرنر.

ـ تقدّموا بخطًى سريعة أيّها الثلاثة!

ـ سأقول لك الحقيقة أيّها الفتى العجوز: أعتقد أنّنا لا نريد الذهاب.

حدَّق الرائد في كتف تيرنر بعينين نصف مغمضتين، متظاهرًا بأنّه يشاهد رتبته العسكريّة المتقدّمة، وحيّاه تحيّة تنمّ عن طيبة قلبه بيده اليسرى وقال:

ـ في هذه الحالة، سنمضي في طريقنا يا سيّدي إنْ كنت لا تمانع، أرجو أن تتمنّى لنا التوفيق.

ـ بالتوفيق أيّها الرائد.

راقبوه وهو يقود مجموعته المتردّدة بعيدًا باتّجاه الغابة، حيث كانت المدافع الرشّاشة بانتظارهم.

مضت نصف ساعة ولم يتحرّك الرتل، فوضع تيرنر نفسه تحت تصرّف الطبيب النقيب ،وساعد المجاميع التي كانت تحمل النقّالات التي تنقل الجرحى. وبعد ذلك وجد لهم أماكن على الشاحنات، لكن ليس هناك ما يُشير إلى وجود العريفين. أحضر التجهيزات ونقلها من الجزء الخلفي من سيّارة الإسعاف. وعندما شاهد تيرنر الطبيب وهو منهمك في عمله، يخيط جرحًا في اليد، راودته أحاسيس وذكريات طموحاته القديمة، لكنّ كمّيّة الدماء النازفة حجبت تفاصيل الكتب المنهجيّة التي تذكّرها. على امتداد رقعة الطريق لم يكن هناك سوى خمسة جرحى. ولم يكن هناك، ويا للغرابة، أيّ قتيل، على الرّغم من أنّ الرقيب صاحب البندقيّة أُصيب في وجهه ولا يُتوقّع له أن يبقى على قيد الحياة. كما أُصيبت ثلاث مركبات في مقدّماتها، فدُفعت دفعًا إلى قارعة الطريق بعد أن أُفرغت من وقودها، وكانت هناك رصاصات قد اخترقت العجلات.

وبعد إنجاز كلّ هذا العمل في علاج الجرحى، ظلّ الرتل واقفًا ولا دليل على تحرّكه في الجانب الأمامي منه. استعاد تيرنر معطفه واستأنف سيره، ظمآنَ لا يقوى على الانتظار في مكانه. وكانت سيّدة بلجيكيّة عجوز مُصابة في ركبتها قد شربت آخر القطرات المتبقّية من مائه. كان لسانه جافًّا، كلّ ما يستطيع التفكير به هو الحصول على شراب، فضلاً على مراقبة السماء. تجاوز مختلف المناطق الشبيهة بمنطقته حيث المركبات معطّلة، والجرحى يُنقلون إلى الشاحنات. ظلّ على هذه الحال متجوّلاً زهاء عشر دقائق، شاهد بعدها رأس ماسي على العشب، قرب كومة من القاذورات، على بعد خمس وعشرين ياردة، تحت ظلال خضر داكنة لمجموعة من أشجار الحور، فاتّجه نحوها حتى بعد أن فكّر أنّ الأفضل لحالته العقليّة أن يواصل سيره، ورأى ماسي ونيتل غائرين حتى أكتافهما داخل حفرة. كانا في آخر مرحلة من مراحل حفر أحد القبور، وعلى بعد مسافة قليلة من كومة التراب، صبيّ في الخامسة عشرة من عمره أو ما يقرب من ذلك مسجًّى ووجهه فوق الأرض، وانتشرت بقعة

قرمزيّة اللون على ظهر قميصه الأبيض بدءًا برقبته وانتهاءً بخصره.

انحنى ماسي من فوق مجرفته وقال مقلّدًا:

ـ أعتقد أنّنا لا نريد الذهاب. جيّد جدًّا أيّها الحاكم. سوف أتذكّر هذا في المرّة القادمة.

ـ كان الانحراف جميلاً، من أين حصلت على ذلك؟

قال العريف نيتل متباهيًا:

ـ من معجم حفظه عن ظهر قلب.

ـ كنت أهوى الكلمات المتقاطعة.

ـ وتغلّبوا عليك على نحو فظيع؟

ـ كانت تلك حفلة موسيقيّة أُقيمت في مبنى إقامة الرقباء في عيد الميلاد الأخير.

وبدأ، وهو ما يزال في القبر، يدندن مع نيتل أغنية بلا لحن من أجل تيرنر:

الاجتياح الرهيب والشاقّ

أنذر بالشرّ عمومًا بكلّ وضوح.

بدأ الرتل يتحرّك من ورائهم.

قال العريف ماسي:

ـ يُستحسن أن نضعه هنا.

رفع الرجال الثلاثة الصبيّ وأدلوا به في الحفرة على ظهره.

وكانت مجموعة من أقلام الحبر مثبّتة في جيب قميصه. لم يتوقّف العريفان احترامًا للمناسبة، بل أخذا يهيلان التراب. وعلى الفور اختفى الصبيّ عن الأنظار.

قال نيتل:

ـ فتًى وسيم.

ثم ثبّت العريفان صليبًا صنعوه من وتدين من أوتاد الخيم، وما إن اكتملت المهمّة حتى عادوا جميعًا إلى الطريق العامّ.

قال ماسي:

ـ كان الصبيّ يرافق جدّيه، ولم يرغب هذان في أن يظلّ في الساقية. فكّرت أنّهما قد يأتيان لإلقاء نظرة وداع عليه، ولكنّ حالتهما فظيعة، الأفضل لنا أن نخبرهما عن مكانه.

لكنّ الجدّين لم يكونا في مكانهما. وفيما استأنفوا سيرهم، أخرج تيرنر الخارطة وقال:

ـ استمرّا في مراقبة السماء.

كان الرائد على حقّ، فبعد مرور الطائرات ميسر شميدت[١] العابر، سوف ترجع ثانية، بل كان ينبغي لها أن تكون قد عادت الآن.

كانت قناة بيرنيس ـ فيرنس مؤشّرة بالقلم الأزرق العريض على خارطته. وبات نفاد صبر تيرنر من أجل الوصول إليها لا ينفصل عن عطشه. سوف يضع وجهه في ذلك الماء الأزرق ويشرب بنهم. دفعته هذه الفكرة إلى ذكريات حمّى الطفولة، ومنطقها الوحشي الرهيب، والبحث عن زاوية باردة من الوسادة، ويد أمّه على حاجبه. عزيزتي غريس. عندما لمس جبينه كان جلده رقيقًا وجافًّا. وشعر أنّ الالتهاب المحيط بجرحه في ازدياد، وبات الجلد مشدودًا، صلبًا يرشح منه شيء ما، غير الدم، على قميصه. أراد أن يُلقي نظرة فاحصة بنفسه على انفراد لكنّ هذا غير ممكن في هذا المكان. كان

(١) نسبة إلى فيلي ميسر شميدت Willy Messerschmitt (1898 - 1978): مصمّم الطائرة التي صمّمها بهذا الاسم في ١٩٣٥ (المترجم).

الرتل يتحرّك ببطء شديد، طريقهم يمتدّ مباشرة نحو الساحل، ولم يعد هنا طريق مختصر يؤدّي إليه. وفيما هم يقتربون، بدأت السحابة السوداء التي كان مصدرها على وجه التأكيد مصفى نفط محترقًا في دنكرك، تفرض سيطرتها على الجزء الشمالي من السماء. لا شيء يمكن عمله سوى المضيّ قدمًا إليها. وهكذا استسلم مرّة أخرى للسير سيرًا ثقيلاً، متباطئًا، مطأطئ الرأس، صامتًا.



لم يعد الطريق الآن محميًّا بأشجار الدلب، وأضحى معرّضًا للهجوم وبلا ظلال، منفتحًا على أرض متموّجة، ملتفًّا التفافًا طويلاً وضحلاً كجسد أفعى. لقد هدر احتياطيًّا ثمينًا في حديث ولقاءات غير مثمرة. وجعله الإرهاق ميّالاً، ظاهريًّا، للمباهاة بنفسه ومدّ يد العون والمساعدة للآخرين، ولكنّه بعد أن قلّل من سرعة سيره ليتماشى ـ وإيقاع حذائه الثقيل ـ اجتاز الحقول حتى وصل البحر. لا بدّ له أن ترجّح الكفّة كلّ ما يعوق تقدّمه، حتى وإن بقدر يسير، بالدافع الذي يدفع به ليحثّ خطاه. ففي إحدى كفّتي الميزان جرحه وظمأه وتقيّحه وإرهاقه والحرّ والألم في قدميه وساقيه والمسافة والقنال. وفي الكفّة الأخرى: سأنتظرك، وذكرى الزمان الذي تفوّهت فيه بها، والذي أصبح ينظر إليه نظرة تقديس. كذلك الخوف من الأسر. لقد أمست ذكرياته الحسِّيّة ـ دقائقها القليلة في المكتبة والقبلة في وايت هول ـ بلا لون لكثرة تذكّره إيّاها. كان يحفظ عن ظهر قلب فقرات بعينها من رسائلها، وتذكّر شجارهما بشأن الزهريّة قرب النافورة، ودفء ذراعها وقت العشاء عندما توارى التوأمان عن الأنظار. كانت تلك الذكريات غذاءه الذي يقتات عليه، لكنّها ليست ذكريات سهلة، إذْ طالما ذكّرته بمكانها، إنّها في الجانب البعيد الذي يفصله عنها زمن، زمن له مغزاه مثل عبارة قبل الميلاد وبعد الميلاد: قبل السجن، قبل الحرب، قبل أن تصبح رؤية جثّة قضيّة عاديّة.

لكنّ هذه الأفكار انتهت وولّت عندما قرأ رسالتها الأخيرة. لمس جيب صدره. الأمر أشبه بحني الركبة احترامًا، لا تزال في موضعها. هنا شيء

جديد على الميزان: براءته لها بساطة الحبّ، توقه لهذا الاحتمال ذكّره بعدد المرّات التي ضاق فيها ومات. توقه للحياة لا يقلّ عن ذلك، وكلّ الطموحات والمتع. الأمل يكمن في ولادة جديدة، في عودة منتصرة. يمكنه أن يصبح ثانية الرجل الذي اجتاز ذات يوم حديقة في مقاطعة ساري وقت غروب الشمس مرتديًا أجمل بذلة لديه، متبخترًا بما تعده به الحياة، الرجل الذي دخل البيت ومارس الحبّ مع سيسليا بعواطف لا تشوبها شائبة ـ لا ـ دعه يستعير الكلمة من العريفين، لقد مارسا الجنس في وقت كان فيه الآخرون يرشفون الكوكتيل على الشرفة.

يمكن للقصّة أن تُستأنف من جديد، القصّة التي كان يخطّط لها أثناء السير في ذلك المساء. لن ينفصل عن سيسليا بعد اليوم، فالحبّ الذي يجمع بينهما يمتلك أرضيّةً ومجتمعًا ينمو فيهما.

لن يذهب ممسكًا بقبّعته يستجدي اعتذارات من أصدقاء صدّوا عنه وتحاشوه، كما أنّه لن يجلس متّكئًا، متباهيًا وبغيضًا، ينأى بنفسه عنهم لقاء ما فعلوه به. إنّه يعرف جيّدًا كيف سيتصرّف، سوف يستأنف حياته بكلّ بساطة. وبعد إسقاط الجريمة عنه، يمكنه أن يقدّم طلبًا للالتحاق بكلّيّة الطبّ عندما تضع الحرب أوزارها، أو يمكنه أن يذهب الآن ويكلّف بمهمّة في الفيلق الطبّي. لو أنّ سيسليا أنهت خلافاتها مع أسرتها، فسوف يُبقي على مسافة بينه وبين أسرتها، دون أن يبدو عليه الاستياء، ولكنّه لن يُقيم علاقات وثيقة مع إميلي أو جاك. لقد سارت قُدمًا في دعواها ضدّه بقوّة غريبة، في حين مضى جاك في سبيله، وتوارى عن الأنظار في وزارته، في اللحظة التي كان يحتاج فيها إليه.

لا يهمّ كلّ هذا، كلّ شيء يبدو بسيطًا من هنا. مرّوا بجثث أخرى على الطريق، في السواقي، وعلى الرصيف، عشرات الجثث، جثث جنود ومدنيّين، الرائحة النتنة قاسية جدًّا، تتغلغل في ثنيّات ثيابه. دخل الرتل الآن قرية مدمّرة بسبب القصف، ربّما كانت ضاحية مدينة صغيرة فالمكان أنقاض

برمّته، ويصعب التعرّف عليه، من يهتمّ؟ من في وسعه أن يصف هذه الفوضى ويأتي بأسماء القرى وبالتواريخ لتدوينها في كتب التاريخ، ويتّخذ موقفًا عقلانيًّا ويبدأ بتحديد المسؤول؟ لا أحد يعرف كيف سارت الأمور في هذا المكان، فإذا ما غابت التفاصيل انعدمت الصورة الكبرى. المتاجر والمعدّات والمركبات المهجورة كلّها خلقت شارعًا من الخردة والنفايات التي وقفت في طريقهم. ولهذا السبب، وبسبب الجثث أيضًا، اضطرّوا إلى السير في وسط الطريق.

لا يهمّ، لأنّ الرتل لم يعد يتحرّك، والجنود يترجّلون من فوق الشاحنات ليواصلوا سيرهم على الأقدام، متعثّرين فوق القرميد وألواح بناء السطوح، في حين مكث الجرحى ينتظرون في الشاحنات. المكان ضاق بالأجساد ضيقًا شديدًا، وزاد الاستياء والسخط. أمّا تيرنر، فقد بقي مطأطئ الرأس يسير وراء الرجل الذي يتقدّمه، حاميًا نفسه بالاستغراق في أفكاره.

سوف تُبرّأ ساحته عندما ينظر للقضيّة من هذا المكان، حيث لا يهمّ أبدًا إن رفعت قدمك ووطئت ذراع امرأة ميّتة. لم يفكّر في أنّه بحاجة إلى اعتذارات أو احتفاءات، فبراءته حالة نقاء، حلم بها مثل عاشق، بتوق بسيط. حلم بها على النحو الذي حلم به غيره من الجنود بمدافئهم أو بتخصيصاتهم أو وظائفهم الحكوميّة القديمة. إذا بدت البراءة عنصرًا أساسيًّا هنا، لا يوجد عندئذٍ أيّ سبب يدفعه لعدم الرجوع إلى إنكلترا، ليُبَرّأ اسمه، عندئذٍ على كلّ فرد أن يُعيد النظر في تفكيره. لقد قضى الآن وقتًا، ولا بدَّ أنّهم ماضون في العمل. كان عمله غاية في البساطة: أن يعثر على سيسليا وأن يحبّها ويتزوّجها ويعيش بلا عار.

لكنّ هناك جزءًا واحدًا في هذا كلّه لا يستطيع التفكير فيه، شكلاً غائمًا لا يمكن للفوضى الممتدّة على مسافة خمسة عشر ميلاً خارج دنكرك أن تختزله إلى شيء بسيط. بريوني. . وهنا اصطدم بالحافّة الخارجيّة لما أسمته سيسليا روحه الكريمة، وعقلانيّته، فإذا التأم شمل سيسليا بأسرتها، وإذا باتت

الشقيقتان قريبتين إحداهما من الأخرى مرّة أخرى، فلا مناص من تحاشيها.

لكن هل يمكنه أن يتقبّلها؟ أيمكنه أن يكون وإيّاها في الغرفة نفسها؟ ها هي تقدّم احتمالاً بالغفران، لكنّه ليس له، فهو لم يقترف أيّ خطأ، بل هو لنفسها، لجريمتها التي لم يعد في إمكان ضميرها أن يتحمّلها. أيفترض به أن يكون معترفًا بالجميل؟ نعم على وجه التوكيد لأنّها كانت طفلةً في سنة ١٩٣٥، وهذا هو ما قاله لنفسه، وما قاله هو وسيسليا أحدهما للآخر مرّات ومرّات. نعم كانت طفلة لا أكثر، لكن ليست كلّ طفلة تودع رجلاً في السجن بناءً على كذبة، ليست كلّ طفلة بهذه الدرجة من الخبث والأذى والتصميم، بهذه الدرجة من الإصرار على مرِّ الزمان، لا تتردّد ولا يداخلها شكّ. لكنّه، وهو في زنزانته، لم يتوقّف يومًا عن الاستغراق في حلم يقظة بأنّ في إمكان أيّ طفل أن يجد مختلف الوسائل للانتقام. وذات يوم في فرنسا، وفي أسوأ أسبوع من أسابيع الشتاء، استحضرها وقد بلغت به الثمالة حدًّا لا مثيل له، على رأس حربته. . بريوني وداني هاردمان، إذْ ليس معقولاً أن يكره بريوني فحسب، لكنّ ذلك آزره وأسعفه.

* * *

كيف يبدأ في فهم عقليّة هذه الطفلة؟ نظريّة واحدة محتملة. في صباح يوم ما من أيّام شهر حزيران سنة ١٩٣٢، وهو يوم حلَّ فجأة على نحو جميل، بعد مدّة طويلة من الأمطار والرياح، في صباح ذلك اليوم الذي قلّما يعلن عن نفسه، حيث شاع الدفء والضياء والأوراق الجديدة، كما هي بداية كلّ شيء حقيقي، والمدخل الكبير إلى فصل الصيف، كان يسير رفقة بريوني من أمام بركة تريتون ووراء السياج الغائر في التربة والنباتات الخلنجيّة، ومنها إلى بوّابة القبلة الحديديّة والممشى الضيّق الملتوي في الغابة. كانت بريوني مبتهجة، ثرثارة، لعلّها كانت في سنّ العاشرة، بدأت توًّا تكتب قصصها الأدبيّة. وكان قد تسلَّم، أسوة بالآخرين، قصّة الحبّ المجلّدة والموضّحة بالرسوم التي ينتصر فيها الحبّ على الكراهية، ويلتئم الشمل وينتهي الأمر بالزفاف. كانا في

طريقهما ناحية النهر ليعلّمها السباحة كما سبق له أن وعدها، وعندما تركا المنزل من ورائهما، ربّما كانت تحكي له قصّة فرغت من كتابتها توًّا، أو كتابًا كانت تقرأ فيه. ربّما كانت تمسك بيده. كانت فتاة صغيرة السنّ، هادئة، عاطفيّة، متكلّفة الجدّ على طريقتها الخاصّة، ولهذا كان هذا الدفق العاطفي غير مألوف. كان سعيدًا وهو يصغي إليها، فقد كان ذلك الوقت مثيرًا لانفعالاته أيضًا. كان في التاسعة عشرة من عمره، الامتحانات توشك على نهايتها ويعتقد أنّه أبلى بلاءً حسنًا فيها، وهذا يعني أنّه لن يعود تلميذ مدرسة بعد اليوم. جرت مقابلته في جامعة كيمبردج على نحو مرضٍ جدًّا، وكان مقرّرًا له أن يسافر إلى فرنسا بعد أسبوعين لتعليم اللغة الإنكليزيّة في مدرسة دينيّة. كان اليوم رائعًا، أشجار بلّوط وزان لا تكاد تتحرّك من فرط ضخامتها، وضياء انهمر كأنّه جواهر من خلال الخضرة الطازجة، مكوّنًا بذلك مجموعة من البرك وسط الأوراق الميّتة منذ السنة الماضية. شعر أنّ هذه الروعة كانت تعكس الزخم الهائل لحياته.

ظلّت تهذر في الحديث، وظلّ هو يصغي إليها قليلاً وراضيًا. وبرز الطريق من بين الغابة ليمتدّ صوب ضفّتي النهر الواسعتين والمعشوشبتين.

سارا إلى أعلى جدول الماء مسافة نصف ميل ليدخلا الغابة من جديد، في هذه البقعة، وعند منعطف في النهر، ومن تحت الأشجار المعلّقة وُجدَ مسبح حُفر منذ أيّام جدّ بريوني، وسدٌّ صخري يبطئ من قوّة انحدار التيّار، فكان مفضّلاً للقفز والغطس في الماء، ولكنّه لم يكن مثاليًّا للمبتدئين. فأنت إمّا تنطلق من عند السدّ، أو تقفز من فوق الضفّة نحو الماء. كان يغطس في الماء، ويتجنّب الغرق بتحريك قدميه، منتظرًا إيّاها، وكان قد بدأ تعليمها السباحة في السنة الماضية، في أواخر الصيف، عندما كان ماء النهر منخفضًا والتيّار بطيئًا. أمّا الآن، فثمّة تيّار في المسبح نفسه، تيّار ثابت متناوب. توقّفت للحظة ثم قفزت من فوق الضفّة لتسقط بين ذراعيه وهي تصرخ. تدرّبت على تجنّب الغرق بتحريك القدمين إلى أعلى وإلى أدنى حتى جرفها التيّار

ناحية السدّ، ثم عاد بها من جديد لتبدأ السباحة ثانية. وعندما حاولت أن تسبح كالضفدع بعد إهمال طوال فصل الشتاء، اضطرّ إلى إسنادها وهو ليس بالأمر السهل، خاصّةً إذا ما كان يحرّك قدميه إلى أعلى وإلى أسفل، لأنّه إذا رفع يده من تحتها فإنّها لن تتمكّن إلاّ من تنفيذ ثلاث أو أربع ضربات قبل أن تغطس. وابتهجت كثيرًا لأنّها بالسباحة ضدّ التيّار إنّما كانت تسبح كي تظلّ ساكنة. لكنّها لم تظلّ ساكنة، بل كان التيّار يجرفها كلّ مرّة إلى السدّ، فتشبّثت بحلقة حديد صدئة منتظرة إيّاه، مشرقة الوجه، أمام الجدران اللامعة التي تعلوها الطحالب والإسمنت المائل إلى الخضرة. هتفت به وهي تسبح إلى أعلى، إذْ أرادت أن تعيد التجربة ولكنّ الماء كان شديد البرودة، وما هي إلاّ خمس عشرة دقيقة حتى بلغ به السيل الزبى، فجذبها ناحية الضفّة وساعدها على الخروج من الماء متجاهلاً احتجاجاتها.

حمل ثيابه من السلّة وابتعد قليلاً داخل الغابة ليبدّلها، وعندما عاد إليها وجدها واقفة في المكان الذي تركها فيه، على الضفّة، ترنو إلى الماء، ومنشفتها من حول كتفيها.

قالت:

ـ هل تنقذني إذا سقطت في النهر؟

ـ مؤكّد.

كان ينحني من فوق السلّة عندما تفوّه بهذه الكلمة، وسمعها، وإن لم يرها، تقفز في الماء ومنشفتها فوق الضفّة. لم يشاهد ما يدلّ على وجودها باستثناء قطرات ما تتحرّك من فوق سطح المسبح، وفجأة برزت من تحت الماء والتقطت أنفاسها وغطست مرّة أخرى. انتابه القلق وفكّر في الركض ناحية السدّ ليصطادها ويخرجها من هناك، لكنّ الماء كان موحلاً مائلاً إلى الاخضرار، كما أنّه يستطيع العثور عليها هناك تحت سطح الماء بلمسة يده. لا خيار أمامه ـ نزل إلى الماء بحذائه وسترته وكلّ ثيابه. وعلى الفور عثر على

ذراعها، فوضع يده تحت كتفها ورفعها إلى أعلى. ولدهشته وجدها تحبس أنفاسها ولكنّها ضحكت بعد ذلك ضحكة مرحة وتشبّثت برقبته. دفعها ناحية الضفّة وبذل جهدًا كبيرًا كي يتخلّص منها بصعوبة وهو مبلّل بالماء.

ظلّت تردّد:

ـ شكرًا لك.. شكرًا لك.. شكرًا لك.

ـ هذا تصرّف غبيّ منك.

ـ أردتك أن تنقذني.

ـ ألا تدركين أنّ غرقك سهل جدًّا؟

ـ لقد أنقذتني.

كان الكدر والارتياح يغذّيان غضبه، وكاد أن يصرخ بها: أيّتها الفتاة الغبيّة، كنت توشكين أن تقتلينا نحن الاثنين.

التزمت الصمت فيما جلس هو فوق العشب يفرغ حذاءه من الماء.

ـ لقد غطست تحت الماء ولم يكن في وسعي رؤيتك، وكانت ثيابي تجرّني إلى أسفل، كنّا سنغرق، كلانا. أهذا هو نمط مزاحك؟ حسنًا، أليس كذلك؟

لم يعد هناك شيء آخر يمكن قوله، فارتدت ثيابها ورجعا صوب الممشى، بريوني في المقدّمة، فيما هو يخوض في الوحل من ورائها. كان يرغب في الوصول إلى المنطقة المكشوفة من الحديقة والتي تنتشر عليها أشعّة الشمس، لكنّه سار ببطء وتثاقل ناحية البيت الريفي الصغير لتغيير به، ولم يكن قد استنفد غضبه. وفكّر بأنّها ليست صغيرة جدًّا كي تعتذر له، فمشت صامتة، مطأطئة الرأس، ربّما عابسة لاعتقادها أنّها مظلومة، إذْ لم يستطع ملاحظة ذلك. وعندما خرجا من الغابة وسارا خلال بوّابة القبلة، توقّفت واستدارت، كانت نبرتها صريحة، بل ملؤها التحدّي، وبدلاً من أن تعبس في وجهه مستاءةً تحفّزت لمواجهته.

ـ أتدري لماذا أردتك أن تنقذني؟

ـ كلاّ.

ـ أليس ذلك واضحًا؟

ـ كلاّ ليس واضحًا.

ـ لأنّني أحبّك.

نطقتها بشجاعة، مرفوعة الرأس، وطرفت عيناها بسرعة وهي تتكلّم، ذاهلة بالحقيقة البالغة الخطورة والأهمّيّة التي كشفتها.

ضبط مشاعره كي لا يضحك، فقد بات موضع حبّ تلميذة مدرسة.

ـ ما الذي تعنيه بهذا الكلام؟

ـ أعني ما يعنيه كلّ فرد عندما يقول ذلك.. أحبّك.

كانت الكلمات في هذه المرّة ذات نبرة مرتفعة تدعو إلى الرثاء. وأدرك أنّه يتعيّن عليه مقاومة الدافع إلى الضحك، لكنّ ذلك صعب. قال:

ـ أنت تحبّينني، ولهذا رميت بنفسك في النهر.

ـ أردت أن أعرف إنْ كنت ستنقذني.

ـ وها قد عرفت الآن. سأخاطر بحياتي من أجلك، لكن ذلك لا يعني أنّني أحبّك.

اقتربت منه أكثر.

ـ أريد أن أشكرك لإنقاذك حياتي، وسأظلّ شاكرة لك إلى الأبد.

المؤكّد أنّ هذه الكلمات مقتبسة من أحد كتبها، من كتاب قرأته مؤخّرًا، أو كتبته.

قال:

ـ لا بأس، لكن لا تكرّري هذا مستقبلاً، سواء معي أو مع غيري، اتّفقنا؟

أومأت برأسها وقالت وهي تبتعد:

ـ أحبّك. . لقد أصبحت تعرف الآن.

مضت في سبيلها ناحية البيت، تتمشّى تحت أشعّة الشمس وهو يراقبها حتى غابت عن الأنظار، ثم انطلق إلى البيت. لم يشاهدها منفردة قبل سفره إلى فرنسا، ولمّا رجع في شهر أيلول كانت قد انتقلت إلى مدرسة داخليّة. ولم يمض وقت طويل حتى توجّه إلى كيمبردج. وفي شهر كانون الأوّل أمضى عيد الميلاد مع الأصدقاء، ولم يشاهد بريوني ثانية حتى شهر نيسان وكانت القضيّة في ذلك الوقت قد طواها النسيان.

وهل طواها النسيان حقًّا؟

كان لديه متّسع من الوقت، أكثر ممّا ينبغي للتفكير. لم يتمكّن من تذكّر أيّ حديث آخر غير اعتيادي جرى بينه وبينها، ولا حتى أيّ تصرف غريب، ولا نظرات ذات مغزى أو استياء صامت بغية الإيحاء بأنّ عواطفها، منذ أن كانت تلميذة مدرسة، استمرّت إلى ما بعد ذلك اليوم من أيّام شهر حزيران. كان يعود إلى مقاطعة ساري في كلّ إجازة تقريبًا، وسنحت لها فرص كثيرة كي تجري وراءه في بيته الريفي أو إرسال رسالة له. كان منشغلاً بحياته الجامعيّة، عاقدًا العزم على أن يضع مسافة بينه وبين أسرة تاليس، ولكن لا بدّ أنّ هناك إشارات لم يتنبّه لها. لا بدّ أنّها أنفقت ثلاثة أعوام تغذّي مشاعرها نحوه، خفيةً، تغذّيها بخيالها الجامح، أو تزوّقها في حكاياتها. كانت فتاة تعيش داخل أفكارها، وربّما كان الحدث الدرامي الذي جرى قرب النهر كافيًا كي تعيش على ذكراه.

* * *

تستند هذه النظريّة، أو هذا اليقين، إلى لقاء وحيد لا غير ـ اللقاء وقت الغسق على الجسر ـ وظلّ لسنوات يعيش على تلك النزهة في الحديقة. كانت تعلم أنّه دُعي لتناول العشاء، وكانت هي حاضرة هناك حافية القدمين، ترتدي صدريّة بيضاء متّسخة. أمر غريب. كانت تنتظره، ربّما تعدّ خطابها القصير، أو

حتى تتمرّن عليه بصوت عالٍ وهي تجلس على المتراس الصخري. وعندما وصل، انعقد لسانها، وهو دليل إلى حدٍّ ما، وفكّر في ذلك الوقت أنّ سلوكها كان غريبًا لأنّها لم تكلّمه، وسلّمها الرسالة فانطلقت بها. وبعد مرور بضع دقائق كانت تفضُّها، فصُدمت لا بسبب كلمة بعينها بل لأنّها ظنّت أنّه خان حبّها بإيثاره شقيقتها عليها. ثم تأكّد ما هو أسوأ من ذلك في المكتبة، وعندئذٍ انهارت كلّ خيالاتها. في البدء، خيبة أمل ويأس، ثم مرارة متزايدة. وفي نهاية المطاف، حانت فرصة غريبة في الظلمة أثناء البحث عن التوأمين لتنتقم لنفسها، فقد سمَّته بالاسم، ولم يشكّ أحد في ذلك سوى شقيقتها ووالدته. في وسعه أن يفهم الدافع، الخبث الفجائي، النزعة التدميريّة الطفوليّة. لكنّ المدهش في هذا كلّه هو عمق الضغينة في نفس الفتاة وإصرارها على روايةٍ انتهت به إلى سجن واندزورث. ربّما تُبرَّأ ساحته الآن، وهذا ما يفرحه، وقَدَّر الشجاعة المطلوبة منها كي تعود إلى القانون وتنكر الشهادة التي قدّمتها تحت اليمين. لكنّه فكّر أيضًا أنّ نفوره منها لن يزول أبدًا، نعم.. كانت طفلة في ذلك الوقت، ولم يغفر لها، ولن يغفر لها. ذلك هو الضرر الذي لحق به والذي لن يزول.

* * *

ازدادت الفوضى في المقدّمة، وازداد الصياح، وممّا يدعو إلى الدهشة أنّ رتلاً مدرّعًا كان يضغط ويشقّ طريقه إلى أمام وسط الجنود واللاجئين. وتفرّق الحشد على مضض، وانحشر الناس في الفجوات القائمة بين المركبات المهجورة أو الجدران والمداخل المهشّمة. كان رتلاً فرنسيًّا، لا يزيد حجمه عن كتيبة ـ ثلاث عربات مدرّعة وعربتان نصف مجنزرتين وناقلتا جنود ـ. لم يبد أنّ هناك قضيّة مشتركة، وساد الاعتقاد في أوساط الجنود البريطانيّين بأنّ الفرنسيّين خذلوهم، وأنّهم لم تكن لديهم الإرادة للدفاع عن بلدهم. وانزعج الجنود البريطانيّون بعد أن اضطرّوا إلى التنحّي جانبًا وسبّوا وشتموا وهتفوا بحلفائهم «ماجينو»!

أمّا الجنود الفرنسيّون فلا بدَّ أنّهم سمعوا بدورهم شائعات عن الإخلاء، وها هم هنا لتغطية الجانب الخلفي، «أيّها الجبناء! هيّا إلى القوارب! اذهبوا وفرّغوا أمعاءكم في سراويلكم!». ثم تواروا عن الأنظار، وانتظم الحشد من جديد يسير تحت سحابة من دخان أسود.

اقتربوا من آخر بيوت القرية، وشاهد تيرنر أمامه رجلاً في حقل، رفقة كلبه، وهما يسيران من وراء محراث يجرّه حصان. وكما هو حال السيّدات في دكّان الإسكافي، يبدو أنّ الفلاّح لم يكن منتبهًا لأمر الرتل. حياة هؤلاء الناس تجري على مستويين ـ الحرب هواية المتحمّسين ولكنّها ليست مدعاة للجدّ ـ وكما هو شأن مطاردة الكلاب المميتة من أجل القنص، في حين كانت عند الحاجز التالي امرأة تجلس على المقعد الخلفي من سيّارة عابرة منهمكة في الحياكة، وفي الحديقة العارية لأحد البيوت الجديدة كان هناك رجل يعُلِّم ولده كيف يرفس الكرة. نعم، الحراثة ستستمرّ وستنتج غلّة، وسيكون هناك من يحصدها ويطحنها، ومن يأكلها، ولن يموت الجميع...

كان تيرنر منشغل البال في هذه الأفكار، عندما قبض نيتل على ذراعه وأشار، فقد غطّت فوضى الرتل الفرنسي المارّ على الصوت، ولكنّها كانت واضحة للأنظار. خمس عشرة في الأقلّ، على ارتفاع عشرة أقدام، نقاط صغيرة في زرقة السماء تحوم من فوق الطريق. توقّف تيرنر والعريفان لمراقبتها، ورآها كلّ واحد كان على مقربة منهم آنذاك.

وهمس صوت متعب بالقرب من أذنه:

ـ تبًّا! أين هو سلاح الجوّ الملكي؟

وقال آخر عن دراية:

ـ سيذهب للهجوم على الضفادع.

انحرفت إحدى النقاط مدفوعة بعدم التصديق، وبدأت تنقضّ انقضاضًا شبه عمودي فوق رؤوسهم مباشرة. مرّت ثوانٍ معدودة لم يصلهم الصوت في

خلالها وكان الصمت يزداد قوّة مثل الضغط في الأذنين، ولم تخفّف منه حتى الصرخات المتوحّشة التي انطلقت هنا وهناك على الطريق، احتموا! تفرّقوا! تفرّقوا! أسرعوا!

صعبت عليه الحركة. كان في وسعه المشي مشيًا ثقيلاً متباطئًا، والتوقّف أيضًا، لكن ينبغي له أن يبذل جهدًا لإنعاش الذاكرة، لأن يصل القيادات الغريبة، لأن يستدير ويهرب. توقّفوا عند آخر بيت في القرية، وكان وراءه مستودع غلال، يحفّ بالاثنين حقل، كان الفلاّح منهمكًا في حرثه. بات الآن واقفًا تحت شجرة مع كلبه كأنّه يحتمي بها من المطر، لا يزال جواده مقيّدًا باللجام، ينظر على امتداد الأرض غير المحروثة. كان الجنود والمدنيّون يتقاطرون من جميع جوانب الطريق في مختلف الاتّجاهات. مضت امرأة مسرعة من أمامه تحمل طفلاً يبكي، ولكنّها غيّرت من رأيها، وعادت ووقفت وقد أدارت ظهرها على نحو متردّد داخل الطريق، أيّ طريق؟ فناء المزرعة أم الحقل؟ خلّصه سكونها من سكونه، وعندما دفعها من منكبها باتّجاه البوّابة، بدأ الهدير يتصاعد، وباتت الكوابيس علمًا، واستغلّ شخص ما، بشر لا غير، الوقت حالمًا بصيحةٍ شيطانيّة. يا له من نجاح! لقد كان صوت الرعب، عن حقّ، يتصاعد ويشتدّ باتّجاه الانقراض الذي يعرفونه كلّهم، كلٌّ على انفراد، على أنّه انقراضهم هُم.

صوتٌ تضطرّ إلى أن تدركه إدراكًا شخصيًّا. قاد تيرنر المرأة داخل البوّابة، وأراد منها أن تركض وإيّاه إلى وسط الحقل. لمسها، واتّخذ القرار بالإنابة عنها، ولهذا أضحى الآن بإمكانه أن يتخلّى عنها، لكنّ الصبي في السادسة من عمره في الأقلّ، ثقيل الوزن، ولا يمكن التقدّم إلى أمام بهذا الحمل. جذب الصبي من يد الأمّ وصاح به.

ـ هيّا بنا.

ثمّة طائرة نوع ستوكا تحمل قنبلة واحدة زنتها ألف باوند. الفكرة السائدة على الأرض هي الابتعاد عن المباني والمركبات وبقيّة الناس. فالطيّار لن يهدر

حمله الثمين على شخص واحد يسير في حقل من الحقول. أمّا إذا استدار ليمطر وابلاً من قذائفه عليه، فإنّ القضيّة ستكون مختلفة، وقد شاهدهم تيرنر ذات مرّة يطاردون رجلاً يسرع في العَدْو ممارسًا رياضته. كان يجذب ذراع المرأة بيده الثانية، والطفل يبلّل سرواله الداخلي ويصرخ في أذن تيرنر. بدت المرأة غير قادرة على الركض، تمدّ يدها وتصيح بأعلى صوتها، تريد أن يعود ولدها إليها، والولد يتلوّى من فوق كتفه يريد العودة إلى أمّه. وفي هذه الآونة تناهى إلى الأسماع صوت القنبلة وهي تسقط، كانوا يقولون إذا سمعت ضوضاء فتوقّف قبل الانفجار. فما كان منه إلاّ أن تكوّم فوق الحشيش وهو يجذب المرأة ناحيته، ويخفض من رأسها. كان مستلقيًا إلى حدٍّ ما على مقربة من الطفل عندما ارتجّت الأرض وهدرت هديرًا لا يصدّق، ورفعتهم الهزّة عن سطح الأرض، وغطّوا وجوههم لتفادي القاذورات المتطايرة، وسمعوا صوت الطائرة تحلّق عاليًا بعد انقضاضها في الوقت نفسه الذي سمعوا فيه عويل هجمة أخرى. سقطت القنبلة على الطريق، على مسافة تبعد عنهم بأقلّ من ثمانين ياردة. كان الصبي تحت ذراعه، وكان يحاول جذب المرأة لتقف على قدميها.

ـ علينا أن نركض من جديد، فنحن قريبون جدًّا من الطريق العامّ.

ردَّت المرأة عليه، ولكنّه لم يفهمها، تعثّرا فوق الحشيش. شعر بالألم يخز جنبه مثل وميض لون من الألوان. الطفل بين ذراعيه، لكنّ المرأة بدت وكأنّها تريد العودة إلى الخلف وتحاول أن تنتزع ولدها منه. المئات من الناس الآن ينتشرون فوق الحقل، يحثّون خطاهم نحو الغابة الكائنة في جهة بعيدة عنهم. وعندما سمعوا زعيق القنبلة انكمش كلّ واحد منهم فوق الأرض، لكنّ المرأة لم تكن لديها مقدرة على الإحساس بالخطر، فاضطرّ تيرنر إلى جذبها ناحيته من جديد. في هذه المرّة ضغطوا وجوههم فوق أرض محروثة حديثًا، وعندما ازداد ضجيج القنبلة تمتمت المرأة بما يشبه الصلاة، وعندئذٍ أدرك أنّها لا تتكلّم الفرنسيّة. وقع الانفجار في الجهة البعيدة من الطريق، على مسافة تزيد عن مائة وخمسين ياردة.

لكنّ الطائرة الأولى عادت الآن تحوم فوق القرية وتمطرها بالقنابل. أُصيب الصبي بالخرس من جرّاء الصدمة، فلم تعد أمّه تتحمّل. أشار تيرنر إليها باتّجاه الطائرة القادمة من فوق سطوح المباني. كانوا على مسارها تمامًا، ولا مجال للجدال، لكنّها لم ترغب في أن تتحرّك. فما كان منه إلاّ أن رمى بنفسه بين الأخاديد، فلمع من فوقهم وميض إطلاق نيران المدفع الرشّاش فوق التربة المحروثة. وصرخ جندي جريح، ووقف تيرنر على قدميه، لكنّ المرأة رفضت أن تمدّ له يدها، بل جلست على الأرض وحضنت الصبيّ بكلّ قوّة، وبدأت تكلّمه باللغة الفلمنكيّة وتهدّئ من روعه، وتقول له بلا أدنى ريب إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، ماما ستهتمّ بك.

لم يكن تيرنر يفقه كلمة واحدة من تلك اللغة، لا فرق، فهي لم تلقِ له بالاً، في حين ظلّ الصبيّ يحدّق فيه ذاهلاً من فوق منكب أمّه.

تراجع تيرنر خطوة واحدة إلى الخلف ثم أطلق ساقيه للريح، وفيما هو يتخبّط فوق الأخاديد، بدأ الهجوم من جديد. كانت التربة الغنيّة تلتصق بحذائه. في الكوابيس وحدها تكون الأقدام ثقيلة على هذا النحو. سقطت قنبلة على الطريق، على مسافة بعيدة، ناحية وسط القرية حيث كانت الشاحنات تشقّ طريقها، لكنّ صوتًا مدوّيًا آخر غطّى على الصوت الأوّل، وضرب الحقل حتى قبل أن يتمكّن من أن يستلقي على الأرض، فرفعه الانفجار بضعة أقدام عن سطح الأرض وقذف به إلى أمام على وجهه فوق التربة، ولمّا أفاق، وجد فمه وأنفه وأذنيه وقد امتلأت كلّها بالتراب. حاول أن ينظّف فمه، ولكنّه كان جافًّا. استخدم إصبعه، لكنّ الأمر كان أسوأ. لفظ التراب على يده المتّسخة، ثم أزال الأوساخ من أنفه، ومن فمه، ولكنّ الغابة قريبة، وفيها جدول وشلاّلات وبحيرات. تخيّل النعيم بعينه. وعندما تناهى إلى مسامعه هدير الطائرة من جديد، جاهد كي يتأكّد من مصدر الصوت ونوعه. أهي إشارة الأمان؟ أفكاره مشتّتة، ولم يتمكّن من البصاق ولا من البلع، بل لم يستطع حتى التنفّس بسهولة، ولم يستطع التفكير. وعندما شاهد فلاّحًا رفقة كلبه ينتظر

صابرًا تحت شجرة استعاد كلّ شيء، وتذكّر كلّ شيء، واستدار ليلقي نظرة. ثمّة حفرة في المكان نفسه الذي كانت فيه المرأة وولدها، وعندما شاهدها فكّر بأنّه كان يعرف ما سيحدث، هذا هو السبب الذي دفعه إلى التخلّي عنهما. مهمّته هي أن يبقى على قيد الحياة، وإن كان قد نسي السبب، وواصل سيره ناحية الغابة.

تقدّم بضع خطوات صوب غطاء من الأشجار، وجلس تحت الأشجار النامية حديثًا واتّكأ على شجيرة من شجيرات البتولا. كانت أفكاره منصبّة على شيء واحد: الماء، هناك أكثر من مائتي شخص يلوذون بالغابة، بينهم جرحى سحلوا أنفسهم حتى وصلوها. ثمّة رجل مدني على مسافة قريبة منه يبكي ويصرخ من شدّة الألم. نهض تيرنر وابتعد. الخضرة المتفتّحة حديثًا تشي بالماء، لكنّ الهجوم استمرّ على الطريق العامّ وعلى القرية. أبعد عن طريقه الأوراق القديمة المتساقطة، واستخدم خوذته في الحفر. التربة رطبة ولكن لم ينضح أيّ ماء إلى الحفرة التي حفرها حتى بعد أن بلغ عمقها ثماني عشرة بوصة. فجلس والماء يشغل تفكيره، وحاول أن ينظّف لسانه بكمّ سترته. وعندما انقضَّت الطائرة، كان مستحيلاً عليه أن لا يتوتّر جسده أو ينكمش وإن كان يفكّر في كلّ مرّة أنّه لم يعد له حول ولا قوّة. وفي نهاية المطاف، جاءت الطائرات لتقصف الغابة بوابل من قنابلها، لكن دون جدوى، إذْ تساقطت الأوراق والأغصان من فوق الأشجار. وبعد أن مضت الطائرات في سبيلها، وفي الصمت المطبق الذي خيَّم على الحقول والأشجار والقرية، لم يعد يسمع شيئًا، حتى زقزقة عصفور. وبعد برهة وجيزة، طرق مسامعه صفير الأمان قادمًا من جهة الطريق العامّ، ولكن لم يتحرّك أحد، فتذكّر ما حدث في المرّة السابقة. كانوا في ذهول تامّ، وحيارى، في ظلّ صدمة من جرّاء مراحل الرعب المتكرّرة. فكلّ انقضاض جعل كلّ إنسان، مختبئًا ومتكوّرًا، يواجه إعدامه، ولمّا يحدث ذلك، كان لا بدّ من إعادة المحاكمة مرّات ومرّات، واستمرّ الخوف. الأحياء فكّروا في أنَّ نهاية هجمة من هجمات طائرة من نوع

ستوكا يعني شللاً، صدمة، سلسلة صدمات. قد يأتي الرقباء وصغار الضبّاط وهم يصرخون ويرفسون الرجال كي ينهضوا، ولكنّهم كانوا مستنزفين، وكانوا في ذلك الوقت جنودًا لا نفع فيهم.

وهكذا جلس مذهولاً، شأنه شأن الآخرين، تمامًا مثلما جلس أوّل مرّة خارج القرية التي لم يعد يتذكّر اسمها. يا لهذه القرى الفرنسيّة ذات الأسماء البلجيكيّة، التي انفصل فيها عن وحدته. والأسوأ من هذا بالنسبة لجنديّ المشاة، عندما انفصل عن بندقيّته. قبل كم يوم؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك. تفحّص مسدّسه الذي انحشر فيه التراب، فأخرج ذخيرته ورمى به وسط الأدغال، بعد قليل سمع صوتًا من ورائه، ويدًا تلمس كتفه.

ـ تفضَّل، الفضل يرجع إلى غرين هاواردز[١].

كان العريف ماسي يناوله حافظة ماء أحد الجنود القتلى. ولمّا كانت الحافظة مملوءة بالماء، فقد استخدم جرعة كبيره لغسل فمه، فأهدر الماء بذلك. ثم شرب ما تبقّى من الماء مع التراب.

ـ أنت ملاك يا ماسي.

مدَّ العريف يده كي يقف على قدميه.

ـ اضطررت إلى تغيير الاتّجاه، ثمّة شائعة تقول إنّ البلجيكيّين الملاعين قد انهاروا، وقد يؤدّي هذا بنا إلى أن ننعزل من جهة الشرق. لا تزال أمامنا أميال أخرى كي نقطعها.

وفيما هما يسيران عائدين نحو الحقول، انضمّ إليهما نيتل، وكان معه

(١) غرين هاواردز The Green Howards: فوج المشاة التاسع عشر في الجيش البريطاني، استمدّ الفوج هذا الاسم من لباس الجند، ومن سير تشارلز هاوارد آمر الفوج الذي كان برتبة عقيد (١٧٣٨ ـ ١٧٤٨)، وأصبح الاسم اللقب الرسمي للفوج في ١٩٢٠، وقد أطلق هذا الاسم على الفوج تمييزًا له عن الفوج الثالث الذي كان بدوره بإمرة العقيد هاوارد (المترجم).

زجاجة من النبيذ وقطعة من الشوكولا نوع آمو تناوبوا على تناولها.

قال تيرنر بعد أن شرب جرعة كبيرة:

ـ رائحتها لذيذة.

ـ ضفدعة ميتة.

عاد الفلاّح وحمّاله وراء المحراث. اقترب الجنود الثلاثة من الحفرة حيث كانت رائحة المادّة المتفجّرة نفّاذة.

الحفرة مخروطيّة الشكل وإن على نحو مقلوب، متناسق الجوانب، صقيلها، كأنّها خرجت من منخل وَسُوّيت بعد ذلك. ولكن ما من علامة تدلّ على وجود بشر، ولا حتى قطعة قماش أو قطعة من حذاء، أمّا الأمّ وولدها فقد تبخّرا.

وقف ليستوعب هذه الحقيقة، لكنّ العريفين كانا في عجالة، فدفعاه إلى أمام وسرعان ما انضمّوا إلى السائرين بتثاقل وببطء على الطريق العامّ. أصبح السير أسهل الآن، إذْ لن يشاهدوا حركة مرور حتى يدخل جنود سلاح المهندسين القرية. إلى أمام، كانت سحابة من زيت محترق تخيّم على المشهد كأنّها أبٌ غاضب. قاذفات قنابل تحلّق على ارتفاعات عالية جدًّا تحوم وتمضي نحو أهدافها ثم تعود. فكّر تيرنر بأنّه سوف يشهد مذبحة، لكنّ الجميع كانوا منطلقين ناحية ذلك الاتّجاه، ولم يستطع التفكير في أيّ خيار آخر. طريقهم سيأخذهم إلى الجهة اليمنى من السحابة، إلى شرقي دنكرك، ونحو الحدود البلجيكيّة.

قال بعد أن تذكّر الاسم على الخارطة:

ـ براي ديونز.

قال نيتل:

ـ يروقني هذا الصوت.

مرّوا برجال لا يستطيعون حراكًا إلاّ قليلاً بسبب الجروح التي أُصيبوا بها، بعضهم حفاة الأقدام. أحد الجنود كان مستلقيًا في عربة صغيرة يدفعها رفاقه، فيما الدماء تنزف من صدره. ثمّة رقيب يقود عربة يجرّها جواد، وعلى ظهرها ضابط إمّا فاقد الوعي أو ميّت، مقيّد القدمين والرسغين بالحبال. بعض الجنود ركبوا درّاجات هوائيّة، لكنّ معظمهم كانوا يسيرون مثنى وثلاث.

وجاء رسول من وحدة مشاة الهايلانذر الخفيفة، يمتطي ظهر درّاجة من طراز هارلي ـ دافيدسون، ساقاه الملطّختان بالدماء تتدلّيان عبثًا إلى أسفل، في حين جلس راكب آخر من خلفه، مغطّى الذراعين بكمّيّة كبيرة من الضمّادات واللفّافات ويضغط بقدميه على الدوّاستين لإدارة العجلة. وانتشرت على امتداد الطريق كلّه المعاطف المهملة، تركها أصحابها لأنّ حملها يزيد من شدّة الحرّ. وكان تيرنر قد تحدّث إلى العريفين يحاول إقناعهما بالتخلّي عن معطفيهما.

مضت على سيرهما ساعة، سمعوا بعدها صوت دوّي متناسق الإيقاع، يشبه دقّات ساعة عملاقة. استداروا لينظروا من ورائهم، فشاهدوا أوّل الأمر ما يشبه بابًا أفقيًّا هائلاً في حجمه يطير فوق الطريق العامّ باتّجاههم. إنّه فصيل من حرس مقاطعة ويلز وقد انتظم بحالة جيّدة، يشقّ طريقه كتفًا سلاح، ويقوده آمر برتبة ملازم ثانٍ. مرُّوا بجانبهم وهم يسيرون سيرًا عسكريًّا قسريًّا، نظراتهم ثابتة إلى أمام، وبنادقهم تتراقص عاليًا من فوقهم. تنحّى المتخلّفون عن الركب جانبًا، فاسحين المجال أمامهم كي يمرّوا. يا له من زمن يستخفّ بالناس! ولكن ما من أحد يغامر بإطلاق صفير الهزء والسخرية. لقد كان مشهد النظام والترابط خزيًا وعارًا، وكان مشهد الحرس وهم يتوارون عن الأنظار مبعث ارتياح، وبات في وسع الآخرين استئناف سيرهم المفعم بالتفكير واستبطان المشاعر.

* * *

المشاهد مألوفة، قائمة الموجودات لم تتغيّر، لكن ازداد عدد الأشياء

من كلّ نوع: المركبات، الحفر التي أحدثتها القنابل، فتات الصخور، جثث أكثر عددًا. قطع المسافة الممتدّة أمامه حتى استرعت انتباهه رائحة البحر تنقلها نسمة منعشة عبر الحقول المستوية الكثيرة المستنقعات. تدفّق الناس على جهة واحدة من الطريق العامّ، لا يشغل بالهم سوى هدف واحد. حركة المرور الجوّيّة المستمرّة والمتباهية بنفسها، والسحب الكثيفة المعلنة عن وجهة سيرها، أوحت كلّها لعقله المتعب والمفرط في نشاطه أيضًا بمتعة طفوليّة منسيّة منذ زمن بعيد، بكرنڤال أو حدث رياضي، يتقاطرون كلّهم لمشاهدته. مرّت بذهنه ذكرى لا يستطيع أن يحدّد مكانها عن والده الذي حمله على كتفيه، وصعد به هضبة باتّجاه موقع مثير، ومصدر من مصادر المتعة الكبيرة. كم تروقه تلك الكتفان الآن! لقد ترك أباه المفقود بعض الذكريات: لفاع رقبة، رائحة خاصّة به، أقلّ ما يشي بحضور ينمّ عن تأمّل وعن انزعاج في الوقت عينه. ترى هل تجنّب الخدمة العسكريّة في الحرب العظمى، أم لقي مصرعه في مكان ما من هذه البقعة من الأرض تحت اسم آخر؟ ربّما بقي على قيد الحياة. كانت غريس تعلم أنّه متقلّب، وأنّه أجبن من أن يلتحق بالجيش، ولكنّها كانت لديها أسبابها الخاصّة بها كي تشعر بالمرارة. فكلّ رجل في هذه البقعة له أب يتذكّر شمالي فرنسا أو مدفون فيها. كان يريد أن يكون له مثل ذلك الأب، حيًّا أو ميتًا. منذ زمن بعيد، قبل اندلاع الحرب، وقبل واندزورث، كان يحلو له الاستمتاع بحرّيّته، وصنع حياته بنفسه، ويبتكر قصّته الخاصّة به دون مساعدة من جاك تاليس إلاّ من وراء الستار. والآن أدرك مدى الغطرسة التي كان ينطوي عليها ذلك الوهم، بلا جذور، ولهذا، بلا طائل. أراد أن يكون له أب، وللسبب نفسه أراد أن يكون أبًا. لقد بات ما رآه من موت هائل مشهدًا عامًّا، ولهذا فهو يريد طفلاً. عامٌ فهو إنسان، ويريد ذلك أكثر من أيّ وقت مضى. عندما كان الجرحى يصرخون، فإنّك تحلم بالعيش مشاركة في بيت صغير في مكانٍ ما، وفي حياة طبيعيّة، وفي أسرة، وفي ذرّيّة وفي صلة رحم.

كلّ الذين يسيرون من حوله كانوا رجالاً صامتين مستغرقين في أفكارهم، يعيدون ترتيب حياتهم، ويصنعون القرارات. آه لو أخرج من هذا المصير... لا يمكن أن يعدّ عدد الأطفال الذين حلم بهم، وتصوّرهم في مخيّلته وهو في الطريق إلى دنكرك. سوف يجد سيسليا، فعنوانها مدوَّن على الرسالة التي في جيبه إلى جانب القصيدة: في صحارى القلب/ دع نافورة الشفاء تنطلق. وسوف يجد والده أيضًا. يفترض بهم أن يكونوا ممتازين في اقتفاء أثر الأشخاص المفقودين. إنّهم جيش الإنقاذ. اسمٌ على مسمّى. سوف يقتفي أثر أبيه، ـ أو قصّة أبيه المفقود ـ وفي كلتا الحالتين سيصبح والد ابنه.

استمرّوا في سيرهم طوال ما بعد الظهيرة إلى أن شاهدوا أخيرًا الجسر الذي يمتدّ فوق قناة بيرغيس ـ فيرنيس، وذلك على بعد ميل إلى أمام، حيث اندفع الدخان الرمادي والأصفر من الحقول المجاورة. وعلى امتداد هذا الطريق كلّه، لم يعد هناك منزل أو مزرعة أو مستودع غلال قائم. فضلاً على الدخان، تصاعدت أبخرة نتنة، وبيلة، من لحوم متعفّنة، وهبَّت ناحيتهم ـ مذبحة أخرى لجياد خيّالة، بالمئات، تكدّست في كومة في أحد الحقول. وعلى مقربة من ذلك المكان، جبل هائل من بزّات ودثارات عسكريّة تحترق ببطء ودون لهب. ثمّة نائب عريف متين البنية، مفتول العضلات، يحطّم بمطرقة آلات كاتبة وآلات لطباعة نسخ بوساطة إستنسل. ووُجدت سيّارتا إسعاف على قارعة الطريق، باباهما الخلفيّان مفتوحان، ومن داخلهما تنبعث آهات الجرحى وتأوّهاتهم، أحدهم يصيح مرارًا وتكرارًا غاضبًا أكثر منه متألّمًا: «ماء، أريد ماءً» غير أنّ تيرنر مضى في سبيله، شأنه شأن الآخرين.

* * *

بدأت الحشود تتجمّع ثانية. ثمّة مفرق طريق أمام جسر القناة، وإلى هذا المكان وصل رتل يتألّف من شاحنات تزن الواحدة منها ثلاثة أطنان قادمة من جهة دنكرك. وعلى الطريق الممتدّ بمحاذاة القناة، كان رجال الشرطة العسكريّة يحاولون توجيهها نحو حقل يقع وراء البقعة التي شوّهت فيها

الجياد. لكنّ الجنود الذين تدفّقوا على الطريق أرغموا الرتل على التوقّف، وانحنى السائق من فوق أبواقهم وهم يسبّون ويشتمون، لكنّ ضغط الحشود ازداد عن ذي قبل، وتشبّث رجال منهمكون من شدّة الانتظار بمؤخّرات الشاحنات، وندّت صرخة: احتموا!! وقبل أن يتمكّن أيّ فرد منهم من إلقاء نظرة خاطفة من حوله، فُجّر جبل البزّات العسكريّة، وبدأت قطع صغيرة من أقمشة السرج الخضراء الداكنة بالتساقط مثل ندف ثلج. وعلى مسافة أقرب، كان أفراد كتيبة من المدفعيّة يستخدمون مطارقهم لتحطيم مغالق مدافعهم وأجهزة تسديدها. وتنبّه تيرنر إلى أنّ أحدهم أجهش بالبكاء وهو يحطّم مدفعه الهاوتزر. وعند المدخل المؤدّي إلى الحقل نفسه، بدأ قسّيس ومعاونه يرشّون البترول على صناديق تحتوي على أناجيل وكتب صلاة. وكان الجنود يجتازون الحقل باتّجاه مستودعات البحريّة والجيش والقوّة الجوّيّة[١]، بحثًا عن السكائر والشراب. وعندما انطلقت صيحة أحدهم، انسحب العشرات من الطريق وانضمّوا إليهم. جلست إحدى المجموعات قرب بوّابة مزرعة يجرّب أفرادها أحذية جديدة.

واندفع جندي منتفخ الأوداج من أمام تيرنر، حاملاً صندوقًا يحتوي على حلوى بيضاء، ورديّة اللون. وعلى بعد مائة ياردة، أُضرمت النيران في مستودع يحتوي على أحذية ولنغتون[٢]، الساق وأقنعة غاز وأردية خارجيّة فضفاضة بلا أكمام، وغشي الدخان اللاذع صفّ الجنود المتدافعين إلى أمام باتّجاه الجسر. أخيرًا، تحرّكت الشاحنات وانعطفت ناحية أكبر الحقول جنوبي

(١) مستودعات البحريّة والجيش والقوّة الجوّيّة Navy, Army and Air Force Institutes: يُشار إليها اختصارًا بالأحرف الأولى NAAFI. أُسّست في العام ١٩٢٠، لتوفير حوانيت للعسكريّين والعمل على تطوير إدارة الدكاكين والمنشآت الخدميّة لأفراد البحريّة والجيش والقوّة الجوّيّة البريطانيّة حيثما أُرسلوا (المترجم).

(٢) ولنغتون Wellington: هو آرثر ويلسلي المعروف باللقب دوق ولنغتون الأوّل (١٧٦٩ ـ ١٨٥٢)، استخدم اسمًا للإشارة إلى نوع من أنواع الأحذية الطويلة الساق المصنوعة خاصّة من المطّاط والمعروفة باسمها الشائع، الجزمة (المترجم).

القناة مباشرة، وبدأ رجال الشرطة العسكريّة ينظّمون أماكن الوقوف، والانتظام في صفوف كأنّهم مضيفون يعملون في عرض ريفي.

انضمّت الشاحنات إلى نصف المجنزرات والدرّاجات الناريّة وناقلات مدافع برن والمطابخ المتنقّلة. وكانت وسائل إتلافها سهلة جدًّا كما هو معروف ـ رصاصة واحدة في جهاز الراديتور، وترك المحرّك يعمل حتى يتعطّل تمامًا.

كان الجسر تحت سيطرة حرس كولدستريم، مدخله محمي بموضعين محصّنين تحصينًا جيّدًا بأكياس الرمل التي تُحيط بالمدافع الرشّاشة، حرّاسه حليقو الذقون، ثابتو الأعين، يستخفّون صامتين بالرعاع القذرين غير المنتظمين، الذين يجرّون أرجلهم بتثاقل على امتداد الطريق من أمامهم. وعلى الجانب الآخر من القناة صخور مطليّة بطلاء أبيض، وعلى مسافات متساوية، مؤشّرةً ممرًّا يؤدّي إلى كوخ يستخدم مكتبًا للوحدة. وعلى الضفّة البعيدة، كان الحرس متمترسين شرقًا وغربًا على امتداد قطاعهم. أمّا البيوت ذات الواجهات المطلّة على القناة فقد تمّ الاستيلاء عليها لأغراض عسكريّة، واقتلع قرميد سطوحها، وحُصّنت النوافذ بأكياس الرمل لحماية فتحات المدافع الرشّاشة.

ووقف رقيب شرس لحفظ النظام فوق الجسر، حتى إنّه حال دون عبور ضابط يقود درّاجة ناريّة.

ممنوع منعًا باتًّا عبور المعدّات والمركبات، كما مُنع من العبور أيضًا رجل يحمل قفصًا فيه ببّغاء. وكان الرقيب يختار أيضًا الجنود لإقامة سور دفاعي، وكان يؤدّي عمله بسلطة تفوق سلطة الرائد بكثير. كما بدأ أفراد كتيبة يتجمّعون أمام مكتب الوحدة العسكريّة، والحزن بادٍ عليهم وهم في وضع الاستراحة. وشاهد تيرنر ما كان يحدث، شأنه شأن العريفين وهم لا يزالون على مسافة بعيدة إلى الخلف.

قال ماسي مخاطبًا تيرنر:

ـ سوف يأخذونك يا رفيقي. يا لك من جندي مشاة شقي ومسكين. إذا أردت أن ترجع إلى البيت لتناول الفطيرة، ما عليك إلاّ أن تسير بيننا وأنت تعرج.

شعر تيرنر بالخزي، ولكنّه كان مصمّمًا في كلّ الأحوال، فوضع ذراعيه من حول أكتاف العريفين ومشى إلى أمام متمايلاً.

قال نيتل:

ـ إنّها ساقك اليسرى، تذكّر هذا أيّها الحاكم، هل تريد أن أسدّد حربتي إلى قدمك؟

ـ شكرًا جزيلاً، أظنّني قادرًا على تدبير أمري.

ترك تيرنر رأسه يتدلّى عندما بدأوا بعبور الجسر، لهذا لم يرَ شيئًا من نظرة رقيب الواجبات الشرسة، وإنْ كان قد شعر بمرارتها، وسمعه يزمجر آمرًا: «أنت!» وهنا سُحب جندي سيّئ الحظّ كان وراءه مباشرة للمساعدة في وقف المجزرة التي لا بدّ أنّها ستحدث خلال اليومين أو الثلاثة المقبلة، في حين كان آخر من تبقّى من أفراد قوّة الحملة البريطانيّة يحتشدون في الزوارق. عندما كان مطأطئ الرأس، شاهد بارجة سوداء كبيرة تمخر من تحت الجسر باتّجاه فيرنيس في بلجيكا، وكان المراكبي يجلس عند الدفّة يدخّن غليونه يرنو أمامه بعينين متبلّدتي الحسّ. ومن ورائه، وعلى بعد عشرة أميال، كانت دنكرك تحترق، وفي المقدّمة كان صبيّان ينحنيان من فوق درّاجة هوائيّة مقلوبة يصلحان ثقبًا في إطارها على ما يبدو. وامتدّ حبل غسيل نُشرت عليه ملابس داخليّة نسائيّة كي تجفّ، فيما انتشرت رائحة طبخ البصل والثوم من القارب. عبر تيرنر والعريفان الجسر واجتازوا الصخور المكسوّة بالكلس الأبيض، مذكّرةً إيّاهم بمعسكر التدريب وكلّ المواقف الحرجة. رنَّ الهاتف في مكتب الوحدة.

همس ماسي:

ـ استمرّ في العرج حتى نتوارى عن الأنظار.

لكنّ الأرض كانت منبسطة لأميال وأميال، ولا أحد يعرف إلى أين سينظر الرقيب، ولم يرغبا في الالتفات إلى الوراء لمعرفة ما يحدث. وبعد مرور نصف ساعة، جلسوا فوق أداة صدئة تشقّ الأثلام وتبذر الحبَّ والسماد أحيانًا ثم تغطّيهما بالتراب، وراقبوا الجيش المهزوم يمرُّ من أمامهم. الفكرة هي الانضمام إلى حشد جديد تمامًا كي لا يثير شفاء تيرنر المفاجئ اهتمام أيّ ضابط. كان عديد الجنود المارّين من أمامهم متوتّرين لأنّهم لم يجدوا الشاطئ خلف القناة مباشرة، وظنّوا كما يبدو أنّ السبب يرجع إلى إخفاق في التخطيط.

كان تيرنر يعرف من خلال الخارطة أنّ هناك سبعة أميال أخرى، وأنّهم إذا ما انطلقوا في سيرهم فسوف يجدون أنَّ تلك المسافة هي أصعب المسافات التي قطعوها في ذلك اليوم وأكثرها وحشة. الأرض الشاسعة الخالية من أيّة ملامح تجعل التقدّم فيها أمرًا مستحيلاً.

وعلى الرّغم من أنّ شمس الأصيل بدأت تتوارى من بين حافّات سحابة الدخان، إلاّ أنّها كانت أدفأ من أيّ وقت مضى. شاهدوا الطائرات تحلّق عاليًا فوق الميناء وتلقي قنابلها. الأسوأ من هذا، أنّ طائرات ستوكا كانت تهاجم الشاطئ الذي كانوا يتّجهون ناحيته. ساروا من أمام الجرحى الذين لم يعد في وسعهم السير أكثر ممّا ساروا، فجلسوا كالشحّاذين عند قارعة الطريق يطلبون النجدة، أو جرعة ماء، فيما استلقى آخرون بجانب الترعة، فاقدي الوعي، أو يائسين. المؤكّد أنّ عربات إسعاف ستأتي من المنطقة الدفاعيّة أثناء رحلاتها المكّوكيّة إلى الساحل. إذا كان هناك وقت لتمويه الصخور، فلا بدّ أنّ هناك وقتًا أيضًا لتنظيم ذلك. لم يكن هناك ماء. وبعد أن شربوا النبيذ بات ظمأهم أشدّ من ذي قبل. لم تكن معهم أيّة أدوية، ما الذي يُتوقّع منهم أن يعملوه؟ أن يحملوا عشرة أشخاص على ظهورهم في حين يعجزون هم أنفسهم عن السير؟

انتابت العريف نيتل حالة تكدّر مفاجئة، فجلس في الطريق وخلع حذاءه

ورمى به نحو الحقل وقال إنّه يكره حذاءه أكثر ممّا يكره الألمان كلّهم. كان تقرّح قدميه شديدًا والأفضل أن يستغني عن الحذاء.

قال تيرنر:

ـ الطريق طويل إلى إنكلترا بجواربك.

وشعر براحة البال على نحو غريب وهو يتّجه صوب الحقل بحثًا عن الحذاء. عثر على فردة حذاء واحدة بيسر وسهولة، لكنّ العثور على الفردة الثانية استغرق منه وقتًا لا بأس به. وأخيرًا عثر عليها فوق العشب على مقربة من شكل أسود بدا عند اقترابه منه يتحرّك أو ينبض، وفجأة ارتفع سرب من ذباب أزرق كبير الحجم في الجوّ يطنّ طنينًا غاضبًا، فبانت من تحته جثّة متعفّنة. حبس أنفاسه، والتقط فردة الحذاء، وابتعد عن المكان مسرعًا، في حين عاد الذباب واستقرّ من جديد على الجثّة وران الصمت ثانية.

بعد ترضية بسيطة، اقتنع نيتل أن يأخذ حذاءه فربط الفردتين معًا، وحملهما من حول رقبته، وقال إنّه لم يفعل ذلك إلاّ إرضاءً لتيرنر.

* * *

كان مضطربًا في لحظاته الصافية، ولم يكن سبب اضطرابه جرحه، وإنْ كان يؤلمه في كلّ خطوة يخطوها، ولا القاذفات الانقضاضيّة التي تحوم من حول الساحل على بعد بضعة أميال إلى جهة الشمال. سببه عقله. شيء ما يغيب عن ذاكرته غيابًا متكرّرًا في فترات منتظمة.

مبدأ يومي من مبادئ الاستمراريّة، العنصر الرتيب المبتذل الذي يخبره عن دوره في روايته، أخذ يتلاشى، تاركًا إيّاه لحلم يقظة يحتشد بالأفكار، ولكن لا معنى لمن تراوده هذه الأحلام، لا مسؤوليّة، لا ذكرى عن الساعات الفائتة، لا فكرة عمّا سيؤول إليه، لا فكرة عن المكان الذي سيذهب إليه، لا فكرة عن خطّته. ما من فضول لمعرفة كلّ هذه الأشياء، وعندئذٍ سيجد نفسه تحت رحمة حقائق غير منطقيّة.

كان يمرّ بهذه الحالة عندما اقتربوا من الحافّة الشرقيّة للمنتجع بعد ثلاث ساعات من السير. اتّجهوا نحو شارع مهشّم الزجاج، محطّم القرميد، الأطفال فيه يلعبون ويشاهدون الجنود وهم يمرّون من أمامهم. كان نيتل قد انتعل حذاءه ثانيةً، لكنّه لم يربط الشريطين فظلاً سائبين. وفجأة، برز ضابط، كأنّه عفريت لعبة أطفال، من قبو مبنى بلدي بات يُستخدم مقرًّا عسكريًّا، واتّجه ناحيتهم وهو يخطو خطوات تنمّ عن اعتداد بالنفس، وتحت إبطه حقيبة صغيرة للأوراق والوثائق. وعندما توقّف أمامهم، أدّوا له التحيّة. شعر بالفضيحة وأمر العريف أن يربط شريط حذائه على الفور وإلاّ وُجِّهت إليه تهمة.

في الوقت الذي انحنى فيه العريف مطيعًا الأمر، قال الضابط المقوّس الكتفين، النحيل الجسم، ذو النظرة المكتبيّة والشارب الأحمر القصير:

ـ أنت عار أيّها الجندي اللعين!

عزم تيرنر، وهو يحلم على راحته، على أن يطلق النار على صدر الضابط، وسيكون في ذلك فائدة للجميع. ليست هناك جدوى في مناقشة الموضوع مسبقًا. مدَّ يده، ولكنّ المسدّس اختفى ـ لا يتذكّر أين ـ ومضى الضابط في سبيله.

بعد بضع دقائق من السير بضوضاء فوق الزجاج، ران صمت مفاجئ تحت أقدامهم، وانتهى الطريق بتربة ناعمة. وعندما صعدوا كثبانًا رمليّة سمعوا صوت البحر، وتذوّقوا طعم الملح حتى قبل أن يروه. طعم الإجازات. انحرفوا عن الطريق، وطلعوا من خلال الأعشاب إلى نقطة في موقع ممتاز، ووقفوا صامتين دقائق طويلة. أعادته النسمة الرطبة النقيّة الهابّة من القنال إلى الصفاء والوضوح. ربّما لم يكن ذلك سوى درجة حرارته التي كانت تعلو وتهبط في نوبات.

فكّر أنّه لا يملك أيّة آمال إلى أن رأى الساحل، وكان قد اعتقد قبل ذلك أنّ روح الجيش اللعينة التي طلت الصخور بطلاء كلسي في وجه الفناء

سوف تسود، فحاول أن يفرض النظام الآن على الحركة العشوائيّة الدائرة أمامه وكاد أن ينجح: مراكز الفرز، ونوّاب ضبّاط من وراء مكاتب موقّتة، وإيصالات جمركيّة، وأختام مطّاطيّة وموافقات شكليّة، وخطوط تتّجه نحو قوارب الانتظار، ورقباء مستبدّون، وصفوف مملّة من حول حوانيت متحرّكة، نهاية لكلّ مبادرة فرديّة على وجه العموم. هذا هو الساحل الذي كان يسير نحوه أيّامًا، حتى وإنْ لم يعرفه. لكنّ الساحل نفسه، الساحل الذي حملق فيه رفقة العريفين، لم يكن سوى تنويع لكلّ ما مضى من قبل: كان هناك طريق، وهذه هي نهايته. واضح بما فيه الكفاية أنّهم رأوه الآن ـ هذا ما حدث عندما لا يمكن للانسحاب الفوضوي أن يستمرّ إلى ما هو أبعد. لم يستغرق سوى دقيقة واحدة كي يتكيّف. شاهد آلاف الرجال، عشرة آلاف، عشرين ألفًا، وربّما أكثر، وقد انتشروا على امتداد الساحل المترامي الأطراف، يبدون من بعيد كأنّهم حبّات رمل سود. لكن ليست هناك أيّة قوارب باستثناء زورق مقلوب يتأرجح فوق موجة نائية. كان المدّ منخفضًا، وعلى بعد ميل تقريبًا من حافّة الماء. لا توجد قوارب عند حاجز الماء الذي يقي الميناء. أغمض عينيه وفتحهما ثانية. كان الحاجز يتألّف من رجال، صفّ طويل من الرجال، يقفون حتى ركبهم، حتى خصرهم، حتى أكتافهم، على امتداد خمس مائة ياردة في المياه الضحلة. كانوا ينتظرون، لكن لا شيء على مدى الرؤية إلاّ إذا عددت تلك البقع على الأفق، القوارب المحترقة بعد غارة جوّيّة. لا يمكن لأيّ شيء أن يصل الساحل في غضون ساعات، لكنّ الجنود وقفوا في ذلك المكان، في مواجهة الأفق. بخوذهم الحديد، بمسدّساتهم التي رفعوها إلى أعلى كي لا تلامس الموج. كانوا يبدون من تلك النقطة هادئين ومسالمين مثل قطيع من الحيوانات، ولكنّ أولئك الرجال لم يكونوا سوى نسبة ضئيلة من المجموع الكلّي. أمّا الأغلبيّة فكانوا على الساحل يتحرّكون بلا هدف. وتجمّعت مجاميع صغيرة من حول الجرحى الذين أصيبوا أثناء الغارة الأخيرة. وكما كان الرجال يسيرون على غير هدًى، فإنّ نصف دزّينة من جياد المدفعيّة كانت تعدو عدوًا، مجتمعةً على امتداد حافّة المياه. وكان هناك بضعة جنود يحاولون إعادة

القارب المقلوب إلى وضعه الصحيح، وذهب الأمر ببعضهم حدّ خلع ثيابهم للسباحة. وإلى الجهة الشرقيّة، أُقيمت مباراة بكرة القدم، ومن الجهة نفسها تناهى إلى السمع صوت ضعيف لترنيمة تُنشد على نحو جماعي ثم تلاشى. ومن وراء لعبة كرة القدم لاح الدليل الوحيد على وجود نشاط رسمي. فعلى الساحل اصطفّت الشاحنات وانطلقت لتشكّل رصيفًا موقّتًا. ازداد عدد الشاحنات، أمّا عند الناحية الأقرب من الشاطئ، فقد انهمك الجنود في حفر الخنادق بخوذهم. وفي الكثبان الرمليّة، وعلى مسافة قريبة من المكان الذي كان يقف فيه تيرنر والرقيبان، كان الجنود قد حفروا حفرًا لأنفسهم وأخذوا ينظرون من خلالها، معتدِّين بأنفسهم كأنّهم مالكوها. وفكّر تيرنر بأنّ هؤلاء كانوا يشبهون القوارض، لكن أغلبيّة الجند كانوا يسيرون على غير هدًى فوق الرمال، كأنّهم مواطنو بلدة إيطاليّة في ساعة رحيل ولم يجدوا سببًا مباشرًا للانضمام إلى الصفّ الطويل، لكنّهم كانوا من ناحية أخرى غير راغبين بالابتعاد عن الساحل خشية أن يظهر للعيان قارب فجأة.

إلى اليسار منتجع براي وواجهات ساطعة الألوان لمقاهٍ ودكاكين صغيرة تؤجّر الكراسي والدرّاجات في الأيّام الاعتياديّة من فصول السنة. وفي حديقة دائريّة الشكل، مقصوصة العشب قصًّا جميلاً، وُجدت منصّة جوقة موسيقيّة، وأُرجوحة دوّارة مطليّة باللون الأحمر والأبيض والأزرق. وفي ظلّ هذه الأجواء جلست سريّة أخرى القُرفصاء لا مبالية، فيما فتح الجنود المقاهي بأنفسهم وبدأوا يثملون ويضحكون، ويزعقون من حول المناضد في الخارج. وهناك رجال آخرون يمتطون الدرّاجات الهوائيّة على امتداد رصيف ملطّخ بالقيء. وانتشرت مستعمرة من السكارى، فوق العشب وعلى مقربة من منصّة الجوق الموسيقي، واستسلموا للنوم. وشوهد شخص وحيد يستلقي على ظهره بثيابه الداخليّة تحت أشعّة الشمس ووجهه مغطًّى بمنشفة، وانتشرت بقع من آثار حروق شمس على كتفيه وساقيه ـ ورديّة وبيضاء ـ كأنّها مثلّجات بالفراولة والفانيلاّ.

لم يكن صعبًا الاختيار بين هذه الدوائر من المعاناة ـ البحر، الساحل، الجبهة. كان العريفان قد ابتعدا عن المكان ومضيا في سبيلهما يدفعهما إلى ذلك العطش، سيّد القرار. عثروا على طريق باتّجاه اليابسة الممتدّة عند الكثبان الرمليّة، اجتازوا بعدها قطعة أرض رمليّة انتشرت فوقها الزجاجات المكسورة، وفيما هم يشقّون طريقهم من وراء المناضد الخشنة، شاهد تيرنر مجموعة رجال بحريّة تسير بمحاذاة الواجهة فتوقّف لمراقبتهم. كانت المجموعة تتألّف من خمسة أشخاص: ضابطين وثلاثة جنود، مجموعة ترتدي زيًّا نظيفًا بالألوان الأبيض والأزرق والذهبي، لا تنازلات بتمويه الملابس. تقدّم الخمسة معتدلي القامة، صارمين، مسدّساتهم معلّقة بأحزمتهم، تلوح على محيَّاهم ملامح السلطة الهادئة، وسط الوجوه الملوّثة الوسخة وأكداس ملابس المعركة الداكنة، يرنون إلى هذا الجانب وذاك كأنّهم يجرون عمليّة حسابيّة. وبدأ أحد الضابطين بتدوين ملاحظات على أوراق مثبّتة على لوح بمشبك، ثم واصلوا تقدّمهم صوب الساحل. راقبهم تيرنر حتى غابوا عن الأبصار وشعور يراوده كأنّه طفل أهمل شأنه. لحق بماسي ونيتل داخل الضوضاء والرائحة الكريهة المنبعثة من الحانة الأولى عند الواجهة. فُتحت الحقائب على النضد وكانت مملوءة بالسكائر، لكنّهم لم يجدوا أيّ مشروب، وكانت الرفوف المثبتة على امتداد المرآة المسفوعة بالرمل من وراء النضد فارغة. وعندما انحنى نيتل من وراء النضد ليقلب محتويات المكان تناهت إلى مسامعه أصوات السخرية والتهكّم، فقد حاول كلّ من دخل الحانة أن يبحث مثله، فالمشروب التقطه منذ زمن طويل عتاة السكارى وذهبوا به خارج الحانة. شقّ تيرنر طريقه بصعوبة وسط الحشود واتّجه نحو مطبخ صغير في المؤخّرة، ليجد المكان محطّمًا، والصنابير ناشفة، وفي الخارج مبولة عامّة وأكداس من أقفاص على شكل صناديق تحوي زجاجات وعلبًا فارغة. وشاهد كلبًا يحاول مدَّ لسانه إلى علبة سردين فارغة وهو يدفع بها إلى ما وراء ساحة صغيرة مبلّطة بالإسمنت.

وهنا استدار على عقبيه وعاد إلى الغرفة الرئيسة وهدير الأصوات فيها.

ما من طاقة كهربائيّة، بل ضوء طبيعي لا غير، مبقّع باللون البنّي كأنّما بسبب الجعة المفقودة. لا شيء للشرب، ولكنّ الحانة ظلّت ممتلئةً، إذْ ظلّ الجنود يدخلون ويصابون بخيبة أمل، ولكنّهم برغم ذلك يلبثون ولا يغادرون، تغويهم السكائر المجّانيّة ودلائل المشروبات، وثمّة فتحات في الجدار فارغة انتزعت منها الزجاجات المقلوبة. انبعثت رائحة المشروب من الأرض الإسمنتيّة اللزجة، وأشبعت الضوضاء والأجساد المحتشدة والهواء الرطب المعبق برائحة التبغ لوعة الحنين إلى الوطن وتناول المشروب في حانة في ليلة سبت. هذا هو شارع مايل إند رود وسوشيهول ستريت وكلّ ما ينحصر بينهما.

وقف وسط الضجيج لا يدري ما يفعل. فإذا أراد الخروج عليه أن يبذل جهدًا كبيرًا وسط الحشد الغفير. واستنتج من أحاديث تناهت إلى سمعه أنّ القوارب كانت موجودة يوم أمس، وربّما ستكون هناك يوم غد أيضًا. وقف على رؤوس أصابع قدميه عند مدخل المطبخ وهزَّ كتفيه للعريفين هزّة تفيد أنّ الحظّ تنكّر له اليوم. التفت نيتل ناحية الباب وبدأوا يتّجهون إليه، كان يمكن للمشروب أن يكون لطيفًا، لكنّ الماء بات مثار اهتمامهم الآن. التقدّم وسط الحشود المتراصّة بطيء، وعندما توافدوا على الباب، وجدوا الطريق مسدودًا بجدار محكم من ظهور الرجال المجتمعين من حول رجل واحد.

لا بدّ أنّه كان رجلاً قصير القامة ـ أقلّ من خمسة أقدام وستّ بوصات ـ ولم يستطع تيرنر أن يرى شيئًا منه باستثناء جزء من مؤخّر رأسه.

قال أحدهم:

ـ أجب عن السؤال أيّها الوغد.

ـ حسنًا.. إبدأ إذًا.

ـ نعم.. وظيفة في معمل بريل كريم.. أين كنت؟

ـ وأين كنت أنت عندما قتلوا زميلي؟

وهنا ضربت رأس الرجل كرة من البصاق أصابت مؤخّرة أذنه. تحرّك

تيرنر من حول الحشد ليحظى بموقع أفضل للمشاهدة، فرأى أوّلاً سترة زرقاء مائلة إلى الرمادي، ثم الخوف المكتوم في وجه الرجل. كان رجلاً نحيلاً قصير القامة، ذا نظّارات سميكة، وسخة، زادت من عمق نظرته المرعبة، وبدا كأنّه موظّف يحرّر الأضابير أو عامل هاتف، من مقرّ تشتّت أمره منذ زمن بعيد، لكنّه في سلاح الجوّ الملكي، وعدَّه الجنود مسؤولاً ومعرَّضًا للمساءلة.

استدار ببطء، ورنا إلى دائرة المحقّقين معه، لم تكن لديه أجوبة عن أسئلتهم، ولم يحاول أن ينكر مسؤوليّته عن غياب طائرات سبيت فايرز وهاريكين من فوق الساحل. أمسك بيده اليمنى قبّعته وتشبّث بها بقوّة ارتعشت لها أصابعه. ودفعه رجل من رجال المدفعيّة كان يقف قرب الباب دفعة قويّة في ظهره جعلته يتعثّر من فوق الحلقة ليسقط في أحضان جندي آخر، دفعه بدوره إلى مكانه الأوّل بضربة على رأسه. تعالت صيحة استحسان. لقد تعذّب الجميع، ولا بدّ من أن يدفع أحدهم الثمن الآن.

ـ إذًا أين هو سلاح الجوّ الملكي؟

انهالت يد أحد الرجال بصفعة قويّة على وجه الرجل أوقعت بها نظّارته على الأرض.

كانت الضربة قويّة ودقيقة مثل فرقعة سوط، إشارة إلى مرحلة جديدة، إلى مستوى جديد من الاشتباك. انكمشت عيناه المجرّدتان حتى باتتا مثل نقطتين صغيرتين مرتعشتين، بعد أن بدأ يفتّش عن نظّارته من حول قدميه. تلك غلطة. ثم انهالت على مؤخّرته ركلة حذاء ثقيل مزوّد بحافّة معدنيّة رفعته بمقدار بوصة أو بوصتين عن الأرض، وتعالت الضحكات الخافتة من كلّ مكان، وساد إحساس ممتع جدًّا بحدوث شيء في جميع أنحاء الحانة جذب أعدادًا أخرى من الجنود إلى الداخل. في حين تكاثر عدد الجنود من حول الدائرة، تضاءل أيّ إحساس بالمسؤوليّة الفرديّة، وحلَّ محلّه تهوّر مشوبٌ بالتيه والعجب، إذْ تعالت الهتافات عندما أطفأ أحدهم سيكارته في رأس الرجل، وضحك الجميع لصيحته المتوجّعة الهازلة. كرهوه، وهو يستحقّ كلّ ما سيحلّ

به، لأنّه كان مسؤولاً عن الحرّيّة التي وجدها السلاح الجوّي الملكي الألماني في السماوات وعن كلّ غارة شنّتها طائرات ستوكا وعن كلّ صديق لقي مصرعه. كان جسده النحيل المهلهل يحتوي على كلّ سبب من أسباب اندحار الجيش. وفكّر تيرنر بأنّه ليس في وسعه عمل أيّ شيء لمساعدة الرجل دون أن يعرّض نفسه للضرب. لكن يستحيل الوقوف موقف المتفرّج، والانضمام أفضل من لا شيء.

شقّ طريقه بصعوبة إلى أمام، غاضبًا، مستاءً. طرح السؤال بلهجة أهل مقاطعة ويلز:

ـ أين سلاح الجوّ الملكي؟

الغريب في الأمر كلّه أنّ الرجل لم يصرخ طالبًا النجدة، ولم يتوسّل أو يحتجّ مشدّدًا على براءته، صمته أشبه بمؤامرة في مصيره. أتراه كان بليد الفهم لم يخطر بباله أنّه قد يوشك على الموت؟

طوى نظّارته على نحو معقول ووضعها في جيبه، لكنّ وجهه بدا فارغًا دونها، أمعن النظر إلى ما حوله، إلى معذّبيه، فافترقت شفتاه عن عدم تصديقه أكثر ممّا هي عن محاولة لنطق كلمة واحدة. ولمّا لم يكن قادرًا على رؤية شيء، فقد تلقّى لكمةً على وجهه مباشرةً. كانت لكمة بقبضة يد هذه المرّة. وفيما كان رأسه يتراجع إلى الوراء، صدعته ضربة حذاء ثقيل سُدّدت إلى قصبة ساقه، فارتفع الهتاف وصيحات الاستحسان والتصفيق غير المنتظم. من الجنون الدفاع عن الرجل، لكن ممّا يُثير النفور عدم الدفاع عنه في الوقت نفسه. أدرك تيرنر البهجة التي استبدّت بالمعذّبين والأسلوب الغادر الذي يمكن أن يودي بحياته، في إمكانه أن يفعل شيئًا مثيرًا بسكّينه ويحظى بحبّ مائة رجل، لكنّه أبعد هذه الفكرة عن ذهنه بعد أن رأى جنديّين أو ثلاثة جنود في الدائرة اعتقد أنّهم أضخم أو أقوى منه. لكنّ الخطر الحقيقي كان يكمن في الرعاع أنفسهم وحالتهم العقليّة الناجمة عن دوافع أخلاقيّة، والتي لا يمكن حرمانها من لذّاتها.

بلغت الحال في هذه المرحلة حدًّا كان فيه كلّ فرد يلقى الاستحسان العامّ إذا ما سدّد ضربة. وسادت الأجواء رغبة عارمة في إثارة المتعة من خلال الابتكار. ولم يرغب أحد في تسديد ضربة خاطئة، ولهذا السبب فرضت هذه الظروف قدرًا من التريّث لبضع ثوانٍ. كان تيرنر يعلم منذ أيّام واندزورث أنّ ضربة واحدة من شأنها أن تصبح ضربات متوالية، وعندئذٍ لا مجال للعودة إلى الخلف، وليس أمام الرجل التابع لسلاح الجوّ الملكي إلاَّ نهاية واحدة. ولاحت قبّعة ورديّة اللون على عظم وجنته وتحت عينه اليمنى مباشرةً، رفع قبضتيه إلى أعلى ووضعهما تحت ذقنه ـ كان لا يزال متشبّثًا بقبّعته ـ وَحدَبَ كتفيه. ربّما كانت لحظة من لحظات حمايته نفسه، لكنّها كانت أيضًا علامة على ضعف وخنوع، من شأنها أن تستفزّ عنفًا أشدّ وأعظم. لو قال شيئًا، أيّ شيء، فلربّما تذكّر الجنود المحيطون به أنّه إنسان وليس أرنبًا يستحقّ السلخ.

كان الرجل الذي تكلّم بلغة مقاطعة ويلز قصير القامة، ممتلئ الجسم، من سلاح المهندسين، أخرج الآن حزامًا من الجنفاص ورفعه عاليًا.

ـ ما رأيكم أيّها الفتيان؟

كان أسلوبه في التصرّف والكلام يوحي بارتكاب الأهوال والفظائع، حتى إنّ تيرنر لم يدرك ما يجري على الفور. ها هي فرصته الأخيرة للتدخّل. نظر من حواليه بحثًا عن العريفين وسمع ضجّة على مقربة منه، كأنّها نشيج ثور مُصاب برمح. تمايل الجمع الحاشد وتعثّر عندما بدأ ماسي يشقّ طريقه وسطهم باتّجاه الدائرة. وبصوت هادر مدوٍّ يشبه صوت طرزان الذي مثَّل أدواره جوني ويسملر، رفع الكاتب من الوراء على طريقة الدببة وحمله على ارتفاع ثماني عشرة بوصة عن سطح الأرض وهزَّ المخلوق هزًّا قويًّا وهو يرتعد، فتعالت الهتافات والصفير والضرب بأخمص القدمين والصياح الذي يذكّر بالغرب الأميركي.

هتف ماسي:

ـ أعرف ما أريد أن أفعل به، أريد أن أغرقه في بحر هائج.

وهنا ارتفعت زوبعة أخرى من الضرب بأخمص القدمين على الأرض ردًا على ما قاله ماسي. أمّا نيتل الذي بات فجأة إلى جنب تيرنر فقد تبادل وإيّاه نظرة ذات مغزى، وأدركا ما الذي يدور في ذهن ماسي، فاتّجها صوب الباب وهما يعرفان أنّ عليهما الإسراع. لم يكن الجميع يفضّلون فكرة الإغراق في البحر، فحتى في لحظة الانفعال، كان في وسع البعض أن يتذكّر أنّ خطّ المدّ يمتدّ مسافة ميل وراء أرض رمليّة. وشعر الرجل القادم من ويلز أنّه تعرّض إلى الخديعة، وكان لا يزال يحمل سوطه ويصيح، فيما ارتفعت هتافات وصراخ من نوع آخر وسط الحشد. اندفع ماسي ناحية الباب وهو لا يزال يحمل الضحيّة بين ذراعيه، يسبقه كلّ من تيرنر ونيتل، لفسح الطريق وسط الجموع. ولمّا وصلا المدخل، وكان يتألّف من باب واحد وليس بابين، فسحا المجال أمام ماسي بالمرور، ثم عرقلا مرور الآخرين بأن التصقا كتفًا لكتف دون أن يبدو عليهما أنّهما يسدّان الطريق، وأخذا يهزّان قبضاتهما ويهتفان أسوة بالآخرين. شعرا بثقل هائل على ظهريهما لم يستطيعا مقاومته ولو حتى لثوانٍ معدودة، لكنّ المدّة كانت كافية لماسي كي يركض لا إلى جهة البحر، بل إلى جهة اليسار، لينعطف من بعد ذلك إلى اليسار أيضًا ويخترق شارعًا ضيّقًا ينحني من خلف الدكاكين والحانات، بعيدًا عن جهة البحر.

اندفعت الحشود المغتبطة من داخل الحانة اندفاع شراب الشمبانيا من الزجاجة، وقذفت بتيرنر ونيتل جانبًا. وظنَّ أحدهم أنّه شاهد ماسي ينحدر فوق الرمال، فهرعت الجموع البشريّة في ذلك الاتّجاه. وعندما تبيّن خطأ الاتّجاه، بدأت الجماهير تعود القهقرى، ولكنّ ماسي ورجله كانا قد تواريا عن الأنظار. أمّا تيرنر ونيتل فقد ذابا بدورهما أيضًا. أعاد الجنود إلى محنتهم الساحل المترامي الأطراف والآلاف الواقفون عنده في الانتظار، والبحر الخالي من القوارب، كأنّهم استيقظوا من حلم. وفي جهة الشرق البعيدة حيث أرخى الظلام سدوله، كان خطّ المحيط الخارجي تحت وابل من قصف

مدفعي. العدوّ يقترب، وإنكلترا بعيدة جدًّا. وتحت الضوء الخافت، لم يعد هناك وقت طويل للعثور على مكان يلوذون به. وبدأت ريح باردة تهبّ من جهة القنال، في حين كانت المعاطف ملقاة بعيدًا على قارعة الطريق. وبدأت الجموع تتفرّق، متناسية الرجل التابع لسلاح الجوّ الملكي.

* * *

بدا لتيرنر أنّه انطلق رفقة نيتل للبحث عن ماسي ونسيا أمره، لا بدّ أنّهما طافا في الشوارع برهة وجيزة من الزمن يريدان تهنئته على عمليّة الإنقاذ التي نفّذها، وعلى مشاركته وما انطوت عليه من مرح ومزاح. لم يعرف تيرنر كيف وصل الأمر به وبنيتل أن يكونا في هذا المكان، في هذا الشارع الضيّق تحديدًا. تذكّر أن لا وجود لوقت آخر، لا أقدام مؤلمة ولكن ها هو هنا، يخاطب بأشدّ العبارات أدبًا سيّدة عجوزًا وقفت أمام مدخل بيت ذي واجهة مسطّحة. وعندما ذكر لها الماء، نظرت إليه نظرة ارتياب كأنّها تعلم أنّه كان يريد ما هو أكثر من الماء. كانت وسيمة إلى حدٍّ كبير، داكنة البشرة، متعالية النظرات، طويلة الأنف، تلفّ شعرها الفضّي بوشاح مزيّن بالورود، فأدرك على الفور أنّها غجريّة لا يمكنه خداعها من خلال مخاطبتها باللغة الفرنسيّة. صوّبت نظراتها إليه مباشرة ورأت عيوبه، وأدركت أنّه كان سجينًا، ثم رمت نيتل بنظرة خاطفة تنمّ عن اشمئزاز، وأشارت في نهاية المطاف إلى شارع كان فيه خنزيرة تدور من حول ميزاب لتصريف المياه.

قالت:

ـ أحضر الخنزيرة وسأرى ما يمكنني أن أقدّمه لك.

وما إن فرغ تيرنر من ترجمة العبارة حتى قال نيتل:

ـ تبًّا! إنّنا لا نطلب سوى كأس ماء. سوف ندخل ونشربه.

بيد أنّ تيرنر شعر بأنّ سلوكًا غير واقعي بدأ يأخذ بزمام الموقف ولم يتمكّن من غضّ النظر عن احتمال كون المرأة تتملّكها بعض القوى المعيّنة.

ورأى من تحت الضوء الخافت أنّ المنطقة الكائنة فوق رأسها كانت تنبض على إيقاع دقّات قلبه، فاستند إلى كتف نيتل إذْ بدت تخضعه لاختبار يعرفه جيّدًا ولا يستطيع رفضه. هو محنّك، طويل الباع، قريب جدًّا من الوطن، ولن يقع في أيّ فخّ. الأفضل التزام جانب الحيطة والحذر.

قال مخاطبًا نيتل:

ـ سنأتي بالخنزيرة، لن يستغرق الوقت أكثر من دقيقة.

كان نيتل معتادًا، منذ عهد بعيد، على تنفيذ مقترحات تيرنر لأنّها كانت تبدو على وجه العموم صائبة، ولكن عندما بدأ بصعود الطريق أخذ يغمغم «في تصرّفك شيء غير سليم أيّها الحاكم».

أبطأت قروحهما من سيرهما، كانت أنثى الخنزير صغيرة وسريعة، تحبّ الحرّيّة، لكن نيتل خشيها. وعندما حصرها عند مدخل أحد الدكاكين، قفزت نحوه، فوثب مسرعًا إلى الجانب وأطلق صرخة بعيدة البعد كلّه عن الهزء بالذات.

وهنا ذهب تيرنر إلى السيّدة يطلب منها حبلاً، ولكن لم يأت أحد إلى الباب، كما أنّه لم يكن متأكّدًا من البيت نفسه. على أيّة حال، بات الآن على يقين بأنّهما إذا لم يمسكا بالخنزيرة فقد لا يعودان إلى الوطن أبدًا، إذْ أدرك أنّ درجة حرارته آخذة بالارتفاع مجدّدًا، لكن لا يمكن للحرارة أن تجعله يخطئ المنزل. الخنزيرة تساوي النجاح، عندما كان تيرنر طفلاً صغيرًا حاول ذات يوم أن يقنع نفسه بأنّ الحيلولة دون وفاة والدته المفاجئ بتجنّب السير على صدوع الرصيف خارج ملاعب المدرسة كانت بلا معنى. لكنّه لم يطأ مذّاك تلك الصدوع ولم تمت.

ظلّ الحيوان بعيدًا عن متناولهما حتى بعد أن تقدّما في سيرهما.

قال نيتل:

ـ تبًّا! لا يمكننا أن نفعل هذا.

لكن لا خيار أمامهما، وتمكّن تيرنر من صنع أنشوطة باستخدام سلك هاتف وجده على الأرض، وبدأ الاثنان يلاحقان الحيوان على امتداد الطريق على حافّة المنتجع حيث انتشرت الحدائق الصغيرة المُحاطة بالأسوار أمام البيوت الصغيرة. سارا على امتداد الطريق، يفتحان كلّ بوّابة أماميّة على كلا جانبي الطريق، ثم انحرفا في سيرهما وانعطفا إلى طريق جانبي للالتفاف على الحيوان وملاحقته حتى يعود من حيث أتى. لكنّه سرعان ما دخل إحدى الحدائق وبدأ ينبش فيها، فما كان من تيرنر إلاّ أن أغلق باب الحديقة، ومال من فوق السور، وألقى بالأنشوطة من حول رأس الحيوان.

استنفد سحل الحيوان كلّ ما تبقّى لديهما من جهد وقوّة، وأعاداه إلى البيت. لحسن الحظّ أنّ نيتل كان يعرف أين يعيش الحيوان، وعندما بات في ملجأه داخل حديقة خلفيّة، أتت المرأة بإبريقين كبيرين من الماء، فوقفا في الباحة الصغيرة القريبة من باب المطبخ وشربا، وظلاّ يتوقان للشرب حتى بعد أن بدت معدتاهما توشكان على الانفجار. ثم أحضرت لهما المرأة قطعة صابون وقميصين داخليّين قطنيّين وطاسين ليغتسلا، وسرعان ما حوّل وجه تيرنر الساخن لون الماء إلى بنّي محمرّ، وتساقطت قشور من دم متيبّس على شفته العليا بكلّ يسر وسهولة. ولمّا فرغ شعر بخفّة مدهشة في الهواء المحيط به الذي انساب انسيابًا حريريًّا على بشرته ومن خلال منخريه، ثم حملا الماء الوسخ بعيدًا باتّجاه مجموعة من نباتات الفجل قال نيتل إنّها تجعله يشتاق إلى حديقة أبويه الخلفيّة. وملأت الغجريّة حافظتي مياههما بالماء وأعطت لكلّ واحد منهما لترًا من النبيذ الأحمر، سُحبت سدّادتا الزجاجتين قليلاً إلى أعلى، ونقانق احتفظا بها داخل حقيبتي ظهريهما.

وعندما اقترب موعد انصرافهما فكّرت الغجريّة ثانية ودخلت البيت من جديد، وعادت حاملةً كيسين من الورق يحوي كلّ واحد منهما على ستّ حبّات من اللوز المحلّى.

صافحاها بكلّ هدوء ورزانة.

قال تيرنر:

ـ سنذكر إحسانك ما حيينا.

أومأت برأسها وظنَّ أنّها قالت:

ـ سوف يذكّرني حيواني بكما دائمًا.

لم تتغيّر لهجتها القاسية، ولم يدريا إن كانت ملاحظتها تنطوي على شتيمة أو مزحة أو رسالة خفيّة. هل ظنّت أنّهما لم يستحقّا عطفها وإحسانها؟ تراجع إلى الخلف مرتبكًا، سار بعدها مع نيتل على امتداد الشارع وبدأ يترجم لنيتل ما قالته له. لم تداخل العريف أيّة شكوك.

ـ تعيش وحدها وتحبّ حيوانها، مفهوم، كانت غاية في الامتنان لنا.

ثم أضاف بريبة:

ـ أأنت على ما يرام أيّها الحاكم؟

ـ أنا بخير، شكرًا لك.

سارا وهما يعرجان باتّجاه الساحل، تقلقهما قروحهما، لا تشغل بالهما سوى فكرة العثور على ماسي ومشاطرته الطعام والشراب. لكن نيتل فكّر أنّ من الإنصاف فتح زجاجة شراب الآن بعد أن كان أفلح في القبض على الحيوان.

عادت ثقته بأحكام تيرنر. شربا معًا وهما يسيران على امتداد الطريق. كان في وسعهما، حتى في ظلّ الغسق، أن يتبيّنا السحابة السوداء من فوق دنكرك، واستطاعا مشاهدة وميض المدافع على الجانب الآخر. لم يهدأ الموقف على امتداد المحيط الدفاعي.

قال نيتل:

ـ أيّها الأوغاد المساكين.

كان تيرنر يدرك أنّ نيتل يتحدّث عن الرجال الموجودين خارج مكتب الوحدة الموقّت.

قال:

ـ لا يمكن لخطّ الدفاع أن يصمد أكثر.

ـ سوف يجتاحون المكان.

ـ لذا فالأفضل أن نستقلّ قاربًا غدًا.

روى الاثنان عطشهما، ولم يعد يشغل فكرهما سوى العشاء. كان تيرنر منشغل الذهن بحجرة هادئة ومنضدة مربّعة الشكل مغطّاة بغطاء من نسيج قطني أخضر اللون، ومصباح زيتي فرنسي من الخزف يتدلّى من السقف ببكرة، فيما انتشر الخبز والنبيذ والجبن والنقانق على لوح خشبي.

قال:

ـ أفكّر إنْ كان الساحل أفضل مكان حقًّا لتناول العشاء.

وافقه نيتل قائلاً:

ـ يمكن أن نتعرّض للسرقة.

ـ أعتقد أنّني أعرف نوع المكان الذي نحتاج إليه.

عادا إلى الشارع الكائن وراء الحانة. وفيما هما يرنوان إلى الزقاق الذي سبق لهما أن اجتازاه، شاهدا عددًا من الأشخاص يتحرّكون من تحت الضوء الخافت المنعكس على صفحة البحر. وعلى مسافة أبعد شاهدا على أحد الجانبين كتلة أكثر قتامة، ربّما تمثّل مجموعة من الجند يقفون على الساحل، أو قد تكون حشائش نمت فوق الكثبان، أو هي الكثبان الرمليّة نفسها. سيكون صعبًا جدًّا العثور على ماسي في رابعة النهار، مثلما هو مستحيل الآن. لهذا واصلا سيرهما بحثًا عن مكان ما. في هذا الجزء من المنتجع انتشر المئات من الجنود، أكثرهم في مجموعات صاخبة هائجة في

الشوارع، يغنّون ويهتفون. أعاد نيتل الزجاجة إلى حقيبة ظهره، إذْ شعرا أنّهما ضعيفان بلا ماسي.

مرًّا بفندق أُصيب بقذيفة، وتساءل تيرنر إن كانت الغرفة التي فكّر فيها هي غرفة في فندق. أمّا نيتل فقد استحوذت عليه فكرة إخراج بعض مفروشات الأسرّة، فدخلا من خلال فتحة في الجدار وتلمّسا طريقهما بحرص وحذر وسط العتمة والأنقاض والأخشاب المتساقطة حتى وصلا إلى سلالم، لكنّ العشرات من الأشخاص استبدّت بهم مثل هذه الفكرة، إذْ شاهدا صفًّا طويلاً يقف أسفل الدرج، فيما يهبط جنود آخرون حاملين بمشقّة فرش نوم ثقيلة محشوّة بشعر الخيل. وعلى فسحة الدرج العليا ـ حيث لم يتمكّن تيرنر ونيتل إلاّ من رؤية الأحذية الثقيلة والسيقان تتحرّك بقوّة من جهة إلى جهة أخرى ـ يبدو أنّ شجارًا اندلع وارتفعت معه أصوات النخير وفرقعة الأصابع. وبعد صيحة مفاجئة، سقط عدد من الرجال على ظهورهم إلى أسفل السلالم وفوق أولئك الواقفين بالانتظار. تعالت الضحكات وصُبّت اللعنات، وبدأ الناس ينهضون من سقطتهم ويتحسّسون أطرافهم.

لكنّ أحد الرجال لم ينهض من مكانه، ولبث مستلقيًا على السلالم على نحو أخرق، ساقاه إلى أعلى من فوق رأسه، زاعقًا بصوت أجشّ كأنّه في حلم فظيع. رفع أحدهم قدّاحة أمام وجهه فشاهد الجميع أسنانه العارية وبعض البقع البيض في زاويتي فمه. لقد كسر ظهره، كما قال أحدهم، لكن ليس في وسع أحد أن يفعل أيّ شيء له. وبدأ الناس يخطون من فوقه حاملين البطّانيّات والمخدّات الطويلة الأسطوانيّة الشكل، فيما تدافع الآخرون للصعود إلى الطابق العلوي.

خرجا من الفندق وانعطفا ثانيةً بعيدًا عن الساحل وباتّجاه السيّدة العجوز وخنزيرتها.

لا بدّ أنّ الطاقة الكهربائيّة المجهّزة من دنكرك قد قُطعت، ولكنّهما شاهدا من حول حافّات بعض النوافذ المسدلة عليها ستائر سميكة الوهج

الأصفر المنبعث من ضوء الشموع والمصابيح الزيتيّة. وشاهدا أيضًا على الجانب الآخر من الطريق جنودًا يطرقون الأبواب دون أن يفتحها لهم أحد.

هذه هي اللحظة التي اختارها تيرنر ليصف لنيتل نوع المكان الذي يفكّر فيه لتناول العشاء. فزوّق كلامه ليوضح مرامه، مضيفًا إليه الأبواب الزجاجيّة المطلّة على شرفة حديديّة يخالطها نبات معترش مزهر وجهاز حاكٍ على منضدة دائريّة مغطّاة بغطاء من قماش الشانيل الصوفي الأخضر، وسجّادة فارسيّة مفروشة على أريكة. وكلّما أمعن في وصفه، ازداد يقينه بأنّ الغرفة قريبة منه. كلماته هي التي تظهرها إلى الوجود.

تركه نيتل ينهي وصفه، تاركًا أسنانه الأماميّة تستند إلى شفته السفلى ونظر إليه نظرة حيرى تشبه نظرات القوارض، وقال:

ـ أعرفها.. أعرفها حقّ المعرفة.

وقفا الآن أمام بيت تعرّض للقصف، سردابه نصف مفتوح باتّجاه السماء، شكله أشبه بكهف عظيم. أمسك به من سترته وجذبه أسفل كومة من قرميد مكسّر، وقاده بحرص وحذر نحو أرضيّة السرداب والظلمة الحالكة التي تلفّها. أدرك تيرنر أن هذا ليس هو المكان المقصود، لكنّه لم يتمكّن من مقاومة إصرار نيتل غير المألوف، ولاحت أمامهما نقطة ضياء، ثم نقطة أخرى، فأخرى، سكائر جنود يلوذون بهذا المكان.

قال صوت ما:

ـ تبًّا! المكان مملوء.

أشعل نيتل عود ثقاب ورفعه عاليًا. رجال يجلسون على امتداد جميع الجدران، معظمهم خلد إلى النوم، بعضهم استلقوا في وسط الأرضيّة، لكن لا تزال هناك فسحة، وعندما انطفأ عود الثقاب، ضغط على كتفي تيرنر ليرغمه على الجلوس. وفيما كان تيرنر ينفض الغبار من تحت مقعده تحسّس قميصه المبتل. ربّما كان دمًا، أو سائلاً ما، لكنّه لم يشعر بأيّ ألم في تلك اللحظة.

رتّب نيتل وضع المعطف من حول كتفي تيرنر. شعر بالثقل ينزاح من على قدميه ونشوة ارتياح تمتدّ إلى أعلى مخترقةً ركبتيه، وعلم أنّه لن يتحرّك في تلك الليلة ثانية مهما كان حجم خيبة أمل نيتل. وانتقلت الحركة الاهتزازيّة بعد سير طوال النهار إلى الأرضيّة، إذْ شعر أنّها تهتزّ من تحته وهو قابعٌ تحت ظلام دامس. المشكلة الآن هي أن يأكل دون أن يهاجمه أحد. إذا أراد أن يبقى على قيد الحياة فلا بدَّ له من أن يكون أنانيًا، لكنّه لم يفعل شيئًا حتى هذه اللحظة، وكان ذهنه خاليًا.

بعد هنيهة، أيقظه نيتل بوكزة من مرفقه، وناوله زجاجة النبيذ، فوضع فمه من حول حافتّها وأمالها إلى أعلى، وشرب. سمعه أحدهم وهو يشرب.

ـ ماذا لديك؟

قال نيتل:

ـ حليب غنم، لا يزال دافئًا، أتريد قليلاً؟

صدح صوت يشبه صوت الباعة الجوّالين فيما أسقط شيء فاتر وهلامي على ظهر تيرنر.

ـ يا لك من قذر أيّها القذر.

وصاح صوت آخر أشدّ تهديدًا:

ـ صه! إنّني أحاول أن أخلد إلى النوم.

تحرّك نيتل دون أن يصدر عنه أيّ صوت، وفتّش في حقيبته عن النقانق وقسّمها ثلاثة أقسام وناول تيرنر قسمًا واحدًا مع قطعة خبز، واستلقى على الأرضيّة الإسمنتيّة، وجذب معطفه من فوق رأسه ليحتوي رائحة اللحم وصوته وهو يلوك الطعام، وبدأ يأكل أفضل وجبة طعام في حياته، مكتوم الأنفاس، تضغط على خدّه قطع القرميد والحصباء. ثمّة رائحة صابون معطّر على وجهه. عضَّ على قطعة الخبز التي تنبعث منها نكهة الجنفاص العسكري وقضم قطعة

النقانق. ولمّا وصل الطعام معدته أحسَّ بالدفء يسري في صدره وبلعومه، وفكّر بأنّه مشى في تلك الطرقات والدروب طوال حياته. وعندما أغمض عينيه شاهد الإسفلت وهو يتحرّك وحذاءه يتأرجح، تارة يختفي وتارة أخرى يظهر له. وراح يشعر، حتى أثناء الأكل، أنّ النعاس يغالبه فيغفو ثواني معدودة متّصلة. ودخل مرحلة أخرى من الزمان، ووجد نفسه مستلقيًا في وضع مريح وعلى لسانه حبَّة لوز محلاّة، حلاوتها تنتمي إلى عالم آخر. وتناهت إلى مسامعه أصوات رجال يتذمّرون من شدّة البرودة في السرداب، فشعر بالسعادة لأنّه كان ملفوفًا بالمعطف، كما شعر بكبرياء الأبوّة عندما تذكّر أنّه حال بين العريفين والتخلّص من معطفيهما ورميهما على قارعة الطريق.

حضرت مجموعة أخرى من الجنود تبحث لها عن ملجأ وتشعل أعواد الثقاب، تمامًا مثلما أشعلها هو ونيتل. لم يشعر بالمودّة تجاههم، واستاء من لكناتهم الخاصّة بسكّان مقاطعات غربي إنكلترا، وأراد، شأنه شأن الآخرين الجالسين في السرداب، أن ينصرفوا، ولكنّهم عثروا على مكان ما وراء قدميه.

ملأت رائحة شراب البراندي أنفه فاغتاظ أكثر من ذي قبل. علا ضجيجهم وهم يرتّبون أماكن نومهم، وعندما انطلق صوت من قرب الجدار: تبًّا أيّها الريفيّون الأجلاف! سار أحد القادمين الجدد مترنّحًا إلى ذلك الاتّجاه وبدا للحظة أنّ لغطًا يوشك على الانفجار ولكنّ الظلمة واحتجاجات المقيمين المنهكة حافظت على السلم.

* * *

وسرعان ما ران الصمت ولم يبق سوى صوت الأنفاس والشخير. الأرض من تحته تميل، ومن ثم تتحوّل إلى إيقاع مسيرة منتظمة، ووجد تيرنر نفسه ثانيةً معذّبًا كلّ العذاب بالأوهام والخيالات، جفاه النوم بسبب الحمّى والإعياء اللذين أخذا منه كلّ مأخذ. تحسّس معطفه بحثًا عن رسائلها، سأنتظرك، ارجع. . الكلمات ليست بلا مغزًى، لكنّها لم تؤثّر فيه الآن. بات واضحًا الآن أنّ انتظار شخص لشخص آخر أشبه بعمليّة حسابيّة، وأنّه يخلو

من العواطف، الانتظار، شخص لا يفعل أيّ شيء على مرِّ الزمان، في حين يقترب الآخر.

الانتظار كلمة ثقيلة، شعر بها تضغط عليه، ثقيلة مثل معطف. كلّ من في السرداب في حالة انتظار، وكلّ من يقف على الساحل. إنّها تنتظر نعم، لكن ثم ماذا؟ حاول أن يجعل صوتها ينطق الكلمات، لكنّه لم يسمع سوى صوته، من تحت دقّات قلبه. لم يتمكّن حتى من تبيان ملامحها. ألزم أفكاره باتّجاه الحالة الجديدة، الحالة التي يفترض فيها أن تجعله سعيدًا. التعقيدات أفلتت منه، والضرورة ماتت، سوف تغيّر بريوني من شهادتها، وستعيد كتابة الماضي من جديد حتى يصبح المذنب بريئًا. لكن ما الذنب في هذه الأيّام؟ شيء رخيص، الكلّ كان مذنبًا، والكلّ ليس مذنبًا، وما من أحد سَيُفتدى بتغيير شهادة، إذ ليس هنالك ما يكفي من الناس ومن الورق ومن الأقلام ومن الصبر ومن السلام، لتدوين بيانات كلّ الشهود وجمع الحقائق. الشهود مذنبون بدورهم أيضًا، ففي كلّ يوم يشهد أحدنا جرائم الآخر، أنت لم تقتل أحدًا اليوم؟ لكن كم عدد الذين تركتهم يموتون؟ سوف نبقي كلّنا هذه الأمور في طيّ الكتمان ونحن في هذا السرداب، سنتخلّص منها بالنوم يا بريوني. اللوزة المحلاّة لها طعم اسمها، فبدا من غير المرجّح أنّه يفكّر إنْ كان يتذكّره على نحو صائب، وسيسليا أيضًا. هل سلَّم جدلاً بغرابة هذين الاسمين؟ صعب جدًّا أن يظلّ هذا السؤال مطروحًا إلى زمن طويل. لديه الكثير من المشاغل التي لم ينجزها هنا في فرنسا، ممّا يجعل تأجيل رحيله إلى إنكلترا أمرًا معقولاً، حتى إنْ كانت حقائبه موضّبة، حقائبه الغريبة والثقيلة. لا أحد سيراها لو تركها هنا ورجع. أمتعة غير مرئيّة. عليه أن يعود أدراجه ويحمل الصبيّ من فوق الشجرة. لقد فعلها من قبل. لقد سبق له أن قفل راجعًا إلى حيث لم يرجع أحد، وعثر على الصبيّين تحت شجرة، وحمل بياروت على كتفيه وجاكسون على ذراعيه وسار على امتداد البستان، ثقيلان جدًّا! كان مغرمًا بسيسليا وبالتوأمين، وبالنجاح، وبالفجر وضبابه المتوهّج الغريب. يا لها من

حفلة استقبال! أضحى اليوم معتادًا على مثل هذه الأمور، أمر تافه على جانب الطريق، لكن قبل الخشونة والخدر العامّ، وعندما كان كلّ شيء جديدًا ومستحدثًا، شعر بما حدث بكلّ وضوح. اهتمّ عندما هربت من فوق الحصباء وكلّمته قرب باب سيّارة الشرطة المفتوح. آه، عندما أحببتك/ كنت نقيًّا وشجاعًا.

إذًا سيعود من حيث أتى، سيعود ماشيًا وسط خيبات كلّ ما حقّقاه، وراء المستنقعات الجافّة الموحشة، ومن أمام الرقيب الغليظ القلب على الجسر، وسط القرية التي دمّرها القصف، وعلى الطريق الممتدّ أميالاً فوق أرض زراعيّة متموّجة، يراقب الدرب من جهة اليسار عند حافّة القرية وقبالة دكّان الإسكافي، وبعدها بميلين عبور سياج من أسلاك شائكة والتوغّل في الغابة والحقول ليمضي ليلة في مزرعة الأخوين. وفي اليوم التالي، وتحت ضياء الصباح الأصفر، يغذّ خطاه على ميلان إبرة البوصلة ويسرع وسط ذلك الريف المدهش بوديانه الصغيرة وجداوله وأسراب نحله، ثم يرتقي الممشى حتى البيت الحزين القريب من سكّة الحديد، والشجرة. يجمع من الطين قطع الثياب المحترقة المخطّطة وما تبقّى من منامته، وبعدها يقوم بإنزاله إلى أسفل، الصبيّ الشاحب المسكين، ويدفنه دفنًا لائقًا. صبيّ بهيّ الطلعة. دعوا المذنب يدفن البريء، ولا تدعوا أحدًا يغيّر من شهادته، ثم أين ماسي كي يساعده في الحفر؟ ذلك الدبّ الشجاع، العريف ماسي، ها هنا عمل كثير لم ينجز بعد، ها هنا سبب آخر يجعله لا يستطيع الرحيل، عليه أن يعثر على ماسي. لكن قبل هذا كلّه، يجب عليه أن يقطع الأميال من جديد، أن يعود إلى الشمال، إلى الحقل حيث لا يزال الفلاّح وكلبه يسيران من خلف محراث، أن يسأل السيّدة الفلمنكيّة وابنها إن كانا يعتقدان أنّه مسؤول عن مصرعهما. في وسع المرء أحيانًا أن يفترض أشياء كثيرة، أكثر ممّا ينبغي في نوبات من المسؤوليّة الذاتيّة المتخيّلة. قد لا تقول لا، ما المكافئ لكلمة لا بالفلمنكيّة؟ حاولت أن تساعدنا ولم يكن بإمكانك أن تحملنا إلى ما وراء الحقل، حملت التوأمين،

ولم تحملنا. لا.. لا.. أنت غير مذنب.. لا.

سمع همسة، وشعر بأنفاسها على وجهه المتّقد.

ـ ضوضاء أكثر ممّا ينبغي أيّها الحاكم.

تبيّن من وراء رأس العريف نيتل جزءًا واسعًا من سماء ذات لون أزرق داكن، ومن حولها حافّة سوداء مثلّمة لسقف السرداب المهشّم.

ـ ضوضاء؟ ماذا كنت أفعل؟

ـ تردّد كلمة «لا» موقظًا بذلك النائمين، ممّا جعل بعضهم يغتاظون حقًّا.

حاول أن يرفع رأسه لكنّه وجد أنّه لا يقوى على ذلك، أشعل العريف عود ثقاب.

ـ يا إلٰهي! تبدو في حالة مزرية، هيًّا.. اشرب.

رفع من رأس تيرنر ووضع حافظة الماء قرب شفتيه. طعم الماء معدني، ولمّا فرغ، بدأ إعياء هائل ومنتظم يدفع به إلى أسفل. سار على الأرض اليابسة حتى سقط في المحيط.

ولكي لا يثر ذعر نيتل، حاول أن يبدو كلامه معقولاً أكثر ممّا كان يحسّ به فعلاً.

ـ انظر! قرّرت البقاء هنا، أريد أن أنجز بعض الأعمال.

مسح نيتل بيد متّسخة جبين تيرنر الذي لم يجد سببًا يدفع نيتل إلى التفكير بضرورة وضع وجهه، وجهه القلق، الزري المظهر على مقربة وجهه.

قال العريف:

ـ أيمكنك أن تسمعني أيّها الحاكم؟ أأنت مصغٍ إليّ؟ خرجت قبل ساعة تقريبًا كي أتبوّل، خمّن ما الذي شاهدت، رجال البحريّة يمشون على الطريق

وينادون الضبّاط. إنّهم ينتظمون على الساحل. لقد عادت القوارب، نحن راجعون إلى الوطن أيّها الرفيق. ثمّة ضابط هنا سيتولّى قيادتنا إلى الساحل في الساعة السابعة، خذ قسطًا من النوم وكفّ عن صياحك.

* * *

بدأ بالسقوط الآن، وكلّ ما كان يبغيه هو النوم، ألف ساعة من النوم، ذلك أسهل، كان الماء قذرًا، ولكنّه مفيد، شأنه شأن الخبر وهمسة نيتل المهدّئة. سوف ينتظمون غدًا على الطريق خارج المبنى ويسيرون ناحية الساحل، ينعطفون يمينًا، وسيسود النظام. لم يعلّمه أحد في كيمبردج فوائد نظام السير الجيّد. كانوا يبجّلون الأرواح الحرّة المتمرّدة، الشعراء، لكن ما الذي يعرفه الشعراء عن البقاء على قيد الحياة؟ عن بقاء جسد الإنسان؟ لا تجاوز على الرتب، ولا إسراع في تجذيف القارب، ولا السابق هو الذي تسبق له الضيافة، ولا الويل للمتخلّف، لا صوت أحذية ثقيلة عندما عبروا من فوق الرمال ناحية خطّ المدّ. وفي الموجة المتدحرجة، أيادٍ على استعداد لتثبيت الجانب العلوي من القارب كي يتمكّن الرفاق من ركوبه. لكنّ البحر هادئ، بل هو هادئ يدرك مدى روعة انتظارها، اللعنة على الحساب. كانت كلمة سأنتظرك بدائيّة، هي السبب الذي جعله يبقى على قيد الحياة. وهي الأسلوب الاعتيادي لكي تقول إنّها سترفض بقيّة الرجال، أنت وحدك، ارجع إليَّ.

تذكّر شعوره بالحصباء من خلال حذائه ذي النعل الخفيف، بإمكانه أن يشعر بها الآن، وباللمسة الثلجيّة للقيد في معصميه. توقّف هو والمفتّش قرب السيّارة واستدار عندما سمع وقع خطواتها. كيف يمكن أن ينسى ذلك الثوب الأخضر، وكيف كان معلّقًا على منحنى ردفيها، وعرقل من هرولتها وأظهر روعة كتفيها؟ أشدّ بياضًا من الضباب، لم تستبدّ به الدهشة عندما رأى الشرطة تسمح لهما بالحديث، بل لم يفكّر أصلاً في ذلك. لقد تصرّف هو وسيسليا كأنّهما وحدهما. لم تستسلم للبكاء عندما أخبرته أنّها تصدّقه، أنّها تثق به،

أنّها تحبّه، قال لها بكلّ بساطة إنّه لن ينسى هذا، وكان يعني أنّه لن ينسى مدى امتنانه لها يومئذٍ واليوم. ثم وضعت إصبعًا فوق القيد وأخبرته أنّها لم تخجل، لا يوجد شيء تخجل منه، وأمسكت بزاوية ياقته وهزّته هزًّا رقيقًا عندما قالت له: «سأنتظرك ارجع»، كانت جادّة. وسيُظهر الزمان أنّها كانت جادّة في قولها، وبعد ذلك دفعوه داخل السيّارة فتكلّمت بعجالة قبل أن تجهش بالبكاء، إذ لم يعد في وسعها أن تحبس دموعها وقالت: إنّ ما حدث بينهما يخصّهما وحدهما، وحدهما ولا يخصّ أيّ شخص آخر. كانت على وجه التوكيد تعني ما حدث بينهما في المكتبة، إنّه شأنهما، وما من أحد في وسعه أن يأخذه منهما. وهتفت به أمام الجميع قبل أن يغلق الباب بقوّة: إنّه سرّنا.

قال، على الرّغم من أنّ رأس نيتل غاب عن ناظريه منذ زمن طويل:

ـ لن أتفوّه بكلمة. أيقظني قبل السابعة. أعدك بأن لا تسمع منّي كلمة أخرى.

* * *

القسم الثالث

لم ينحصر القلق في المستشفى، إذْ بدأ يزداد ازدياد ماء النهر البنّي المضطرب المنتفخ بأمطار نيسان، ليمتدّ بعد ذلك في الأماسي، مخيّمًا على المدينة التي تعيش التعتيم مثل غسق عقلي يمكن للمدينة برمّتها أن تدركه، حلكة خبيثة لا تنفصل عن أواخر الربيع البارد، متوارية بين طيّات إحسانها في جميع الأرجاء. شيء ما يصل منتهاه، الموظّفون الأقدم في الخدمة، الذين احتشدوا جماعات معتدّة بنفسها عند تقاطع الدهاليز، يتباحثون في سرّ من الأسرار. أمّا الأطبّاء الأصغر سنًّا فكانوا أطول قامة، خطواتهم أكثر عدوانيّة، الطبيب الاستشاري مشتّت الانتباه أثناء جولته. وفي صباح يوم ما، سار ناحية النافذة ليحدّق إلى ما وراء النهر لبضع دقائق متّصلة، الممرّضات واقفات ينتظرن على أهبة الاستعداد قرب الأسرّة. أمّا الحمّالون الكبار في السنّ فلاح عليهم الاكتئاب وهم يدفعون المرضى من الردهات وإليها، وبدوا وقد نسوا عباراتهم البرّاقة المرحة المأخوذة عن البرامج الإذاعيّة الهزليّة والتي من شأن بريوني أن ترتاح ثانية عند سماع كلماتها التي تُثير اشمئزازها ـ افرحي أيّتها الحبيبة، قد لا تقع.

لكنّها توشك أن تقع. فالمستشفى بدأ يفرغ رويدًا رويدًا، على نحو غير مرئي منذ أيّام، وبدا أنّ الحظّ وحده أوّل الأمر، وباء الصحّة الجيّدة، هو

الذي جعل المتدرّبين الأقلّ ذكاء يرغبون في التقليل من تقنيّاتهم التطويريّة. ولم يكتشف إلاّ أحدهم، وعلى نحو بسيط، تصميمًا ما. الأسرّة الفارغة تنتشر على امتداد الردهة وفي الردهات الأخرى أيضًا انتشار الموت في الليل. تخيّلت بريوني وقع الخطوات المتراجعة في الدهاليز العريضة اللامعة بصوت مكتوم، تبريري، على حين كانت ذات يوم تنطوي على كفاءة وذكاء. وجاء عمّال لنصب خراطيم مياه قاذفة جديدة على الفسحات الكائنة خارج المصاعد، ووضعوا دلاءً جديدة مملوءة بالرمال لمقاومة الحريق، واشتغلوا طوال النهار دون توقّف، ولم يكلّموا أحدًا قبل رحيلهم، ولا حتى الحمّالين. وفي الردهة لم يكن هناك سوى مرضى على ثمانية أسرّة من مجموع عشرين سريرًا.

وعلى الرّغم من أنّ العمل كان أشقّ ممّا كان عليه سابقًا، فإنّ قدرًا من القلق، الخوف المرضي إلى حدٍّ ما، هو الذي منع الطالبات المتدرّبات على التمريض من التذمّر عندما كنَّ يجلسنَ وحدهنّ معًا لتناول الشاي. كنَّ أكثر هدوءًا وأكثر تقبّلاً ورضًى، ولم يمددن أيديهنّ ليقارنَّ التقرّحات التي أُصيبت بها.

فضلاً على ذلك، ساد قلق متواصل وعميق بين المتدرّبات بشأن ارتكاب الأخطاء. عشن كلّهنّ وهنَّ يخشين رئيسة الممرّضات مارجوري دراموند، يخشين الابتسامة الشحيحة، المتوعّدة، وليونة سلوكها التي كانت تسبق ثورتها. كانت بريوني تعرف أنّها جمعت مؤخّرًا سلسلة من الأخطاء، فقبل أربعة أيّام، وعلى الرّغم من التعليمات المتأنّية، شربت إحدى مريضاتها جرعة كبيرة من حامض الكربوليك ـ استنادًا إلى رواية حمّال شاهدها كأنّها تشرب جرعة كبيرة من الجعة ـ وتوعّكت صحّتها وتقيّأت على دثارها. وكانت بريوني مدركة أيضًا بأنّ دراموند شاهدتها وهي تحمل ثلاث مبولات مهجعيّة في الوقت نفسه، في حين يتوقّع من الممرّضات الآن أن يقطعن الردهة طولاً وعرضًا وهنّ يحملن مبولات، الواحدة فوق الأخرى، كأنّهنّ نادل مشغول في

مطعم لا كوبولي. ربّما هناك أخطاء أخرى، نسيتها لشدّة إعيائها، أو حتى لم تعرف بها. إنّها معرّضة لأخطاء في مشيتها ـ في لحظات معيّنة من لحظات الذهول، كانت تميل إلى تحويل ثقلها إلى إحدى القدمين على نحو يُثير من غضب رؤسائها. يمكن لحالات النسيان والإخفاق أن تتراكم بمرور الأيّام دون أن تُبالي بها: مكنسة خزّنت على نحو غير صحيح، بطّانيّة مطويّة وعلامتها التجاريّة إلى الجهة العليا، ياقة منشّاة في فوضى، العجلات المثبتة بأسفل الأسرّة متّجهة إلى الداخل وليس إلى الخارج، العودة إلى بداية الردهة خالية اليدين ـ لوحظت كلّ هذه الأشياء إلى أن بلغت القدرة أوجها، وبعد ذلك، وإن لم تقرأ العلامات الدالّة، سينزل الغضب مثل صدمة، هذا في الوقت الذي يظنّ فيه المرء أنّه أبلى بلاءً حسنًا.

لكنّ رئيسة الممرّضات لم توجّه مؤخّرًا ابتسامتها التي تبعث على المرح نحو الخاضعين للتجربة، ولم تكلّمهم بصوت ليّن يثير رعبهم، فهي قلّما اهتمّت بواجباتها، بل كانت منشغلة البال، تقف دومًا في الساحة الرباعيّة الزوايا قرب جراحيّة الرجال، وفي مؤتمرات طويلة مع نظرائها، أو تتوارى عن الأنظار تمامًا على مدى يومين كاملين في الوقت نفسه.

وفي سياق آخر، في مهنة أخرى، كان من شأنها أن تبدو أُموميّة حنونًا بامتلاء جسمها، أو حتى شهوانيّة لأنّ شفتيها غير المطليّتين بأحمر الشفاه، الرائعتين بلونهما الطبيعي وتقوّسهما اللطيف، ووجهها بوجنتيه المدوّرتين والبقع الورديّة التي تنمّ عن موفور الصحّة والعافية التي تشبه خدود دمية ورديّة، كانت كلّها توحي بطبيعة سمحة طيّبة.

وقد زال هذا الانطباع في مرحلة مبكّرة عندما واجهت إحدى الممرّضات المتدرّبات في مرحلة بريوني التدريبيّة، وكانت فتاة ممتلئة الجسم، رؤومًا، بطيئة الحركة، نظرتها غير المؤذية والسليمة تشبه نظرة بقرة، واجهت القوّة الضاربة لثورة رئيسة ممرّضات الردهة. كانت الممرّضة لانغلاند قد نُقلت موقّتًا لتقديم العون في ردهة جراحيّة الرجال، والمساعدة في إعداد أحد

الجنود الشبّان لاستئصال الزائدة الدوديّة، وبعد أن تُركت وحدها وإيّاه لدقيقة أو دقيقتين، تجاذبت أطراف الحديث معه وأبدت ملاحظات مطمئنة عن عمليّته، لا بدَّ أنّه وجّه سؤالاً واضحًا لا لبس فيه، وكان ذلك الحدث هو الذي عُدَّ خرقًا للقانون المقدّس، ودُوّن في الكُتيّب، وإنْ لم يخمّن أحدٌ مدى الأهمِّيّة التي أُضفيت عليه. وبعد مرور ساعات، أفاق المريض من تأثير المخدّر وتمتم باسم الممرّضة الطالبة في وقت كانت رئيسة ممرّضات ردهة الجراحة ماثلة على مقربة منه، فأُعيدت الممرّضة لانغلاند إلى ردهتها مكلّلة بالخزي والفضيحة، وعُقد اجتماع لبقيّة الممرّضات لتدوين ملاحظات.

لو أنَّ سوزان لانغلاند المسكينة قتلت عن تقصير أو بقسوة دزّينتين من المرضى لما كان الأمر بمثل هذا السوء عليها. وفي حين فرغت رئيسة الممرّضات دراموند من قولها لها بأنّها شيء بغيض لتقاليد التمريض التي وضعتها نايتينغيل التي تطمح إليها، وأن تعدّ نفسها محظوظة إذْ ستنفق الشهر القادم في عمليّة فرز البياضات المتّسخة، فإنّ لانغلاند ونصف عدد الفتيات الحاضرات أجشهن بالبكاء. لم تكن بريوني بضمنهنّ، لكنّها راجعت في تلك الليلة الكتيّب وهي مستلقية على سريرها، مرتعشة إلى حدٍّ ما، إنْ كانت هناك أيّة ملاحظات تخصّ فنّ التعامل يمكن أن تكون قد غفلت عنها. قرأت من جديد الأمر وحفظته عن ظهر قلب: على الممرّضة أن لا تعطي اسمها الأوّل لأيّ مريض تحت أيّ ظرف من الظروف.

أُفرغت الردهات، ولكنّ العمل ازداد، فكانت الأسرّة تُدفع إلى وسط الردهة كي تتمكّن الممرّضات المتدرّبات من تلميع الأرضيّة بدلو ثقيل لا يمكن لفتاة وحدها أن تتحرّك من جانب إلى آخر وهي تحمله. وكانت الأرضيّات تُكنس ثلاث مرّات يوميًا، والخزّانات الصغيرة الفارغة تُنظَّف، والفُرش تُطهَّر بالتعريض للدخان، وكلاليب المعاطف البرونزيّة ومقابض الأبواب وثقوب المفاتيح تُلمَّع. أمّا الأخشاب ـ كالأبواب والإزارات ـ فتُغسل بمحلول الكاربوليك أسوة بالأسرّة، والإطارات المعدنيّة والنوابض، فانهمكت

الطالبات بتطهير المبولات والزجاجات ومسحها وتنشيفها حتى تبدو برّاقة كأنّها أطباق لطعام العشاء. وجاءت شاحنات عسكريّة زنة حمولتها ثلاثة أطنان وتوقّفت عند أماكن التحميل، حاملةً أعدادًا أخرى من الأسرّة، قديمة ووسخة بحاجة إلى تنظيف مرّات ومرّات قبل نقلها إلى داخل الردهة وحشرها بين بقيّة الأسرّة، ليتمّ بعد ذلك غسلها بحامض الكاربوليك. وفي أثناء أداء الواجبات، ربّما اثنتا عشرة مرّة في اليوم، كانت الطالبات ينظّفن أيديهنّ المتصدّعة والمتقرّحة النازفة دمًا بالماء البارد كالثلج، فالحرب ضدّ الجراثيم لا تتوقّف.

وتمّ تلقين المتدرّبات في بادئ الأمر على الهوس بالصحّة، وتعلّمن أنّ أكثر ما يبعث على النفور والغثيان هو مشاهدة خصلة من زغب بطّانيّة تحت أحد الأسرّة يتوارى من تحتها لواء أو فرقة بأكملها من البكتيريا. وأضحت الممارسة اليوميّة، من غلي وتنظيف ومسح، دليلاً على اعتزاز الطالبات المهني الذي ينبغي التضحية بكلّ الراحة الشخصيّة لأجله.

أتى الحمّالون من أماكن التحميل بكمّيّة كبيرة من التجهيزات الجديدة التي ينبغي إفراغها وتثبيتها في قوائم، وخزنها ـ ضمّادات، أوعية كلى، محاقن للحقن تحت الجلد، ثلاثة أوعية جديدة للتعقيم، وعدد كبير من الرزم عليها علامة «أكياس بنيان»، لم توضّح حتى الآن طريقة استعمالها. ووُضعت خزانة إضافيّة طبّيّة ومُلئت بعد تنظيفها ثلاث مرّات، وأُقفلت وأُودع المفتاح لدى رئيسة الممرّضات دراموند، ولكن في صباح يوم ما، شاهدت بريوني داخلها صفوفًا من زجاجات، وعليها علامة توضح أنّها مورفين. عندما كانت تُرسل لأداء بعض الواجبات، لاحظت ردهات أخرى وهي بدرجات مماثلة من الاستعداد، وكانت إحداها فارغة تمامًا من المرضى، تلمع وسط الصمت المترامي الأطراف، وتنتظر، ولكنّها لم توجّه أيّة أسئلة. في العام الماضي، وقبل إعلان الحرب مباشرة، أُغلقت الردهات في الطابق العلوي تمامًا اتّقاء للقصف، وأمست مسارح العمليّات الآن في السرداب، كما زوّدت نوافذ الطابق الأرضي بأكياس الرمل، وسُدَّت كلّ طاقة ضوء بالإسمنت.

زار المستشفى جنرالٌ في الجيش وتجوّل فيه، وإلى جانبه نصف دزّينة من الاستشاريّين، ولم يُجرَ له أيّ احتفال، ولم يطلب من أحد التزام الصمت. يُقال إنّه، في مثل هذه الزيارات المهمّة، ينبغي أن يكون أنف كلّ مريض في وسط طيّة الملاءة العليا. لكن لم يكن هناك وقت كافٍ للاستعداد، إذْ خطا الجنرال داخل الردهة رفقة مجموعته، يتمتم ويهزّ رأسه وبعدها مضوا في سبيلهم.

ازداد القلق لكن لا توجد سوى فرصة ضئيلة للتكهّن، وهو أمر ممنوع في كلّ الأحوال.

في الوقت الذي لا تكون فيه المتدرّبات منهمكات في العمل، فإنّهنّ يتلقّين الدروس أثناء وقت الفراغ، أو المحاضرات، أو دروسًا عمليّة، أو يدرسن وحدهنّ. وكان هناك إشراف على وجبات طعامهنّ وأوقات نومهنّ كأنّهنّ طالبات جدد في رويدان.

فعندما دفعت ڤيونا، المتدرّبة التي تنام في السرير الثاني المجاور لسرير بريوني، طبقها بعيدًا وأعلنت، دون أن تخاطب أحدًا على وجه التخصيص، أنّها «عاجزة سريريًّا» عن تناول الخضروات المسلوقة بمكّعبات من نوع أوكسو، وقفت الممرّضة من على رأسها حتى أتت على آخر لقمة. كانت ڤيونا صديقة بريوني، وفي محلّ إقامتهنّ، وفي الليلة الأولى من التدريب الابتدائي، طلبت من بريوني أن تقلّم أظافر يدها اليمنى، موضحة أيضًا أنّها لا تستطيع القيام بذلك باستخدام يدها اليسرى، فكانت والدتها، لذلك السبب، هي التي تقلِّم أظافر يدها اليمنى باستمرار. كانت ذات شعر أحمر، وعلى وجنتيها نمش، ممّا جعل بريوني تلتزم دومًا جانب الحيطة والحذر. لكنّ ڤيونا، على العكس من لولا، كانت صخّابة ومرحة، وعلى ظهر يديها رصعتان، ذات صدر هائل يجعل بقيّة الفتيات يتنبّأن بأنّها ستصبح ذات يوم رئيسة ممرّضات الردهة. كانت أسرتها تقطن في حيّ تشيلسي، وهمست ذات ليلة من فوق سريرها بأنّ والدها يتوقّع أن يُطلب منه الانضمام إلى حكومة الحرب برئاسة تشرشل.

لكن عندما أعلن عن التشكيل الوزاري، لم تكن هناك صلة بين

الألقاب، ولم يوضح أحد شيئًا، وآثرت بريوني عدم إثارة الموضوع في الأيّام الأولى التي أعقبت التدريب الابتدائي. لم تكن لدى ڤيونا وبريوني إلاّ فرصة ضئيلة للتعارف، وكان يلائم الاثنتين التظاهر بأنّهما تعرفان بعضهما بعضًا. كانتا من بين الفتيات القلائل اللواتي لم يحظين بأيّة دراسة طبّيّة من قبل، أمّا بقيّة الفتيات فقد حصلن على تعليم مناسب في الإسعاف الأوّلي، وكنّ يعرفن الشيء الكثير عن الدم والأجسام الميتة، أو في الأقلّ، هذا ما صرَّحن به.

ولكنّ تنمية الصداقات ليست بالأمر الهيّن، فالمتدرّبات يعملن أثناء نوبات عملهنّ في الردهات، ويدرسن ثلاث ساعات يوميًا في وقت فراغهنّ، ثم يخلدن للنوم. متعتهنّ وقت شرب الشاي، بين الرابعة والخامسة عصرًا، عندما يأخذن من فوق الرفوف الخشبيّة أباريق الشاي البنّيّة الصغيرة المزيّنة بأسمائهنّ، ويجلسن معًا في غرفة الاستراحة النهاريّة، بعيدًا عن الردهة. الحديث مفرط في التكلّف والتصنّع. كبيرة الممرّضات المسؤولة عن المكان حاضرة للإشراف على اللياقة والذوق وتأمينهما، فضلاً على ذلك، كان الإرهاق يستولي عليهنّ حالما يجلسن في أماكنهنّ، ثقيلاً ثقل ثلاث بطّانيّات مطويّة.

وذات يوم، غالب النعاس إحدى المتدرّبات في حين كانت تمسك صحنًا وعليه كوب من الشاي، فسقطِ وأصاب فخذها ـ فكانت فرصة ممتازة، على حدّ قول رئيسة الممرّضات، دراموند، التي جاءت لتتبيّن سبب الصراخ، ولكي تعالج الحروق.

وكانت هي نفسها عائقًا يحول دون عقد صداقات، ففي تلك الأشهر المبكرة، فكّرت بريوني دائمًا بأنّ علاقتها الوحيدة هي تلك التي تربطها برئيسة الممرّضات دراموند.

فهي حاضرة دومًا، يشاهدنها تارة في آخر الدهليز، مقتربة وقد عزمت على أمر سيّئ، وتارة أخرى قرب كتف بريوني تهمس في أذنها قائلة إنّها أخفقت في الإصغاء أثناء التدريب الابتدائي للإجراءات الصحيحة المتّبعة في

استحمام المرضى من الذكور وهم يلتفّون بالبّطانيّة: إذْ لا ينبغي إعطاء المريض فوطة الظهر المنقوعة بالصابون ومنشفة الظهر إلاّ بعد تغيير ماء الاستحمام للمرّة الثانية كي يتمكّن من «الانتهاء من الاستحمام بنفسه». كانت حالة بريوني العقليّة تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الطريقة التي كانت تنظر بها كبيرة ممرّضات الردهة إليها في تلك الساعة.

كانت تشعر ببرودة في معدتها كلّما سقطت نظرة دراموند عليها، يستحيل أن تعرف إن كانت قد أبلت بلاء حسنًا. كانت بريوني تخشى فكرتها السيّئة، فالمديح شيء لم يسمع به أحد، وأفضل ما يمكن للمرء أن يأمل فيه هو اللامبالاة.

في اللحظات التي كانت بريوني تختلي فيها بنفسها، في الظلمة عادةً وقبل أن تخلد إلى النوم بدقائق، فكّرت بحياة وهميّة موازية تكون فيها في غيرتون، تقرأ مؤلّفات ملتون.

كان في وسعها أن تلتحق بكلّيّة شقيقتها بدلاً من مستشفاها. لقد ظنّت بريوني أنّها انضمّت إلى المجهود الحربي، لكنّها في حقيقة الأمر قلَّصت من حياتها حتى غدت علاقة مع امرأة تكبرها بخمس عشرة سنة لها سلطة عليها أكبر بكثير من سلطة الأمّ على طفلها. إنَّ هذا التقليص، الذي كان قبل كلّ شيء تجريدًا من الهويّة، بدأ قبل أسابيع من سماعها بكبيرة الممرّضات دراموند.

في اليوم الأوّل من التدريب الابتدائي الذي يمتدّ على مدى أسبوعين، كان إذلال بريوني أمام الصفّ كلّه مفيدًا جدًّا. هكذا ستسير الأمور. فقد ذهبت إلى كبيرة الممرّضات لكي توضح مجاملةً أنّ الغلطة كانت بسبب البطاقة الخاصّة باسمها، فهي بي تاليس وليست إن تاليس التي دُوّنت عليها.

وكان الردُّ هادئًا. اسمك هو الاسم الذي أطلق عليك. وسيبقى كذلك، أمّا اسمك الأوّل فلا يهمّني، والآن تفضّلي بالجلوس أيّتها الممرّضة تاليس.

لو كان في وسع بقيّة الفتيات الضحك لضحكن جميعًا، لأنّ حروف أسمائهنّ الأولى متشابهة، ولكنّهنّ شعرن عن صواب أنّ الإذن بالضحك لم يُمنح لهنّ. كان الوقت هو وقت المحاضرات الخاصّة بالنظافة، والاستحمام بالحِرام، باستخدام نماذج بالحجم الطبيعي ـ السيّدة ماكنتوش، الليدي تشيس والطفل جورج الذي سمح له بناؤه الجسدي الضعيف أن يبدو بهيئة طفل وبضعف حجمه الحقيقي. إنّه وقت الانسجام مع الطاعة العمياء، وتعلّم حمل المبولات، الواحدة فوق الأخرى، وتذكّر القاعدة الأساسيّة: عدم السير في الردهة دون إرجاع شيء ما إلى مكانه.

وساهم التعب البدني في إغلاق كلّ آفاق بريوني العقليّة، الياقات المنشّاة العالية آذت رقبتها الغضّة، وغسل يديها عشر مرّات يوميًّا بالماء البارد اللاسع بالصودا أظهر بدايات إصابة أصابعها بالتورّم، والأحذية التي اضطرّت إلى شرائها بمالها الخاصّ بها ضغطت على أصابع قدميها ضغطًا شديدًا، والزيّ، شأنه شأن أيّ زيّ آخر، ساعد على تلاشي هويّتها، وبدأ العمل اليومي المطلوب تنفيذه ـ كيّ الكسرات وتعليق القبّعات وتعديل التجاعيد وتلميع الحذاء، لا سيّما الكعبين ـ مجهدًا، ما أدّى إلى استبعاد بقيّة المشاغل رويدًا رويدًا. وفي الوقت الذي غدت فيه الفتيات مستعدّات لبدء دراستهنّ بوصفهنّ متدرّبات، والعمل في الردهات بإمرة رئيسة الممرّضات دراموند، والخضوع للرقابة اليوميّة «من المبولة إلى بوفريل»[(١)]، فإنّ حياتهنّ السابقة باتت بلا ملامح، عقولهنّ خوت إلى حدٍّ ما، دفاعاتهنّ سقطت، حتى أضحين مقتنعات اقتناعًا سهلاً بسلطة كبيرة ممرّضات الردهة المطلقة. لا مجال للمقاومة فهي تملأ عقولهنّ الخاوية.

النموذج الماثل لكلّ هذه الأشياء هو النظام العسكري، وإنْ لم يقل

---

(١) بوفريل Bovril: مستخلص مركّز من لحوم الأبقار يُستخدم في الطعام أو الشراب ليُضيف نكهة له، ابتكره في ١٨٨٧ جون لوسون جونستون، الكلمة مأخوذة عن الكلمات اللاتينيّة vril, ox, bovis, bos الكلمة عمومًا توحي بالرجولة والقوّة (المترجم).

أحدٌ ذلك. الآنسة نايتينغيل، التي لا يُشار إليها البتّة باسمها الأوّل فلورنس، خدمت مدّة طويلة في حرب القرم فعرفت قيمة النظام وقوّة الأوامر والجنود المدرّبين تدريبًا جيّدًا. لهذا فعندما اضطجعت بريوني على سريرها في الظلام تستمع لشخير ڤيونا المتواصل على امتداد الليل ـ ڤيونا التي لا تنام إلاّ على ظهرها ـ فإنّها، بريوني، شعرت أنّ الحياة الموازية، التي بإمكانها أن تتخيّلها بكلّ سهولة من زياراتها إلى كيمبردج عندما كانت طفلة لرؤية ليون وسيسليا، سوف تتفرّع من حياتها الشخصيّة. حياتها هي حياة طالبة الآن، هذه السنوات الأربع، هذا النظام الشمولي، لا إرادة لها ولا حرّيّة لها في تركها. إنّها تتخلّى عن نفسها لتحيا حياة تحكمها القيود والقوانين والطاعة والعمل المنزلي والخوف الدائم من الاستهجان. إنّها واحدة من المتدرّبات في إحدى الدفعات ـ ثمّة دفعة جديدة كلّ بضعة أشهر ـ ولا هويّة لها خارج الهويّة التي تحملها الآن، لا وجود للدروس الجامعيّة هنا، لا أحد يُصاب بالأرق بسبب مسار معيّن لنموّها العقلي. لقد أفرغت المبولات وصرفت القاذورات بتيّار ماء قوي، كنست الأرضيّات ولمّعتها، أعدّت الكاكاو والبوفريل، وجلبتها وحملتها، وتحرّرت من فحص مشاعرها ودوافعها وأدركت من خلال إصغائها لطالبات السنة الثانية، أنّها سوف تبدأ، عمّا قريب، بالإحساس باللذّة لكفاءتها، ها هي قد تذوّقتها مؤخّرًا، عندما أُوكلت لها مهمّة قياس النبض ودرجة الحرارة تحت إشراف رئيستها، وتدوين القراءات على لوحة. أمّا في ميدان المعالجات الطبّيّة، فقد وضعت مادّة من زهر الجنطانيا البنفسجيّة على الأمراض الجلديّة المعدية، ومستحلب أكوافلافين على الجروح، ومحلول الأسيداج على الكدمات، لكنّها في معظم الحالات كانت خادمة، خادمة بكلّ ما في الكلمة من معنى. وفي ساعات فراغها تحشو دفاعها بالمعلومات والحقائق البسيطة. كان يسعدها أن تحظى بوقت قليل لتفكّر في أشياء أخرى، ولكن عندما كانت تقف على فسحة الدرج في مبذل نومها، وهو آخر شيء تفعله ليلاً، وترنو إلى ما وراء النهر ناحية المدينة المظلمة، فإنّها تتذكّر حالة القلق السائدة خارجًا في الشوارع، وفي الردهات أيضًا، فكانت أشبه بالظلام

نفسه. لا شيء في عملها الرتيب، ولا حتى رئيسة الممرّضات دراموند، يمكن أن يحميها منه.

* * *

في نصف الساعة التي تسبق إطفاء الأضواء، وبعد تناول الكاكاو، تبدأ الفتيات بالدخول والخروج من غرفهنّ إلى غرف الأخريات، فيجلسن على أسرّتهنّ يكتبن الرسائل إلى الأهل أو الأحباب. لا يزال قسم منهنّ يذرف الدموع من فرط الحنين، وفي هذه الحالة تزداد المواساة وطمأنة البال في هذا الوقت، فتمتدّ الأذرع من حول الأكتاف وتُنطق الكلمات والعبارات المهدِّئة، فيبدو هذا كلّه مصطنعًا في رأي بريوني، ومثيرًا للضحك: فتيات شابّات بالغات يذرفن الدموع على أمّهاتهنّ، أو، على حدّ تعبير إحدى الطالبات وهي تجهش بالبكاء، على رائحة غليون أبيها. يبدو أنّ الفتيات اللواتي كنَّ يواسين ويكفكفن الدموع، يستمتعن بما يفعلن أكثر ممّا ينبغي.

في هذا الجوّ المشبع، كانت بريوني تكتب رسائلها المقتضبة إلى أهلها، لا توضح فيها ما هو أكثر من أنّها ليست مريضة وليست حزينة، وليست محتاجة إلى مخصّصاتها، وليست على استعداد لأن تغيّر رأيها على النحو الذي توقّعته والدتها. أمّا بقيّة الفتيات، فكتبن باعتزاز عن تفاصيل أعمالهنّ الرتيبة ودراستهنّ لإثارة إعجاب أهلهنّ المحبّين. غير أنّ بريوني كانت تدوّن مثل هذه الأمور في مفكّرتها ولكن بلا تفاصيل كثيرة، فهي لم ترغب في أن تعرف والدتها شيئًا عن العمل الوضيع الذي تؤدّيه. لقد كان أحد أهدافها في أن تكون ممرّضة هو العمل من أجل استقلالها، ولهذا فإنّ المهمّ عندها هو أن لا يعرف أبواها، خاصّةً أمّها، إلاّ أقلّ ما يمكن عن حياتها. باستثناء مجموعة من الأسئلة المتكرّرة التي ظلّت بلا إجابة، فإنّ رسائل إميلي كانت تدور في معظمها عن الذين تمّ إجلاؤهم بسبب مخاطر الحرب، فقد صدر أمر بإيواء ثلاث أمّهات وسبعة أطفال، وكلّهم من حيّ هاكني اللندني، في بيت أسرة تاليس. لكنّ إحدى الأمّهات جلبت الخزي والعار على نفسها في حانة

القرية، فمُنعت من دخولها. أمّا المرأة الأخرى فكانت كاثوليكيّة متزمّتة تسير أربعة أميال رفقة أطفالها الثلاثة لحضور قدّاس الأحد في البلدة القريبة. لكنّ بيتي، وهي كاثوليكيّة أيضًا، لم تكن لتُلقي بالاً لمثل هذه الاختلافات، إذْ كانت تكره كلّ الأمّهات وكلّ أطفالهنّ.

ففي الصباح الأوّل قالوا لها إنّ طعامها لا يعجبهنّ، وزعمت هي أنّها شاهدت المرأة التي تحرص على الذهاب إلى الكنيسة وهي تبصق على أرضيّة المدخل. كما أنّ أكبر الأولاد، وكان صبيًّا في الثالثة عشرة من عمره وإن دلَّ مظهره على أنّه لا يتجاوز الثامنة، قفز إلى النافورة، وتسلّق التمثال وكسر قرن تريتون وذراعه حتى مرفقه.

قال جاك إنّ إصلاحه ممكن دون إثارة زوبعة أكبر، لكنّ الجزء المكسور الذي نُقل إلى داخل المنزل، وتُرك في حجرة غسل الأطباق وتنظيفها، بات مفقودًا الآن. وبناءً على معلومات من هاردمان العجوز، فقد اتّهمت بيتي الصبيّ برميه في البحيرة. لكنّ الصبيّ قال إنّه لا يعرف عنه شيئًا، وتردّد كلام عن تجفيف البحيرة لكن سرعان ما سرى القلق بشأن زوجي البطّ. كانت الأمّ عنيفة في دفاعها عن ابنها، وقالت إنّ بقاء النافورة خطر طالما أنّ هناك أطفالاً في الجوار، وإنّها سوف تكتب خطابًا إلى عضو البرلمان سير آرثر ريدلي، وهو عرّاب بريوني.

ولكن، علىٰ الرّغم من هذا كلّه، رأت إميلي أنّهم ينبغي لهم أن يشعروا بأنّهم محظوظون لوجود هؤلاء الأمّهات والأطفال، إذ بدا في وقت من الأوقات أنّ الجيش سوف يستولي على البيت برمّته واستخدامه لأغراضٍ عسكريّة.

واستقرّ بهم المقام أخيرًا في منزل هيوفان فيليه لاحتوائه على منضدة بليارد. أمّا الخبر الآخر فهو أنّ أختها هيرميوني كانت لا تزال في باريس وإن كانت تفكّر في الانتقال إلى مدينة نيس. ونُقلت الأبقار إلى ثلاثة حقول في الجانب الشمالي كي تسهل حراثة التربة وزرعها بالذرة. وهُدم سياج حديدي

يبلغ طوله ميلاً ونصف الميل، ويرجع تاريخه إلى خمسينيّات القرن الثامن عشر، ليُصهر وتُصنع منه طائرات قاذفات اللهب سبيت فاير. وكان العمّال الذين خلعوا السياج من مكانه قد أشاروا إلى أنّ مادّته الحديديّة تختلف عن معدن الطائرات. وشُيّد معقل عسكري صغير من الإسمنت والقرميد على امتداد النهر، على المنعطف مباشرة ووسط النباتات، فدُمِّرت بذلك أعشاش البطّ النهري الصغير وطيور الماء الرماديّة. وشُيّد معقل عسكري آخر في البقعة التي ينعطف فيها الطريق العامّ نحو القرية، وقامت الأسرة بخزن كلّ القطع الهشّة القابلة للكسر في السراديب، بما في ذلك البيانو القيثاري القديم. وفيما كانت بيتي التعسة تحمل زهريّة كليم إلى السرداب، فإذا بها تسقطها فتتناثر على الدرج، وقالت إنّ قطع الزهريّة تفتّتت بين يديها لا غير، وهو أمر يصعب تصديقه. والتحق داني هاردمان بسلاح البحريّة، لكن بقيّة فتيان القرية ذهبوا إلى مناطق ساري الشرقيّة، في حين انهمك جاك بالعمل الشاقّ، وحضر مؤتمرًا خاصًا، عاد بعده وبدا عليه الإرهاق والنحول، ولم يكن مسموحًا له أن يخبرها عن المكان الذي عُقد فيه المؤتمر. وثارت ثائرته عندما علم بما جرى للزهريّة، وبلغ به الأمر أنّه صاح في وجه بيتي، وكان هذا السلوك يتنافى تمامًا مع ما عُرف عن تصرّفاته. وفوق هذا كلّه، أضاعت دفتر الحصّة التموينيّة، فاضطرّوا إلى تدبير معيشتهم دون سكّر على مدى أسبوعين. أمّا الأمّ التي مُنعت من دخول ريدلايون فقد جاءت دون قناع مضادّ للغازات، ولم تزوّد بآخر غيره نظرًا لعدم وجود أقنعة احتياط، أمّا المسؤول عن الاحتياطات ضدّ الغارات الجويّة، وهو شقيق رئيس الشرطة فوكنز، فقد جاء للمرّة الثالثة للتأكّد من تطبيق نظام التعتيم، وتبيّن أنّه دكتاتور صغير تمامًا، ولم يحبّه أحد.

شعرت بريوني، بعد أن قرأت هذه الرسائل في نهاية يوم متعب، بحنين جارف، حالم، وتوق شديد غامض لحياة طويلة مفقودة. لم تشعر بالرثاء لنفسها، فهي الفتاة التي قطعت كلّ صلتها بأسرتها، وفي عطلة الأسبوع التي أعقبت التدريب الابتدائي، وقبل أن يبدأ التدريب الفعلي، كانت قد مكثت مع

عمّها وعمّتها في بريمروز هيل، وقاومت أمّها على الهاتف. ما السبب الذي يحول دون زيارة بريوني، حتى ولو ليوم واحد، في حين كان الآخرون يتشوّقون لرؤيتها ولسماع قصصها عن حياتها الجديدة؟ ثم ما سبب عدم مواظبتها على إرسال الخطابات؟ تصعب الإجابة مباشرة على هذه التساؤلات. من الضروري، أن تبقى بعيدة في هذه المرحلة.

كانت تحتفظ بمفكّرة كبيرة الحجم في درج بجانب سريرها، ذات جلد مقوًّى رخاميّ الشكل، وفيها خيط يلتصق من أحد جانبيه بكعب المفكّرة ومن الجانب الآخر ثُبّت فيه قلم رصاص. لم يكن مسموحًا استعمال قلم الحبر والأداة على السرير. وبدأت تدوّن يوميّاتها بعد نهاية اليوم الأوّل من التدريب الابتدائي، وكانت تفلح في الكتابة قبل بدء التعتيم بعشر دقائق على الأقلّ في كلّ ليلة. كانت عباراتها تتألّف من بيانات فنّيّة وشكاوى تافهة وتخطيطات شخصيّة وتفاصيل بسيطة عن يومها. بعد ذلك، انحرفت، وعلى نحو متزايد، ناحية الفانتازيا. وقلّما كانت تُعيد قراءة ما تكتبه، ولكنّها كانت تهوى تقليب الصفحات المكتوبة.

من وراء بطاقة هويّتها وزيّها تكمن نفسها الحقيقيّة المخزونة سرًّا والمتراكمة تراكمًا هادئًا، فهي لم تفقد قطّ تلك اللذّة الطفوليّة في مشاهدة الصفحات وقد امتلأت بخطّ يدها. في معظم الأحيان، لم تكن مادّة الكتابة هي الشيء المهمّ، ولمّا كان الدرج غير مزوّد بقفل أو مفتاح، فقد كانت شديدة الحرص على وصف رئيسة الممرّضات دراموند وصفًا مبطّنًا، كما لجأت إلى تغيير أسماء المرضى أيضًا. وبعد أن غيّرت الأسماء، بات سهلاً تحويل الظروف واللجوء إلى الابتكار. كانت تهوى كتابة ما تتخيّله من أفكار مسترسلة، فهي غير ملزمة بالحقيقة، ولم تقطع وعدًا لأحد بأن تكتب سجلاً بالأحداث. هذا هو المكان الوحيد الذي يمكن لها أن تكون حرّة فيه. أنشأت قصصًا صغيرة ـ غير مقنعة إلى حدٍّ كبير، وفي أحيان كثيرة منمّقة أكثر ممّا ينبغي ـ تدور حول الموجودين في الردهة. فعلى سبيل المثال، كانت تظنّ أنّها

أشبه بالشاعر تشوسر، ولكن في الميدان الطبّي، حيث تعجّ الردهات بنماذج ملوّنة من قبّعات هنديّة، وقبّعات قديمة، وأعزّاء لطيفين لديهم أسرار مخيفة يريدون إفشاءها. في الأعوام الأخيرة، ندمت لأنّها لم تكن أكثر التصاقًا بالحقائق، ولم تزوّد نفسها بخزين من الموادّ الخامّ. من المفيد لو عرفت ما حدث، من كان هناك؟ وعن أيّ شيء دار الحديث، في ذلك الوقت. احتفظت اليوميّات بكرامتها. قد تبدو وقد تتصرّف وقد تعيش حياة ممرّضة متدرّبة، ولكنّها في وِاقع الأمر مؤلّفة مهمّة متنكّرة. وفي الوقت الذي كانت فيه منقطعة عن كلّ شيء، كانت تدرك جيّدًا أنّ الكتابة للأسرة والبيت والأصدقاء تشكّل خيطًا للاستمراريّة، وهذا ما فعلته دائمًا.

كانت نادرة تلك اللحظات اليوميّة التي كان يهيم فيها عقلها على هواه. في بعض الأحيان كانت تُرسل إلى الصيدليّة، وتضطرّ إلى الانتظار طويلاً حتى يرجع الصيدلاني، لتجري بعد ذلك على امتداد الدهليز، فتصل إلى بئر السلّم حيث توجد نافذة تطلّ على النهر. وعلى نحو يتعذّر إدراكه، تجد نفسها تحوِّل كلّ ثقل جسدها على قدمها اليمنى وهي ترنو إلى ما وراء البرلمان، دون أن ترى ما الذي يكمن وراءه لتفكّر لا في يوميّاتها بل بروايتها الطويلة التي كتبتها وأرسلتها إلى إحدى المجلاّت. وأثناء إقامتها في بريمروز هيل استعارت آلة كاتبة يملكها عمّها ونقلتها إلى غرفة الطعام، وكتبت نسختها الأخيرة مستخدمة سبّابتيها، واستغرق ذلك العمل منها أكثر من ثماني ساعات يوميًّا وعلى مدى أسبوع بأكمله، إلى أن بدأت تشعر بألم في رقبتها وظهرها، وعلامة حرف الواو متكرّرة تسيح أمام عينيها، لكنّها لا تستطيع أن تتذكّر متعة أكبر من تلك المتعة في نهاية المطاف، بعد أن فرغت من التأليف ـ مائة وثلاث أوراق! ـ وتحسّست بأطراف أصابعها الغضّة وزن ما أبدعته، إبداعها الخاصّ بها، ما من أحدٍ كان في وسعه أن يكتب ما كتبته. وبعد أن احتفظت بنسخة ثانية مطبوعة على ورق الكاربون، غلَّفت قصّتها (وهذه كلمة غير دقيقة تمامًا) بورق بنّي واستقلّت حافلة إلى حيّ بلومزبري ومشت إلى عنوان في شارع لانسداون

تيراس حيث يقع مكتب مجلّة هورايزون الجديد وسلّمت الرزمة إلى امرأة شابّة لطيفة جاءتها إلى الباب. الشيء الذي أثار انفعالاتها بشأن ما حقّقته هو التصميم، الهندسة الخالصة واليقين المحدّد اللذان عكسا، برأيها، هوًى حديثًا.

لقد انتهى عصر الإجابات الواضحة، وانتهى أيضًا عصر الشخصيّات والحبكات. وعلى الرّغم من تخطيطاتها اليوميّة لم تعد تؤمن بالشخصيّات، لأنّها وسائل باتت طريفة وغريبة لقدمها، تنتمي إلى القرن التاسع عشر. كما أنّ مفهوم الشخصيّة نفسه أُسّس على أخطاء كشف عنها علم النفس الحديث، وأضحت الحبكة، من جهة أخرى، أشبه بآلة أصابها الصدأ، وغدت عجلاتها عاجزة عن الدوران. إنَّ الروائي الحديث لا يمكنه اليوم أن يكتب عن شخصيّات وعن حبكات مثلما لا يمكن لموسيقار حديث أن يؤلّف سيمفونيّة على غرار سيمفونيّات موزارت. كان يستبدّ بها الإحساس والمشاعر، وعقلها الواعي كأنّه نهر يجري في الزمان وكيف يمكن تجسيد سريانه، فضلاً عن الروافد التي سوف تعظِّم من حجمه، والعوائق التي ستقف في طريقه وتحوِّل مجراه.. آه لو تمكّنت من إعادة إنتاج الضوء الساطع لصباح من صباحات الصيف، وأحاسيس طفل قرب نافذة، وطيران طائر سنونو وتحليقه وهو يعلو ويهبط فوق بركة ماء. إنّ رواية المستقبل لن تشبهها أيّة رواية من الروايات التي كُتبت في الماضي. لقد قرأت رواية «الأمواج» لڤرجينيا وولف ثلاث مرّات، وفكّرت بأنّ التحوّل الكبير إنّما يكمن في طبيعة الإنسان نفسها، وأنّ الرواية وحدها، الرواية الجديدة، يمكنها أن تجسّد جوهر ذلك التحوّل. فالدخول إلى عقل من العقول، وإظهاره وهو يعمل، أو إظهار من يعمل عليه، وضمن تصميم نسقي سيكون نصرًا فنّيًا. هكذا كانت الممرّضة تاليس تفكّر وهي قرب الصيدليّة تنتظر عودة الصيدلاني، وتحدّق إلى ما وراء نهر التيمز، متناسية كلّ الخطر المحدق بها، خطر أن تكشفها رئيسة الممرّضات دراموند وهي تقف على قدم واحدة.

مرّت ثلاثة أشهر، لم تسمع خلالها أي جواب من مجلة هورايزون.

ولم يصلها أيّ جواب عن قصّة أخرى أرسلتها، فذهبت إلى مكتب الإدارة واستفسرت عن عنوان سيسليا.

في مطلع مايس كانت قد أرسلت خطابًا إلى أختها، وبدأت تدرك الآن أنّ الصمت هو ردُّ سيسليا.

* * *

في غضون الأيّام الأخيرة من شهر مايس ازدادت كمّيّات التجهيزات الطبّيّة المستلمة، وأُخرج المرضى الذين لا تستدعي حالتهم البقاء في المستشفى. وكان ممكنًا أن تفرغ ردهات مرضى برمّتها لولا أن جرى إدخال أربعين بحّارًا ـ نوع من اليرقان النادر بدأ يكتسح البحريّة الملكيّة ـ لم يعد لدى بريوني وقت كافٍ للتأليف، فقد بدأت محاضرات جديدة عن التمريض في المستشفى والتشريح الأوّلي، وكان طلبة المرحلة الدراسيّة الأولى يهرعون من نوبات عملهم إلى محاضراتهم، إلى وجبات الغداء والدرس على انفراد. وبعد أن قرأت ثلاث صفحات، أدركت صعوبة البقاء مستيقظة. وكانت دقّات ساعة بيغ بن تشير إلى تحوّلات النهار المتواصلة، ومرّت بها أوقات كانت الدقّات في كلّ ربع ساعة حافزًا لصدور الآهات والتأوّهات التي تنمّ عن رعب مكتوم إذْ أدركت الفتيات أنّ مكانهنّ ليس هنا بل في موقع آخر.

كانت الراحة التامّة على السرير تُعدُّ إجراءً طبّيًّا له مغزاه، وكان معظم المرضى، بصرف النظر عن حالاتهم، ممنوعًا عليهم السير تلك الخطوات القليلة التي تفصلهم عن المرافق الصحّيّة. لهذا كان النهار يبدأ بالمبولة، وكانت رئيسة الممرّضات لا تستحسن حملها على امتداد الردهة كأنّها «مضرب كرة اليد». وكان لا بدّ من حملها وإفراغها وغسلها وتنظيفها وحفظها بحلول الساعة السابعة والنصف، وهو الوقت الذي يبدأ فيه المشروب الصباحي. وعلى امتداد النهار هناك مبولات واستحمام بالحِرام وتنظيف الأرضيّة.

وتذمّرت الفتيات من آلام الظهر وسببها ترتيب الأسرّة ومن أوجاع حادّة تستبدّ بأقدامهنّ من ساعات الوقوف طوال النهار. ومن الواجبات الإضافيّة الأخرى تطبيق نظام التعتيم على نوافذ الردهة الكبيرة. ويمضي النهار والعمل يتواصل في إفراغ المبولات من البول، والمبصقات من البصاق، وإعداد الكاكاو، وقلّما كان هناك وقت للذهاب بين نهاية نوبة العمل وبداية الدرس إلى المهجع لإحضار الأوراق والكتب المنهجيّة. وفي يوم ما تلقّت بريوني تنبيهًا من رئيسة ممرّضات الردهة بسبب ركضها في الدهليز، وفي كلّ مرّة كان التنبيه يصدر عن صوت يخلو من أيّة نبرات معيّنة. الأسباب الوحيدة المسموح بها للممرّضة أن تركض هي في حالات الحريق والنزف الدموي.

لكنّ الميدان الرئيس عند المتدرّبات الأقدم هو غرفة تصريف المياه. فقد كانت الأحاديث تدور عن نصب أجهزة خاصّة لغسل المبولات والقناني، لكنّ الأحاديث لم تخرج كلّها عن إطار الشائعات. أمّا في الوقت الراهن، فعليهنّ أن يعملن مثلما عملت الأخريات من قبلهنّ. وفي اليوم الذي لُفت فيه انتباهها بسبب ركضها وجدت بريوني من يأمرها بالذهاب إلى غرفة تصريف المياه، للقيام بعمل إضافي. ربّما كان إرسالها ينطوي على مصادفة في جدول الخدمة غير المكتوب، ولكنّها ارتابت في الأمر. فما كان منها إلاّ أن جذبت باب الغرفة من ورائها وربطت الصدريّة البلاستيكيّة الثقيلة من حول خصرها. كان سرّ التفريغ، بل الوسيلة الوحيدة لإفراغها بالنسبة لها، يتمثّل في إغماض عينيها وحبس أنفاسها وإشاحة وجهها جانبًا. ثم تأتي بعد ذلك عمليّة الغسيل بمحلول الكاربوليك. وإذا قصّرت عن غير قصد عن التأكّد من أنَّ مقابض المبولات الفارغة نظيفة وجافّة، فستحدث لها مشكلات عويصة مع كبيرة الممرّضات.

وبعد إنجاز هذا العمل، تذهب مباشرة إلى الردهة الفارغة تقريبًا لترتيبها طوال النهار ـ ترتيب الخزانات وإفراغ منفضات السكائر، وإحضار صحف اليوم.

ألقت نظرة خاطفة، وعلى نحو آلي، على صفحة مطويّة من جريدة الصاندي غرافيك. كانت تتابع الأخبار متابعة غير مترابطة أو منتظمة، إذْ لم يكن لديها وقت كافٍ للجلوس وقراءة جريدة قراءة مناسبة. كانت تعرف عن اختراق خطّ ماجينو[1] وقصف روتردام واستسلام الجيش الهولندي. وكانت بعض الفتيات يتحدّثن في الليلة الماضية عن سقوط بلجيكا الوشيك، كانت الحرب تسير نحو الأسوأ، لكنّ هناك أملاً، جملة مُسكِّنة واحدة هي التي جذبت انتباهها الآن ـ لا بسبب ما عبَّرت عنه، بل بما حاولت أن تخفيه. الجيش البريطاني في شمالي فرنسا «يقوم بانسحابات استراتيجيّة نحو مواقع أُعدّت سلفًا». وفهمت بريوني، وهي التي لا تفقه شيئًا في الاستراتيجيّة العسكريّة أو التقاليد الصحافيّة، ما تنطوي عليه كلمة انسحابات. لعلّها آخر شخص في المستشفى يفهم ما يحدث. وفكّرت أنّ إخلاء الردهات وتدفّق التجهيزات ليسا سوى جزء بسيط من الاستعدادات الشاملة للحرب. لقد ظلّت منطوية على مشاغلها وهمومها الصغيرة. أمّا الآن، فقد رأت كيفيّة ارتباط الأخبار الصغيرة بعضها ببعض، وأدركت ما ينبغي لكلّ امرئ أن يعرف وما تخطّط له إدارة المستشفى. لقد وصل الألمان إلى القنال، والجيش البريطاني يعاني صعوبات جمَّة. لقد سارت الأمور سيرًا سيّئًا في فرنسا، وإنْ لم يعرف أحدٌ مدى ذلك السوء، هذا الهاجس المرعب المنذر بوقوع مصيبة هو الذي شعرت به من حولها.

في هذا الوقت تقريبًا، وفي اليوم الذي أُخرج فيه آخر المرضى من الردهة، وصلتها رسالة من أبيها، وبعد تحيّة مقتضبة واستفسار عن الدراسة وعن صحّتها، أشار إلى معلومات وردت من أحد الزملاء وأكّدتها الأسرة: سيتزوّج پول مارشال ولولا كوينسي في يوم السبت بعد أسبوع من الآن في كنيسة الثالوث المقدّس بحيّ كلابهام كومون. ولم يوضح الأب في رسالته عن

---

(١) خطّ ماجينو Maginot Line: خطّ دفاعي شيّده أندريه ماجينو (١٨٧٧ ـ ١٩٣٢)، رجل دولة فرنسي، على حدود فرنسا الشرقيّة في ١٩٢٧ (المترجم).

السبب الذي يجعله يفترض أنّ بريوني ترغب في معرفة هذا الخبر. كما أنّه لم يبدِ رأيه في الموضوع برمّته، واكتفى باختتام الرسالة في أسفل الصفحة بعبارة «مع حبّي الدائم».

واصلت بريوني القيام بواجباتها طوال الصباح وهي تفكّر بالخبر، فهي لم تشاهد لولا منذ ذلك الصيف، لهذا فإنّ الشخص الذي تخيّلته عند المذبح كان يمثّل فتاة مغزليّة الجسد في الخامسة عشرة من عمرها.

وساعدت بريوني أحد المرضى المغادرين المستشفى، وهي امرأة مسنّة من حيّ لامبث، في توضيب حقيبتها، وحاولت أن تركّز تفكيرها في شكاواها. كانت قد تعرّضت إلى كسر في إحدى أصابع قدمها، ووعدوها باستراحة أمدها اثنا عشر يومًا تقضيها في الفراش ولكنّها لم تتمتّع إلاّ بسبعة أيّام من الاستراحة.

وأجرت بريوني عمليّة حسابيّة وهي تؤدّي واجبها في غرفة تصريف المياه: لولا في العشرين، وسيبلغ مارشال التاسعة والعشرين، ليس في الأمر أيّة مفاجأة، لكنّ الصدمة تكمن في التوكيد، فبريوني أكثر من متورّطة في هذا الزواج، بل هي التي ساعدت في جعله ممكنًا.

انتابت بريوني، على امتداد النهار كلّه وهي تذرع الردهة جيئة وذهابًا وعلى طول الدهاليز والممرّات، مشاعر الذنب المألوفة وهي تطاردها لأنّها متردّدة في كتابة الرواية. نظّفت الأدراج الفارغة، وساعدت في غسل جوانب السرير بحامض الكاربوليك، وكنست الأرضيّات ولمّعتها، وهرعت إلى الصيدليّة وإلى وكيل توزيع الصدقات بسرعة مضاعفة دون أن تعدو عدوًا. وأُرسلت رفقة ممرّضة متدرّبة أخرى للمساعدة في تضميد بثرة في الردهة العامّة الرجّاليّة، وتستّرت على ڤيونا التي كانت مضطرّة إلى مراجعة طبيب أسنان. في هذا اليوم الأوّل الرائع حقًّا من شهر آذار، تفصّدت بريوني عرقًا من تحت بزّتها المنشّاة. كلّ ما كانت تريد هو الاستمرار في العمل ومن بعده الاستحمام والخلود إلى النوم، حتى يحين موعد العمل من جديد. ولكنّها كانت تعرف أنّ

ذلك كلّه بلا طائل، فمهما نفّذت من عمليّات تمريض متواضعة أو خدميّة، وبصرف النظر عن الصعوبات التي لاقتها في تنفيذها أو درجة إتقانها لها، أو الإشراقات التي حصلت عليها من دراستها أو قضاء لحظة، لا تنتهي على حدائق الكلّيّة، فإنّها تصلح الضرر، ولن يغفر أحد لها.

للمرّة الأولى منذ سنين، فكّرت بأنّها ترغب في أن تكلّم والدها، وتساءلت إنْ كان بإرساله المعلومات المحدّدة ذاتها إنّما يحاول أن يخبرها بأنّه يعرف الحقيقة. شربت الشاي ومنحت نفسها وقتًا قصيرًا جدًّا، ثم ذهبت إلى كشك الهاتف العمومي الكائن خارج مدخل مبنى المستشفى وعلى مقربة من جسر وستمنستر، وحاولت أن تتّصل به أثناء عمله، ولكنّ الاتّصال انقطع بعد أن وصلها سنترال الهاتف به، ثم عاد الاتّصال ثانية واضطرّت إلى البدء من جديد، وحدث الشيء نفسه وانقطع الاتّصال. وفي المحاولة الثالثة انقطع نهائيًّا بعد أن تناهى إليها صوت يقول ـ أحاول أن أصلك به.

في هذه الأثناء لم يعد لديها نقود معدنيّة، كما حان موعد عودتها إلى الردهة. توقّفت خارج كشك الهاتف متعجّبة من أعمدة السحب الهائلة المتراكمة على سماء ذات لون أزرق فاتح. وعكس النهر، بمدّه الربيعي الزاحف نحو البحر، اللون الأزرق بخطوطه الخضر والرماديّة، وبدت لها ساعة بيغ بن متشامخة إلى أعلى صوب سماء لا تهدأ. وعلى الرّغم من الدخان المتصاعد من حركة السير، فقد انتشر عبق النبات الطريّ من حولها، والعشب المجزوز مؤخّرًا في حدائق المستشفى على الأرجح، أو الصادر عن الأشجار الغضّة الصغيرة الممتدّة على طول ضفّة النهر. وبرغم الضوء الساطع، كان الهواء باردًا عليلاً. إنّها لم تشعر أو تشاهد ما هو أكثر متعة على مدى أيّام طويلة، بل ربّما على مدى أسابيع. لقد أنفقت أوقاتًا طويلة داخل المبنى، لا تتنفّس إلاّ روائح المعقّمات والمطهّرات. ولمّا ابتعدت، ابتسم لها ضابطان شابّان في الجيش، يعملان طبيبين في مستشفى عسكري بميلبانك، ابتسامة وديّة وهما يمرّان بها، فخفضت رأسها على الفور، ولكنّها ندمت لأنّها

لم تبادلهما النظرات في الأقلّ. ابتعدا عنها وعبرا الجسر، متجاهلين كلّ شيء سوى الحديث الدائر بينهما. مدَّ أحدهما يده إلى أعلى كأنّه يريد بذلك أن يمسك شيئًا ما موضوعًا على رفّ من الرفوف، فضحك له زميله، وفي منتصف طريقهما توقّفا ليرنوا مندهشين إلى سفينة مزوّدة بمدفع وهي تنزلق من تحت الجسر. وفكّرت بريوني بالحيويّة والحرّيّة التي يتمتّع بها طبيبا الفيلق الطبّي التابع للجيش الملكي، وتمنّت لو أنّها بادلتهما الابتسامات. ثمّة أجزاء في نفسها نسيتها تمامًا. لقد تأخّرت، ولديها أسباب كثيرة للعودة راكضة على رغم الحذاء الضيّق الذي يؤذي أصابع قدميها. هنا على هذا الرصيف الملوّث، الذي لم يُغسل بحامض الكاربوليك، لا تنطبق تعليمات رئيسة الممرّضات دراموند. لا حريق، ولا نزيف، لكنّ الركض بكلّ ما تستطيع من قوّة، بصدريّتها المنشّاة، إلى مدخل المستشفى يشكّل متعة بدنيّة مدهشة.



وهيمن على المستشفى الآن انتظار يبعث على الوهن والتراخي، ولم يبق فيها سوى البحّارة المُصابين باليرقان. وتبادلت الممرّضات شتّى الأحاديث المسلّية عنهم، بل كنَّ مفتونات بهم، فقد جلس جنود الأسطول الأشدّاء فوق أسرّتهم يرتقون جواربهم، ويصرّون على غسل ثيابهم الداخليّة بأيديهم، وتجفيفها على حبال الغسيل التي صنعوها من خيوط، وعلّقوها على امتداد أجهزة التدفئة المركزيّة. أمّا الذين لا يزالون طريحي الفراش فكانوا يعانون الآلام الممضّة ولا يطالبون بزجاجة خمر. وقيل إنَّ البحّارة المقتدرين كانوا حريصين على المحافظة على الردهة، محافظتهم على سفينتهم، بأنفسهم، وأنّهم تولّوا مهامّ الكنس، فكانت هذه التصرّفات المنزليّة تبدو غريبة على الفتيات. وقالت ڤيونا إنّها لن تتزوّج رجلاً لم يخدم في سلاح البحريّة الملكيّة.

وفجأة مُنحت المتدرّبات، دون سبب واضح، استراحة أمدها نصف نهار، ولا يحضرن خلالها أيّة دروس، على الرّغم من أنّهنّ سيبقين مرتديات

الزيّ الخاصّ بهنّ. وبعد تناول وجبة الغداء، عبرت بريوني الجسر برفقة ڤيونا، ومرّتا من أمام مبنى البرلمان وذهبتا إلى سانت جيمز بارك، وتنزّهتا من حول البحيرة، واشترتا شايًا من أحد الأكشاك واستأجرتا كرسيّين طويلين قابلين للطيّ لكي تستمعا إلى شيوخ من جيش الخلاص وهم يعزفون موسيقى إليغار[١] المعدّة لفرقة عزف نحاسيّة.

في تلك الأيّام من شهر آذار، وقبل أن يفهم الجميع قصّة ما حدث في فرنسا فهمًا كاملاً، وقبل البدء بقصف مدينة لندن بالقنابل في شهر أيلول، كانت لدى لندن علامات ظاهريّة عن الحرب ولم تكن لديها عقليّة الحرب. الزيّ العسكري، الملصقات التي تحذّر من الطابور الخامس، وملجآن كبيران للوقاية من الغارات الجوّيّة حُفرا في حديقة سانت جيمز بارك، وفي كلّ مكان طبقة موظّفين فظّة. وفيما كانت الفتاتان جالستين في كرسيّيهما، تقدّم منهما رجل مشدود الذراع وعلى رأسه قبّعة، وطلب أن يرى قناع الغاز الخاصّ بڤيونا، وكان متواريًا إلى حدٍّ ما بسبب ردائها الفضفاض. وبخلاف ذلك، كان الزمان زمن البراءة، وكان القلق بشأن الوضع في فرنسا والذي استبدّ بالبلاد كلّها قد تبخّر الآن في شعاع شمس ما بعد الظهيرة. فالموتى لم يصلوا بعد، والمفقودون يُفترض بهم أن يكونوا على قيد الحياة. المشهد كلّه أشبه بالحلم بسبب ما فيه من حال اعتياديّة، فعربات الأطفال تسير متهادية على الطرقات، وقبّعات الرأس مهدّلة لاتّقاء الشمس الساطعة. وللمرّة الأولى تثاءب الأطفال الرضّع من ذوي البشرة البيضاء والرؤوس الناعمة في وجه العالم الخارجي.

وركض الأطفال الذين بدا أنّهم هربوا من الإخلاء، على الحشائش يصيحون ويضحكون، فيما كافحت الفرقة الموسيقيّة بكلّ ما أُوتيت من قوّة، والكراسي الطويلة لا تزال تكلّف بنسين لا غير. وكان من الصعب على أيّ أحد أن يصدّق أنّ كارثة عسكريّة قد حلّت على بعد أقلّ من مائة ميل.

---

(١) سير إدوارد إيلغار (١٨٥٧ ـ ١٩٣٤) Sir Edward Elgar: موسيقار إنكليزي (المترجم).

لبثت أفكار بريوني مثبّتة على موضوعاتها. ربّما ستتعرّض لندن برمّتها إلى هجوم بالغازات السامّة، أو يكتسحها رجال المظلاّت الألمان بمساعدة الطابور الخامس المنتشر على الأرض قبل أن يتمّ زفاف لولا.

وكانت بريوني قد تناهى إلى سمعها أيضًا قول حمَّال واسع الاطّلاع وهو يقول، مطمئنًا على ما يبدو، إنّ الجيش الألماني لن يعوق تقدّمه شيء الآن، لأنّ للجيش أساليبه الحديثة وأنّ ذلك الجيش انتهج التحديث فيما بقي جيشنا على حاله لم يتغيّر. كان ينبغي على الجنرالات أن يقرأوا كتاب ليدل هارت، أو أن يأتوا إلى منزل حمّال المستشفى ويستمعوا بكلّ وضوح له أثناء استراحة الشاي.

تحدّثت ڤيونا وهي جالسة إلى جانبها بشغف عن شقيقها الصغير، والملاحظة الذكيّة التي أبداها أثناء تناول العشاء، فيما تظاهرت بريوني بالإصغاء وفكّرت في روبي: إذا كان قد اشترك في المعارك في فرنسا فربّما هو أسير الآن، أو ربّما حدث الأسوأ. كيف يمكن لسيسليا أن تبقى على قيد الحياة بعد مثل هذا الخبر؟ ومثلما تزداد الموسيقى حيويّة بتنافر الأصوات غير المدوّنة، وتتضخّم حتى تصل الذروة، فإنّ بريوني تشبّثت بجوانب كرسيّها الخشبيّة، وأغمضت عينيها. لو حدث شيء لروبي، إذا لم يلتق روبي وسيسليا ثانية... بدا عذابها الدفين وفوضى الحرب العامّة عالمين منفصلين، لكنّها أدركت الآن أنّ الحرب يمكن أن تضاعف من جريمتها، الحلّ الوحيد الذي يمكن تصوّره هو أن لا يكون الماضي قد حدث قطّ، وإذا لم يرجع... كانت توّاقة لأن تعرف ماضي شخص آخر، أو أن تكون شخصًا آخر، أن تكون مثل ڤيونا الرقيقة التي لم يلطّخ حياتها سوء، والتي تمضي قدمًا نحو المستقبل، وأسرتها الودودة الكبيرة التي تملك كلابًا وقططًا تحمل أسماءً لاتينيّة، وبيتها ملتقًى مشهور للفنّانين من حيّ تشيلسي. كلّ ما تضطرّ ڤيونا إلى عمله هو أن تعيش حياتها، وتسير على الطريق المرسوم أمامها وتكتشف ماذا سيحدث. أمّا بريوني، فيبدو أنّ حياتها ستمضي في غرفة واحدة، بلا باب.

ـ أأنت على ما يرام يا بريوني؟

ـ ماذا؟ نعم. . مؤكّد، أنا بخير شكرًا لك.

ـ لا أصدّقكِ، أتريدين أن أحضر لك بعض الماء؟

وفيما كان التصفيق يتعالى ـ إذْ يبدو أنّ أحدًا لم يعترض على سوء العزف الذي كانت تؤدّيه الفرقة الموسيقيّة ـ بدأت بريوني تراقب ڤيونا وهي تتّجه بعيدًا إلى ما وراء العازفين، والرجل ذا المعطف البنّي الذي يؤجّر الكراسي الطويلة، حتى وصلت المقهى الصغير القابع وسط الأشجار. كان جيش الخلاص قد بدأ يعزف «وداعًا أيّها الطير الأسود» وبدا العازفون أكثر مهارة، حتى إنّ الجالسين على الكراسي انضمّوا إليهم في الغناء والتصفيق.

للغناء الجماعي صفة قسريّة إلى حدٍّ ما ـ على النحو الذي يتمتّع به الغرباء عندما يرنو أحدهم إلى الآخر ولمّا يرفعوا عقيرتهم بالغناء ـ ولكنّها كانت مصمّمة على مقاومتها. ومع هذا، فقد رفعت الموسيقى من معنويّاتها. ولدى عودة ڤيونا حاملةً كوبًا من الماء، وانهماك الفرقة في عزف مقطوعات قديمة مثل «إنّه طريق طويل إلى تريباريري»، بدأت الاثنتان تتحدّثان عن العمل، وجرَّت ڤيونا بريوني إلى القيل والقال ـ إلى ما تحبّ كلّ واحدة منهما وما لا تحبّ، إلى رئيسة الممرّضات دراموند التي يمكن لڤيونا أن تقلِّد صوتها، وإلى المشرفة على الممرّضات المتعالية والبعيدة عنهما بعد الطبيب الاستشاري. وتذكّرتا غرابة أطوار مختلف المرضى، وشاركت إحداهما الأخرى همومها وأشجانها ـ وثارت ثائرة ڤيونا لأنّها لم يُسمح لها بوضع أشيائها على حافّة نافذتها، فيما كرهت بريوني إطفاء الأنوار في الساعة الحادية عشرة ليلاً ـ ولكنّ المرأتين تحدّثتا عن كلّ هذه الأمور بمتعة أكيدة. وكلّما توغّلتا في الحديث انتابهما الضحك، حتى إنّ رؤوس الناس بدأت تلتفت نحوهما والأصابع توضع على الشفاه، دلالة على ضرورة التزام الصمت. لكن تلك الإشارات كانت تفتقر إلى الجدّ، كما أنّ معظم الذين التفتوا إليهما ابتسموا لهما ابتسامات تنمّ عن التسامح وهم جالسون في

كراسيّهم، إذْ كان يُحيط بالممرّضتين الشابّتين ـ ممرّضتين في زمن الحرب ـ شيء ما يجعلهما بثيابهما البنفسجيّة والبيضاء والأردية الزرقاء الفضفاضة والقبّعات النظيفة، خاليتين من العيوب كأنّهما راهبتان.

شعرت الفتاتان بحصانتهما، فازداد ضحكهما علوًّا، وتحوّل إلى قهقهات وسخرية، واتّضح أنّ ڤيونا تجيد التقليد. وعلى رغم كلّ مرحها، شعرت بريوني أنّ ڤيونا تتّصف بقدر من القسوة فاستهوتها. فضلاً على ذلك، كانت لهجة ڤيونا لهجة خاصّة بها، مستمدّة من عاميّة حيّ لامبث. وبمبالغة قاسية عرفت مدى جهل بعض المرضى وتوسّلاتهم وأصواتهم الشاكية الباكية.

هذا أنا أيّتها الممرّضة، دومًا في الجانب غير الصحيح. أمّي مثلي تمامًا. هل صحيح أنّ طفلك خرج من قفاك؟ أيّتها الممرّضة، أنا شخصيًّا لا أعرف كيف سينتهي الأمر بطفلي. لديّ ستّة أطفال. ثم أستقلّ الحافلة فأنسى أحدهم فيها، الحافلة رقم ٨٨ القادمة من حيّ بريكستون، ما كان ينبغي لي أن أتركه وحده على المقعد. لم أره ثانية أيّتها الممرّضة، كنت غاية في الانزعاج. بكيت بكاءً مرًّا.

وفيما هما تعودان أدراجهما باتّجاه ساحة البرلمان، كانت بريوني مُصابة بدوار، لا تزال واهنة الركبتين بسبب الإفراط في الضحك. تعجّبت من نفسها، ومن السرعة التي يمكن أن يتغيّر فيها مزاجها. لم تختف هواجسها وقلقها، بل انحسرت جانبًا بعد أن استنفدت موقّتًا طاقتها الانفعاليّة والعاطفيّة. عبرت الفتاتان جسر وستمنستر متشابكتي الذراعين، المدّ منحسر، وفي هذا الضوء الساطع. اكتست ضفّتا النهر بمسحة بنفسجيّة في البقعة التي ألقت فيها الآلاف من براز الدود الأرضي ظلالاً حادّة صغيرة. وعندما انعطفت بريوني وڤيونا إلى شارع لامبث بالآس رود، شاهدتا رتلاً من الشاحنات العسكريّة وقد اصطفّت خارج المدخل الرئيس. فتأوّهت الفتاتان على نحو مرح لعلمهما أنّ تجهيزات أخرى قد وصلت وتحتاج إلى فتح صناديقها وخزنها. ثم شاهدتا وسط الشاحنات عربات الإسعاف الميدانيّة. ولمّا اقتربتا أكثر، بانت لهما

عشرات النقّالات لنقل المصابين، وقد وُضعت على الأرض بصورة عشوائيّة، فضلاً عن مساحة واسعة مملوءة بثياب عسكريّة خضر وسخة، وضمّادات مبقّعة. كما شاهدتا عددًا من الجنود واقفين في مجموعات، ذاهلين وساكنين، تلفّهم، أسوةً بالمستلقين على الأرض، الضمّادات الوسخة.

أحد المساعدين الطبّيّين كان يجمع البنادق من فوق ظهر إحدى الشاحنات، فيما دأب عدد كبير من الحمّالين والممرّضات والأطبّاء على التنقّل بين الحشود. وأُحضرت خمس عربات أو ستّ إلى أمام المستشفى ـ لكنّ الواضح أنّها لم تكن كافية.

توقّفت بريوني وڤيونا للحظة تتأمّلان ما يجري، ثم راحتا تركضان في اللحظة نفسها. وفي أقلّ من دقيقة واحدة أصبحت الفتاتان وسط الجنود، ولم يفلح هواء الربيع المنعش في التغلّب على الرائحة النتنة المنبعثة من زيت المحرّكات والجروح المتقيّحة.

أيادي الجنود ووجوههم سوداء، وبدوا كلّهم متشابهين وكأنّهم كانوا في سباق وحشي للرجال، في عالم رهيب، بسبب تشابه طول لحاهم وشعورهم السوداء والعلامات المربوطة بهم والتي تشير إلى أنّهم قدموا من مراكز تسلّم الجرحى. الواقفون منهم بدوا كأنّهم نيام. وأعداد الممرّضات والأطبّاء الخارجين من مبنى المستشفى إلى واجهتها في ازدياد.

أخذ أحد الأطبّاء الاستشاريّين يتولّى المسؤوليّة، فيما طُبِّق نظام صارم لإفادة الذين يمكن أن يبقوا على قيد الحياة وإهمال الذين لا أمل في شفائهم. وللمرّة الأولى، منذ بدء تدريبها، وجدت بريوني أحد الأطبّاء يخاطبها مباشرة، وكان يعمل في قسم التسجيل ولم تسبق لها رؤيته:

ـ هيه أنت! أمسكي بذلك الطرف من النقّالة.

ثم أمسك الطبيب بالطرف الآخر. لم يسبق لبريوني أن حملت نقّالة، واستبدّت بها الدهشة بسبب وزنها. سارا ودلفا إلى المبنى من المدخل وبعد

أن قطعا عشر ياردات في الدهليز، علمت أنَّ معصمها الأيسر لن يتمكّن من الاستمرار في الحمل. كانت تمسك بالنقّالة من جهة القدمين. للجندي علامات تشير إلى أنّه رقيب، وكان بلا حذاء، الرائحة النتنة تنبعث من أصابع قدميه المزرقّة، ملفوف الرأس بضمّاد مشبع باللونين القرمزي والأسود. وعند إحدى فخذيه، حُشر ثوبه العسكري الحربي داخل جرحه، وظنّت بريوني أنّ بإمكانها رؤية العظم البارز منه.

كلّ خطوة يخطوانها تزيد من وجعه. عيناه مغمضتان تمامًا، لكنّه ظلّ يفتح فمه ويغلقه متألّمًا بصمت. لو عجزت يدها اليسرى لسقطت النقّالة على وجه التوكيد. وباقترابهما من المصعد، بدأت أصابعها ترتخي. دخلا المصعد أخيرًا ووضعا النقّالة على أرضيّته، وعندما اعتدلا ببطء، بدأ الطبيب يقيس نبض الجندي وتنفّس بقوّة من أنفه. بقي متجاهلاً وجود بريوني، وعندما اجتاز المصعد الطابق الثاني، لم تفكّر بريوني إلاّ في الياردات الثلاثين من الدهليز التي تفصلها عن الردهة، وفكّرت أيضًا إن كان في وسعها أن تحمل النقّالة. من واجبها أن تخبر الطبيب بأنّها لا تستطيع، لكنّه كان يوليها ظهره، عندما فتح باب المصعد بقوّة وطلب منها أن تمسك بأحد طرفي النقّالة.

أرادت من الطبيب أن يُسرع أكثر، فهي لا تقوى على مواجهة الفضيحة إذا ما أخفقت، وأرادت من يدها اليسرى أن تكون أقوى. فتح الرجل ذو الوجه الأسود فمه وأغلقه كأنّه يلوك شيئًا ما، لسانه مغطّى ببقع بيض، حنجرته السوداء تعلو وتهبط، فظلّت تحملق فيه.

انعطفا نحو الردهة ودلفا، ولحسن حظّها وجدت سريرًا مجهّزًا للحالات الطارئة قرب الباب.

أصابعها بدأت تنزلق، رئيسة ممرّضات وممرّضة مؤهّلة تنتظران، وفيما حاول الاثنان وضع النقّالة على امتداد السرير ارتخت أصابع بريوني كلّيًا، ولم تعد قادرة على السيطرة عليها. وفي الوقت المناسب حشرت ركبتها تحت النقّالة تمامًا، فارتطمت ساقها بالمقبض الخشبي، وهنا تأرجحت النقّالة

ومالت، ولكنّ رئيسة الممرّضات انحنت بدورها لتعيدها إلى وضعها السابق. وأطلق الرقيب الجريح أنَّةً من بين شفتيه، غير مصدّقٍ، كأنّه لم يَدُرْ بخلده من قبل أنّ الألم يمكن أن يكون رهيبًا إلى هذا الحدّ.

غمغم الطبيب:

ـ بالله عليك أيّتها الفتاة!

ثم وضعا المريض فوق السرير.

انتظرت بريوني كي تتأكّد إنْ كانت هناك حاجة إليها، لكنّ الثلاثة باتوا منهمكين الآن، وتجاهلوا أمرها. بدأت الممرّضة ترفع الضمّادات عن رأس الجندي، فيما انطلقت رئيسة الممرّضات تقصّ بنطاله. التفت المسجّل نحو الضوء ليدرس الملاحظات المدوّنة على بطاقة جذبها عن قميص الجندي. تنحنحت بريوني، فنظرت رئيسة الممرّضات من حولها وانزعجت لأنّها لا تزال واقفة في مكانها.

ـ لا تقفي مكتوفة اليدين أيّتها الممرّضة تاليس. اهبطي إلى الطابق الأرضي وقدِّمي المساعدة.

خرجت ذليلة، وشعرت بإحساس من الخواء ينتشر في معدتها، فقد أخفقت في اللحظة التي لمست فيها الحرب حياتها، في أولى لحظة من لحظات الضغط. لو أنّها اضطرّت إلى حمل نقّالة أخرى، لما استطاعت الوصول بها إلى منتصف المسافة المؤدّية إلى المصعد. لكن لو طلب أحدٌ منها ذلك، لما تجرّأت على الرفض.

لو أنّها أسقطت النقّالة من بين يديها لغادرت المكان بكلّ بساطة، وجمعت حاجيّاتها من غرفتها، ووضعتها في حقيبة ثيابها، وسافرت إلى أسكتلندا لتعمل فلاّحة. سيكون ذلك أفضل للجميع.

وفي أثناء ركضها على امتداد دهليز الطابق الأرضي، التقت ڤيونا، وهي قادمة بالاتّجاه المعاكس وتحمل نقّالة من مقدّمتها، فتاة أقوى من

بريوني، وجه الرجل الممدّد على النقّالة مغطًّى تمامًا بالضمّادات، لا يظهر منه سوى فمه الذي بدا ثقبًا بيضويًّا أسود اللون.

التقت عيون الفتاتين ومرَّتا بشيء ما، بصدمة، أو بعار لأنّ كلّ هذا يجري أمامهما هنا في وقت كانتا تقضيان الوقت بالضحك في المتنزّه.

خرجت بريوني من مبنى المستشفى ورأت بارتياح شديد أنّ آخر ما تبقّى من نقّالات وُضعت فوق عربات إضافيّة، وكان الحمّالون ينتظرون لدفعها داخل المبنى، ورأت أيضًا دزّينة من الممرّضات المؤهّلات يقفن على أحد الجانبين مع حقائبهنّ، وتمكّنت من معرفة بعضهنّ ممّن يعملن في ردهتها. لم يكن لديها متَّسع من الوقت لتسألهنّ عن وجهتهنّ. لا بدّ أنّ ما هو أسوأ من هنا يجري في مكان آخر.

الأولويّة الآن للجرحى القادرين على المشي الذين لا يزال هناك أكثر من مائتين منهم.

وطلبت منها رئيسة الممرّضات أن تقود خمسة عشر جنديًّا إلى ردهة بياتريس، فسار هؤلاء من ورائها صفًّا واحدًا على امتداد الدهليز، وكأنّهم أطفال مدرسة يسيرون اثنين اثنين، بعضهم يعلّق ذراعه بحمَّالة، وبعضهم الآخر مصاب بجروح في رأسه أو صدره، ثلاثة جنود يسيرون مستندين إلى عكّازات.

لا أحد يتكلّم، الازدحام على أشدّه قرب المصاعد، حيث تنتظر العربات لنقل المصابين إلى مسارح العمليّات في السرداب، بينما يجاهد آخرون للصعود إلى الردهات.

عثرت بريوني على فسحة يجلس فيها الجنود المعتمدون على العكّازات، وطلبت منهم التزام السكون وعدم الحركة، ثم اصطحبت الباقين مستخدمة السلالم، التقدّم بطيء، يتوقّفون عند كلّ فسحة سلالم.

ـ المسافة ليست بعيدة الآن.

ظلّت تردّد، لكن لم يبدُ عليهم أنّهم واعون بحضورها.

وعندما وصلوا الردهة، كانت الأعراف تتطلّب منها أن تبلّغ رئيسة الممرّضات، ولكنّها لم تكن في مكتبها، فالتفتت بريوني إلى صفّها من المرضى الذين تجمّعوا وراءها. لم يسدّدوا نظراتهم إليها، بل إلى ما وراءها، إلى فضاء الردهة الفكتوري المترامي الأطراف، إلى الأعمدة المتشامخة، شتلات النخيل في الأصص، الأسرّة المرتّبة ترتيبًا أنيقًا وملاءاتها النظيفة النازلة إلى أسفل.

قالت:

ـ انتظروا هنا، سوف تجد لكم رئيسة الممرّضات سريرًا.

ثم سارت ناحية الطرف الأقصى من الردهة، حيث كانت رئيسة الممرّضات وممرّضتان يعالجن أحد المرضى. ثمّة وقع أقدام من وراء بريوني. لقد تقدّم المرضى نحوها إلى نهاية الردهة.

لوّحت بيديها ناحيتهم مذعورة.

ـ عودوا إلى الخلف من فضلكم، عودوا إلى الخلف وانتظروا.

لكنّهم كانوا قد انتشروا في هذه الأثناء على شكل مروحة في جميع أرجاء الردهة، بعد أن رأى كلّ واحد منهم سريرًا حسبه ملكه، وتسلّقوا هذه الأسرّة دون أن يُطلب منهم ذلك، ودون أن يخلعوا أحذيتهم العالية الرقاب، ودون استحمام، ودون أن يزيلوا القمل، ودون ثياب النوم الخاصّة بالمستشفى، وبشعورهم الوسخة، وجوههم المسودّة على الوسائد.

تقدّمت رئيسة الممرّضات تخطو خطوات حادّة من الناحية الأخرى للردهة التي كانت تقف عندها، فيما يدوّي صوت كعبي حذائها في الفضاء الذي يستوجب الاحترام.

تقدّمت بريوني إلى جانب أحد الأسرّة وجذبت كمّ أحد الجنود وكان مستلقيًا على ظهره، مطوّقًا ذراعه التي انزلقت عن حمّالتها. وفيما هو ممدّدٌ ساقيه إلى أمام، تسبّب في حدوث بقعة ملطّخة بالزيت على البطّانيّة، الغلطة غلطتها.

قالت بعد أن اقتربت رئيسة الممرّضات منها:

ـ لا بدّ لك أن تنهض.

ثم أضافت بوهن:

ـ هناك إجراءات.

ـ الجنود بحاجة إلى النوم، أمّا الإجراءات فبعد ذلك.

كان صوت المتكلّم إيرلنديًا، وضعت رئيسة الممرّضات إحدى يديها على كتف بريوني فالتفتت، وتمكّنت من قراءة اسمها على البطاقة.

ـ اذهبي إلى ردهتك الآن أيّتها الممرّضة تاليس، أعتقد أنّهم سيحتاجون إليك هناك.

هكذا طُلب من بريوني، بأقلّ ما يمكن من إكراه، أن تهتمّ بعملها، فالردهة بإمكانها أن تدبّر شؤونها دون حاجة لمثيلاتها ممّن يفرضن النظام.

الجنود من حولها استسلموا للنوم كما أثبتت أنّها ليست سوى فتاة بلهاء.

المؤكّد أنّهم بحاجة إلى النوم، ولكنّها كانت تريد أن تفعل ما تعتقد أنّه متوقّع منها عمله. على أيّة حال، القوانين ليست قوانينها، بل أُبلغت بها إبّان الأشهر القليلة الماضية، آلاف التفاصيل بخصوص الوافدين الجدد إلى المستشفى.

كيف يمكنها أن تعرف أنّ القوانين لا تعني شيئًا في حقيقة الأمر؟ لبثت هذه الأفكار الساخطة تقضّ مضجعها، ولم يطمئنّ عليها النوم إلى أن أضحت في ردهتها، عندما تذكّرت الجنود من ذوي العكّازات في الطابق الأرضي الذين كانوا ينتظرون من يصحبهم بالمصعد إلى الطوابق العليا. أسرعت خطاها وهي تهبط السلالم، ولكنّها لم تجد أحدًا تحت القبّة، مثلما لم تجد أثرًا للجنود في الدهاليز.

لم ترغب في الكشف عن عدم كفاءتها بطرح السؤال على الممرّضات والحمّالين. لا بدَّ أنَّ أحدًا ما جمع أولئك الجرحى وقادهم إلى أعلى، ولكنّها لم تشاهد أحدًا منهم على مدى الأيّام اللاحقة.

أُعيد ترتيب ردهتها لتكون ملحقًا إضافيًّا للحالات الجراحيّة الخطيرة، ولكنّ مثل هذا التعريف لم يكن ليعني شيئًا أوّل الأمر، فالردهة يمكن أن تصبح محطّة إسعاف على الخطّ الأوّل، إذْ أُحضرت الممرّضات والمشرفات لمدِّ يد العون، فيما كان خمسة أطبّاء أو ستّة يعالجون أشدّ الحالات خطورة.

وكان هناك قسّيسان، أحدهما اتّخذ له مِقعدًا وكان يحدّث أحد الجنود المضطجعين على جنبه، فيما انهمك القسّيس الثاني بالصلاة قرب أحد الأشخاص، وكان مغطًّى ببطّانيّة.

كانت الممرّضات يضعن الأقنعة، وكنَّ قد شمّرن عن سواعدهنَّ أسوةً بالأطبّاء، وكانت المشرفات على الممرّضات يتحرّكن بين الأسرّة بسرعة فائقة، يواصلن حقن المصابين، ربّما بالمورفين، أو يثبّتن إبر نقل الدم لربط المصابين بقناني الدم والبلازما المعلّقة مثل فاكهة غريبة الشكل بحوامل متحرّكة عالية.

كانت المتدرّبات يتحرّكن على امتداد الردهة، يحملن أكداسًا من أكياس الماء الساخن لتدفئة مفروشات الأسرّة، وملأ الردهة تردّد رخيم من الأصوات، الأصوات الطبّيّة، اخترقته بين حين وآخر آهات الوجع وصرخات الألم، وأضحت الأسرّة مشغولة كلّها، وتُركت حالات أخرى على النقّالات التي حُشرت بين الأسرّة للاستفادة من حوامل النقل. وتولّى اثنان من مساعدي الأطبّاء مهمّة نقل جثث الموتى، في حين انهمكت الممرّضات أمام عدد كبير من الأسرّة بنزع الضمّادات الوسخة.

قرارٌ ثابت: الرقّة والبطء، أو الثبات والسرعة، على أن ينتهي كلّ شيء في لحظة ألم واحدة، هذه الردهة كانت تفضّل المنحى الثاني وهو ما يفسّر صدور بعض الصرخات في كلّ مكان. روائح السوائل تزكم الأنوف: رائحة

الدم الطازج اللزج، والثياب الوسخة والعرق والزيت والمعقّمات والكحول الطبّي، وفوق هذا كلّه، رائحة الغنغرينا النتنة. واتّضح أنّ حالتين أُرسلتا إلى مسارح العمليّات الجراحيّة وكانتا حالتي بتر أطراف. وبعد أن أُعيرت خدمات كبيرات الممرّضات للمستشفيات التي تتسلّم الإصابات في مبانٍ أخرى ضمن قطاع المستشفى، وازداد عدد الحالات الواردة، بدأت الممرّضات المؤهّلات يصدرن الأوامر بكلّ حرّيّة، ومُنحت رفيقات بريوني من المتدرّبات مسؤوليّات جديدة. فقد أرسلت إحدى الممرّضات بريوني إلى عريف مستلقٍ على نقّالة قرب الباب لإزالة ضمّادته عن ساقه الجريحة وتنظيفها. ولم تكن مضطرّة إلى وضع ضمّادة جديدة فوقها قبل أن يعاينها أحد الأطبّاء من جديد.

كان العريف مستلقيًا على بطنه، ولوى وجهه عندما جثت بريوني لتكلّمه.

تمتم:

ـ لا تمانعي إذا ما صرخت. نظّفي ساقي المصابة أيّتها الممرّضة، فأنا لا أريد أن أفقدها.

كانت رجل البنطال قد أُزيلت، وبدت الضمّادة الخارجيّة حديثة نسبيًّا، فبدأت تُزيلها. ولمّا كان يستحيل عليها تمرير يدها من تحت ساقه، فقد لجأت إلى المقصّ لقطع الضمّادة وإزالتها.

ـ لقد عالجوني عند رصيف الميناء في دوفر.

لم يعد هناك سوى قطعة شاش وعليها دم متخثّر، على امتداد الجرح بدءًا بركبته وانتهاءً بكاحله. كانت ساقه ملساء وسوداء اللون، فانتابها الهلع ممّا هو أسوأ، وتنفّست من خلال أنفها.

سألته وهي تحاول أن تكون مرحة:

ـ كيف فعلت بنفسك مثل هذا الشيء؟

ـ سقطت علينا القذائف، فطرحتني فوق سياج من حديد مضلّع.

ـ حظّ سيّئ. أنت تعرف الآن أنّني يجب أن أُزيل هذه الضمّادة.

بدأت ترفع حافّة الضمّادة برفق، فجفل العريف متألّمًا.

قال:

ـ استخدمي العدّ، واحد. اثنان. ثلاثة. ثم انزعيها بسرعة.

شدَّ العريف من قبضتيه، فأمسكت بالحافّة التي رفعتها، وتشبّثت بها بكلّ قوّة بين سبّابتها وإبهامها ونزعت الضمّادة بحركة مفاجئة. وهنا مرَّت بها ذكرى من أيّام طفولتها عندما شاهدت حيلة غطاء المنضدة الشهيرة أثناء حفل ميلاد أُقيم عصر أحد الأيّام. وانخلعت الضمّادة وهي تصدر صوتًا لزجًا وخشنًا.

قال العريف:

ـ سوف أتقيّأ.

ناولته طاسًا تشبه الكلية، فغثيت نفسه، ولكنّه لم يتقيّأ، وشاهدت بريوني حبّات العرق بين ثنيّات الجلد في مؤخّر عنقه. كان طول جرحه يبلغ ثماني عشرة بوصة، وربّما أكثر، ثم ينحني من وراء ركبته. كانت الدرزات خرقاء، غير منتظمة، إذْ كانت أجزاء من الجلد يعلو أحدها الآخر هنا وهناك، كاشفة بذلك عن طبقات سميكة من الشحم وبروزات صغيرة الحجم تشبه عناقيد صغيرة من عنب أحمر.

قالت:

ـ لا تتحرّك، سوف أنظّف ما حول الجرح، ولكنّني لن ألمسه.

لم تلمس الجرح بعد، فالساق سوداء وطريّة كأنّها قطعة موز ناضجة أكثر ممّا ينبغي.

غمست قطعة من القطن الطبّي في الكحول، والخوف يراودها من أن

يسقط الجلد عن الساق، ثم مرّرتها برفق من حول ربلة الساق وعلى بعد بوصتين فوق الجرح، ثم مسحت من جديد، وهي تضغط أكثر من ذي قبل. كان الجلد قويًّا، لهذا ضغطت قطعة القطن الطبّي إلى أن جفل وانكمش، فجذبت يدها ورأت بقعة الجلد البيضاء التي انكشفت لها. قطعة القطن باتت سوداء اللون، لا أثر للغنغرينا، ولم تستطع منع نفسها من أن تشهق شهقة ارتياح، وشعرت بانقباض في حنجرتها.

قال:

ـ ماذا هناك أيّتها الممرّضة؟ يمكنك أن تخبريني.

اندفع بجسده إلى أعلى، وحاول أن يرنو إليها من فوق منكبه. صوته مشوب بخوف.

ازدردت ريقها وقالت بصوت محايد:

ـ أعتقد أن الجرح يتماثل إلى الشفاء تماثلاً جيّدًا.

استخدمت قطعة أخرى من القطن الطبّي، زيتٌ أو دهن مختلط برمال الساحل تصعب إزالته بسهولة. نظّفت الجزء المحيط بالجرح على بعد ستّ بوصات، واقتربت رويدًا رويدًا من حول الجرح.

ظلّت تواصل عملها لبضع دقائق عندما حطّت يدٌ على كتفها، وصوت امرأة يقترب من أذنها قائلاً:

ـ جيّد أيّتها الممرّضة تاليس، ولكن عليك العمل بسرعة أكبر.

كانت بريوني جاثية على ركبتيها، منحنية من فوق النقّالة، منحشرة بالسرير، ولهذا لم يكن سهلاً عليها الالتفات إلى الخلف، وعندما التفتت، لم تشاهد سوى الشخص المألوف يتراجع. ولمّا بدأت تنظّف من حول الدرزات، كان العريف قد استسلم للنوم، فجفل وانكمش ولكنّه لم يستيقظ تمامًا. الإعياء مخدِّره، ولمّا اعتدلت في نهاية المطاف وحملت الطاس والقطن الطبّي

المتّسخ، حضر أحد الأطبّاء، وطلب منها الانصراف.

نظّفت يديها وأُوكلت لها مهمّة أخرى. أصبح كلّ شيء مختلفًا بعد أن أنجزت الآن عملاً صغيرًا. طُلب منها توزيع الماء على الجنود الذين انهاروا من شدّة الإعياء بسبب المعركة، المهمّ جدًّا هو أن لا يُصابوا بالجفاف.

هيًّا أيّها الجندي كارتر، اشرب واخلد للنوم بعد ذلك. اجلس الآن... حملت إبريق ماء صغيرًا من الخزف، وتركت كلّ جندي يشرب الماء من فوهته وهي تسند رؤوسهم الوسخة على صدريّتها كأنّهم أطفال عمالقة. نظّفت المكان كرَّةً أخرى، ورفعت المبولات دون اعتراض، ثم طُلب منها أن تهتمّ بجندي مُصاب في بطنه وفقد جزءًا من أنفه أيضًا. وتمكّنت من رؤية أعماق فمه من خلال الغضاريف المكسوّة بالدماء، والجزء الخلفي من لسانه الممزّق. واجبها تنظيف وجهه، مرّة أخرى. وجدت أنّ الزيت والرمل تغلغلا داخل جلده. كان مستيقظًا، كما خمّنت، لكنّه أبقى عينيه مغمضتين. هدّأه المورفين، ولكنّه ظلّ يتمايل قليلاً ذات اليمين وذات الشمال كأنّه يفعل ذلك على إيقاع موسيقي يدور في رأسه. ولمّا بدأت ملامح وجهه تظهر رويدًا رويدًا من وراء الطبقة السوداء، فكّرت بريوني في تلك الكتب ذات الصفحات الملساء البيضاء في أيّام طفولتها والتي كانت تحكّها بقلم رصاص مثلوم، كي تبدو الصور للعيان. فكّرت إنْ كان أحد هؤلاء الجنود هو روبي نفسه، وكيف ستداوي جروحه دون أن تتعرّف عليه، مستخدمة القطن الطبّي في تنظيف وجهه بعناية ورفق حتى تظهر ملامحه المألوفة لها، وكيف سيلتفت إليها معبّرًا عن شكره وامتنانه لها، وعندما يدرك من هي سيمسك بيدها، ويضغط عليها بصمت ويسامحها، ويتركها تمدّده حتى يستسلم للنوم.

وازدادت مسؤوليّاتها، وأُرسلت لتحمل الكلاليب والملاقط وطاسًا إلى ردهة مجاورة، إلى جانب سرير جندي من السلاح الجوّي أُصيب بشظيّة في ساقه، رمقها بنظرات حذرة، محترسة، وهي تضع عدَّتها فوق الأرض.

ـ أفضّل أن تُجرى لي عمليّة في حالة إخراج الشظيّة.

يداها ترتجفان، لكنّها تعجّبت من نفسها عندما سمعت صوت الممرّضة النشيط الذي له مغزاه يصدر عنها وهي تجذب الستارة من حول السرير:

ـ لا تكن مضحكًا، سوف نخرجها في لحظة. كيف حدث ذلك؟

وفيما كان يوضح لها أنّ وظيفته كانت بناء مدرج مطارات في الحقول شمالي فرنسا، ظلّت عيناه تنظران بين حين وآخر إلى الكلاليب والملاقط التي جمعتها من وعاء التعقيم المعدني، وها هي الآن في طاس على هيئة الكلية بحافّاتها الزرقاء.

ـ كنّا منهمكين في العمل، ثم جاء ألماني من فوقنا وأفرغ حمولته علينا. تراجعنا وبدأنا بناء مدرج آخر من جديد ولكنّ الألماني عاد ثانية فانسحبنا مرّة ثانية، حتى سقطنا في البحر.

ابتسمت بريوني وجذبت غطاء السرير.

ـ دعني ألقي نظرة. هل تسمح؟

كان الزيت والأوساخ قد أُزيلت من فوق ساقيه لتكشف عن منطقة أسفل الفخذ حيث انحشرت قطع الشظايا داخلها.

مال إلى أمام، يراقبها بقلق.

قالت:

ـ استلق على ظهرك كي أتمكّن من رؤية ما في الداخل.

ـ إنّها لا تثيرني.

ـ استلق فحسب.

انتشرت مجموعة من الشظايا على امتداد مسافة اثنتي عشرة بوصة. ثمّة ورم والتهاب بسيط يحيط بكلّ جرح في الجلد.

ـ إنّني لا أُبالي أيّتها الممرّضة، وسأكون سعيدًا لو بقيت الشظايا في مكانها.

ثم ضحك ضحكةً لا تنمّ عن صدق قوله، وأردف:

ـ ذكرى سأُريها إلى أحفادي.

قالت:

ـ لقد بدأت الجروح تلتهب، وقد تغور الشظايا عميقًا.

ـ تغور؟

ـ في جسدك، في دورتك الدمويّة، وتنتقل إلى قلبك أو إلى دماغك.

بدا كأنّه يصدّق ما تقوله، فاستلقى على ظهره وتنهّد باتّجاه سقف الردهة العالي.

ـ تبًّا! أعني، معذرةً أيّتها الممرّضة، لا أظنّني مستعدّ لتحمّلها اليوم.

ـ لنعد معًا، هيًّا.

بدأ الاثنان يعدّان. ثمانية أجزاء. دفعته قليلاً من ناحية صدره.

ـ لا بدّ أنّها ستخرج الآن. استلق الآن. سأخرجها بأسرع ما يمكنني. تشبّث بقوّة برأس السرير من خلفك، إن شئت.

ساقه متوتّرة، مرتعشة جين أمسكت بالملاقط.

ـ لا تحبس أنفاسك، حاول أن تسترخي.

أطلق صوتًا هازئًا:

ـ أسترخي!

ثبّتت يدها اليمنى اعتمادًا على يدها اليسرى، الأسهل لها أن تجلس على حافّة السرير، لكنّ الجلوس لا ينطوي على مهنيّة، فضلاً عن أنّه ممنوع منعًا باتًّا. ولمّا وضعت يدها اليسرى على الجزء غير المُصاب من ساقه، جفل وانكمش، واختارت أصغر شظيّة تمكّنت من رؤيتها على الحافّة. كان الجزء البارز منها مثلّث الشكل، مائلاً، فأمسكت به بقوّة وتوقّفت هنيهة ثم جذبته بقوّة دون أن تهتزّ.

ـ تبًّا!

تردّد صدى الكلمة في أرجاء الردهة مرّات ومرّات. ثم ران الصمت، أو ساد صوت خفيض وراء الستارة. بريوني لا تزال تمسك القطعة المعدنيّة بالملقط. كان يبلغ طولها ثلاثة أرباع البوصة ومستدقّة النهاية. خطوات حازمة تقترب، ألقت الشظيّة في الطاس في الوقت نفسه الذي جذبت فيه رئيسة الممرّضات دراموند الستارة جانبًا. كانت هادئة، ترنو إلى قدمي السرير لتسجّل اسم الجندي، وحالته الصحّيّة على ما يبدو، ثم وقفت إلى جواره وحدَّقت في وجهه.

قالت بهدوء:

ـ كيف تتجرّأ؟

ثم كرّرت ثانية:

ـ كيف تتجرّأ على النطق بهذه الكلمة أمام إحدى ممرّضاتي؟

ـ معذرة أيّتها الرئيسة، لقد خرجت الشظيّة توًّا.

رمقت رئيسة الممرّضات دراموند الطاس بنظرة ازدراء.

ـ مقارنة بالحالات التي أُدخلت في غضون الساعات القليلة الماضية، فإنّ جروحك أيّها الجندي الجوّي الشابّ طفيفة وسطحيّة، لهذا يجب أن تعدَّ نفسك محظوظًا، وأن تظهر قدرًا من الشجاعة تلائم زيَّك العسكري. استمرّي في عملك أيّتها الممرّضة تاليس.

في غضون الصمت الذي أعقب رحيل رئيسة الممرّضات، قالت بريوني مبتهجة:

ـ سنبدأ، أليس كذلك؟ بقيت سبعة أجزاء لا غير، وعندما نفرغ سآتيك بمقدار من شراب البراندي.

تصبّب عرقًا، وارتعش بدنه برمّته، وابيضَّت سلاميّاته من حول رأس

السرير المعدني، ولكن لم يصدر عنه أيّ صوت فيما واصلت بريوني سحب أجزاء الشظايا.

ـ أتدري؟ في وسعك أن تصرخ إن شئت.

لكنّه لم يرغب في زيارة دراموند ثانية، ففهمت بريوني، وأرادت أن تجذب أكبر أجزاء الشظيّة في النهاية، إذ لا يمكن أن تخرج بسحبة واحدة. شبَّ فوق السرير وهسَّ من بين أسنانه المطبقة. وفي المحاولة الثانية، خرجت الشظيّة بمقدار بوصتين فوق ساقه، فجذبتها برفق وأخرجتها في المحاولة الثالثة ورفعتها عاليًا أمامه كي يراها، قطعة معدنيّة غير منتظمة، رفيعة ومدبّبة، مخضّبة بالدماء، طولها أربع بوصات.

حدَّق فيها مندهشًا.

ـ خذيها إلى الصنبور أيّتها الممرضة، وسوف أُعيدها إلى البيت.

ثم دفن وجهه في الوسادة وأجهش بالبكاء، ربّما كان ذلك بسبب كلمة البيت أو الألم.

انسلّت بريوني خارجة لإحضار الشراب وتوقّفت عند فتحة تصريف المياه وهي تشعر بالغثيان.

استغرقت وقتًا طويلاً في نزع الضمّادات، وغسل الجروح وتضميد الجروح السطحيّة ثانيةً.

ثم جاءها الأمر الذي يثير هلعها:

ـ أريدك أن تذهبي لوضع الضمّادات على وجه الجندي لاتيمر.

كانت بريوني قد حاولت أن تغذّيه قبل قليل، مستخدمةً ملعقة شاي وإدخالها في ما تبقّى من فمه، في مسعًى منها لتجنيبه مهانة استعمال المغذّي بالتقطير، وكان قد دفع يدها جانبًا.

عمليّة البلع انطوت على آلام مبرِّحة، إذْ فقد نصف وجهه. الشيء الذي

كانت تهابه أكثر من رفع الضمادة هو نظرة العتب في عينيه البنّيّتين الواسعتين. ما الذي فعلته بي؟ أسلوبه في الاتّصال آهة رقيقة من مؤخّر بلعومه، آهة صغيرة تدلّ على خيبة الأمل.

ظلّت تردّد دون أن تتمكّن من التفكير بأيّ شيء آخر:

ـ عمًّا قريب ستتمّ معالجتك.

والآن، وبعد أن اقتربت من سريره بما تحمله من عدَّة وأدوات، قالت بمرح:

ـ مرحبًا بالجندي لاتيمر، ها قد عدت إليك ثانية.

رمقها بنظرة تشي بأنّه لا يعرفها، وفيما هي تحلّ الضمّادة التي لُفَّ بها رأسه، قالت:

ـ سيكون كلّ شيء على ما يرام، وسوف تخرج من هنا ماشيًا على قدميك بعد أسبوع أو أسبوعين، وسترى ذلك بنفسك، وهذا أكثر ممّا يمكننا قوله لعدد كبير منهم في هذا المكان.

كان كلامها سلوى واحدة. هناك دائمًا من هو في حال أسوأ. فقبل نصف ساعة أُنجزت عمليّة بتر مضاعفة لضابط بدرجة نقيب من منطقة ـ ساري الشرقيّة ـ وكان في الفوج الذي التحق به الفتيان في القرية، ثم هناك الذين يحتضرون.

أمسكت بملقط جراحي وبدأت تزيل بكلّ عناية الشريط المخضّب بالدم المتخثّر من تجويف جانب الفم، ولمّا فرغت أضحى التشابه ضعيفًا بين هذه الحالة والنموذج المجسّد الذي كان يستخدم في الصفوف الجراحيّة، فأمامها حطام، ودماء وحالة فجّة.

كان بإمكانها أن تشاهد الجزء الداخلي من وجنته المفقودة ونواجذه العليا والسفلى، ولسانه المتوهّج الشنيع بطوله. وإلى أعلى، حيث قلّما واتتها

الجرأة على إلقاء نظرة، باتت واضحة العضلات المحيطة بمحجر العين، غاية في الألفة والحميميّة، لا يريد أن يراه أحد.

لقد تحوّل الجندي النَّفر لاتيمر إلى مسخ، ولا بدَّ أنّه أدرك أنّه مسخ حقًّا. هل عشقته فتاة من قبل؟ وهل تستمرّ في عشقها له؟

كذبت عليه ثانية:

ـ سرعان ما سيتمّ علاجك.

وبدأت تُعيد تنظيف وجهه، مستخدمةً قطعة شاش نظيفة مبلّلة بمحلول مُعقِّم. وفيما هي منهمكة في إحكام الدبابيس، ندَّ عنه صوت حزين.

ـ أتريدني أن أحضر لك الزجاجة؟

هزَّ رأسه وندَّ عنه الصوت ثانية.

ـ أأنت متضايق؟

ـ لا.

ـ ماء؟

إيماءة، لم يبق سوى جزء صغير من زاوية شفتيه، فأدخلت فوهة إبريق الماء. أفرغت. جفل عند كلّ جرعة وانكمش، ممّا زاد من وجعه بسبب عضلات وجهه المفقودة.

لم يعد يطيق التحمّل، ولكن ما إن جذبت إبريق الماء حتى دفع يده مشيرًا إلى معصمها. يريد كمّيّة أخرى. الأفضل أن يتألّم على أن يظمأ. استمرّ الحال كذلك لبضع دقائق ـ لم يعد في وسعه تحمّل الألم ـ فلا بدّ له من الحصول على الماء. كانت تفضّل البقاء وإيّاه، لكنّ هناك باستمرار عملاً آخر. رئيسة ممرّضات تطلب المساعدة باستمرار، أو جندي ينادي من فوق سريره.

كانت تتمتّع باستراحة من العمل في الردهات عندما تقيّأ رجل في

حضنها بعد أن ثاب إلى وعيه إثر المخدّر، واضطرّت إلى البحث عن صدريّة نظيفة، وتولّتها الدهشة لمّا شاهدت من خلال إحدى نوافذ الدهليز أنّ الظلام كان قد أرخى سدوله خارج المستشفى.

مضت خمس ساعات منذ رجوعها وصديقتها من المتنزّه. وقفت على مقربة من مخزن البياضات تجرّب ارتداء الصدريّة عندما جاءت رئيسة الممرّضات دراموند. يصعب تحديد الشيء المتغيّر ـ فالسلوك الذي تسلكه لا يزال متعاليًا، انعزاليًّا، الأوامر لا يمكن رفضها. لعلّ مسحة من الوئام تكمن تحت الانضباط الذاتي.

ـ عليك أيّتها الممرّضة الذهاب ووضع أكياس بنيان في ذراعي العريف ماك إينتير وساقيه، وعالجي بقيّة أنحاء جسده بحمض التّنيك، وإذا واجهتك أيّة صعوبات فهلمي إليَّ مباشرةً.

انصرفت لتعطي تعليمات لممرّضة أخرى. كانت بريوني قد شاهدتهم وهم يُدخلون العريف الذي كان واحدًا من مجموعة جنود حاصرهم الزيت المشتعل وهم على ظهر مركب غارق على سواحل دنكرك، وأنقذته إحدى المدمّرات. والتصق الزيت اللزج بالجلد وسفح الأوعية الدمويّة. كان بقايا من إنسان محترق عندما رفعوه ووضعوه فوق السرير، واعتقدت أنّه لن يظلّ على قيد الحياة. ولم يكن سهلاً العثور على وريد لحقنه بالمورفين.

في الساعتين الماضيتين ساعدت أحيانًا ممرّضتين أُخريين لوضعه فوق المبولة، فأطلق صرخة مدوّية لمّا شعر بأوّل لمسة من يديهما.

كانت أكياس بنيان حاويات كبيرة مصنوعة من مادّة السيلوفين، وكان الطرف المُصاب يطفو داخلها بمساعدة محلول ملحي ينبغي أن يكون بدرجة حرارة معيّنة، ولم يكن يُسمح بفارق درجة حراريّة واحدة. وعندما جاءت بريوني، كانت ممرّضة متدرّبة ومعها موقد كبّاس نوع بريموس على عربة تحضِّر المحلول الجديد، وكانت الأكياس تحتاج إلى تبديل بين الحين والآخر. وكان

العريف ماك إينتير مستلقيًا على ظهره تحت غطاء معلَّق لأنّه لم يكن قادرًا على تحمّل لمسة ملاءة على جسده، يئنّ ويتذمّر على نحو يدعو إلى الشفقة طالبًا ماء. حالات الحروق يعاني أصحابها من جفاف شديد. شفتاه حطام، متورّمتان، لسانه متقيّح تقيّحًا شديدًا ويستحيل منحه السوائل عن طريق الفم. السائل المغذّي الملحي لم يعد ينفعه لأنّ الإبرة لم تعد تثبت في الوريد التالف. ممرّضة مؤهّلة لم يسبق لها رؤيتها وضعت كيسًا جديدًا من السائل المغذّي على الحامل، فيما حضَّرت هي، بريوني، حمض التَّنيك في وعاء وأخذت معها لفافة من القطن الطبّي.

فكّرت أنّها سوف تبدأ بمعالجة ساقي العريف أوّلاً، لكي تبعد عن طريق الممرّضة التي بدأت تبحث عن وريد في ذراعه المسودّة.

لكنّ الممرّضة قالت:

ـ من أرسلك إلى هذا المكان؟

ـ رئيسة الممرّضات دراموند.

تكلّمت الممرّضة بحدّة، ولم ترفع بصرها عن الذراع.

ـ إنّه يتألّم أكثر ممّا ينبغي، ولا أريد أن نبدأ بعلاجه قبل إنهاء حالة الجفاف التي يعانيها، اذهبي وابحثي لك عن عمل آخر تقومين به.

امتثلت بريوني لما قيل لها، وعندما أُرسلت لجلب مناشف نظيفة، لم تعرف كم كان الوقت متأخّرًا، ربّما في الساعات الأخيرة من الليل. وشاهدت الممرّضة تقف عند المدخل المؤدّي إلى غرفة الواجبات تبكي وهي متوارية عن الأنظار. مات العريف ماك إينتير، وحلَّ محلّه في السرير جندي آخر.

عملت الممرّضات المتدرّبات وطالبات المرحلة الدراسيّة الثانية اثنتي عشرة ساعة يوميًا دون استراحة.

أمّا بقيّة المتدرّبات والممرّضات المؤهّلات فقد واصلن العمل بلا

توقّف. لا أحد يتذكّر كم ساعة أمضين في الردهات. وشعرت بريوني لاحقًا أنّ كلّ ما تلقّته من تدريب كان إعدادًا مفيدًا لها، لا سيّما فيما يخصّ الطاعة، لكنّ كلّ ما فهمته عن أمور التمريض إنّما تعلّمته في تلك الليلة. لم تشاهد من قبل رجالاً يذرفون الدمع. في البدء صُدمت، ولكنّها اعتادت ذلك بعد مرور ساعة واحدة. من جهة أخرى، استبدّت بها الدهشة والحيرة، بل الرعب، لما يتّصف به بعض الجنود من قدرة هائلة على تحمّل الشدائد والصبر. فالرجال الذين خرجوا من مسرح العمليّات مبتوري الأطراف بدوا مضطرّين إلى إلقاء النكات السمجة. بأيّ شيء سأركل الزوجة الآن؟ كلّ سرّ من أسرار الجسد سوف يعالج ـ عظم بارز من الجسد، لمحات تدنيسيّة للأمعاء أو للعصب البصري. تعلّمت من هذا المنظور الجديد والحميم شيئًا واضحًا وبسيطًا كانت تعرفه دومًا ويعرفه الجميع: إنّ الإنسان هو، من بين بقيّة الأشياء، شيء مادّي، يسهل تمزيقه، ويصعب ترقيعه. لقد اقتربت على نحو لم تقترب منه حتى الآن من ميدان المعركة، لأنّ كلّ حالة أسهمت في معالجتها كانت تحمل قدرًا من عناصرها الأساسيّة ـ دم، زيت، رمل، وحل، ماء البحر، طلقات، شظايا، شحوم المحرّك، أو رائحة المتفجّرات التي لا دخان لها، أو ملابس المعركة الرطبة والمبلّلة بالعرق، الجيوب الحاوية على طعام متعفّن وفتات قطع من شوكولا آمو مشبعة بالماء. وفي أغلب الأحيان، عندما كانت تعود إلى حوض الغسيل ذي الصنابير المرتفعة وقوالب الصودا، فإنّها كانت تفرك رمال الساحل من بين أصابعها كي تزيلها. هي وبقيّة الممرّضات المتدرّبات في مجموعتها كنّ يتبادلن النظرات على أنّهنَّ ممرّضات ولسن صديقات. ونادرًا ما فطنت إلى أنّ واحدة من الفتيات اللواتي ساعدنها على وضع العريف ماك إينتير فوق المبولة كانت ڤيونا. وفي بعض الأحيان، عندما كان أحد الجنود الذين تعالجهم بريوني يتألّم بشدّة، فإنّها كانت تتأثّر وتشعر بعطف لا شخصي يفصلها عن المعاناة. ولهذا كانت تتمكّن من إنجاز عملها بكفاءة وبلا خوف. حدث ذلك عندما أدركت ما يعنيه التمريض. واشتاقت إلى التأهيل، وإلى أن تحصل على بطاقة التأهيل. في وسعها أن تتخيّل كيف يمكنها أن تتخلّى عن طموحاتها

في التأليف، وتهب حياتها لقاء ذلك لهذه اللحظات من الحبّ البهيج العميم.

في نحو الساعة الثالثة والنصف فجرًا، طُلب منها أن تذهب للقاء رئيسة الممرّضات دراموند، كانت وحدها في الغرفة، ترتّب سريرًا وكانت قبل ذلك قد رأتها بريوني في غرفة تصريف المياه. يبدو أنّها حاضرة في كلّ مكان، تنجز الأعمال على جميع المستويات، وسرعان ما بدأت بريوني تساعدها على نحو طبيعي.

قالت رئيسة الممرّضات:

ـ أتذكّر أنّك تتحدّثين قليلاً باللغة الفرنسيّة.

ـ إنّها لغة المدرسة أيّتها الرئيسة لا أكثر.

أومأت برأسها صوب نهاية الردهة.

ـ أترين ذلك الجندي المعتدل في جلسته عند نهاية الصفّ؟ جراحه خطيرة، ولكن لا ضرورة لوضع الكمّامة، ابحثي عن كرسي واذهبي واجلسي وإيّاه، أمسكي بيده وكلّميه. لم تستطع بريوني أن تمنع نفسها من الإحساس بالإهانة.

ـ لكنّني لست متعبة أيّتها الرئيسة، صدّقيني لست متعبة.

ـ نفّذي ما أقول لك.

ـ حاضر أيّتها الرئيسة.

بدا كأنّه صبيّ في الخامسة عشرة من عمره، لكنّها اكتشفت من خلال سجلّه أنّه في مثل سنّها: في الثامنة عشرة، كان يجلس معتدلاً، مستندًا إلى عدد من الوسائد يراقب الفوضى الضاربة أطنابها من حوله بدهشة الأطفال المجرّدة. يصعب الاعتقاد بأنّه جندي، له وجه وسيم، دقيق الملامح، وحاجبان أسودان، وعينان داكنتا الخضرة وفم مكتنز ناعم. كان شاحب الوجه، بلمعة غريبة غير مألوفة، عيناه تشعّان على نحو لا ينمّ عن صحّة

وعافية، أمّا رأسه فتغطّيه الضمّادات.

أحضرت كرسيًّا وجلست، فابتسم لها كأنّه يتوقّع مجيئها، ولمّا أمسكت يده لم تبد عليه الدهشة.

ـ ها قد عدت ثانيةً.

كانت أصوات حروف العلّة التي تلفّظ بها ذات جرس موسيقي، ولكنّها تمكّنت من فهم عبارته. كان رأسه باردًا، دهني الملمس.

قالت:

ـ طلبت منّي رئيسة الممرّضات أن آتي إليك وأحادثك وإيّاك.

لم تكن تعرف المرادف لكلمة رئيسة الممرّضات بالفرنسيّة فنطقتها كما هي.

قال:

ـ أختك طيّبة جدًّا!

ثم رفع رأسه واستأنف القول.

ـ كانت طيّبة دائمًا، وهل هي على ما يرام دومًا؟ ما الذي تفعله في هذه الأيّام؟

كانت عيناه تنمّان عن مودّة وسحر، شغلتها لهفته الطفوليّة، حتى لم يعد أمامها سوى الاسترسال في الكلام.

ـ إنّها ممرّضة أيضًا.

ـ مؤكّد، هذا ما قالته لي سابقًا، ألا تزال سعيدة حتى الآن؟

هل تزوّجت بالرجل الذي أحبّته حبًّا جمًّا؟ أتدرين؟ لا أستطيع أن أتذكّر اسمه. أرجو أن تغفري لي. باتت ذاكرتي ضعيفة منذ إصابتي، لكنّهم قالوا لي إنّني سأستعيدها عمّا قريب، ما اسمه؟

ـ روبي، ولكن. . .

ـ وهما متزوّجان وسعيدان الآن؟

ـ أملي أن يتزوّجا قريبًا.

ـ إنّني مسرور لها.

ـ لم تخبرني باسمك.

ـ لوك، لوك كورنيه، وما اسمك؟

تردّدت:

ـ تاليس.

ـ تاليس اسم جميل.

نطق باسمها على نحو جميل.

أشاح بنظراته بعيدًا عن وجهها، ناحية الردهة، والتفت ببطء، مندهشًا، ثم أسبل جفنيه وبدأ ينتقل من موضوع إلى آخر، بصوت خفيت.

لم تكن مفرداتها تساعدها في متابعة كلامه، ولكنّها تمكّنت من فهم بعض العبارات مثل: أنت تعدّين على أصابع يدك. . . وشاح أمّي. . أنت تختارين اللون وعليك تحمّله.

ثم صمت لبضع دقائق، شدَّ من قبضته على يدها وعندما تكلّم ثانية، كانت عيناه مغمضتين.

ـ أتريدين معرفة شيء غريب؟ هذه هي المرّة الأولى التي أجيء فيها إلى باريس.

ـ أنت في لندن يا لوك، وعمّا قريب سنعيدك إلى بلدك.

ـ قالوا لي إنّ الناس سيكونون باردين، غير ودّيين، لكنّ العكس هو الصحيح. إنّهم طيّبون جدًّا، وأنت طيّبة جدًّا، فقد عدت لرؤيتي ثانية.

فكّرت لبرهة وجيزة أنّه قد يستسلم للنوم، وشعرت وهي جالسة للمرّة الأولى منذ ساعات بأنّ تعبها يتجمّع من وراء عينيها.

ثم بدأ ينظر من حوله بالتفاتة بطيئة من رأسه، ثم نظر إليها وقال:

ـ المؤكّد أنّك الفتاة ذات اللكنة الإنكليزيّة.

قالت:

ـ أخبرني ما الذي كنت تفعله قبل الحرب، أين كنت تقطن؟ هل تتذكّر؟

ـ هل تتذكّرين عيد الفصح؟ عندما جئت إلى ميلانو؟

بدأ يؤرجح يدها بوهن من جانب إلى آخر أثناء كلامه كأنّه يريد أن ينعش ذاكرتها، كما أنّه أطال النظر في وجهها، يرنو إليها بعينيه الخضراوين متوقّعًا ردّها. فكّرت أن ليس من الصواب تشجيعه على الاستمرار في هذا الكلام.

ـ أنا لم أذهب قطّ إلى ميلانو.

ـ هل تتذكّرين المرّة الأولى التي أتيت فيها إلى دكّاننا؟

قرَّبت كرسيَّها أكثر من السرير، فأشرق وجهه الشاحب الدهني وقرَّبه من عينيها.

ـ أريد منك أن تستمع إليَّ يا لوك.

ـ أظنّ أمّي هي التي قامت على خدمتك، أو لعلّها إحدى أخواتي، فقد كنت أعمل مع أبي في الفرن في مؤخّر الدكّان، لقد سمعت لكنتك، فجئت لألقي نظرة عليك...

ـ أريد أن أخبرك عن المكان الذي أنت فيه الآن، فأنت لست في باريس.

ـ ثم عدت في اليوم التالي وكنت حاضرًا عندئذٍ، وقلت لي. . .

ـ سرعان ما ستخلد إلى النوم، سأحضر لرؤيتك يوم غد، إنّه وعد. . .

رفع لوك يده إلى رأسه وعقد حاجبيه، وقال بصوت خفيض:

ـ أريدك أن تسدي لي معروفًا يا تاليس.

ـ حاضر.

ـ هذه الضمّادات محكمة الشَّدّ، فهلاَّ أرخيتها قليلاً؟

نهضت واقفة على قدميها ونظرت إلى رأسه، كانت اللفافة مربوطة على نحو يسهل فكّها، وفيما هي تحلّ عقدة الرباط قال:

ـ هل تتذكّرين شقيقتي الصغرى آن؟ إنّها أجمل فتاة في ميلانو، لقد اجتازت امتحاناتها بعزف قطعة صغيرة لديبوسي[1]، خفيفة ومرحة جدًّا، على أيّة حال، هذا ما تقوله آن، إنّها مقطوعة تتردّد في ذهني دائمًا، لعلّك تعرفينها.

ودندن ببضع نغمات على نحو اعتباطي، فيما كانت تُزيل الشاش من فوق الضمادة.

ـ لا أحد يعلم مصدر الإلهام الذي حصلت عليه. بقيّة أفراد الأسرة لا أمل فيهم أبدًا، عندما تعزف، تعتدل في جلستها، لا تبتسم إلاّ عندما تفرغ من العزف. هذا يبدو أفضل. أظنّ آن هي التي أشرفت على خدمتك في المرّة الأولى التي جئت فيها إلى الدكّان.

لم تكن قد قرّرت إزالة الضمّادة، ولكن عندما أرختها، انزلقت من تحتها قطعة القطن المعقّمة وانزلقت معها قطعة من الضمّادة المشبعة بالدم. كان أحد جانبي رأس لوك مفقودًا، شعره حليق من الجزء المفقود من الجمجمة، ومن تحت العظم الناتئ خليط قرمزي إسفنجي من الدماغ، على

(١) كلود ديبوسي (١٨٦٢ ـ ١٩١٨) Clude Debussy: مؤلّف موسيقي فرنسي، جدّد الإنشاء الفنّي بالعزف على البيانو (المترجم).

بعد بضع بوصات، بدءًا باليافوخ وحتى حافّة أذنه. أمسكت بقطعة الضمّادة قبل أن تسقط على الأرض، وانتظرت حتى تنتهي حالة الغثيان التي انتابتها. في هذه اللحظة أدركت كم كان تصرّفها غبيًّا ومفتقرًا إلى المهنيّة. جلس لوك هادئًا، منتظرًا إيّاها. ألقت نظرة خاطفة إلى الردهة. لم يتنبّه لها أحد. أعادت الضمّادة إلى مكانها ولفَّت الجرح.

وعندما عادت ثانية، وجدت يده، وحاولت أن تثبت نفسها وهي في قبضتها الباردة الرطبة.

بدأ لوك يتحدّث على غير هدًى.

ـ إنّني لست مدخّنًا، وعدت جيانوت أن أعطيه حصّتي. انظري... كلّها على المنضدة... تحت الأزهار الآن... لا يستطيع الأرنب أن يسمعك، غبي...

ثم انسابت الكلمات من عنده متدفّقة كالشلاّل، فضيَّعته. وفي وقت لاحق ذكر مدير مدرسة كان متشدّدًا في النظام. لعلّه كان ضابطًا في الجيش، وأخيرًا، مال إلى الهدوء والسكينة، فمسحت وجهه المتصبّب عرقًا بمنشفة رطبة وانتظرت.

عندما فتح عينيه استأنف حديثه كأنّما لم يكن هناك فاصل.

ـ ما رأيك في رغيف مستطيل؟

ـ لذيذ.

ـ ذلك هو سبب مجيئك كلّ يوم.

ـ نعم.

توقّف مفكّرًا، ثم قال بحذر وهو يطرح قضيّة دقيقة.

ـ وما رأيك بالمعجّنات الهلاليّة الشكل؟

ـ أفضّل ما هو متوفّر في ميلانو.

ابتسم. وعندما تكلّم، انبعث صوت حديدي في مؤخّرة بلعومه لكنّهما تجاهلاه.

ـ إنّها وصفة أبي الخاصّة، كلّ شيء فيها يعتمد على الزبدة.

حدَّق بها مبتهجًا، وغطّى يدها بيده.

قال:

ـ أتدرين أنّ أمّي تحبّك كثيرًا؟

ـ حقًّا؟

ـ إنّها تتحدّث عنك في كلّ وقت، وتعتقد أنّنا يجب أن نتزوّج في الصيف القادم.

استوعبت نظرته الطويلة، وأدركت السبب من وراء إرسالها إليه. كان يعاني صعوبة في عمليّة البلع، وتشكّلت قطرات عرق على حاجبه وعلى طول حافّة الضمّادة وشفته العليا، فمسحتها كلّها. وفيما هي توشك على سقيه الماء قال:

ـ أتحبّينني؟

تردّدت.

ـ نعم.

لم يكن ممكنًا الردّ بغير هذا الجواب، فضلاً على أنّها أحبّته في تلك اللحظة، كان فتًى رائعًا، بعيدًا عن أسرته، ويوشك أن يموت.

سقته بعض الماء، وفي حين كانت تمسح وجهه ثانية قال:

ـ هل ذهبت إلى كوسي دي لارزاك؟

ـ لا، لم أذهب إلى هناك.

لكنّه لم يعرض عليها أن يصحبها إلى ذلك المكان، وعوضًا عن ذلك، أدار وجهه ناحية الوسادة وبدأ يتمتم بكلمات وعبارات غير مفهومة. وبقيت يده

تشدُّ على يدها كأنّه كان يعي بوجودها. وعندما صفا تفكيره وراق، التفت ناحيتها.

ـ لن تتركيني الآن، هه؟

ـ لا، لن أتركك، بل سأمكث وإيّاك.

ـ تاليس...

أغمض عينيه نصف إغماضة وهو لا يزال يبتسم، وفجأة اعتدل في جلسته كأنّ تيّارًا كهربائيًّا سرى في أطرافه. حدَّق بها مندهشًا، فاغرًا فاه، ثم مال إلى أمام وبدأ يميل نحوها. فوثبت من فوق كرسيِّها للحيلولة دون سقوطه على الأرض. كانت يده لا تزال ممسكة بيدها، فيما طوَّق بذراعه الأخرى عنقها، جبينه يضغط بقوّة فوق كتفها، خدَّاه على خدّيها. كانت تخشى انزلاق الضمّادة عن رأسه، وظنّت أنّها لن تتمكّن من إسناد ثقله، أو تحمّل رؤية جرحه ثانية.

وتردّد صوت الصرير المنبعث من أعماق بلعومه في أذنها.

تعثّرت وهي تحاول إعادته إلى السرير، وجعلته يستقرّ على الوسائد.

قالت كي لا يسمعها أحد غيره:

ـ إنّني بريوني.

اتّسعت عيناه مندهشًا ولمعت بشرته الشمعيّة من تحت ضوء المصباح الكهربائي. اقتربت منه ووضعت شفتيها في أذنه، من ورائها شخص ما، ويد تستريح فوق كتفها.

همست في أذنه:

ـ لست تاليس، عليك أن تناديني باسمي بريوني.

وهنا امتدّت اليد لتلمس يدها، فأرخت أصابعها من فوق أصابعه.

ـ والآن انهضي أيّتها الممرّضة تاليس.

أمسكت رئيسة الممرّضات دراموند بمرفقها وساعدتها على النهوض على قدميها. كانت وجنتا رئيسة الممرّضات لامعتين، والتقت على امتداد عظام الوجنتين البشرة الورديّة والبيضاء بخطّ مستقيم دقيق.

على الجانب الآخر من السرير، جذبت إحدى الممرّضات الملاءة وغطّت وجه لوك كورنيه.

زمّت رئيسة الممرّضات شفتيها، وعدَّلت من ياقة بريوني.

ـ أحسنت يا ابنتي، والآن اذهبي واغسلي الدم عن وجهك. نحن لا نريد من بقيّة المرضى أن يستاؤوا.

نفّذت ما أُمرت به، وتوجّهت إلى الحمّامات وغسلت وجهها بماء بارد، وبعد بضع دقائق عادت للقيام بواجباتها في الردهة.

في الساعة الرابعة والنصف صباحًا، أُرسلت الممرّضات المتدرّبات إلى أماكن نومهنّ ليخلدن إلى النوم، وطُلب منهنّ العودة والبدء بالعمل في الساعة الحادية عشرة.

سارت بريوني رفقة ڤيونا. لم تتكلّم أيّ من الفتاتين، وعندما شبكتا ذراعيهما، بدتا كأنّما تستأنفان سيرهما على جسر وستمنستر بعد تجربة حياة كاملة. لم يكن في وسعهما وصف حياتهما في الردهات، ولا كيف غيَّرتهما. كان يكفي أن تكون الاثنتان قادرتين على السير على امتداد الدهاليز الخاوية خلف فتيات أُخريات. وعندما تمنّت بريوني ليلة طيّبة لڤيونا وولجت غرفتها الصغيرة، وجدت خطابًا فوق الأرضيّة. خطّ اليد على الظرف غريب، لا بدَّ أنَّ إحدى الفتيات أخذته من غرفة البوّاب، ودفعته من تحت باب غرفتها. وبدلاً من أن تفضَّ المظروف على الفور، خلعت ثيابها وهيَّأت نفسها لتخلد إلى النوم.

جلست على سريرها وهي في ثوب النوم والرسالة في حضنها، وفكّرت في الصبيّ.

كان الجزء الظاهر من السماء من خلال نافذتها أبيض اللون. لا يزال في وسعها أن تسمع صوته، الطريقة التي لفظ بها اسمها تاليس جاعلاً منه اسمها الأوّل. تخيّلت المستقبل غير المتوفّر لها: خبّازة في شارع ضيّق تحفّ به الظلال ويعجّ بالقطط النحيلة، في حين ينبعث عزف على آلة البيانو من نافذة في الطابق العلوي، فيما تشاكسها الفتيات، ضاحكات منها، بسبب لكنتها، ويغرم بها لوك على طريقته الخاصّة به. ودَّت لو استطاعت البكاء من أجله، ومن أجل أسرته في ميلانو التي تنتظر خبرًا منه. لكنّها لم تستطع أن تشعر بأيّ شيء. كانت خاوية، جوفاء. جلست زهاء نصف ساعة، ذاهلة. وأخيرًا، وبعد أن أعياها التعب والإرهاق. وإنْ لم يغالبها النعاس، شدَّت شعرها إلى الخلف بشريط اعتادت استعماله، وأوت إلى سريرها، وفضَّت الرسالة.

عزيزتي الآنسة تاليس.

شكرًا لإرسالك إلينا قصّة (شخصان قرب نافورة)، ونرجو أن تتقبّلي اعتذارنا لهذا الردّ البطيء. كما تعلمين، فإنّه غير مألوف عندنا أن ننشر رواية قصيرة بكاملها لأديب مغمور، أو حتى لكاتب مشهور. ومع هذا، فقد قرأناها ونحن نفكّر في احتمال نشر مقتطف منها.

لكن، لسوء الحظّ، لم نستطع أن نقتطف منها أيّ مقطع. وها أنا ذا أُعيد إليك نسختك المكتوبة على الآلة الكاتبة في ظرف منفصل. بعد أن ذكرنا هذا الموضوع، وجدنا أنفسنا نقرأ الرواية بكاملها باهتمام بالغ (بخلاف قرارنا الأوّلي لأنّ لدينا أعمالاً كثيرة في هذا المكتب).

وعلى الرّغم من أنّنا لا نستطيع أن نعرض نشر أيّ جزء منها، فقد فكّرنا بأنّك ينبغي أن تعلمي بأنّ هناك آخرين في هذا المكان، فضلاً عنّي شخصيًا، يهتمّون في ما قد تؤلّفين مستقبلاً، إنّنا لسنا راضين عن معدَّل عمر المسهمين في الكتابة إلينا، ونتطلّع إلى نشر كتابات الأدباء الشبّان الواعدين. إنّنا نتطلّع إلى ما ستكتبين، خاصّة إن أردت كتابة قصّة قصيرة أو قصّتين.

لقد وجدنا قصّة (شخصان قرب نافورة) آسرة بما يكفي لقراءتها باهتمام بالغ، أنا لا أقول هذا باستخفاف وبلا مبالاة. إنّنا نهمل عدداً كبيراً من الموادّ التي تصلنا، بعضها من تأليف أدباء مشهورين. هناك بعض الصور الجيّدة، وقد راقتني عبارة: تشامخت الحشائش الطويلة إلى جنب لون عزّ الصيف الأصفر الشبيه بالأسد. كما أنّك تمتلكين القدرة على تداعي الأفكار وتجسيدها بفروقات طفيفة من أجل بذل محاولات لبناء الشخصيّة. شيء ما، فريد ولا يسهل تفسيره، هو الذي استحوذت عليه، ولكنّنا برغم ذلك نتساءل إنْ كان هذا الأسلوب مديناً بالشيء الكثير لتقنيّات السيّدة وولف.

إنّ اللحظة الراهنة الواضحة موضوع وجيه وقيّم بخصيصته على وجه التأكيد، لا سيّما في الشعر، فهو يسمح للأديب بالكشف عن مواهبه والغوص في أسرار العقل، وتقديم نموذج مؤسلب لعمليّات التفكير، ويسمح باستكشاف أهواء النفس ومفاجآتها، وهلمّ جرّا.

من يشكّ في قيمة هذا التجريب؟ على أيّة حال، إنَّ مثل هذه الكتابة يمكن أن تصبح ذات قيمة عندما لا يكون هناك إحساس بالحركة إلى أمام. بكلمة أخرى، إنَّ اهتمامنا يمكن أن يكون أكثر فعاليّة لو كان هناك جذب تحتي للسرد البسيط. التطوّر مطلوب.

إذاً، وعلى سبيل المثال، فإنّ الطفلة القريبة من الشبّاك التي نقرأ وصفاً لها في البدء ـ وافتقارها الكبير إلى فهم الموقف وإدراكه، تلفت الأنظار. كذلك العزم الذي تتحلّى به والإحساس بدخول أسرار الراشدين. إنّنا نلحظ هذه الفتاة الشابّة وهي في فجر تكوّن شخصيّتها. وإنّ المرء لينخدع بتصميمها على صرف النظر عن قصص الجانّ والحكايات الشعبيّة المنسوجة محلّيّاً، والمسرحيّات التي كانت تؤلّفها (كم سيكون لطيفاً جدًّا لو أنّنا قرأنا واحدة منها)، ولكن ربّما كان في وسعها أن ترمي براعم أسلوبها القصصي مع ماء الحكاية الشعبيّة. وعلى الرّغم من كلّ الإيقاعات الحسنة والملاحظات اللطيفة، لا يحدث شيء كثير إثر بداية واعدة. شابّ وشابّة بجانب نافورة، لم تحسم الكثير من المشاعر بينهما،

يتشاجران من أجل زهريّة فيكسرانها. (لقد فكّر أكثر من شخص هنا بيننا أنّ مثل هذا النوع من الزهريّة باهظ الثمن فلا يؤخذ خارج البيت، ألا يمكن لنوع آخر مثل زهريّة سيفريس أو نيمفنبرك، أن يلائم غرضك؟) المرأة تقفز بكامل ثيابها إلى النافورة لاستعادة القطع المكسورة، أفلا يفيدك أن الفتاة التي كانت تراقب المشهد لم تدرك أنّ الزهريّة قد كُسرت؟ ويبدو فوق هذا كلّه أنّ قفز الفتاة إلى النافورة والغوص فيها غير مفهومين. إنّ هناك أشياء كثيرة كان يمكن لها أن تظهر من عندك، لكنّك وهبت صفحات كاملة لنوع الضوء والظلّ ولانطباعات اعتباطيّة، ثم هناك أمامنا أشياء من وجهة نظر الرجل، ثم من وجهة نظر الفتاة ـ على الرّغم من أنّنا لا نعرف الشيء الكثير عمَّا هو جديد.

لا شيء أكثر من مظهر الأشياء والإحساس بها، فضلاً عن ذكريات عديمة الصلة.

ويفترق الرجل والمرأة، تاركين بقعة سوداء على الأرض ولكنّها سرعان ما تتبخّر ـ وهنا نصل الخاتمة. إنَّ مثل هذه الخصيصة لا تخدم موهبتك الواضحة خدمة جيّدة.

لو أنّ الفتاة لم تكن مفهومة من الآخرين، أو أنّها ذُهلت بسبب المشهد الصغير الغريب الذي رأته ينكشف من أمامها، فكيف يمكن أن يؤثّر في حياتي هذين البالغين؟ هل ستأتي وتقف بينهما على نحو كارثيّ؟ أو تقرّب بينهما، إمّا عن سابق تخطيط أو مصادفة؟ هل تفضحهما على نحو بريء أمام والدي الشابة؟ المؤكّد أنّهما لن يرضيا عن العلاقة بين ابنتهما الكبرى وابن خادمتهما. أيمكن أن يستخدمها الشابان لتكون رسولاً بينهما.

بكلمات أدقّ، بدلاً من الاعتماد وقتاً طويلاً على أحاسيس الشخصيّات الثلاث، ألا تجدين أنّ في الإمكان وضعها أمامنا بقدر كبير من الاختصار والاختزال مع الإبقاء على بعض التفاصيل الحيَّة عن الضوء والحجارة والماء التي تجيدين كتابتها؟ ولكن عندئذٍ يتعيّن عليك الانتقال إلى خلق نوع من التوتّر، نوع من الضوء والعتمة ضمن السرد نفسه. إنَّ أكثر قرّائك ذكاءً قد

تكون لهم معرفة واسعة بنظريّات برغسون عن الوعي، لكنّني متأكّد من أنّ رغبة طفوليّة تتملّكهم لأن تحكي لهم حكاية، لأن يكونوا في حالة ترقّب، لمعرفة ما سيحدث. وأُشير هنا مصادفةً، من وصفك، إلى أنّ تمثال بيرنيني الذي تشيرين إليه هو ذلك الكائن في ميدان باربريني وليس في ميدان نافونا.

بعبارة بسيطة، أنت بحاجة إلى عمود فقري للقصّة. ربّما يهمّك أن تعرفي أنّ أحد قرّائك المتعطّشين للقراءة هي السيّدة إليزابيث باون[1] إذْ أخذت مجموعة الأوراق المكتوبة على الآلة الكاتبة في لحظة فراغ أثناء مرورها بهذا المكتب وهي في طريقها لتناول طعام الغداء، وطلبت أن تأخذها إلى البيت لقراءتها، وفرغت منها عصر ذلك اليوم.

مبدئيًّا، رأيها هو أنّ «النثر» متمتّع بكلّ الخصائص المميّزة، وأنّه متخم إلى أبعد الحدود، لكنّه ينطوي على ظلال من ردود جافّة مُبرّرة، (وهو لم يخطر ببالي قطّ).

ثم قدّمت لنا بعدئذٍ عدداً من الملاحظات المؤشّرة أعلاه. قد تشعرين بالرضى التامّ بما كتبته من صفحات، أو قد تجعلك ملاحظاتنا شديدة الغضب، أو قانطة فلا ترغبين بعد الآن في النظر إلى ما كتبت ثانية. إنّنا نأمل مخلصين أن لا تكوني كذلك، إنَّ رغبتنا هي أن تأخذي ملاحظاتنا ـ التي نقدّمها بحماس وإخلاص ـ بوصفها أساسًا لنسخة أخرى.

---

(١) إليزابيث باون (١٨٩٩ ـ ١٩٧٣) Elizabeth Bowen: روائيّة وُلدت بدبلن لأب يعمل محاميًا وملاّكًا للأراضي، غادرت مسقط رأسها إلى لندن في ١٩١٨، وتزوّجت واستقرّت بأوكسفورد في ١٩٢٣. يعدّها نقّاد الأدب واحدة من أبرز روائيّي عصرها، وكثيرًا ما قارنوها بالروائيّة جين أوستن وإن تفوّقت عليها في ميدان التنظير الروائي. اهتمّت في أعمالها الروائيّة بتقصّي العلاقات والمشاعر الشخصيّة أكثر من اهتمامها برصد حالات المجتمع. معظم بطلاتها من النساء، موضوعها الرئيس موت القلب عند المرأة الشابّة الحسّاسة، أهمّ أعمالها: «الفندق» (١٩٢٧) و«أيلول الأخير» ١٩٢٩ و«البيت الباريسي» (١٩٣٥)، و«موت القلب» (١٩٣٨) و«عالم الحبّ» (١٩٥٥) و«زمان في روما» (١٩٦٠) وأخرى غيرها (المترجم).

إنَّ رسالتك المرفقة متحفّظة، تدعو إلى الإعجاب، لكنّك أشرت أنّك ليس لديك وقت حرّ حاليًا، وإذا ما تغيّر هذا الوضع، ومررت بهذا المكان، فإنّنا سنكون غاية في السرور لاستقبالك وتناول الشراب وإيّاك ومناقشة الموضوع مناقشة مستفيضة. نأمل أن لا تثبط همّتك، ربّما يهمّك أن تعلمي أنّ رسائلنا التي تنطوي على رفض الموادّ لا تزيد عن ثلاث جمل عادةً.

لقد اعتذرت، عرضًا، عن الكتابة عن الحرب، سنرسل لك آخر عدد من مجلّتنا وهي تحتوي على مقالة افتتاحيّة ذات صلة بهذا الموضوع. كما ستلاحظين، أنّنا لا نؤمن بأنّ الفنّانين مضطرّون إلى العزف على أوتار الحرب، بل هم على حقّ، وهم حكماء في تجاهلها وفي التعبير عن هموم أخرى غيرها. بما أنّ الفنّانين عقيمون سياسيًّا، عليهم إذًا أن يستغلّوا هذا الوقت لتطوير مستويات عاطفيّة أعمق. إنّ عملك، عملك الحربي، هو أن تطوّري موهبتك، وأن تسيري في الاتّجاه الذي تتطلّبه منك. الحرب، كما أوضحنا، هي عدوّ النشاط الخلاّق.

إنّ عنوانك يوحي بأنّك إمّا طبيبة أو أنّك تعانين مرضًا مزمنًا، وفي هذه الحالة، فإنّنا نتمنّى لك جميعًا شفاءً عاجلاً وتامًّا.

أخيرًا، إنَّ أحد الحاضرين هنا يتساءل إنْ كانت لديك شقيقة أكبر منك سنًّا درست في غيرتون قبل ستّ سنوات أو سبع.

المخلص

سي سي

* * *

في ما أعقب ذلك من أيّام، طرد الرجوع إلى نظام المناوبة الصارم الإحساس باللازمن العائم لتلك الساعات الأربع والعشرين، وعدَّت نفسها محظوظة وهي تعمل في النوبة النهاريّة من السابعة وحتى الثامنة، مع استراحة أمدها نصف ساعة لتناول الطعام.

وعندما دقّت ساعتها في الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين، انزاحت إلى أعلى خارج حفرة ناعمة من الإرهاق، وفي غضون الثواني القليلة التي مكثت فيها في الأرض الحرام، بين النوم واليقظة التامّة، أدركت أنَّ قدرًا من الإثارة مخبّأ لها، متعة، أو تغيّرًا آنيًّا. كان الاستيقاظ في يوم عيد الميلاد يشبه هذا الاستيقاظ ـ رعشة النوم قبل تذكّر مصدرها. بحثت بعينين مغمضتين بسبب وهج نور الصباح الصيفي داخل الغرفة عن زرّ الساعة، ثم غاصت ثانية فوق وسادتها قبل أن تعود إليها من جديد. الحقّ أنّ هذا هو عكس عيد الميلاد، عكس كلّ شيء. الغزو الألماني يوشك أن يبدأ، الكلّ يتحدّث عن الغزو، بدءًا بالحمّالين الذين كانوا يشكّلون وحدتهم الخاصّة بهم، بمتطوّعي الدفاع المحلّي عن المستشفى، وانتهاءً بتشرشل نفسه الذي ابتكر صورة للبلاد مستعبدةً، تموت جوعًا، باستثناء البحريّة الملكيّة التي لا تزال سالمة.

كانت بريوني تعرف أنّ ما سيحدث يثير الهلع، القتال بالأيدي في الشوارع والإعدامات العلنيّة والعودة إلى العبوديّة وتدمير كلّ ما هو جميل. لكن بينما كانت تجلس على حافّة سريرها المجعّد الذي لا يزال دافئًا، ترتدي جوربيها، لم تتمكّن من منع حالة النشوة العارمة التي استبدّت بها ولا إنكارها، فالجميع يقولون الآن إنّ البلاد تقف بمفردها، وإنَّ هذا أفضل.

بدت الأشياء مختلفة، فنموذج زهرة الزنبق على كيس الغسيل، وإطار المرآة الجصّي المكسور، ووجهها المنعكس عليها وهي تمشّط شعرها، كلّها بدت أكثر لمعانًا، وأشدّ تركيزًا. مقبض الباب وهي تديره بدا باردًا وصلبًا. وعندما خطت داخل الدهليز، وتناهى إلى سمعها من مكان بعيد وقع أقدام ثقيلة في سلّم البئر، فكّرت في أحذية الألمان الطويلة الساق واهتزّ بطنها. كانت قد اختلت بنفسها قبل الفطور لدقيقة أو دقيقتين وسارت على الممشى المحاذي للنهر، وحتى في هذه الساعة، وتحت السماء الصافية، يلوح بريق قوي في طراوة المدّ وهو ينساب مارًّا بالمستشفى، أيمكن للألمان أن يستولوا على نهر التايمز؟

المؤكّد أنّ صفاء كلّ الأشياء التي شاهدتها أو لمستها أو سمعتها لم يكن سببها بدايات فصل الصيف المنعشة أو فيض بواكيره، بل الوعي المتوهّج بالوصول إلى خاتمة، خاتمة الأحداث التي تلتقي في آخر الأمر في نقطة نهائيّة. وشعرت أنّ هذه الأيّام هي الأخيرة، وأنّها سوف تشرق في الذاكرة على نحو محدّد. هذا التوهّج، هذا الامتداد الواسع للنهارات المشمسة ليس سوى مرحلة أخيرة من مراحل التاريخ ويبدأ بعدها زمن جديد. ولم تفلح الواجبات الصباحيّة المبكرة وغرفة تصريف المياه وتوزيع الشاي وتبديل الضمّادات والاتّصال المتجدّد بالضرر الذي لا سبيل إلى إصلاحه في التعتيم على هذا الإحساس الحادّ. كلّ ما تفعله محكوم بهذا الإحساس، الذي يشكّل مهادًا ثابتًا، ويعمل على تسريع خططها.

شعرت أنّها لا تملك وقتًا طويلاً. إذا ما تأخّرت فإنّ الألمان قد يصلون، وقد لا تسنح لها فرصة أخرى.

كلّ يوم تصل حالات جديدة، ولكن ليست كثيرة. كان النظام يفرض نفسه، وكان هناك سرير لكلّ مريض، الحالات الجراحيّة أُعدّت لمسرح العمليّات في السرداب. وبعد ذلك كان معظم المرضى يُرسلون إلى مستشفيات أخرى للتماثل للشفاء والنقاهة.

عدد القتلى كبير جدًّا، ولم تجد الممرّضات المتدرّبات بعد الآن أنّ الحالات المرضيّة تنطوي على عناصر مثيرة، بل باتت مألوفة، اعتياديّة. الستائر مسدلة من حول همسات القسّيس الجالس على جانب السرير، الملاءة مجذوبة إلى أعلى، الحمّالون يُستدعون، ويُجرّد السرير من مريضه ويُعاد ترتيبه. يا للسرعة التي يتلاشى فيها الموتى، أحدهم في الآخر، وهكذا يغدو وجه الرقيب موني وجه الجندي النفر لويل، ويتبادل الاثنان جروحهما مع جنود آخرين لم يعد في وسعهما تذكّر أسمائهم.

الآن، وقد سقطت فرنسا، بات مفترضًا أنّ قصف لندن وتخفيف وهج الأنوار باتا وشيكين حتمًا، ومن غير الضروري أن يبقى كلّ الناس في المدينة.

عُزّزت أكياس الرمل أمام نوافذ الطابق الأرضي. المقاولون المدنيّون على السطوح يفحصون متانة المداخن والكوّات الكونكريتيّة. أُجريت تمارين مختلفة على إخلاء الردهات، يصحبها قدرٌ كبير من الصياح المدوّي وصفير الصافرات. كما أُجريت تمارين على إطفاء الحرائق، وإجراءات التجمّع في نقطة معيّنة، ووضع أقنعة الغازات على وجوه المرضى العاجزين أو الفاقدين وعيهم. وذُكّرَت الممرّضات بوجوب وضع أقنعة الغاز على وجوههنّ أوّلاً. ولم تعد رئيسة الممرّضات دراموند تُثير رعبهم، وبعد أن أصبحن متمرّسات، محنّكات، فإنّها لم تعد تخاطبهنّ وكأنّهنّ تلميذات مدرسة. لهجتها عندما تصدر التعليمات هادئة، محايدة مهنيًّا، مجاملة. في هذا الجوّ الجديد أضحى سهلاً بالنسبة لبريوني أن ترتّب تبديل أيّام عطلها مع ڤيونا التي وافقت، عن طيب خاطر، أن تتنازل عن عطلتها ليوم السبت مقابل يوم الاثنين.

وبسبب العمل الإداري غير المتقن، فقد تُرك بعض الجنود للتماثل للشفاء في المستشفى.

فبعد نوم يريحهم من مشقّة الإرهاق الذي عانوه، واعتيادهم على وجبات الطعام واستعادة شيء من وزنهم، فإنّ المزاج كان سيّئًا أو كئيبًا في أوساط الذين لم تكن إصاباتهم دائميّة، معظمهم جنود مشاة يستلقون على أسرّتهم، يدخّنون، يحدّقون بصمت في السقف، يستعيدون ذكرياتهم الأخيرة، أو تراهم يتجمّعون للحديث في جماعات صغيرة ثائرة. كانوا مشمئزّين من أنفسهم. قال بعضهم لبريوني إنّهم لم يطلقوا رصاصة واحدة. كانوا غاضبين من كبار الضبّاط، ومن ضبّاطهم الذين تخلّوا عنهم أثناء الانسحاب، ومن الفرنسيّين الذين انهاروا دون قتال. كانوا مستائين من الاحتفالات التي طبّلت لها الصحافة بشأن معجزة الانسحاب وبطولة القوارب الصغيرة.

سمعتهم يقولون:

ـ تبًّا لتلك الفوضى، اللعنة على السلاح الجوّي الملكي.

كان بعض الجنود غير ودّيين، لا يتعاونون في تعاطي أدويتهم، وتمكّنوا من تشويش الفارق بين الجنرالات والممرّضات. فالكلّ يمثّلون سلطة مجنونة حسب رأيهم. وتطلّب الأمر زيارة من رئيسة الممرّضات دراموند كي تعدّل من وضعهم.



غادرت بريوني المستشفى في الساعة الثامنة من صباح يوم السبت، دون تناول فطورها، وسارت والنهر على يمينها، بعكس التيّار. وفيما كانت تجتاز بوّابات قصر لامبث، تجاوزتها ثلاث حافلات. لوحات خطّ سيرها بيضاء لا تشير إلى أيّة وجهة. الهدف إرباك العدوّ الغازي، لا يهمّ، لأنّها كانت قد قرّرت أصلاً أن تمشي.

ولم تكن هناك فائدة من حفظها أسماء بعض الشوارع مسبقًا. كلّ العلامات الدالّة أُنزلت من مكانها أو حُجبت. فكرتها الغامضة هي أن تسير بمحاذاة النهر لمسافة ميلين، ومن ثم الإسراع إلى جهة اليسار الذي يمثّل جنوب المدينة، كلّ التصاميم والخرائط الخاصّة بالمدينة صودرت بأوامر. أخيرًا تمكّنت من العثور على خارطة لمسار الحافلات، يرجع تاريخها إلى سنة ١٩٢٦. كانت خارطة ممزّقة من ثنيّاتها حيث امتداد الطريق الذي كانت تريد أن تسلكه. فضُّ الخارطة ونشرها يعني المجازفة بتمزيقها، كما أنّها كانت متوتّرة بسبب الانطباع الذي قد تتركه. ثمّة روايات تناقلتها الصحف عن رجال مظلاّت ألمان متنكّرين بزيّ ممرّضات وراهبات منتشرين وسط المدن، مخترقين السكّان، يمكن التعرّف إليهم عن طريق الخرائط التي قد يلجأون إلى بسطها أحيانًا لمعرفة الأماكن. وإذا ما طرح أحدهم سؤالاً فإنّ لكنته إنكليزيّة متقنة ولكنّه يجهل كلّ شيء عن أغاني الأطفال الشائعة. وما إن استبدّت بها الفكرة حتى لم تعد تقوى على الحيلولة دون التفكير بشأن مظهرها الذي يبعث على الشكوك. ظنّت أنّ زيّها قد يوفّر لها الحماية وهي تقطع أراضيَ مجهولة، لكنّها عوضًا عن ذلك بدت كأنّها جاسوسة.

وفي حين كانت تسير بعكس اتّجاه حركة السير الصباحيّة، بدأت تتمتم أغاني الأطفال التي تتذكّرها، وكان عددها قليلاً جدًّا. أمامها بائع حليب ترجّل عن عربته ليشدّ من لجام جواده. ولمّا اقتربت منه وجدته يحدّث الحيوان ببضع كلمات، فتذكّرت، وهي تقف من ورائه، وتنحنح هاردمان العجوز ومركبته. وفكّرت أنّ من يبلغ السبعين اليوم، لا بدّ أنّه كان في مثل عمرها في سنة ١٨٨٨. لا يزال العصر عصر الجياد، في الشوارع في الأقلّ. وكان الرجال يكرهون اضمحلال ذلك العصر.

عندما استفسرت من بائع الحليب عن الطريق، شرح لها شرحًا مستفيضًا يفتقر إلى الوضوح. كان رجلاً ضخم الجثّة، لحيته البيضاء تميل إلى الاصفرار بسبب التدخين. كان يعاني من مشكلة في الغدد تجعل كلماته تمتزج الواحدة بالأخرى، فتطلق أصواتًا تشبه الطنين ينبعث من منخريه. أشّر لها ناحية طريق يتفرّع إلى جهة اليسار تحت جسر يمرّ عليه القطار. فكّرت أنّ الوقت ربّما لم يحن بعد كي تترك حافّة النهر، لكنّها واصلت سيرها برغم ذلك وشعرت أنّه يراقبها، وفكّرت أنّ من العيب صرف النظر عن تعليماته. لعلّ الفرع الكائن إلى جهة اليسار طريق مختصر.

استبدّت بها الدهشة بسبب ارتباكها وحدّة وعيها. على أيّة حال، لقد تعلّمت ورأت، وشعرت أنّها حمقاء، فقدت شجاعتها ورباطة جأشها، وأنّها لم تعد جزءًا من مجموعتها.

لقد عاشت على مدى أشهر طويلة حياة مغلقة، كلّ ساعة فيها مؤشّرة في جدول زمني.

كانت تدرك موقعها المتواضع في الردهة، كلّما ازدادت مهارتها في العمل، باتت أفضل في تلقّي الأوامر واتّباع الإجراءات والتعليمات، والتوقّف عن التفكير في نفسها. لقد مرَّ زمن طويل جدًّا منذ أن فعلت شيئًا ما وحدها، ليس قبل الأسبوع الذي أنفقته في بريمروز هيل وهي تكتب الرواية القصيرة على الآلة الكاتبة. يبدو ذلك كلّه الآن انفعالاً ساذجًا.

كانت تسير من تحت الجسر عندما مرَّ قطار من فوقه، هديره المدوّي الإيقاعي تغلغل حتى عظامها. فولاذ ينزلق فوق فولاذ، الصحائف الهائلة المزوّدة بالمسامير من فوقها وسط الوحشة، باب يصعب تفسير أمره، غائر في القرميد، أنابيب هائلة من الحديد مثبّتة بكلاليب صدئة لا أحد يعرف ما بداخلها، مثل هذا الاختراع ينتمي إلى جنس الرجل الفائق. هي نفسها مسحت الأرضيّات ونظّفتها وربطت الضمّادات، ألديها القوّة حقًّا على القيام بهذه الرحلة؟

عندما خرجت من تحت الجسر واجتازت بقعة مسلّطة عليها أشعّة الشمس الصباحيّة، كان القطار يصدر صوتًا متلاشيًا في الضاحية، صوتًا ضعيفًا لا ضرر من ورائه. قالت بريوني لنفسها، مرارًا وتكرارًا، إنّها بحاجة إلى عمود فقري. عبرت متنزّهًا صغيرًا تابعًا للبلديّة فيه ساحة للعب كرة المضرب، وفيها رجلان يرتديان قميصين داخليّين قطنيّين ويضربان الكرة إلى الأمام وإلى الوراء، استعدادًا للعبة، ثقتهما فيها ضعيفة. وشاهدت فتاتين ترتديان بنطالين قصيرين، جالستين على مصطبة بالقرب من المكان وتقرآن رسالة. ففكّرت في رسالتها، وقصاصة الرفض المغلّفة بعبارات جميلة. كانت تحمل الرسالة في جيبها أثناء نوبة عملها، وتلطّخت الصفحة الثانية بحمض الكربوليك. وبدأت تدرك، دون قصد، أنّ الرسالة كانت إدانة شخصيّة ذات مغزى. أيمكن أن تفرّق بينهما على نحو كارثي؟ نعم، مؤكّدًا، وبما أنّها فرَّقت حقًّا بينهما فهل يمكنها أن تخفي الحقيقة بكتابة قصّة قصيرة قلّما تنمّ عن ذكاء وتُرضي خيلاءها وزهوها بإرسالها إلى إحدى المجلاّت؟ الصفحات المتداخلة التي تصف فيها الضوء والحجارة والماء، والتي تمثّل انفصالاً سرديًّا بين ثلاث وجهات نظر، والسكون المطبق للاشيء يحدث على ما يبدو، لا يمكنها أن تخفي جُبنها. هل ظنّت حقًّا أنَّ بإمكانها أن تتوارى من وراء بعض المفاهيم المستعارة للكتابة الحديثة وأن تغرق نفسها في تيّار ـ ثلاثة تيّارات من! ـ الشعور؟ الأعذار التي قدّمت عن روايتها القصيرة هي نفسها أعذار حياتها. فكلّ ما لم ترغب في

مواجهته كان مفقودًا من رواياتها القصيرة ـ وكان ضروريًّا لها. ما الذي يتعيّن عليها عمله الآن؟ إنّ ما تفتقر إليه ليس العمود الفقري للقصّة، بل العمود الفقري نفسه.

خلَّفت المتنزّه من ورائها، ومرّت من أمام معمل صغير، دويُّ آلاته جعل الرصيف يهتزّ، ليس هناك ما يُشير إلى الأشياء التي تصنع من وراء هذه النوافذ العالية والقذرة، أو ما السبب الكامن وراء اندفاع الدخان الأصفر والأسود من مدخنة نحيلة واحدة مصنوعة من الألمنيوم. وفي الجهة المقابلة من أحد منعطفات الشارع، شاهدت باب حانة مزدوجًا، مفتوحًا على مصراعيه فظنّته مسرحًا. في داخل الحانة، صبيّ ذو مظهر جذّاب، مُعَبِّرٍ عن الاستغراق في التفكير، وهو يفرغ منافض سكائر في دلو. نسيم ليلة أمس لا تزال تشوبه مسحة زرقاء، وشاهدت رجلين يرتديان صدريّتين من الجلد يفرغان عربة من براميل الجعة المحمّلة بها. لم يسبق لها أن رأت مثل هذا العدد الكبير من الجياد، لا بدّ أنّ الجيش استولى على جميع الشاحنات. أحدهم كان يدفع أبواب القبو ليفتحها من الداخل. دقّوا على الرصيف، فانبعث الغبار عاليًا، وقف رجل، حليق الرأس، ساقاه أدنى من مستوى الرصيف، والتفت لينظر إليها وهي تمرّ من أمامه. بدا لها كأنّه قطعة شطرنج عملاقة، وكان رجال العربة يراقبونها بدورهم، وأطلق أحدهم صفيرًا يشبه صفير الذئب.

ـ على ما يرام يا عزيزتي؟

لم تمانع في سؤاله، لكنّها لم تحر جوابًا، نعم، شكرًا لك؟ لكنّها ابتسمت لهم جميعًا، سعيدة بثنيّات لفاعها، وظنّت أنّ كلّ فرد كان يفكّر في الغزو، لكن ليس هناك شيء يمكن عمله سوى الاستمرار في العمل. فحتى لو وصل الألمان، فإنّ الناس سوف يواصلون لعب كرة المضرب، أو يتبادلون القيل والقال، أو يشربون الجعة. ربّما سيتوقّف صفير الذئب. وعندما تقوّس الشارع وضاق، بدا صوت حركة السير المطّردة على امتداده أشدَّ دويًّا، فيما ضربت الأبخرة الساخنة صفحة وجهها.

صفّ من المنازل على الطراز الفكتوري المشيّدة بالقرميد الأحمر اللامع على الجانب الأيمن من الرصيف. امرأة ترتدي صدريّة مزركشة تكنس بنشاط مخبول فناء بيتها الذي انبعثت من وراء بابه المفتوح رائحة الفطور المقلي. تراجعت المرأة إلى الخلف لتفسح المجال أمام بريوني كي تمرّ لأنّ الطريق كان شديد الضيق في هذه المنطقة. ولكنّها أشاحت بوجهها بعيدًا عندما حيّتها بريوني بتحيّة الصباح. واقتربت منها امرأة وأربعة أطفال يحملون حقائب الثياب وحقائب الظهر. كان الأطفال يتدافعون ويصيحون ويرفسون فردة حذاء عتيقة، متناسين نداء أمّهم المتعب عندما اضطرّت بريوني إلى التنحّي جانبًا كي تفسح لهم المجال للمرور.

ـ اتركها.. هيَّا، دع الممرّضة تمرّ.

فيما كانت تمرّ، ابتسمت لها المرأة ابتسامة يعوزها التناغم والانسجام، تنمّ عن اعتذار حزين يرثى له. اثنتان من أسنانها الأماميّة مفقودتان، كانت تضع عطرًا قويًّا نفّاذًا، وفي يدها سيكارة لم تشعلها بعد.

ـ إنّهم متحمّسون للذهاب إلى الريف، أتدرين؟ أنا لم أذهب إلى الريف من قبل.

قالت بريوني:

ـ أتمنّى لك التوفيق، وأرجو أن تكون لك أسرة لطيفة.

وهنا ضحكت المرأة البارزة الأذنين، المخفيّتين إلى حدٍّ ما بفعل تسريحة شعرها، ضحكة مرحة، قالت:

ـ إنّهم لا يعرفون ما يجري هنا!

أخيرًا وصلت ملتقى شوارع رثّة، فظنّت من خلال الربع المنفصل من خارطتها أنّها منطقة ستوكويل. وكان يطلّ على الطريق الجنوبي صندوق بريد عمومي، وإلى جانبه حفنة من الحرس الوطني ليست معهم سوى بندقيّة واحدة. انسحب أحد الحرس وطلب منها بطاقتها الشخصيّة. مظهره يشي أنّه

مسنّ، يرتدي بنطالاً ذا حمّالتين كذلك الذي يرتديه عمّال الميكانيك، ويضع شريطًا على ذراعه، لغدهُ متدلٍّ مثل لغد كلب بولدوغ. ثم أشَّر لها بالمضي في سبيلها على نحو ينمّ عن الاعتداد بالنفس. وفكّرت أنّ الأفضل أن تسأله عن الاتّجاهات. وحسب ما فهمته، كان طريقها يمتدّ مباشرة على طول كلابهام رود، وعلى مسافة ميلين تقريبًا. الناس أقلّ عددًا، وحركة المرور أقلّ ازدحامًا في هذه المنطقة، كما أنَّ الشارع أوسع من الشارع الذي أتت منه. الصوت الوحيد هو الصوت المنبعث من انطلاق الترام. ولمّا وصلت مجموعة من الشقق المبنيّة على الطراز الإدواردي، وعلى بعد مسافة من الطريق العامّ، سمحت لنفسها بالاتّكاء نصف دقيقة على جدار دافئ، وتحت ظلّ شجرة من أشجار الدلب، وخلعت حذاءها لتتفحّص بثرة في عقبها. مرّت من أمامها قافلة من شاحنات زنة ثلاثة أطنان، متّجهةً جنوبًا وخارج المدينة. فألقت نظرة آليّة على ظهور الشاحنات متوقّعةً أن ترى جنودًا جرحى، لكن لم يكن فيها سوى أقفاص خشبيّة.

بعد مرور أربعين دقيقة، وصلت إلى محطّة قطار الأنفاق في كلابهام كومون، وتبيّن لها أنّ الكنيسة المشيّدة بحجارة مجعّدة مقفلة الأبواب. أخرجت رسالة أبيها وقرأتها من جديد، وأرشدتها إحدى النساء إلى الطريق نحو الكومون. لم تر بريوني الكنيسة حتى بعد أن عبرت الشارع وسارت من فوق العشب، إذْ كانت متوارية من وراء الأشجار، ولم تكن كما توقّعت. كانت تتخيّل مشهد جريمة، كاتدرائيّة على الطراز القوطي، تفيض أروقتها المقوّسة بضوء ساطع، مزيج قرمزي ونيلي سببه ستارة الزجاج الملوّن الخلفيّة. ولدى اقترابها من الأشجار الباردة، لاح لها من بينها مستودع مشيَّد بالقرميد، ذو أبعاد متناسقة، كأنّه معبد إغريقي، ذو سطح مكسوٍّ ببلاط أسود، وذو نوافذ من الزجاج الأبيض، وبهو واطئ مزيّن بأعمدة بيض من تحت برج ساعة ذي أبعاد متناسقة أيضًا.

شاهدت سيّارة رولزرويس سوداء واقفة خارجًا، وعلى مقربة من البهو.

كان باب السائق مفتوحًا قليلاً، ولكنّها لم تشاهد السائق في داخلها. ولمَّا مرَّت بالسيّارة شعرت بدفء الراديتور، حميميًا مثل دفء الجسد، وتناهى إلى سمعها صوت انكماش المعدن. ارتقت السلالم ودفعت الباب الثقيل المزيّن بمسامير كبيرة.

رائحة الخشب العذبة ورائحة الحجارة المائيّة هما روائح الكنائس في كلّ مكان. وحتى عندما أدارت ظهرها لتغلق الباب بهدوء، كانت تدرك أنّ الكنيسة كانت فارغة تقريبًا. كلمات القسّ تتطابق وصداها، وقفت قرب الباب، يحجبها جُرن المعموديّة، منتظرة حتى تعتاد عيناها وأذناها على المكان. ثم خطت إلى الداخل نحو المقعد الخلفي، وانسلَّت إلى النهاية حيث لا يزال في إمكانها رؤية المذبح. لقد حضرت مختلف أنواع الزفاف العائلي، على الرّغم من أنّها كانت أصغر سنًّا من أن تحضر الحدث الأكبر الذي جرى في كاتدرائيّة ليفربول، عندما تزوّجت خالتها هيرميوني وسيسل، وكانت قبّعة خالتها معقّدة، غريبة الشكل ويمكنها أن تستدلّ عليها الآن وهي في الصفّ الأمامي، وإلى جانبها كلّ من بياروت وجاكسون الأقصر بمقدار خمس بوصات أو ستّ، وقد وقفا بين أبويهما المغتربين. وعلى الجانب الآخر من الممرّ في وسط الكنيسة ثلاثة أفراد من أسرة مارشال.

هذا هو الجمع كلّه، احتفال خاصّ، بلا صحافيّين من محرّري صفحات المجتمع. لم يكن قصد بريوني أن تكون هناك، فهي تعرف ما يكفي من شكل الكلمات كي تدرك أنّها لم تفتها تلك اللحظة نفسها.

«ثانيًا، أتت هذه الوصيّة علاجًا للخطيئة حتى يكون في إمكان من يفتقدون كبح الشهوات أن يتزوّجوا ويحفظوا أنفسهم ـ أعضاء دون دنس في جسد المسيح».

وقف الزوجان في مواجهة المذبح الذي يؤطّره شخص القسّيس المتّشح بالبياض. كانت ترتدي الملابس البيضاء، الملابس التقليديّة كاملة. وعلى قدر ما يمكن لبريوني أن تنظر، وهي في مكانها، إلى الخلف، فإنّها كانت تضع

خمارًا سميكًا. شعرها بضفيرة طفوليّة واحدة تتدلّى من تحت رقّة التول وقماش الأورغنذا الشفّاف، على امتداد عمودها الفقري. وقف مارشال منتصبًا، خطوط كتفي بذلته الصباحيّة تتناقض تناقضًا حادًّا وبذلة القسّ الكهنوتيّة.

«ثالثًا، كانت قد أصدرت لمجتمع الشراكة الراحة والمساعدة التي يأخذها أحدهما من الآخر».

شعرت بالذكريات والتفاصيل الدقيقة كأنّها حساسيّة، كأنّها قذارة على جسدها: لولا تأتي إلى غرفتها تذرف الدموع، بمعصميها اللذين تعلوهما الكدمات والخربشات، على كتف لولا وعلى امتداد وجه مارشال. صمت لولا في الظلام قرب البحيرة وهي تسمح لابنة خالتها الجادّة والسخيفة، وهي في ريعان الصبا، التي لا تستطيع أن تفرّق بين الحياة الحقيقيّة والحكايات التي تدور في رأسها، بإيصال المهاجم إلى برِّ الأمان. لولا المسكينة الضعيفة ذات العقد المرصّع بالمجوهرات ورائحة ماء الورد، التي اشتاقت إلى نفض آخر قيود الطفولة بعيدًا عنها، التي أنقذت نفسها من الذلّ والهوان عندما عشقت، أو أقنعت نفسها أنّها عاشقة، والتي لم تستطع أن تصدّق حظّها عندما أصرَّت بريوني على أن تتولّى هي الكلام واللوم. ويا له من حظّ أن تتزوّج لولا ـ التي لا تزيد عن كونها طفلة ـ من مغتصبها.

«... لأجل ذلك، إذا كان لأيٍّ كان سبب وجيه يمنع ارتباطهما معًا شرعًا، فليتكلّم الآن وإلاّ فليلزم هدوءه إلى الأبد».

هل حدث ذلك حقًّا؟ أتراها حقًّا تنهض الآن بساقين واهنتين ومعدة فارغة متقلّصة وقلب متردّد، فتسير على امتداد المقعد لتتّخذ مكانها في وسط الممرّ وتشرح أسبابها، قضاياها العادلة بصوت لا يرتعش، ملؤه التحدّي، وهي ترتدي ثوبها الفضفاض وغطاء رأسها، كأنّها عروسة المسيح، باتّجاه المذبح، باتّجاه القسّ الفاغر فاه، الذي لم يسبق لأحد أن قاطعه طوال حياته الوظيفيّة، باتّجاه حشد من الرقاب المشرئبّة، والزوجين صاحبي الوجهين الأبيضين الملتفتين قليلاً؟ إنّها لم تخطّط لذلك، لكنّ السؤال الذي نسيته

والوارد في كتاب الصلاة العامّة ينطوي على استفزاز. ثم ما العوائق؟ ها هي فرصتها الآن لتعلن أمام الملأ عن كلّ معاناتها الخاصّة، وتطهّر نفسها من كلّ ما ارتكبته من أخطاء، أمام مذبح هذه الكنيسة التي هي أكثر الكنائس عقلانيّة.

لكنّ الكدمات والخدوش شُفيت منذ زمن طويل، وكلّ بياناتها في ذلك الوقت كانت متناقضة، كما لم يبدُ على العروسة أنّها ضحيّة، فضلاً عن أنّ لديها موافقة أبويها. بل وأكثر من ذلك، مؤكّد، ملك الشوكولا، صانع شوكولا آمو، لا بدّ أنّ الخالة هيرميوني تفرك يديها الآن. فقد تآمر پول مارشال ولولا كوينسي وهي، بريوني تاليس، بصمت وكذب لإرسال رجل بريء إلى السجن. لكنّ الكلمات التي أدانته هي كلماتها، قُرئت بالإنابة عنها بصوتٍ عالٍ في قاعة محكمة أسيز. لقد نُفّذ الحكم وسُدِّد الدين، وصحَّ الحكم.

لبثت في مقعدها، دقّات قلبها متسارعة، تصبّب عرق راحتي كفّيها في ازدياد، وحنت رأسها بتواضع وذلّ.

«أنا أطلب وأوصيكما معًا، كما أنّكما ستجيبان في يوم الدين الرهيب حين تنكشف أسرار جميع القلوب، إن كان أيّ منكما يعلم عن أيّ عائق يمنع ارتباطكما الشرعي بالزواج، يجب أن تعترفا به الآن».

مهما كانت التقديرات، فإنّ يوم الدين بعيد جدًّا، وحتى يحين موعد ذلك اليوم، فإنّ الحقيقة التي لا يعرفها سوى مارشال وعروسته معرفة مباشرة دُفنت في ضريح زواجهما، وستكمن هناك بمأمن في الظلام، حتى بعد أن يموت كلّ من يهمّه أمرها، كلّ كلمة في الاحتفال قرميدة أخرى في البناء.

«من وهب أن تتزوّج هذه المرأة هذا الرجل»؟

تقدّم سيسل كأنّه طير، أنيقًا متوتّرًا بلا شكّ، لأنّه يريد إنجاز المهمّة قبل الإسراع إلى ملاذه في كلّيّة كلّ الأرواح بأوكسفورد.

أصاخت بريوني السمع، متطلّعة لسماع أيّ شكّ في صوتيهما، لمارشال أوّلاً، وللولا ثانيًا وهما يردّدان العبارات من بعد القسّ. كانت رقيقة

وواثقة، في حين هدر مارشال بصوت جهوري كأنّه يتحدَّى، وتردّدت كلماته أمام المذبح تردّدًا واضحًا وحسّيًّا عندما قال:

ـ بجسدي أعبدك.

ـ لنصل.

ثم انحنت الرؤوس السبعة في المقاعد الأماميّة، ورفع القسّ نظّارته الشبيهة بقشرة السلحفاة، كما رفع ذقنه وأغمض عينيه وخاطب القوى السماويّة بترنيمته الحزينة المرهقة.

«أيّها الإلٰه الأزلي، خالق البشر وحافظهم جميعًا، يا واهب كلّ النعم الروحيّة، يا مؤلّف الحياة السرمديّة: أرسل بركاتك إلى هذين العبدين، هذا الرجل وهذه المرأة...».

وُضعت آخر قرميدة في مكانها بعد أن أنجز القسّ تصريحه الاحتفالي ـ رجل وامرأة مرتبطان معًا ـ ووضع نظّارته على عينيه من جديد وذكر كلمة ترينتي التي سُمّيت بها كنيسته.

وتلت ذلك صلاة أخرى وقراءة في المزمور.

«يُسكب عليكما غنى هذه النعمة، فليقدّسكما ويبارككما لأنّكما سوف ترضيانه بالجسد والروح وتعيشان مجتمعين بالحبّ المقدّس حتى نهاية حياتكما».

وعلى الفور تناهى صوت نغمات الأرغن، فيما استدار القسّ ليقود الزوجين إلى نهاية ممرّ الكنيسة، وسار أفراد العائلة الستّة من ورائه. نهضت بريوني التي كانت تتظاهر بالصلاة واستدارت لتواجه الموكب الذي وصل إليها.

بدا القسّ وكأنّ وقته قصير، إذْ تقدّمهم مسرعًا في سيره، وعندما التفت إلى يساره شاهد الممرّضة، نظرته الرقيقة وهزَّة رأسه تعبِّر عن الترحيب وحبّ الاستطلاع معًا.

ثم خطا خطوات واسعة ليفتح أحد الأبواب الضخمة على مصراعيه، فتدفّق لسان مائل من نور الشمس على امتداد المسافة التي كانت تقف فيها، فأضاءت وجهها وثوبها. أرادت أن يشاهدها الآخرون، ولكن ليس على نحو شديد الوضوح، إنّها لن تغيب عن مرأى أحد الآن. لحقت لولا بالقسّ وأصبحت بجانب بريوني، فالتقت عيونهما. كان خمارها قد انزاح قليلاً، وتلاشى النمش من على وجهها، لكنّها، باستثناء ذلك، لم تتغيّر كثيرًا. ربّما بدت أطول قامة إلى حدّ ما، وأجمل، وجهها أكثر نعومة واستدارة عن ذي قبل، الحاجبان زُجِّجا بعناية. كلّ ما فعلته بريوني هو أنّها حدّقت فيها بكلّ بساطة. كلّ ما أرادته هو أن تعلم لولا أنّها حاضرة في هذا المكان وأن تتعجّب من سبب حضورها. لكنّ شعاع الشمس زاد من صعوبة رؤية بريوني، ولكن في جزء من اللحظة، ربّما بدت على وجه العروسة مسحة من الامتعاض. ثم زمّت شفتيها، ونظرت أمامها وتوارت عن الأنظار، ورآها پول مارشال أيضًا، ولكنّه لم يتمكّن من الاستدلال عليها. كما لم تستدلّ عليها الخالة هيرميوني ولا سيسل الذي لم يلتقها منذ سنوات. غير أنّ التوأمين فرحا لمشاهدتها، وقلّدا حركات مرعبة بشأن ثيابها، وتثاءبا تثاؤب المهرّجين وهما يديران أعينهما، فيما تأرجحت يداهما من فوق ثغريهما.

وهكذا أضحت وحدها في الكنيسة، رفقة عازف الأرغن غير المرئي الذي واصل العزف مستمتعًا به وحده. لقد انتهى كلّ شيء بسرعة بالغة، ولم يتحقّق أيّ شيء على وجه التحديد. لبثت واقفة في محلّها، وبدأ يساورها إحساس بأنّها كانت غبيّة صغيرة، متردّدة في الخروج. من شأن تفاهة حديث الأسرة أن يطرد أيّ تأثير مارسته عندما ظهرت مثل شبح تحيط به أضواء خافتة. كما أنّها افتقرت إلى شجاعة المواجهة. أمّا الآن، فهل يا ترى ستوضح لخالتها وزوجها سبب حضورها ضيفة غير مدعوّة للاحتفال؟ ربّما ستُجرح كرامتها، أو، وهذا هو الأسوأ، قد لا تُجرح، ويصحبانها إلى تناول وجبة فطور تسبّب لها الآلام في أحد الفنادق، فيما السيّد والسيّدة پول مارشال

يغليان حقدًا وكراهية، والسيّدة هيرميوني تخفق في إخفاء احتقارها لسيسل. مكثت بريوني دقيقة أخرى أو دقيقتين، كأنّ الموسيقى هي التي جذبتها، ثم أسرعت بالخروج ناحية الرواق المعمَّد عند مدخل الكنيسة، كأنّ جبنها كان مثار قلقها. كان القسّ على بعد مائة ياردة في الأقلّ، يجتاز الحديقة مسرعًا، تتأرجح ذراعاه بكلّ حرّيّة إلى جنبيه.

العروسان مؤخّرًا في سيّارة رولز، مارشال من وراء عجلة القيادة، يرجع إلى الوراء كي يستدير، هي متأكّدة من أنّهما شاهداها. صرير ينبعث عند تبديل السرعة ـ ربّما تلك علامة جيّدة.

ابتعدت السيّارة، وشاهدت من خلال نافذة جانبيّة ثوب لولا الأبيض على ذراع السائق.

أمّا الحاضرون، فقد تواروا عن الأنظار بين الأشجار.

* * *

علمت من الخارطة أنّ بالهام تقع في نهاية الحديقة، بالاتّجاه الذي يسير فيه القسّ. ليست بعيدة، وهذه هي الحقيقة الوحيدة التي جعلتها تتردّد في مواصلة سيرها. سوف تصل عمّا قريب، أقرب ممّا هو متوقّع. لم تكن قد تناولت أيّ طعام، كانت ظمأى، كعب قدمها يؤذيها، ملتصق بمؤخّر حذائها. الجوّ دافئ الآن، وسوف تعبر مساحة واسعة من العشب المكشوف الذي لا تظلّله أيّة ظلال، ولا تتخلّله سوى ممرّات إسفلتيّة وأماكن جلوس عامّة. على بعد مسافة منها، منصّة فرقة موسيقيّة تجمهر عندها رجالٌ يرتدون بزّات زرقاء غامقة. فكرَّت في ڤيونا التي أخذت منها يوم استراحتها، وفي عصر اليوم الذي ذهبتا فيه معًا إلى حديقة سانت جيمز بارك. بدا لها ذلك اليوم بعيدًا جدًّا، زمنًا بريئًا، وإن لم يمض عليه أكثر من عشرة أيّام. لا بدّ أنّ ڤيونا منهمكة الآن في جمع المبولات للمرّة الثانية اليوم. لبثت بريوني واقفة تحت ظلّ الرواق المعمَّد وراحت تفكّر في الهديّة الصغيرة التي ستشتريها لصديقتها ـ

شيئًا لذيذًا تأكله، موزة، برتقالة، شوكولا سويسريّة. الحمّالون يعرفون كيف يحصلون على هذه الأشياء، فقد سمعتهم يقولون إنّ كلّ شيء متوفّر إنْ كان لديك المال. راقبت خطّ حركة السير من حول الحديقة، على امتداد طريقها، وفكّرت في الطعام. شرائح من اللحم، بيض مسلوق، فخذ دجاجة مشويّة، يخنة إيرلنديّة كثيفة، كعكة بالليمون، كوب شاي. بدأت تدرك صوت الموسيقى المملّ والمثير للضجر من ورائها، في اللحظة التي توقّفت فيها وقرّرت أن تتناول طعام الفطور في لحظة الصمت المفاجئ الذي بدا كأنّه يهبها الحرّيّة. لم تجد دكاكين في الاتّجاه الذي كانت تسلكه. لا شيء سوى عمارات سكنيّة كئيبة مشيّدة بالآجرّ البرتقالي الغامق.

مرّت بضع دقائق، فجاء عازف الأرغن، حاملاً قبّعته بيد ومجموعة ثقيلة من المفاتيح بيد أخرى. كان بإمكانها أن تسأله عن الطريق المؤدّي إلى أقرب مقهى، لكن يبدو أنّه كان رجلاً عصبي المزاج، مصمّمًا على تجاهلها وهو يغلق بعنف باب الكنيسة وانحنى إلى أمام ليقفله، اعتمر قبّعته وانصرف مسرعًا.

لعلّ هذه هي أوّل خطوة في خراب خططها، لكنّها كانت تغذُّ السير في طريق عودتها باتّجاه شارع كلابهام هاي ستريت. سوف تتناول طعام الفطور، وسوف تُعيد النظر. ولدى اقترابها من محطّة قطار الأنفاق، مرَّت من أمام حوض حجري للسقاية وكان يسعدها كثيرًا لو غمرت وجهها بمائه. ووجدت مكانًا صغيرًا موحشًا ذا نوافذ قذرة، وأعقاب سكائر منتشرة في جميع أنحاء الأرضيّة. لكن لا يمكن للطعام أن يكون أسوأ من الطعام الذي كانت قد اعتادت على أكله. طلبت كوب شاي وثلاث قطع من الخبز المحمّص والزبدة، ومربّى الفراولة الوردي الفاتح. وضعت كمّيّات كبيرة من السكّر في شايها بعد أن عرفت أنّها تعاني نقصًا في مادّة السكّر في الدم. غير أنّ الحلاوة لم تُخفِ تمامًا طعم المعقّمات.

شربت كوبًا ثانيًا من الشاي، وسُرَّت لأنّه لم يكن ساخنًا جدًّا كي تتمكّن من كرعه.

كما استخدمت مرحاضًا خلوًا من مقعده في فناء مرصوف بالحجارة يقع وراء المقهى. لكن لم تكن تنبعث منه رائحة نتنة يمكن أن تؤثّر في ممرّضة متدرّبة. حشرت محارم المرحاض في عقب حذائها، إذْ ستفيدها على قطع مسافة الميل أو الميلين القادمين. وشاهدت مغسلة بصنبور واحد مثبّتة إلى جدار من القرميد، وقطعة صابون على شكل معيَّن بعروق رماديّة ولكنّها فضّلت عدم لمسها. ولمّا فتحت الصنبور، تساقط الماء على ساقيها مباشرة، فجفّفتهما بكمّيها ومشّطت شعرها محاولة أن تتخيّل صورتها على المبنى الآجرّي. ولكنّها لم تتمكّن من وضع أحمر الشفاه دون مرآة، ومسحت وجهها بمنديل مبلّل وربّتت على وجنتيها كي يظهر لونهما. يبدو أنّ قرارًا اتُّخذ دون الرجوع إليها. إنّها مقابلة تتهيّأ لها، وظيفة شقيقتها المحبوبة الأصغر سنًّا.

غادرت المقهى، وفيما هي تسير بمحاذاة الحديقة، شعرت بالمسافة وهي تتّسع بينها وبين ذاتها الأخرى، التي لا تقلّ عنها في واقعيّتها، التي تعود أدراجها نحو المستشفى. ربّما كانت بريوني المتّجهة إلى بلهام شخصًا متخيّلاً أو شبحًا. وازداد هذا الإحساس غير الواقعي حدّةً عندما وصلت بعد نصف ساعة شارعًا آخر يحمل الاسم هاي ستريت أيضًا، يشبه إلى حدٍّ كبير الشارع الذي تركته من ورائها قبل قليل. تلك هي أطراف مدينة لندن الممتدّة خارج محيط مركزها، مجموعة من بلدات صغيرة كئيبة مثيرة للسأم. وقرّرت أن لا تعيش في أيّ من هذه البلدات.

كان الشارع الذي تنشده يقع على بعد ثلاثة منعطفات، خلف محطّة قطار الأنفاق، وهي بدورها صورة مستنسخة. كانت البيوت الإدوارديّة الطراز ذات الستائر الشفّافة، تمتدّ لمسافة نصف ميل. لا يزال العنوان ٤٣ دادلي فيلاز في منتصف الطريق، لا شيء يميّزه عن غيره باستثناء سيّارة فورد ٨ قديمة، بلا عجلات، جاثمة فوق أكوام من القرميد امتدّت على طول الحديقة الأماميّة. سوف تنصرف وتمضي في طريقها إن لم تجد أحدًا. وقالت في نفسها إنّها حاولت ذلك.

جرس الباب معطَّل، فقرعت الباب بالمطرقة مرّتين، وتراجعت إلى الوراء. تناهى لها صوت امرأة غاضبة وإغلاق باب بقوّة ووقع أقدام ثقيلة، تراجعت بريوني خطوة أخرى إلى الخلف، فالأوان لم يفت بعد للعودة إلى الشارع. وردّ صوت من يتحسّس أكرة الباب، وتنهيدة تنمّ عن انزعاج، فُتح بعدها الباب وبانت امرأة فارعة، حادّة القسمات، في الثلاثينيّات من عمرها، متقطّعة الأنفاس بسبب جهدٍ ما بذلته. كانت مهتاجة، سبق لها أن قوطعت أثناء مشاجرة، ولم تتمكّن من تهدئة ملامحها ـ فمها فاغر وشفتها العليا ملتوية قليلاً ـ عندما رنت إلى بريوني.

ـ ماذا تريدين؟

ـ إنّني أبحث عن آنسة تُدعى سيسليا تاليس.

ارتخت كتفاها والتفتت، كأنّها ترتدّ مذعورة إثر سماعها شتيمة.

ثم نظرت إلى بريوني نظرة استهجان.

ـ أنت تشبهينها.

ذُهلت بريوني، فحدّقت فيها لا أكثر.

أطلقت المرأة تنهيدة أخرى، صوتها يشبه من يبصق على الأرض. ثم سارت حتى وصلت إلى أسفل السلالم.

صاحت بصوتٍ عالٍ:

ـ تاليس. الباب!

رجعت من مكانها وسارت نصف المسافة في الدهليز ناحية مدخل غرفة الجلوس، ورمقت بريوني بنظرة احتقار، وتوارت عن الأنظار، وجذبت الباب من ورائها بعنف.

استقرّ الصمت على البيت، مشمَّع الأرضيّة يمتدّ أمام ناظري بريوني من وراء الباب الرئيسي المفتوح. الدرجات السبع أو الثماني الأولى من السلالم

مغطّاة بسجّاد ذي لون أحمر قان. القضيب البرونزي على الدرجة الثالثة مفقود. في منتصف المسافة الممتدّة إلى الردهة منضدة شبه دائريّة بجانب الجدار، ومن فوقها حامل خشبي برّاق يُستخدم لحفظ الرسائل، ولكنّه كان فارغًا. كان مشمَّع الأرضيّة يمتدّ إلى ما وراء السلالم حيث يوجد باب ذو نافذة مزوَّدة بزجاج مصنفر، ربّما يؤدّي إلى مطبخ خلفي. كان ورق الجدران مزدانًا بالأزهار، شأنه شأن مشمَّع الأرضيّة: ثلاث زهرات تتعاقب مع تصميم لنتف الثلج. ومن عتبة الباب حتى بداية السلالم، عدَّت خمس عشرة زهرة، وستّ عشرة نتفة ثلج. نحس.

وأخيرًا سمعت صوت باب يُفتح في الطابق العلوي، لعلّه الباب الذي سمعته يُغلق بقوّة عندما طرقت الباب الرئيس. كما سمعت صرير السلالم وبانت لناظريها قدمان بجوربين سميكين، وثوب نوم حريري أزرق اللون عرفته على الفور. وأخيرًا بان وجه سيسليا وهو يميل إلى الجانبين، وهي تنحني إلى أمام لتتبيّن مَنْ الواقف عند الباب الرئيسي، ولتجنيب نفسها عناء هبوط السلالم. ثيابها غير لائقة. استغرقت بعض الوقت كي تدرك أنّ الفتاة هي أختها. فهبطت ثلاث درجات أُخر.

ـ آه، يا الله!

جلست وطوت ذراعيها.

مكثت بريوني واقفة، إحدى قدميها لا تزال فوق ممشى الحديقة، والثانية على الدرجة الأماميّة.

تناهى إلى سمعها صوت مذياع ينبعث من غرفة الجلوس، وضحكة جمهور علت في الوقت الذي ارتفعت فيه حرارة مصابيح المذياع. وأعقب ذلك صوت ممثّل هزلي وهو منغمس في مناجاة لم تنقطع إلاّ بعد تصفيق منقطع النظير وعزف موسيقي. تقدّمت بريوني خطوة إلى أمام.

تمتمت:

ـ ينبغي لي ان أتحدّث إليك.

أرادت سيسليا أن تنهض على قدميها، ولكنّها غيَّرت من رأيها.

ـ لماذا لم تخبريني بأنّك قادمة؟

ـ لم تردِّي على رسالتي، فأتيت إليك.

لفَّت مبذلها من حول جسدها، وعدَّلت من جيبيه وهي تتحسّس باحثة عن سيكارة ربّما. كانت بشرتها قد ازدادت سمرة، وكذا حال يديها. لم تجد ما كانت تريده، لكنّها لم تنهض من مكانها.

قالت في محاولة لكسب الوقت بدلاً من تغيير دفّة الحديث:

ـ أنت ممرّضة متدرّبة؟

ـ نعم.

ـ في أيّة ردهة؟

ـ ردهة رئيسة الممرّضات دراموند.

لم تذكر سيسليا إنْ كانت تعرف هذا الاسم، أو إنْ كانت قد استاءت لأنّ أختها الأصغر سنًّا كانت تتمرّن في المستشفى نفسه. ثم هناك فارق آخر واضح ـ كانت سيسليا تكلّمها دومًا ـ بلهجة الأمّ أو بلهجة استرضاء. سيس الصغيرة! لا مجال لذلك الآن، ثمّة جفاء في لكنتها يحذّر بريوني من الاستفسار عن روبي. خطت خطوة أخرى داخل الردهة، وهي تعلم أنّ الباب الرئيس مفتوح من ورائها.

ـ وأين أنت؟

ـ على مقربة من موردون، في الخدمات الطبِّيّة الطارئة.

كان مستشفى الخدمات الطبِّيّة الطارئة قد تمّ الاستيلاء عليه لأغراض عسكريّة، يعالج على الأرجح حالات الحروق، الحروق الحقيقيّة الناجمة عن

الإخلاء. هناك الكثير الذي لا يمكن قوله أو الاستفسار عنه. تبادلت الأختان النظر. وعلى الرّغم من أنّ مظهر سيسليا مجعّد وكأنّها نهضت توًّا من فراشها، إلاّ أنّها كانت أجمل ممّا تتذكّر بريوني. فالوجه الطويل الذي بدا غريبًا دائمًا وضعيفًا، يشبه وجه جواد على حدّ تعبير الجميع، حتى من تحت أحسن الأضواء، أضحى الآن وجهًا شهوانيًّا جريئًا بتقوّس الشفتين المكتنزتين البنفسجيّتين. العينان داكنتان، أكثر اتّساعًا، ربّما بسبب الإرهاق، أو الحزن. الأنف الطويل الدقيق، واتّساع المنخرين ـ شيء ما يشبه القناع، مقوّس، يخصّ وجهها الساكن أبدًا، الذي تصعب قراءته. وازداد قلق بريوني بسبب مظهر شقيقتها، ممّا جعلها ترتبك. إنّها لا تكاد تعرف هذه المرأة التي لم ترها منذ خمسة أعوام. لم تستطع بريوني أن تسلِّم بأيّ شيء. ظلّت تفتّش عن موضوع آخر محايد، ولكن ما من شيء إلاّ ويعود ثانية إلى الموضوعات الحسّاسة ـ الموضوعات التي يتعيّن عليها مواجهتها في كلّ الأحوال. ولمّا لم تعد قادرة على تحمّل الصمت والإمعان في النظر طويلاً قالت:

ـ هل سمعت شيئًا عن الرجل العجوز؟

ـ لا، لم أسمع.

لهجتها كانت تنمّ عن أنّها لا تريد أن تسمع، وأنّها لن تهتمّ أو تردّ حتى إن سمعت عنه.

قالت سيسليا:

ـ هل سمعت؟

ـ وصلتني رسالة قصيرة قبل أسبوعين.

ـ حسنًا.

إذًا ليس هناك ما هو أكثر من هذا الكلام كي تضيفه، وبعد وقفة قصيرة أخرى، حاولت بريوني ثانية.

ـ وماذا عن البيت؟

ـ لا، لست على اتّصال بهم، وأنتِ؟

ـ إنّها تكتب إليَّ بين حين وآخر.

ـ وما أخبارها يا بريوني؟

كان السؤال واستخدام اسمها ينطويان على التهكّم والمرارة. وفيما هي تجهد كي تتذكّر، راودها شعور بأنّها انكشفت خائنة لقضيّة شقيقتها.

ـ لقد استقبلوا لاجئين في المنزل، ولكنّ بيتي تكرههم، أمّا الحديقة فقد حُرثت لزراعة الذرة.

سارت بتثاقل مبتعدة بعد أن أحسّت أنّ من السخف الوقوف في مكانها والاستماع إلى كلّ هذه التفاصيل.

لكنّ سيسليا قالت ببرود:

ـ أكملي حديثك، ثم ماذا؟

ـ حسنٌ، لقد انضمّ معظم الفتيان في القرية إلى ساري الشرقيّة باستثناء...

ـ باستثناء داني هاردمان. نعم، إنّني أعرف كلّ شيء عن هذه الأمور.

وابتسمت ابتسامة مشرقة، مصطنعة منتظرة بريوني كي تكمل روايتها.

ـ ونصبوا صندوقًا بريديًّا عموميًّا بجانب دائرة البريد، ورفعوا السور الحديدي القديم، الخالة هيرميوني تعيش في باريس الآن، كما أنّ بيتي كسرت زهريّة العمّ كليم.

وهنا انتفضت سيسليا من برودها، وضغطت بإحدى يديها على وجنتها.

ـ كُسرت؟

ـ أسقطتها على السلّم.

ـ أتعنين كُسرت كسرًا حقيقيًّا إلى أجزاء متناثرة؟

ـ نعم.

بعد أن فكّرت سيسليا مليًّا في الموضوع، قالت:

ـ فظيع.

قالت بريوني:

ـ نعم. العمّ كليم المسكين.

في الأقلّ تخلّت شقيقتها عن تهكّمها، ولكنّ التحقيق استمرّ.

ـ وهل احتفظوا بالأجزاء المكسورة؟

ـ لا أدري. قالت إميلي إنّ الرجل العجوز صرخ في وجه بيتي.

في تلك اللحظة، فُتح الباب، ووقفت صاحبة المنزل أمام بريوني مباشرةً، قريبة جدًّا منها، حتى إنّها تمكّنت من شمّ رائحة الفلفل في أنفاس المرأة. وأشارت إلى الباب الرئيس.

ـ هذه ليست محطّة قطار، فإمّا أن تدخلي أيّتها السيّدة الشابّة أو تخرجي.

نهضت سيسليا واقفة على قدميها دونما سبب يدعوها إلى الإسراع، وربطت حزام مبذلها الحريري من حولها، قالت بكسل:

ـ هذه شقيقتي بريوني يا سيّدة جارفيس، حاولي أن تتذكّري أخلاقك عندما تكلّمينها.

قالت السيّدة جارفيس:

ـ سأتكلّم على النحو الذي يسرّني في بيتي.

ثم التفتت ناحية بريوني.

ـ ابقي إذا كنت باقية، أو اتركي المكان وامضي في سبيلك وأغلقي الباب من خلفك.

رنت بريوني بنظراتها إلى شقيقتها، مخمّنة أنّها لن تتركها تنصرف الآن، وتبيّن لها أنّ السيّدة جارفيس ليست حليفًا ذكيًا.

تكلّمت سيسليا كأنّهما بمفرديهما.

ـ لا تهتمّي لأمر صاحبة المنزل فأنا مغادرة في نهاية الأسبوع، أغلقي الباب واصعدي معي.

بدأت بريوني ترتقي السلالم من وراء أختها، فيما كانت تشيّعها نظرات السيّدة جارفيس.

هتفت صاحبة المنزل:

ـ وأنت أيّتها السيّدة ماك.

وهنا التفتت سيسليا بحدّة وقاطعتها:

ـ كفى يا سيّدة جارفيس. والآن يكفي ما حدث.

عرفت بريوني النبرة على الفور، نبرة نايتينغيل الواضحة، وهي تُستعمل مع المرضى الصعبي المراس والطالبات الشاكيات الباكيات. وهذه تتطلّب سنين طويلة كي تتقنها، المؤكّد أنّ سيسليا حصلت على ترقية وأضحت ممرّضة ردهة. في فسحة السلالم القائمة على الطابق الأوّل، وفيما كانت توشك على فتح باب غرفتها، رمقت بريوني بنظرة، نظرة خاطفة كي تعلمها بأنّ ما من شيء قد تغيّر، وأنّ ما من شيء قد هدأ. وانبعث من الحمّام ومن بابها نصف المفتوح هواء رطب معبق برائحة وصوت قطرات ماء تتساقط. كانت سيسليا توشك أن تستحمّ، فقادت بريوني إلى جناحها. واحدة من أكثر الممرّضات تنظيمًا وترتيبًا في الردهة، عاشت في ورطة في غرفتها الخاصّة بها، وما كانت لتستولي عليها الدهشة إذا ما رأت نمطًا جديدًا من فوضى سيسليا القديمة. لكنّ الانطباع هنا كان عن حياة بسيطة مستوحدة. فهذه غرفة متوسّطة الحجم اقتُطع منها جزء صغير ليصبح مطبخًا وحجرة نوم. الجدران مغطّاة بورق قوامه خطوط عموديّة شاحبة وكأنّها منامة طفل، ما زاد من الإحساس بالعزلة. أمّا

مشمَّع الأرضيّة فكان بأحجام متباينة في الطابق الأرضي، ويكشف عن ألواح خشبيّة رماديّة في بعض الأماكن. وكان تحت النافذة الوحيدة حوض غسيل بصنبور واحد، وطبَّاخ غازي صغير. وهناك منضدة إلى جانب الجدار حُشرت في بقعة صغيرة، يعلوها غطاء أصفر اللون.

وعلى المنضدة زجاجة مربّى فارغة وُضعت داخلها زهور زرقاء، ومنفضة سكائر ومجموعة من الكتب. وإلى أسفل كتاب تشريح غراي ومؤلّفات شكسبير، ومن فوقها أسماء فضّيّة وذهبيّة شاحبة لهاوسمان وكراپ. وهناك زجاجتان من الجعة بجانب الكتب، في الركن البعيد عن النافذة فتحة باب يؤدّي إلى غرفة نوم ثُبّتت عليه خارطة أوروبا الشماليّة.

أخرجت سيسليا سيكارة من علبة سكائر بجانب الطبّاخ، ولمّا تذكّرت أنّ شقيقتها لم تعد طفلة، ناولتها سيكارة. كان هناك كرسيّان من حول المنضدة لكن سيسليا التي مالت إلى الوراء مستندة إلى حوض الغسيل لم تدع شقيقتها إلى الجلوس. دخّنت المرأتان وانتظرتا، وهو ما بدا واضحًا لبريوني، حتى يخلو لهما الجوّ من صاحبة المنزل.

قالت سيسليا بصوت خفيض:

ـ عندما تلقّيت رسالتك ذهبت إلى محام. لم تكن رسالة مباشرة ما لم يكن هناك دليل جديد، فتغيير شهادتك لا يكفي، لأنّ لولا ستقول إنّها لا تعرف شيئًا، وكان أملنا الوحيد هو هاردمان العجوز، ولكنّه ميّت الآن.

ـ ميّتٌ؟

العناصر التي تبعث على الاطمئنان ـ موته وصلته بالقضيّة ـ أربكت بريوني، فحثّت ذاكرتها: هل كان هاردمان خارج المنزل في تلك الليلة يبحث عن التوأمين؟ هل شاهد شيئًا ما؟ هل قيل شيء ما في المحكمة ولا تدرين به؟

ـ ألم تعلمي بأنّه مات؟

ـ لا، ولكن...

ـ لا يصدّق.

أخفقت محاولات سيسليا في أن تتكلّم بنبرة محايدة، لا تنطوي إلاّ على الحقائق، وتهاوت، فابتعدت عن المكان المخصّص للطبخ منزعجة، وحشرت نفسها لكي تمرّ من وراء المنضدة واتّجهت نحو الجهة الأخرى من الغرفة، ووقفت قرب باب غرفة النوم، وصوتها مصحوب بأنفاس مسموعة، وإنْ كانت تحاول أن تسيطر على غضبها.

ـ الغريب أنّ إميلي لم تتحدّث عن هذا الموضوع عندما أشارت إلى الذرة وإلى اللاجئين. كان هاردمان مُصابًا بالسرطان، لعلّه خاف الله وأراد أن يقول شيئًا ما في أيّامه الأخيرة، لا يناسب كلّ شخص في هذه المرحلة.

ـ لكن يا سي...

قاطعتها:

ـ لا تناديني بهذا الاسم.

ثم كرّرت بصوت أرقّ:

ـ أرجوك لا تناديني بهذا الاسم.

عبثت بأصابعها بمقبض باب غرفة النوم وبدا اللقاء يوشك على نهايته، تريد الانصراف.

ولكنّها لخّصت بهدوء كلّ شيء لبريوني:

ـ دفعت جنيهين لهذا الاكتشاف، لن يكون هناك استئناف في القضيّة لمجرّد أنّك قرّرت البوح بالحقيقة بعد مرور خمسة أعوام.

ـ لا أفهم ما تقولين...

أرادت بريوني العودة بالحديث إلى هاردمان، ولكنّ سيسليا كانت بحاجة إلى أن تخبرها بما كان يدور في ذهنها مرّات ومرّات مؤخّرًا.

ـ ليس الأمر صعبًا، فإذا كنت قد كذبت في الماضي، فلماذا ينبغي للمحكمة أن تصدّقك الآن؟ لا حقائق جديدة، كما أنّك شاهد لا يُعتدُّ به.

حملت بريونيَ سيكارتها التي لم تدخّن منها سوى نصفها إلى حوض الغسيل وهي تشعر بالغثيان، وأمسكت بصحن صغير لتستعمله منفضة لسيكارتها من المكان المخصّص للصحون، وركبها رعب شديد وهي تستمع لشقيقتها وهي تؤكّد لها جريمتها. لكنّ وجهة النظر كانت غير مألوفة، ضعيفة، غبيّة، مرتبكة، جبانة، مراوغة ـ كرهت نفسها بسبب كلّ الصفات التي اتّصفت بها، ولكن لم يخطر ببالها يومًا ما أنّها كذّابة.

لا بدّ أنّ هذه الصفة تبدو لسيسليا غريبة وواضحة أيضًا، واضحة لا تقبل الجدال. ولكن على الرّغم من ذلك فكّرت للحظة بالدفاع عن نفسها، لأنّها لم تكن تقصد الخداع والتضليل، ولم يكن تصرّفها ناجمًا عن ضغينة وبغضاء، ولكن من سيصدّقها؟

وقفت في المكان الذي كانت تقف فيه سيسليا، موليةً ظهرها حوض الغسيل، لا تستطيع مواجهة عيني شقيقتها، وقالت:

ـ لقد اقترفتُ عملاً فظيعًا، ولا أتوقّع غفرانك.

قالت سيسليا مطمئنة إيّاها:

ـ لا تقلقي بهذا الخصوص.

وفي أثناء الثانية أو الثانيتين التي دخّنت فيهما بريوني سيكارتها تدخينًا عميقًا، جفلت وهي تسمع أختها تكرّر:

ـ لا تقلقي، فلن أسامحك أبدًا.

ـ وإذا ما تعذّر عليَّ الذهاب إلى المحكمة، فإنّ ذلك لن يحول بيني وبين قول ما فعلته لكلّ شخص.

أطلقت سيسليا ضحكة صغيرة وحشيّة، فأدركت بريوني أنّها كانت

تخشى أختها كلّ الخشية. وكان استهزاؤها أقسى عليها من مواجهة غضبها، فالغرفة الضيّقة ذات الخطوط الشبيهة بالقضبان تضمّ بين جدرانها تاريخًا من المشاعر لا يمكن لأحد أن يتخيّله. غير أنّ بريوني استأنفت كلامها، فهي، على أيّة حال، منهمكة في حديث أتقنت التدرّب على حفظه.

ـ سوف أسافر إلى ساري وأكلّم إميلي والرجل العجوز، وسوف أخبرهما بكلّ شيء.

ـ نعم. لقد أتيت على ذكر هذا الموضوع في رسالتك، ما الذي يمنعك من ذلك؟ كانت أمامك خمسة أعوام، فلماذا لم تتكلّمي؟

ـ أردت أن ألتقيك أوّلاً.

ابتعدت سيسليا عن باب غرفة النوم، ووقفت بجانب المنضدة ورمت بعقب سيكارتها في قنّينة جعة فارغة، فصدر عنها هسيس لم يدم طويلاً، وخيط رفيع من الدخان. هذا التصرّف كان سببًا دفع بريوني إلى الإحساس بالغثيان كرّةً أخرى. فقد ظنّت أنّ الزجاجات كانت مملوءة، وتساءلت إنْ كانت قد ازدردت طعامًا يفتقر إلى النظافة في وجبة فطورها.

قالت سيسليا:

ـ أعرف السبب الذي دفعك إلى عدم الكلام طوال هذه المدّة. ظنُّك هو ظنّي تمامًا، أنّهم لا يريدون أن يسمعوا عن الموضوع أكثر ممّا سمعوا. فالماضي كلّه لا ينطوي إلاّ على كدر وغمّ، شكرًا جزيلاً لك. لقد سبق السيف العذل، فما سبب إثارتك الموضوع الآن؟ كما أنّك تعلمين جيّدًا بأنّهم صدَّقوا رواية هاردمان.

ابتعدت بريوني عن حوض الغسيل ووقفت من حول المنضدة قبالة شقيقتها، لم يكن سهلاً عليها أن تنظر إلى ذلك القناع الجميل.

قالت متعمّدة:

ـ لا أفهم عن أيّ شيء تتحدّثين. ما شأنه بهذه القضيّة؟ يؤسفني أنّه مات، ويؤسفني أنّني لم أعلم...

جفلت لدى سماعها صوتًا، انفتح بعد باب غرفة النوم وخرج منه روبي ووقف أمامهما. كان يرتدي ثيابًا عسكريّة: بنطالاً وقميصًا وحذاءً ثقيلاً لامعًا، في حين تدلّت حمّالتا بنطاله عند خصره. لم يكن حليق الذقن، وكان أشعث الشعر، يحدّق بسيسليا وحدها التي استدارت لتواجهه، ولكنّها لم تذهب ناحيته، في غضون الثواني التي تبادل فيها الاثنان النظرات الصامتة، انكمشت بريوني المتوارية إلى حدٍّ ما من وراء أختها داخل بزَّتها.

تكلّم مع سيسليا بهدوء وكأنّهما وحدهما في الغرفة، وقال:

ـ سمعت أصواتًا وخمّنت أنّ الأمر يخصّ المستشفى.

ـ كلّ شيء على ما يرام.

نظر إلى ساعته وقال:

ـ يُستحسن بي أن أذهب.

وفيما هو يتّجه إلى الناحية الأخرى من الغرفة، وقبل وصوله إلى فسحة الدرج، أومأ إلى بريوني وقال:

ـ عن إذنك.

سمعا صوت باب الحمّام يُغلق، وقالت سيسليا وسط الصمت المطبق كأن لا شيء بينها وبين أختها:

ـ إنّه ينام نومًا عميقًا، ولم أرغب في إيقاظه.

ثم أردفت:

ـ فكّرت أنّ الأفضل ربّما هو عدم لقاء أحدكما الآخر.

بدأت ركبتا بريوني ترتعدان، فاستندت بإحدى يديها إلى المنضدة

وابتعدت عن المطبخ كي تتمكّن سيسليا من ملء الإبريق بالماء. انتابت بريوني رغبة عارمة في الجلوس، ولكنّها لن تجلس ما لم يطلب منها الجلوس.

كما أنّها لن تطلب الإذن بذلك، لهذا ظلّت واقفة بإزاء الحائط متظاهرة بالاتّكاء عليه، ونظرت إلى أختها. المدهش كثيرًا هو السرعة التي تبدّل فيها ارتياحها الشديد لمرأى روبي حيًّا بالخوف من مواجهته. وبعد أن رأته الآن يسير في الجانب الآخر من الغرفة، فقد بدا الاحتمال الآخر، احتمال أنّه لقي مصرعه في الحرب، غريبًا، متنافيًا مع كلّ شيء، لا معنى له. كانت ترنو إلى ظهر شقيقتها وهي تتنقّل في أرجاء المطبخ الصغير. أرادت بريوني أن تخبرها بأنّها شعرت بالفرحة لدى رؤيتها روبي على قيد الحياة، يا لها من حرّيّة! لكنّ مثل ذلك الكلام سيبدو عاديًّا جدًّا، كما أنّه ليس من شأنها أن تقول مثل ذلك القول، كانت تخشى أختها، وتخشى استهجانها.

ظلّت بريوني تشعر بالغثيان، وبارتفاع درجة حرارتها، فضغطت وجهها على الجدار، لكنّه ليس أكثر برودة من وجهها. اشتاقت إلى كأس ماء، لكنّها لم ترغب في أن تطلب من أختها أيّ شيء. مشت سيسليا بتثاقل لتعدّ الطعام، فمزجت الحليب بالماء وأضافتهما إلى البيض المخفوق، ووضعت على المنضدة زجاجة مربّى وثلاثة أطباق وثلاثة أكواب. راقبت بريوني ما يجري أمامها، ولكنّها لم تشعر بالارتياح، بل زادت لديها مشاعر الخوف من اللقاء القادم. هل ظنّت سيسليا حقًّا أنّ في وسعهما الجلوس معًا في مثل هذا الجوّ، ولا تزال لديهما الرغبة في تناول البيض؟ أم أنّها تهدّئ من نفسها بالانشغال بالعمل؟ أصاخت بريوني السمع لوقع أقدام على فسحة الدرج، وحاولت أن تكلّم شقيقتها في محاولة منها لتشتيت انتباهها، فقد لاحظت الرداء الفضفاض معلّقًا على ظهر الباب.

ـ أتعملين ممرّضة في ردهة يا سيسليا؟

ـ نعم.

نطقت بالكلمة على نحو لا تريد أن تسترسل معه في الحديث، منهية الموضوع برمّته.

مهنتهما المشتركة لن تكون سببًا في الجمع بينهما، بل لم يكن هناك ما يجمع بينهما في الماضي. وليس هناك ما تتحدّثان عنه حتى عودة روبي.

أخيرًا سمعت صوت باب الحمّام، وخرج روبي يصفِّر، فيما ابتعدت بريوني عن الباب واتّجهت نحو الطرف الأعتم من الغرفة، ولكنّها كانت في مرمى بصره عندما دخل. رفع يده اليمنى قليلاً ليصافحها، في حين امتدّت يده اليسرى ليغلق الباب من ورائه.

إذا كان ردّ فعله قد جاء متأخّرًا فهو ردّ فعل يفتقر إلى الإثارة، وحالما التقت عيونهما، أنزل يديه إلى جنبيه، وتنهّد تنهيدة صغيرة، فيما شعرت أنّها لا تستطيع أن تتحاشى نظراته. تنشَّقت رائحة صابون حلاقته التي انبعثت منه، وصُدمت عندما أدركت مدى تقدّمه في السِّنّ، لا سيّما في المنطقة المحيطة بعينيه، وفكّرت بغباء: أيمكن أن يكون كلّ ذلك بسبب غلطتها؟ ألا يمكن أن تكون الحرب قد أسهمت في هذا أيضًا؟

أخيرًا قال:

ـ كنت أنتِ إذًا.

أغلق الباب بقدمه، وتقدّمت سيسليا لتقف بجانبه، فنظر إليها.

قدّمت له ملخّصًا دقيقًا، ولكنّها لم تستطع أن تتخلّص من سخريتها حتى لو أرادت ذلك.

ـ سوف تخبر بريوني الجميع بالحقيقة، وأرادت أن تلتقي بي أوّلاً.

التفت روبي إلى بريوني وقال:

ـ هل فكّرت أنّني قد أكون في هذا المكان؟

كان قلق بريوني آنذاك هو أن لا تسمح لنفسها بالبكاء، إذ ما من شيء

في تلك اللحظة يمكنه أن يكون أكثر مدعاة للهوان.. الارتياح، الخجل، الإشفاق على الذات، لا تدري أيّها التي تستولي عليها، ولكنّها مشاعر آتية ستمرّ بها. تصاعدت موجة هادئة، تشدّ على حنجرتها، فتعجز عن الكلام، ولكنّها نطقت أخيرًا متوتّرة الشفتين:

ـ بل لم أعرف إنْ كنت لا تزال حيًّا أم لا.

قالت سيسليا:

ـ إذا أردنا الكلام، علينا الجلوس.

ـ لا أعتقد أنّني قادر على الكلام.

ثم ابتعد بَرِمًا نحو الحائط المجاور، على بعد سبعة أقدام أو زهاء ذلك، ومال إليه، وشبك ذراعيه، يرنو مرّة إلى بريوني ومرّة إلى سيسليا. وعلى فوره، تحرّك ثانية، واتّجه صوب باب غرفة النوم حيث استدار ليعود أدراجه ثانية، مُغيِّرًا رأيه، ووقف في مكانه، يداه في جيبي بنطاله. كان رجلاً ممتلئًا، فبدت الغرفة منكمشة أمامه، كان في ذلك المكان المحصور عاجزًا عن الحركة كثيرًا، كأنّه يختنق. أخرج يديه من جيبيه، ومسَّد شعره من وراء رقبته، ثم وضعهما على خاصرته، وأخيرًا أنزلهما إلى أسفل. بعد هذا كلّه أدركت بريوني أنّه غاضب، غاضب جدًّا، وعندئذٍ قال:

ـ ماذا تفعلين هنا؟ لا تكلّميني عن ساري، لا أحد يمنعك من الذهاب إليها، ما سبب مجيئك إلى هنا؟

قالت:

ـ إنّني مضطرّة لأن أكلِّم سيسليا.

ـ آه، نعم. عن أيّ شيء؟

ـ عن ذلك الشيء الفظيع الذي قمت به.

اتّجهت سيسليا نحوه وهمست:

ـ عزيزي روبي.

ثم وضعت يدها على ذراعه، لكنّه جذبها بعيدًا عنها.

ـ لا أعرف السبب الذي دفعك إلى استقبالها.

ثم التفت إلى بريوني:

ـ سأكون صريحًا وإيّاك، أنا لا أدري إنْ كنت أريد أن أدقّ عنقك الغبي هنا أم أخرجك من هذا المكان وأدفع بك من فوق السلّم.

لو لم تكن خبيرة لانتابها رعب شديد، فقد كانت تسمع في بعض الأحيان الجنود في الردهة، وهم يثورون ثورة هوجاء بسبب عجزهم. وكانت أيّة محاولة لطمأنتهم أو تهدئتهم وهم في أوج غضبهم تبدو محاولة بائسة. لا بدّ من أن تترك الثورة تندلع، ويُستحسن الوقوف والاستماع. وكانت تعلم جيّدًا أنّ مجرّد اقتراح بالانصراف سيكون استفزازيًّا، لهذا واجهت روبي وانتظرت ما سيقوله حتى النهاية لتقول ما عندها، لكنّها لم تكن خائفة منه، جسديًّا على الأقلّ.

لم يرفع صوته، وإن شابه قدرٌ من الاحتقار.

ـ ألديك أيّة فكرة عمّا كان عليه الحال في السجن؟

تخيّلت نوافذ صغيرة عالية في واجهة جرف صخري، ولعلّها فكّرت في الأسلوب الذي يخيّل فيه الناس شتّى ضروب العذاب في جهنّم.

هزّت رأسها بوهن، وحاولت أن تركّز تفكيرها بمحاولة تأمّل تفاصيل التحوّلات التي مرَّ بها. لعلّ طول قامته سببه وقفته الاستعراضيّة، فما من طالب من طلاّب جامعة كيمبردج يقف مثل وقفته المعتدلة. وظلّت كتفاه رغم تشتّت ذهنه منتصبتين، وبقي ذقنه مرتفعًا كأنّه ملاكم عنيد من الطراز القديم.

ـ حقًّا لا تعرفين، وهل شعرتِ بالسرور عندما كنت مسجونًا؟

ـ كلاّ.

ـ لكنّك لم تفعلي شيئًا.

فكّرت في هذا الحديث مرّات ومرّات، مثل طفل يتوقّع عقابًا أخيرًا، حدث ما كان في الحسبان، وبدت كأنّها ليست في هذا المكان، بل تراقب من بعيد، وهي في حالة خدر، بيد أنّها كانت تعلم بأنّ كلماته سوف تُصيب منها مقتلاً في وقت لاحق.

تراجعت سيسليا إلى الوراء، ووضعت يدها مرّة أخرى على ذراع روبي. فقد من وزنه شيئًا، ولكنّه بدا أقوى بمظهره العنيف، ولم يلتفت إليها إلاّ قليلاً.

قالت سيسليا:

ـ تذكّر...

ولكنّه تكلّم مقاطعًا إيّاها:

ـ أتظنّين أنّني اغتصبت ابنة خالتك؟

ـ لا.

ـ وهل كنت تظنّين ذلك؟

بحثت عن كلماتها.

ـ نعم، نعم ولا، لم أكن متأكّدة.

ـ وما الذي جعلك متأكّدة الآن؟

تردّدت، وأدركت أنّها بإجابتها سوف تقدّم نمطًا من الدفاع، نوعًا من العقلانيّة، وقد تزيد من ثورته.

ـ النضوج.

حدَّق فيها، منفرج الشفتين، لقد تغيّر حقًّا في غضون خمسة أعوام، الحدّة في عينيه جديدة، العينان صغيرتان وضيّقتان، وفي زاويتيهما آثار راسخة لقدمي غراب. وجهه أكثر نحولاً ممّا تتذكّر، وجنتاه غائرتان مثل وجنتي

محارب من الهنود الحمر، شارباه قصيران على نمط الشوارب العسكريّة، وسيمًا على نحو يبعث على الدهشة، فاستحضرت حبّها له عندما كانت في سنّ العاشرة أو الحادية عشرة، حبّها الحقيقي الذي لم يدم إلاّ أيّامًا، اعترفت له به صباح يوم من الأيّام في الحديقة، وسرعان ما نسيته.

كانت محقَّة في حذرها واحتراسها، فقد استبدّ به غضب يدفع المرء إلى الإعجاب به.

وردّد:

ـ النضوج؟

وثبت من مكانها عندما رفع صوته.

ـ تبًّا! لقد كنت في الثامنة عشرة، إلى أيّ مدى تريدين النضوج كي تفعلي ما فعلتِ. هناك جنود يلقون مصارعهم في ساحة الوغى وهم في سنّ الثامنة عشرة. إنّها سنّ تكفي لأن يموت المرء على قارعة الطريق، أتعرفين ذلك؟

ـ نعم.

كان عجزه عن معرفة ما شاهدته مبعث ارتياح يبعث على الشفقة. فعلى رغم ذنبها، يبدو أنّها، ويا للغرابة، مضطرّة إلى الإحساس بالحاجة إلى مقاومته. إمّا أن تقاوم أو تفنى.

أومأت إيماءة خفيفة، إذْ لم تتجرّأ على الكلام.

وما إن ذُكر موضوع الموت حتى غمره فيض من شعور دفع به إلى ما وراء الغضب، باتّجاه أقصى درجات الذهول والاشمئزاز، أنفاسه غير منتظمة، ثقيلة، يشدُّ من قبضته اليمنى ويرخيها، وهو لا يزال يرمقها بنظرات تغور في أعماقها، نظرات تشي بالصلابة وبالوحشيّة. عيناه تشعَّان، يزدرد ريقه تباعًا، عضلات حنجرته متوتّرة، معقّدة، يكافح مشاعر لا يريد أن يتنبّه لها أحد. لقد علمت شيئًا قليلاً ممّا كانت تعرفه، الشيء اليسير الذي لا يعادل شيئًا ممّا قد

تشهده الممرّضة المتدرّبة في عملها، بخصوص سلامة الردهة وجانب السرير. كانت تعرف ما يكفي لكي تدرك أنّ الذكريات محتشدة، وأنّه لا يقدر على عمل أيّ شيء. فهم لم يتركوا له المجال كي يتكلّم، ولن تعرف هي المشاهد التي كانت تؤجّج هذا الاضطراب. تقدّم خطوة ناحيتها، فتراجعت منكمشة إلى الوراء، فهي لم تعد واثقة من عدم إيذائه لها ـ إذا عجز عن الكلام، فقد يضطرّ إلى القيام بعملٍ ما. خطوة أخرى، وأصبح في وسعه أن يصل إليها بذراعه القويّة. لكن سيسليا وقفت حاجزًا بينهما، مولية ظهرها لبريوني ووقفت وجهًا لوجه أمام روبي ووضعت كلتا يديها على كتفيه، فأشاح بوجهه عنها.

تمتمت:

ـ انظر إليّ.. انظر إليّ يا روبي.

ضاع ردّه أمام بريوني. فقد سمعت رفضه أو إنكاره، ربّما كان ردًّا خليعًا. وعندما أمسكت سيسليا بكلّ قوّة، لوى جسده وحاول الابتعاد عنها، وبدا الاثنان كأنّهما مصارعان عندما مدّت يديها إلى أعلى وحاولت أن تدير رأسه ناحيتها، لكن رأسه انحرف إلى الوراء، وانفرجت شفتاه وبانت أسنانه وهو يبتسم ابتسامة غول. وهنا أمسكت به من كلتا وجنتيه وضغطت بقوّة وأفلحت في أن تدير رأسه وقرّبته من رأسها. أخيرًا بدأ ينظر إلى عينيها، وهي لا تزال متشبّثة بوجنتيه، وجذبته ناحيتها ليحوّل نظراته إليها حتى التقى وجهاهما، فقبّلته قبلة خفيفة على شفتيه، وقالت سيسليا برقّة تذكّرتها بريوني منذ سنوات وهي تستيقظ ليلاً: «ارجع ارجع يا روبي...».

أومأ برأسه بوهن، وتنفّس تنفّسًا عميقًا، وتنهّد من بعده ببطء عندما أرخت من قبضتها وجذبت يديها من على وجهه. طوّقها بذراعيه ومال نحوها وقبّلها قبلة طويلة عميقة. ابتعدت بريوني بهدوء ناحية الطرف الآخر من الغرفة واقتربت من النافذة، وفيما كانت تشرب كأس ماء من صنبور المطبخ، استمرّت القبلة موحّدة الاثنين في عزلة. شعرت أنّها مُحقت، أُزيلت من الغرفة، فارتاحت.

أدارت ظهرها وتطلّعت من وراء النافذة صوب البيوت الهادئة التي غمرها نور الشمس الساطع، وصوب الطريق الذي سلكته من هاي ستريت. ودُهشت لمَّا اكتشفت أنّها لا تمتلك الرغبة حتى الآن للخروج على الرّغم من الحرج الذي شعرت به بسبب القبلة الطويلة، وخشيت ممّا هو أسوأ. شاهدت امرأة عجوزًا ترتدي معطفًا ثقيلاً على الرّغم من شدّة الحرارة تمشي على الرصيف المقابل رفقة كلب معتلّ الصحّة، متدلّي البطن من فصيلة الدَّشهند. بدأ روبي وسيسليا يتكلّمان الآن بصوت خافت، فقرّرت بريوني أنّ اللياقة تدعوها إلى عدم الالتفات إليهما حتى يكلّماها. هدأت مشاعرها وهي تراقب المرأة العجوز تفتح البوّابة الأماميّة وتغلقها بعناية من خلفها. وفي منتصف المسافة نحو باب البيت الرئيس انحنت بصعوبة لتقتلع عشبة ضارّة من المزهر الضيّق الممتدّ على طول الممشى الأمامي. وفيما هي منهمكة وإذا بالكلب يتقدّم ويلعق معصمها. دخلت المرأة وكلبها المنزل، فبات الشارع خاليًا ثانيةً. ثم هبط طير غرّيد فوق سياج عشبي. وبعد أن التقط ما يرضيه من طعام عاد وحلّق بعيدًا. واقتربت ظلال سحابة وعلى الفور خفت سطوع الشمس، ثم مضت السحابة في طريقها. إنّه عصر يوم سبت لا يختلف كثيرًا عن غيره من أيّام السبت، كما لا يوجد في شارع هذه الضاحية إلاّ الشيء القليل الذي يدلّ على الحرب. ربّما لا شيء سوى الستائر المعتّمة من وراء نافذة في الجانب الآخر من الشارع وسيّارة فورد على منصّة.

سمعت بريوني أختها تناديها فاستدارت.

ـ ليس أمامنا وقت طويل، فروبي سيلتحق في الساعة السادسة مساءً ولا بدّ له من أن يستقلّ القطار. لهذا اجلسي، هناك بعض الأمور التي ينبغي لك القيام بها من أجلنا.

إنّه صوت ممرّضة ردهة، لا ينمّ عن أمر، كلّ ما فعلته هو أنّها أوضحت ما هو محتوم.

جلست بريوني على الكرسي القريب منها، في حين أحضر روبي كرسيًا

آخر فيما جلست سيسليا بينهما.

الفطور الذي أعدّته بات نسيًا منسيًّا، الأكواب الثلاثة الفارغة ظلّت في وسط المنضدة، أزاح الكتب عن المنضدة ووضعها فوق الأرض، وعندما نقلت سيسليا زجاجة المربّى إلى أحد جوانب المنضدة خشية أن تتعرّض للسقوط والكسر، تبادلت وروبي نظرة، كان يحدّق في الزهور وهو يتنحنح. ولمّا بدأ الكلام، جاء صوته خلوًا من العاطفة، كأنّه يقرأ مجموعة أوامر سارية المفعول.

رنا إليها بعينيه الثابتتين. كلّ شيء تحت سيطرته، ولكن جبينه تصبّب قطرات من العرق، فوق حاجبيه تمامًا.

ـ لقد وافقت على أهمّ شيء الآن، وهو أن تذهبي إلى والديك بأسرع ما يمكن لتخبريهما بكلّ ما يحتاجان إلى معرفته كي يقتنعا بأنّ شهادتك كانت شهادة زور. ما يوم إجازتك؟

ـ الأحد القادم.

ـ إذًا ستذهبين في ذلك اليوم وستأخذين عنواننا، وستخبرين جاك وإميلي بأنّ سيسليا تنتظر سماع شيء منهما. أمّا الشيء الآخر فسوف تقومين به يوم غد. ذكرت سيسليا أنّ لديك ساعة فراغ، وعليك أن تذهبي إلى محامٍ، إلى مُحلّف، لتقدّمي له بيانًا موقّعًا ويحتوي على شهود، موضحة فيه أنّكِ أقدمت على عمل خاطئ وأنّك تراجعت عن شهادتك القديمة. ويجب عليك أن ترسلي نسختين منها لنا. مفهوم؟

ـ نعم.

ـ ثم تكتبين إليَّ رسالة مفصّلة، تحتوي على كلّ التفاصيل ذات الصلة بالقضيّة، وكلّ شيء أدّى بك إلى أن تقولي إنّك شاهدتني قرب البحيرة. والسبب الذي جعلك متشبّثة بروايتك، على الرّغم من أنّك لم تكوني متأكّدة حتى في الأشهر التي سبقت محاكمتي. وأريد أن أعرف منك إنْ كانت هناك

ضغوطات من الشرطة على والديك. هل فهمت؟ ينبغي للرسالة أن تكون مطوّلة.

ـ نعم.

تبادل وسيسليا النظرات وأومأ برأسه واستأنف.

ـ وإذا ما تذكّرت أيّ شيء عن داني هاردمان، وأين كان، وماذا كان يفعل، وفي أيّ وقت، ومن شاهده غيرك ـ كلّ ما يمكن أن يثبت أنّه كان في مكان آخر وقت الحادث، فإنّنا نريد أن نعرف ذلك.

كتبت سيسليا العنوان، وبدأت بريوني تهزّ رأسها، تريد الكلام، لكنّ روبي تجاهلها، وتكلّم من جانبه، ونهض واقفًا على قدميه ونظر إلى ساعة معصمه.

ـ لم يبق لديّ سوى وقت قصير. سوف نرافقك إلى قطار الأنفاق. أريد أن أمكث وسيسليا وحدنا في الساعة الأخيرة التي تسبق سفري. كما أنّك بحاجة إلى إنفاق بقيّة هذا اليوم في كتابة بيانك وإبلاغ والديك بأنّك ذاهبة إليهما، وفي وسعك أيضًا أن تفكّري في الرسالة التي سوف ترسلينها إليَّ.

بعد هذه المجموعة من الالتزامات التي أوضحها روبي، ترك المنضدة واتّجه نحو غرفة النوم.

أمّا بريوني فنهضت بدورها وقالت:

ـ لعلّ هاردمان العجوز كان يقول الحقيقة، فقد كان داني في رفقته طوال تلك الليلة.

كادت سيسليا أن تسلّم قصاصة الورق المطويّة التي دوّنت عليها العنوان إلى بريوني عندما وقف روبي أمام باب غرفة النوم.

قالت سيسليا:

ـ ماذا تعنين بكلامك؟ ماذا تقولين؟

ـ إنّه پول مارشال.

في غمرة الصمت الذي أعقب ذلك، حاولت بريوني أن تتذكّر التعديلات التي يتعيّن على كلّ واحد إدخالها. مرّت سنوات وهي تنظر إلى ما حدث نظرة معيّنة، إنّها تفاصيل صغيرة، ولكنّها مذهلة، ولم يتغيّر أيّ شيء جوهري بها، لا شيء في دورها.

تقدّم روبي من المنضدة.

ـ مارشال؟

ـ نعم.

ـ هل رأيته؟

ـ رأيت رجلاً بطوله.

ـ بطوله؟

ـ نعم.

وقفت سيسليا الآن وجالت ببصرها من حولها ـ توشك أن تبحث عن سيكارة.

وجد روبي السكائر فرمى بالعلبة إليها فأشعلت سيسليا سيكارة ودخّنتها وهي تقول:

ـ يصعب عليَّ تصديق الحكاية، أعرف أنّه أحمق...

قاطعها روبي:

ـ إنّه أحمق جشع، لكنّني لا أستطيع أن أتخيّله رفقة لولا كوينسي حتى على مدى الدقائق الخمس التي استغرقها...

كانت بريوني تُدرك أنّ كلّ ما حدث وما نجم عنه من عواقب يدلّ على طيش ورعونة.

ولكنّها استمتعت استمتاعًا هادئًا بذكر خبرها الذي انطوى على برهان مُفحم وهي تقول:

ـ عدت توًّا من حفل زفافهما.

مرّة أخرى، تعديلات تُثير الدهشة، وتكرار يصعب تصديقه، زفاف؟ في هذا الصباح؟ كلابهام؟ ثم استقرّ صمت يشوبه تفكير عميق لم تقطعه سوى ملاحظة واحدة.

ـ أريد أن أعثر عليه.

ـ لن تفعل أيّ شيء.

ـ أريد أن أقتله.

ثم قالت:

ـ حان وقت الذهاب.

هناك أشياء كثيرة ربّما كان في الإمكان قولها، لكن يبدو أنّ حضورها، أو الموضوع بنفسه، هدَّ من كيانيهما. أو لعلّهما أرادا أن يخلوا بنفسيهما. وفي كلّ الأحوال، بدا واضحًا أنّهما شعرا بأنّ اللقاء شارف على نهايته. وزال كلّ الفضول، ويمكن لكلّ شيء أن ينتظر حتى كتابة رسالتها.

أحضر روبي سترته وقبّعته من غرفة النوم، فشاهدت بريوني شريطين على كمّه، رتبة عريف.

قالت سيسليا له:

ـ إنّه يتمتّع بحصانة، وسوف تحميه دومًا.

أنفقت بضع دقائق وهي تفتّش عن دفتر الحصّة التموينيّة، وفي نهاية المطاف تخلّت عن التفتيش وقالت لروبي:

ـ أنا متأكّدة أنّه في ويلتشاير، في البيت الريفي.

وفيما كانوا يوشكون على الخروج، فتح روبي الباب للأختين وقال:

ـ أعتقد أنّنا مدينون باعتذار للبحّار المقتدر هاردمان.

عندما مرّوا بالطابق الأرضي، لم تظهر لهم السيّدة جارفيس من حجرة جلوسها. وتناهى لهم صوت عزف على آلة الكلارينت ينبعث من المذياع. ولمّا اجتازوا الباب الرئيس، شعرت بريوني أنّ يومًا جديدًا قد هلَّ، وأنّ نسمة قويّة تهبّ، والشارع يحسّ بارتياح، وأنّ نور الشمس أكثر تألّقًا في حين كانت الظلال أقلّ من السابق. لم يكن الرصيف ليتّسع كي يسير الثلاثة جنبًا إلى جنب. فسار روبي وسيسليا من ورائها يدًا بيد. شعرت بريوني بعقبها يحتكّ بحذائها، لكنّها صمّمت على أن لا يشاهداها وهي تعرج في مشيتها، وتولّد لديها الانطباع في بادئ الأمر أنّهما سوف يسيران وإيّاها حتى مدخل المبنى. والتفتت نحوهما وأخبرتهما بأنّها ستكون سعيدة لو سارت وحدها إلى محطّة قطار الأنفاق، ولكنّهما أصرّا على مرافقتها كما أنّهما سوف يشتريان بعض الحاجيات ليأخذها روبي في سفره. وهكذا واصلوا سيرهم صامتين، الحديث القصير ليس خيارًا. وكانت بريوني تعلم جيّدًا أنّه ليس من حقّها أن تسأل أختها عن عنوانها الجديد، أو تسأل روبي عن الوجهة التي سيقلّه القطار إليها أو عن البيت الريفي الصغير في ويلتشاير.

أهذا هو مصدر الأزهار في بيت أختها؟ المؤكّد أنّ هناك قصيدة تصف المناظر الطبيعيّة. ولم تتمكّن حتى من السؤال عن الوقت الذي سيلتقي فيه الاثنان من جديد. ليس هناك سوى موضوع واحد يجمع بين الثلاثة: هي وأختها وروبي، موضوع راسخ في ماضٍ لا يمكن تغييره.

وقفوا خارج محطّة قطار أنفاق بلهام التي ستحقّق نمطًا رهيبًا من الشهرة بعد ثلاثة أشهر أثناء القصف الجوّي. تحرّك من حولهم عدد قليل من متبضّعي يوم السبت، مرغمين إيّاهم على الالتصاق بعضهم ببعض.

ودَّعاها وداعًا فاترًا، وذكَّرها روبي أن تأخذ معها بعض المال عندما

تذهب للقاء المحلّف القانوني. كما أخبرتها سيسليا بأن لا تنسى أن تأخذ العناوين معها إلى ساري، ثم انتهى كلّ شيء.

حدَّقا فيها وانتظرا حتى ترحل، لكنّ هناك شيئًا واحدًا لم تقله.

قالت ببطء:

ـ آسفة جدًّا جدًّا، لقد كنت سببًا في هذا الكدر العظيم.

لكنّهما استمرّا يحدّقان فيها فكرّرت:

ـ آسفة جدًّا.

بدت عبارتها سخيفة، غير مناسبة، كأنّها ارتطمت بنبتة منزليّة، أو نسيت عيد ميلاد.

قال روبي برقّة:

ـ حسبك أن تنفّذي ما طلبناه منك.

كانت كلمة «حسبك» تنمّ عن شبه مصالحة وإن لم تكن مصالحة حقيقيّة، لأنّ المصالحة الحقيقيّة لم يحن موعدها بعد.

قالت:

ـ على وجه التأكيد.

ثم استدارت ومضت في طريقها، مدركة أنّهما ينظران إليها وهي تدخل قاعة التذاكر وتجتازها. دفعت أجرة الذهاب إلى محطّة واترلو، ولمّا وصلت الحاجز، التفتت ونظرت إلى الوراء، ولكنّهما كانا قد تواريا عن الأنظار.

أظهرت تذكرتها واجتازت الضوء الأصفر ومشت نحو السلالم الكهربائيّة التي تقعقع وتصدر صريرًا، فهبطت بها نحو النسمة الاصطناعيّة المنبعثة من الظلمة، وأنفاس ملايين اللندنيّين تشيع البرودة في وجهها وتجذب قبّعتها.

وقفت ساكنة وتركت نفسها تُنقل إلى أسفل، ممتنّة لأنّ هناك من يحرّكها دون أن تؤلم قدمها، استولت عليها الدهشة كما أدركت مدى هدوئها، وإنْ كانت حزينة قليلاً. أهي خيبة أمل؟ لقد توقّعت الغفران، لكنّ الشعور الذي ساورها هو الحنين إلى موطنها وإنْ لم يكن له أيّ سبب، لأنّها لا تملك بيتًا. حزينة لأنّها تركت أختها. تحنّ إلى أختها، أو على وجه أدقّ، أختها رفقة روبي، حبّهما، فلا بريوني ولا الحرب تمكّنا من تحطيمه.

هذا هو السبب الذي جعلها تهدأ وتطمئن وهي تغور تحت المدينة. كيف تمكّنت سيسليا من جذبه نحوها بعينيها؟ يا لرقّة صوتها عندما نادته ليخرج من ذكرياته، من دنكرك، أو من الطرق التي كانت تؤدّي إليها. كانت تتكلّم وإيّاه مثلما كانت تتكلّم وإيّاها في بعض الأوقات عندما كانت سيسليا في السادسة عشرة فيما كانت هي طفلة في السادسة وسارت الأمور على غير ما تشتهي السفن، أو في تلك الليلة، عندما جاءت سيسليا لتنقذها من كابوس انتابها، وأخذتها إلى فراشها. هذه هي الكلمات التي تفوّهت بها: استيقظي. إنّه حلم مزعج لا غير، استيقظي يا بريوني. يا للسهولة التي نُسي بها هذا الحبّ العائلي. ها هي تهبط إلى أسفل، وسط ضوء بنّي، نحو القاع. لم تجد أمامها أيّ مسافرين آخرين، وفجأة بات الهواء ساكنًا، تفكّر بهدوء بما يتعيّن عليها فعله، لن يستغرق الأمران وقتًا طويلاً منها: الرسالة إلى أبويها والبيان الرسمي، وبعدئذٍ ستكون حرّة طوال النهار. كانت تعلم ما هو مطلوب منها، ليست رسالة حسب، بل نسخة جديدة، كفّارة، وكانت على استعداد لكي تبدأ.

بي. تي

لندن ــ ١٩٩٩

لندن ١٩٩٩

كم كان غريبًا ذلك الزمان. اليوم، في صباح عيد ميلادي السابع والسبعين، قرّرت أن أزور للمرّة الأخيرة مكتبة المتحف الحربي الإمبراطوري في حيّ لامبث، لأنّه يلائم حالتي العقليّة الغريبة. كانت غرفة المطالعة الكائنة في قبّة المبنى مصلًّى لمستشفى بيت لحم الملكي ـ مستشفى المجاذيب القديم ـ. وفي المكان الذي كان يأتي إليه الناس القلقون ليؤدّوا صلواتهم، بات الباحثون اليوم يجتمعون فيه للبحث في جنون الحرب الجماعي. السيّارة التي سترسلها الأسرة لن تصل قبل الغداء، ولهذا فكّرت في أن أُلهي نفسي وأُدقّق آخر التفاصيل وأُودّع المسؤول عن الوثائق، والبوّابين المرحين الذين كانوا يرافقونني في المصعد، صعودًا وهبوطًا، في تلك الأسابيع الشتائيّة. كما عزمت على أن أتبرّع لقسم المحفوظات بدزّينة الرسائل الطويلة التي وصلتني من السيّد نيتل العجوز. أظنّ أنّ قضائي ساعة أو ساعتين، متظاهرةً بالانشغال وبتدقيق المهامّ الصغيرة الخاصّة بإدارة المنزل والتي تأتي في نهاية المطاف، والتي تشكّل جزءًا من عمليّة سير الأمور على مضض، إنّما هو هديّة عيد ميلاد أقدّمها لنفسي. كما أنّني منهمكة بحالة مماثلة من المزاج بالعمل في مكتبي عصر يوم أمس. باتت المسودّات الآن متسلسلة ومنتظمة ومؤرّخة، المصادر مؤشّرة، والكتب المستعارة على استعداد للعودة، وكلّ شيء في إضبارة

صحيحة. طالما كنت أهوى وضع نهايات مرتّبة.

الجوّ شديد البرودة، ماطر، شعور بالاضطراب الشديد يساورني إذا ما ذهبت بوساطة النقل الحكومي. لهذا استقللت سيّارة أجرة من ريجنت بارك، وفكّرت على امتداد الطريق زحفًا في وسط لندن بأولئك النزلاء في مستشفى المجاذيب الذين كانوا يومًا ما مصدرًا للمتعة العامّة، وفكّرت على نحو يبعث على الرثاء الذاتي كيف أنّني سأنضمّ إلى صفوفهم. لقد وصلت نتائج الفحص الذي أُجري عليَّ، وذهبت لعيادة طبيبي بشأنها صباح يوم أمس، ولم تكن الأخبار سارّة! هكذا أوضح لي حالما جلست. حالات الصداع، والإحساس بالضغط من حول الصدغين، لها سبب معيّن يبعث على التشاؤم. وأشار إلى بعض البقع والحبيبات في منطقة معيّنة من الأشعة، ولاحظت كيف ارتعش طرف القلم الرصاص بين أصابعه وتساءلت إن كان يعاني بدوره اضطرابًا عصبيًا.

تمنّيت لو أنّه مُصاب، وقال إنّني أعاني سلسلة من السكتات الدماغيّة الصغيرة غير المحسوسة. سيكون التحوّل بطيئًا، لكنّ دماغي، دماغي أنا، آخذ بالتوقّف، وستكون إخفاقات الذاكرة التي تلازمنا كلّنا إلى ما وراء نقطة معيّنة واضحة أكثر من ذي قبل، أكثر ضعفًا ووهنًا إلى أن يأتي الوقت الذي لن يعود معه بمقدوري ملاحظتها لأنّني سأكون عندئذٍ قد فقدت القدرة على فهم أيّ شيء تمامًا. وستكون أيّام الأسبوع وأحداث الصباح، أو حتى ما حدث قبل عشر دقائق، بعيدًا عن منالي، وسيختفي رقم هاتفي وعنواني واسمي وما فعلته بحياتي. وفي غضون ساعتين أو ثلاث أو أربع، لن أتمكّن من الاستدلال على ما تبقّى من أصدقائي القدامى، وعندما أستيقظ في الصباح لن أعرف أنّني موجودة في حجرتي. وسرعان ما سأفقد كينونتي لأنّني سأكون بحاجة إلى عناية متّصلة.

أخبرني الطبيب أنّني أعاني فقدان قواي العقليّة، وأنّني بحاجة إلى قدر من الراحة. هناك بطء في كلّ هذا التعطيل الدماغي، وهو ما ذكره مرّات

ومرّات، ولكنّه ليس بمثل سوء مرض ألزهايمر وما ينطوي عليه من حالات التذبذب والعدوانيّة. وإذا ما كنت محظوظة فربّما يكون المرض حميدًا إلى حدّ ما. ربّما لن أكون سعيدة ـ حسبي أن أكون امرأة عجوزًا، كليلة، بليدة الفهم فوق كرسي، لا تعرف أيّ شيء، ولا تتوقّع أيّ شيء. طلبت منه أن يكون صريحًا كي لا أشكو وأتذمّر، لكنّه أسرع بإخراجي من عيادته، فهناك اثنا عشر شخصًا ينتظرون في حجرة الانتظار، كلّ حسب دوره. باختصار، فيما كان يساعدني على ارتداء معطفي، أعطاني خارطة الطريق: فقدان ذاكرة، على المدى القصير والبعيد، واختفاء كلمات مفردة ـ ربّما الأسماء البسيطة هي التي ستختفي أوّلاً ـ ثم تختفي اللغة نفسها ويختفي وإيّاها التوازن، ومن بعدها مباشرةً يختفي كلّ التحكّم الحركي، وأخيرًا الجهاز العصبي المركزي، رحلة موفّقة!!

في البداية لم أكن محزونة، بل على العكس، كنت منشرحة وراغبة تمامًا في أن أخبر أقرب أصدقائي. أمضيت ساعة وأنا أقصّ الخبر على صديقاتي هاتفيًّا لعلّني كنت قد بدأت بفقدان السيطرة، إذْ بدا كلّ شيء آنيًّا، فجائيًّا. وأمضيت فترة العصر كلّها وأنا أزجي الوقت في مكتبي أعالج مشاغل البيت. وعندما فرغت، أصبحت هناك ستّ أضابير جديدة على الرفوف. وجاءت ستيلاّ وجون مساءً، فطلبنا طعامًا صينيًّا، وشرب الاثنان زجاجتي شراب نوع مورغان، في حين اكتفيت شخصيًّا بشاي أخضر. وشعر صديقاي بالإحباط التامّ عندما وصفت لهما مستقبلي. كانا في الستّينيّات من عمرهما، على درجة كافية من الكبر كي يبدأ كلّ واحد منهما بالضحك من نفسه، معتقدين أنّ من هو في سنّ السابعة والسبعين لا يزال شابًّا. وعندما كنت جالسة في سيّارة أجرة اليوم، لم أفكّر بأيّ شيء تقريبًا لمّا اجتزنا لندن ببطء تحت المطر المتجمّد. قلت لنفسي إنّني سأُصاب بالجنون، وإنَّ عليَّ أن أحول دون ذلك، لكنّني لم أستطع تصديق ذلك، فربّما لست سوى ضحيّة من ضحايا التشخيص الحديث. وفي قرن آخر من الزمان سيقولون عنّي إنّني عجوز ولهذا

السبب بدأت أفقد عقلي. وهل هناك شيء آخر أتوقّعه؟ إنّني أحتضر لا غير، وأتلاشى في المجهول. كانت سيّارة الأجرة تقطع الشوارع الخلفيّة لحيّ بلومزبري، وتمرّ من أمام البيت الذي عاش فيه أبي بعد زواجه الثاني، ومن أمام الشقّة الكائنة في الطابق تحت الأرضي حيث عشت واشتغلت طوال عقد الخمسينيّات، وإذا ما تجاوز المرء عمرًا معيّنًا، فإنّ الذهاب إلى الطرف الآخر من المدينة يصبح تأمّلاً لا يبعث على الاطمئنان، عناوين الموتى تتراكم.

قطعنا الميدان الذي عالج فيه ليون زوجته على نحو بطولي، ثم ربّى أطفاله الصخّابين تربية رائعة أدهشتنا كلّنا. وفي يوم من الأيّام، سوف أفكّر بدوري بالمسافر الذي يستقلّ سيّارة أجرة تمرّ من أمامي. إنّ الطريق الدائري لحدائق ريجنت بارك طريق مختصر مشهور.

عبرنا النهر من فوق جسر واترلو، جلست على حافّة مقعدي لكي أحظى برؤية المدينة. وعندما التفتّ ونظرت إلى كنيسة سانت پول ومن ثم إلى ساعة بيغ بن، حيث المظهر السياحي الكامل للندن بينهما، راودني إحساس بأنّني على ما يرام بدنيًا، وأنّني سليمة العقل، باستثناء حالات الصداع والتعب القليل. وعلى الرّغم من أنّني بدأت أذوي، إلاّ أنّني لا زلت أشعر بأنّني لم أتغيّر قطّ.

يصعب تفسير هذا الحال للشبّان، فقد نبدو حقًّا حيوانات زاحفة، ولكنّنا لسنا قبيلة منفصلة.

على أيّة حال، في السنة أو السنتين القادمتين سوف أفقد انتسابي إلى هذا الاحتجاج المألوف. فالمصابون بأمراض خطيرة، والمجانين، هم جنس آخر، جنس أدنى شأنًا، ولن أدع أحدًا يقنعني بغير هذا.

سائق سيّارة الأجرة التي أستقلها يصبّ اللعنات، فقد أرغمتنا أعمال الطرق من فوق الماء إلى الانحراف والاتّجاه صوب قاعة البلديّة القديمة. وفيما نحن ننحرف من حول الميدان الكائن في تلك المنطقة والمؤدّي إلى

لامبث، لمحت مستشفى سانت توماس الذي كان قد تعرّض إلى ضربة أثناء القصف الجوي ـ أحمد الله أنّني لم أكن فيه ـ وبدت المباني الجديدة والبرج العالي عارًا قوميًا. لقد اشتغلت في ثلاثة مستشفيات في تلك الحقبة الزمنيّة ـ آلدرهي وريال إيست ساكس فضلاً عن سانت توماس ـ ولقد وحَّدت بينها في روايتي كي أركّز كلّ تجاربي في مكان واحد، ذلكم انحراف مناسب وهو أضعف هجماتي ضدّ الحقيقة.

كان تساقط الأمطار قد قلَّ عندما استدار سائق سيّارة الأجرة في وسط الشارع لنصل خارج البوّابات الرئيسة للمتحف. وعندما انشغلت بحمل حقيبتي وبالعثور على ورقة نقديّة من فئة العشرين باونًا، وفتح مظلّتي، فإنّني لم أتنبّه إلى أنّ السيّارة توقّفت أمام المتحف إلاّ بعد أن رحلت.

كانت سيّارة سوداء من طراز رولز رويس.

فكّرت في بادئ الأمر بأنّها فارغة، لا أحد فيها، الحقّ أنّ سائقها كان شخصًا قصير القامة، ضاع من وراء عجلة القيادة. وإنّني لست متأكّدة من أنَّ الشيء الذي أوشك أن أصفه هو مصادفة مثيرة.

فبين حين وآخر أفكّر في أسرة مارشال كلّما شاهدت سيّارة رولز متوقّفة في مكان ما دون سائق.

أضحت تلك عادةً على مدى السنين، إنّهما يمرّان بخاطري في أغلب الأحيان، دون أن يُثيرا فيَّ أيّة مشاعر معيّنة. لقد أصبحت معتادة على التفكير بهما، ولا تزال الأخبار تُنشر عنهما في الصحف بين الفينة والفينة، لأنّهما يديران مؤسّسة ينحصر عملها الصالح في البحث الطبّي، أو مجموعة المقتنيات التي قدَّماها هديّة إلى متحف التيت، أو تمويلهما السخي للمشاريع الزراعيّة في الصحراء الأفريقيّة، فضلاً على الحفلات وتشهيرها العلني بالصحف القوميّة. وليس ممّا يدعو إلى الدهشة أنّ اللورد والليدي مارشال مرَّا بخاطري وأنا أقترب من ذينك المدفعين العملاقين الجاثمين أمام المتحف، لكنّ الصدمة

كانت عندما رأيتهما يتقدّمان باتّجاهي، عدد من المسؤولين ـ عرفت من بينهم مدير المتحف ـ ومصوّر واحد أقاموا حفل وداع. شابّان اثنان يرفعان مظلّتين من فوق رأسي آل مارشال وهما يهبطان الدرج القريب من الأعمدة. تراجعت إلى الخلف قليلاً، وأبطأت في سيري ولم أتوقّف كي لا أجذب الانتباه لنفسي.

مصافحة بالأيدي، ومجموعة ضحكات رقيقة أعقبت ملاحظة أبداها لورد مارشال، كان ينحني من فوق عصا، أظنّها عصا خيزران لامعة باتت علامة مسجّلة، ثم وقف هو وزوجته ومدير المتحف أمام عدسة التصوير. وبعد ذلك ابتعدا يرافقهما الشابّان ومظلاّتهما، فيما مكث الموظّفون واقفين على الدرج. كنت أفكّر في الطريق الذي سوف يسلكه آل مارشال كي أتجنّب مواجهتهما مواجهة مباشرة، فاختاروا المرور من على يمين المدفعين، فحذوت حذوهما.

بقيت متوارية عن الأنظار، تحجبني ماسورتا المدفعين المرتفعتان وقاعدتاهما الخرسانيّتان فضلاً على المظلّتين المائلتين، ولكنّني على الرّغم من ذلك استطعت أن أحظى برؤيتهما وهما يسيران صامتين. كان معروفًا من خلال صوره. البقع الكبديّة والجيوب الأرجوانيّة المتدلّية من تحت عينيه لم تمنعه من أن يظهر بمظهر الرجل المتنفّذ لسعة ثرائه، الوسيم على نحو تشوبه قسوة. تقدّمه في السنّ سبب في انكماش وجهه وفي إنقاذه من المظهر الذي كان ينقصه دومًا قيد شعرة، وكان فكّه هو الذي مال إلى أسفل ـ فكان عظمه المفقود رحمة عليه. واهنٌ وضعيف، مقوّس باطن القدمين، ولكنّه يسير سيرًا حسنًا قياسًا إلى سنّه البالغة الثامنة والثمانين. أضحى المرء حكمًا في هذه الأمور، لكنّ يده كانت ثابتة على ذراعها، ولم تكن العصا مظهرًا استعراضيًّا حسب. وكثيرًا ما تردّدت الأقوال بأنّه عمل أعمالاً صالحة في هذا العالم. لعلّه أمضى حياته كلّها وهو يصلح ذات البين، أو ربّما مضى في سبيله لا يلوي على شيء، دون تفكير، كي يحيا الحياة التي يحبّها.

أمّا لولا ـ ابنة خالتي التي تحيا حياة ترف وتدمن على التدخين ـ فهي الآن لا تزال نحيلة ورشيقة مثل كلب سباق، ولا تزال مخلصة. من كان يحلم بهذا؟ فهي كما يُقال كانت تعرف من أين تؤكل الكتف. ربّما يبدو هذا الكلام قاسيًا، لكنّني فطنت له عندما لمحتها، كانت ترتدي معطفًا من فرو السمّور وقبّعة خفيفة قرمزيّة بحافّة عريضة، جريئة ولكنّها ليست وقحة. تناهز الثمانين عامًا ولا تزال تحتذي حذاءً بكعب عالٍ. استأنفا سيرهما على الرصيف على وقع أقدام المرأة الأصغر سنًّا. لا أثر لأيّة سيكارة. تبدو عليها مسحة من الصحّة والعافية التي تشتهر بها المزارع، وبشرة اكتسبت سمرةً وهي داخل أبواب مغلقة. هي الآن أطول قامة من زوجها، حيويّتها ليست محلّ شكّ أو ارتياب، لكنّ مسحة تدعو إلى الضحك بدت واضحة عليها ـ أم تراني أتعلّق بأوهام؟ كانت قد استخدمت مساحيق التجميل بإفراط، مبهرجة وصارخة الألوان من حول الفم، مع قدر كبير من الكريم والبودرة.

كنت دومًا متزمّتة في هذا الشأن، لهذا أعدُّ نفسي شاهدًا لا يُعتمد عليه. فكّرت أنّ هناك أيضًا ما يُشير إلى وجود الوغد على خشبة المسرح ـ الشخص اللطيف، المعطف الأسود، الشفتان المتوهّجتان، قسم سكائر، كلب صغير مدلّل تحت ذراعها، يمكن أن تحسبها كرويلا دي فيل(١).

مرَّ أحدنا بالآخر في خلال ثوانٍ معدودة، ارتقيت السلالم، ثم توقّفت أسفل المثلّث الكائن في أعلى المبنى، بعيدًا عن المطر، لأرنو إلى الجماعة وهي تشقّ طريقها إلى السيّارة.

كان هو أوّل من استقلّ السيّارة بمساعدة الآخرين، وهنا عرفت مدى

---

(١) كرويلا دي فيل Cruella De Vil: البطلة الشرّيرة في رواية الأطفال المعروفة «مائة كلب وكلب دلماسي» للروائي دودي سمث والصادرة في ١٩٥٦، وفيها تخطف البطلة الكلاب الصغيرة بهدف الاستفادة من فروها لتحويله إلى معاطف يرتديها البشر. أصبح اسم البطلة فيما بعد رمزًا لقسوة فؤاد الأنثى، ويشير إلى أنّها شيطانة قاسية Cruel deviless. يُذكر أنّ الرواية أُنتجت للسينما في شريط من الرسوم المتحرّكة لوولت ديزني سنة ١٩٦١ (المترجم).

هشاشته، فهو لم يستطع الانحناء في منطقة الخصر، كما أنّه لم يتمكّن من إسناد جسده على قدم واحدة، فساعدوه كي يجلس على مقعده. أمّا الباب الكائن في الجهة البعيدة من السيّارة فقد ظلّ مفتوحًا للّيدي لولا التي ثنت جسدها وركبت بكلّ خفّة ورشاقة. وشاهدت سيّارة الرولز وهي تبتعد وسط حركة السير، فدخلت المبنى. كانت رؤيتي لهما قد أثقلت فؤادي بشيء ما، فحاولت أن لا أفكّر في الأمر، وأن لا أدعه يشغل مشاعري الآن، فقد كان لديّ ما يكفي في هذا اليوم لأنشغل به. لكنّ صحّة لولا ظلّت تهيمن على تفكيري عندما سلّمت حقيبتي في حجرة إيداع المعاطف وتبادلت تحيّة الصباح مع البوّابين. القاعدة المتّبعة في هذا المكان هي أنّ المرء يجب أن يكون هناك من يرافقه في المصعد والذهاب به إلى قاعة المطالعة، ويجد نفسه مضطرًّا بسبب ضيق المصعد إلى تجاذب أطراف الحديث مدّة وجيزة حسبما أعتقد. وعندما تكلّمت عن الطقس المرعب الذي لا بدّ أن يعقبه تحسّن في نهاية الأسبوع، لم أتمكّن من الحيلولة بيني وبين التفكير في لقائي خارج المبنى وبحالتي الصحّيّة: فقد أعيش مدّة بعد وفاة پول مارشال، لكنّ المؤكّد أنّ لولا ستبقى عائشة من بعدي، وعواقب هذا الأمر واضحة. فالقضيّة بيننا منذ سنوات، وكما أوضح محرّري ذات مرّة، فإنّ النشر يعادل المقاضاة، لكنّني قلّما أستطيع مواجهة هذا اليوم. فهناك أشياء كثيرة لا أريد أن أفكّر فيها، لقد أتيت إلى هنا لمهمّة ما.

أنفقت بعض الوقت أُكلّم المسؤول عن الوثائق، وسلَّمته مجموعة الرسائل التي كتبها إليَّ السيّد نيتل عن دنكرك، فتلقّاها بكلّ امتنان وتقدير، وأوضح بأنّها ستُحفظ مع بقيّة الرسائل التي سلَّمته إيّاها. ووجدني هذا المسؤول وكأنّني كولونيل عجوز متفضّلٌ عليه، واسع العلم والمعرفة، شبيهٌ به وهو المؤرّخ الهاوي الذي سبق له أن قرأ الصفحات ذات الصلة من مخطوطتين، وأرسل إليَّ بمقترحاته. سلَّمني الآن ملاحظاته ـ الغاضبة والمفيدة معًا ـ حمدًا لله! لقد انهمكت فيها كثيرًا.

«ما من جندي (خطّان تحت العبارة للتوكيد) خدم في الجيش البريطاني ويقول on the double، الأميركان وحدهم يصدرون مثل هذا الأمر، أمّا المقطع الصحيح فهو at the double»[١].

إنّني أهوى هذه التفاصيل الصغيرة، وهذا المدخل الدقيق إلى ما هو صحيح، وتصحيح التفاصيل التي تمنح بمجموعها مثل هذا الرضى.

«لا أحد يقول twenty - five - pound guns، لأنّ الصحيح هو twenty - five pounders أو twenty - five - pounder guns[٢]، وإنّ استعمالك الوارد هنا غريب تمامًا حتى عندما يطّلع عليه من هو ليس في سلاح المدفعيّة الملكي».

نحن أشبه برجال الشرطة في فريق منهمك بالبحث، حيث نزحف على أيدينا وأرجلنا ونحن نشقّ طريقنا بحثًا عن الحقيقة.

«بطلك من سلاح الجوّ الملكي يعتمر قبّعة (بيريه) أمّا أنا فلا أذهب مذهبك، لأنّ الجيش لم تكن لديه مثل هذه القبّعات حتى عام ١٩٤٠، باستثناء فيلق الدبّابات، أفضل أن تسمّيها forage cap».

وأخيرًا سمح لي الكولونيل الذي بدأ رسالته مخاطبًا إيّاي بعبارة الآنسة تاليس، بأن ينفد صبري بخصوص طبيعة جنسي عندما سأل: ما شأننا في كلّ الأحوال لكي نخوض في هذه القضايا؟

«سيّدتي (ومن تحتها ثلاثة خطوط) إنّ طائرة ستوكا لا تحمل قنبلة زنتها طنّ واحد، هل تعلمين أنّ فرقاطة بحريّة لا تزن مثل هذا الوزن إلاّ نادرًا؟ أقترح عليك تدقيق هذا الموضوع على نحو أكبر».

---

(١) معنى المصطلح باللغة العربيّة هو بخطّى عسكريّة، ويُلاحظ القارئ أنّ الاختلاف يكمن في استعمال حرف الجر باللغة الإنكليزيّة on استعمالاً غير صحيح لأنّ الصواب هو حرف الجرّ at في هذا السياق (المترجم).

(٢) وترجمة العبارة الصحيحة هي مدفع يطلق قذيفة زنة الواحدة منها خمسة وعشرون رطلاً (المترجم).

إنّها مجرّد غلطة طباعيّة، كنت أعني «رطلاً».

دوّنت ملاحظات على هذه التصحيحات، وكتبت رسالة شكر وتقدير إلى الكولونيل، ودفعت ثمن النسخ التي استنسختها عن الوثائق والتي رتّبتها في ملفّ أحتفظ به لنفسي.

أعدت الكتب التي استعملتها إلى المكتبة، وتخلّصت من عدد كبير من الأوراق، وأصبح المكان خاليًا من أيّ أثر يدلّ عليَّ.

وفيما كنت أُودّع المسؤول، علمت أنّ مؤسّسة مارشال توشك أن تقدّم منحة للمتحف.

وبعد مصافحة بقيّة العاملين في المكتبة، وبعد أن وعدتهم بالإعراب عن شكري وامتناني للمساعدة التي قدّموها لي هذا القسم، استُدعي أحد البوّابين لمرافقتي إلى الطابق الأرضي. كما استدعت الشابّة في غرفة المعاطف سيّارة أجرة، في حين حمل أحد العاملين الشبّان حقيبتي على امتداد الطريق حتى وصولي إلى الرصيف.

في طريق العودة باتّجاه الشمال، فكّرت في رسالة الكولونيل، أو، على وجه الدقّة، بالمتعة التي أحسست بها من هذه التغييرات الصغيرة.

لو أنّني كنت مهتمّة اهتمامًا كبيرًا بمثل هذه الحقائق لكتبت كتابًا من نمط آخر، لكنّني أنجزت الكتاب وأنهيته، ولن تكون هناك أيّة مسودّات أخرى.

هذه هي الأفكار التي ساورتني عندما دخلنا نفق الترام القديم تحت حيّ أولدوتيش، وذلك قبل أن يغلبني النعاس وأخلد إلى النوم. وعندما أيقظني السائق، كانت السيّارة قد توقّفت أمام شقّتي في ريجنت بارك. وضعت الأوراق التي أحضرتها من المكتبة معي في إضبارة، وأعددت شطيرة، ثم وضّبت حقيبة لقضاء ليلة خارجًا. كنت مدركة وأنا أتجوّل في شقّتي، من غرفة إلى أخرى، بأنّ سنوات استقلالي يمكن أن تكون قد شارفت على نهايتها.

على مكتبي صورة زوجي، تييري، داخل إطار، التُقطت له في مرسيليا قبل عامين من وفاته. يومًا ما سوف أطرح سؤالاً: من هو؟ هدّأت من روعي بأن أزجيت الوقت وأنا أختار ثوبًا كي أرتديه في حفل عشاء يُقام لمناسبة عيد مولدي، وهي مناسبة من شأنها أن تجدّد شبابي. إنّني اليوم أكثر نحولاً ممّا كنت عليه العام الماضي. وفيما أنا أضع أصابعي من فوق مسند الثياب نسيت أمر التشخيص المرضي لمدّة دقائق، وقرّرت أن أرتدي ثوبًا يشبه قميصًا رجاليًّا، رمادي اللون. وسار كلّ شيء بعد ذلك على ما يرام: وشاح من قماش الأطلس الأبيض مثبّت بدبّوس عليه نقش بارز يعود إلى إميلي، وحذاء بكعب واطئ ولفاع أسود. أغلقت الحقيبة ودهشت لخفّتها عندما حملتها إلى الباب.

ستأتي سكرتيرتي يوم غد، قُبيل عودتي، وستجد ملاحظة دوّنتها لها وأوضحت فيها العمل الذي أُريدها إنجازه، ثم أخذت كتابًا وكوب شاي وجلست فوق كرسي بجانب نافذة تطلّ على الحديقة. كنت دومًا قادرة على تحاشي التفكير في الأشياء التي يمكن أن تزعجني حقًّا، لكنّني لم أتمكّن من المطالعة لأنّني كنت فرحة: رحلة إلى الريف، عشاء على شرفي، تجديد الروابط العائليّة، فضلاً على حديث آخر مع أحد الأطبّاء. ربّما كان ينبغي لي أن أكون حزينة، أأنا في حالة إنكار للذات؟ راودتني هذه الأفكار ولكنّها لم تغيّر أيّ شيء. نصف ساعة، وتأتي السيّارة، شعرت بالارتباك، فنهضت عن مقعدي، وبدأت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا بضع مرّات.

تؤلمني ركبتاي إذا ما بقيت جالسة مدّة طويلة من الزمان، استبدّ بي التفكير في لولا، قسوة ذلك الوجه العجوز الذي تثقله المساحيق وخطواتها الجريئة وهي تسير بحذاء ذي كعب عالٍ، بحيويّتها، وهي تستقلّ سيّارة الرولز. أتراني أنافسها عندما كنت أطأ البساط المفروش بين المدفأة والأريكة؟ طالما فكّرت بأنّ حياة الترف، والسكائر، ستودّعها.

فكّرت في ذلك حتى عندما كنّا في الخمسينيّات من عمرنا. لكنّها كانت

ذات نظرة شرهة، ذكيّة وهي في الثمانين. كانت دومًا الفتاة المترفّعة الأكبر سنًّا، تتقدّمني بخطوة واحدة، لكنّني سأتقدّم عليها في تلك القضيّة الأخيرة المهمّة، في حين ستبقى على قيد الحياة حتى تبلغ المائة عام. ولن أكون قادرة على النشر في أثناء حياتي.

لا بدّ أنّ سيّارة الرولز قد أذهلتني لأنّ السيّارة كانت خيبة أمل عندما وصلت متأخّرة خمس عشرة دقيقة. الحقّ أنّ مثل هذه الأمور لا تقلقني عادة. كانت سيّارة أجرة صغيرة مغبرّة، مقعدها الخلفي مغطًّى بفرو اصطناعي يشبه تطريزة جلد الحمار الوحشي. لكنّ السائق مايكل كان فتًى مرحًا من جزر الهند الغربيّة، حمل حقيبتي وامتعض وهو يدفع الكرسي الأمامي ليفسح لي المجال.

ولمّا أعلمته بأنّني لن أسمح بصوت الموسيقى مهما كانت درجتها وهي تنبعث من مكبّرات الصوت من خلف رأسي، وتخلّى بدوره عن عبوسه، انسجمنا انسجامًا رائعًا وتكلّمنا عن أسرتينا.

تبيّن أنّه لم يعرف له أبًا، وأنّ أمّه كانت طبيبة في مستشفى ميدلسيكس، وأنّه تخرّج من جامعة ليستر بعد أن حاز شهادة في القانون، وأنّه سيبدأ بإعداد أطروحة ـ دكتوراه في القانون والفقر في العالم الثالث لكلّيّة لندن للاقتصاد.

وفيما كنّا ننطلق بعيدًا عن لندن، سالكين طريق الغرب الموحش، أوضح لي رأيه قائلاً: طالما لا يوجد قانون للملكيّة، فإنّه لا يوجد رأس مال، ولهذا لا توجد ثروة.

قلت:

ـ هناك محام يتحدّث. التطبيل للأعمال من شأنك.

فضحك ضحكة مؤدّبة على الرّغم من أنّه لا بدّ قد فكّر بأنّني غبيّة. من الصعب جدًّا في هذه الأيّام معرفة مستوى الناس التعليمي من خلال أسلوب كلامهم أو ثيابهم، أو من ذوقهم الموسيقي. المستحسن أن تعامل كلّ من تلتقيه على أنّه مثقّف بارز.

بعد عشرين دقيقة كنّا قد تكلّمنا بما يكفي، ولمّا وصلت السيّارة الطريق السريع واستقرّ صوت محرّكها على نحو لا يتبدّل، غلبني النعاس ثانية. ولمّا استيقظت، كانت السيّارة تنطلق فوق طريق ريفي، وشعرت بضغط مؤلم حول جبيني.

تناولت من حقيبتي ثلاث حبّات أسبرين، مضغتها وبلعتها باشمئزاز وتقزّز، كانت غير مستساغة. أيّ جزء من دماغي، من ذاكرتي تعرّض لسكتة صغيرة أثناء نومي؟

لن أعرف أبدًا، وبعد وقت قصير، شعرت وأنا جالسة في تلك السيّارة الصغيرة، وللمرّة الأولى، بشيء ما يشبه اليأس المفضي إلى تهوّر، كلمة رعب قويّة جدًّا، الرهاب من الأماكن المغلقة قد يكون جزءًا منه. حبس لا سبيل إلى الفرار منه ضمن عمليّة تحلّل وإحساس بالتضاؤل.

نقرت على كتف مايكل وطلبت منه أن يسمعني شيئًا من الموسيقى، اعتقد أنّ سبب ذلك يرجع إلى أنّنا اقتربنا من وجهتنا، فرفض، ولكنّه عاد فامتثل لإصراري، وانطلق صوت غناء كاريبي، فأحسست بالمتعة لأنّ الصوت كان على درجة بالغة من الصبيانيّة، وإن راودني شعور بأنّ الغناء كان ينطوي على عبارات عاطفيّة ولم أطلب منه أن يترجم.

كانت الموسيقى مستمرّة عندما دخلنا الطريق الفرعي المؤدّي إلى فندق تيلني.

لقد مرّت خمس وعشرون سنة على سلوكي هذا الطريق عند تشييع جنازة إميلي.

لاحظت بادئ الأمر غياب أشجار الحديقة، فقد ماتت أشجار الدردار العملاقة بسبب المرض على ما أعتقد، فيما اقتلعت بقيّة الأشجار من نوع البلّوط لإنشاء ملعب غولف.

بدأنا نخفض سرعة سيرنا كي نفسح المجال لعبور بعض لاعبي الغولف

ولكنّني لم أتوقّف عن التفكير بأنّهم عَدَوا على أراضي الآخرين.

كانت الغابة المحيطة بالبيت الريفي القديم الذي كانت تقطنه غريس تيرنر لا تزال قائمة.

وبعد أن اجتزنا آخر مجموعة من أشجار الزان لاح لنا البيت الكبير. لا ضرورة للحنين إليه ـ فهو قبيح دائمًا ـ ولكنّ مظهره من بعيد كان يجعله مفتقرًا إلى الحماية، فيبدو عاريًا من كلّ شيء. أمّا اللبلاب الذي استخدم لإضفاء مظهر لطيف على الواجهة الحمراء الساطعة فقد أُزيل تمامًا، ربّما للاحتفاظ بالقرميد بحالة جيّدة. ثم اقتربنا من الجسر الأوّل، وتمكّنت من ملاحظة غياب البحيرة التي لم يعد لها أيّ وجود.

وتوقّفنا على الجسر ونحن فوق قطعة أرض مكسوّة بالعشب، كالذي يمكن مشاهدته في بعض الأحيان في خندق مائي قديم يُحيط بحصن، وهو جميل بطبيعته إذا لم تكن على بيّنة ممّا كان في هذا المكان ـ الجلسة الطويلة والبطّ والسرطانان العملاقان اللذان شواهما أفّاقان وتناولاهما على مقربة من معبد الجزيرة.

المعبد نفسه لم يعد له وجود أيضًا، وكان هناك أيضًا مقعد خشبي وسلّة مهملات. أمّا الجزيرة التي اختفت عن الأنظار فقد حلَّ محلَّها عشب ناعم نمت فيه أنواع الزهور، وثمّة درب يلتفّ من حول المكان، مرصوف بالحجارة، وتنتشر عليه المقاعد هنا وهناك، فضلاً عن أضواء الحديقة الكرويّة. لم يكن لديّ وقت كافٍ كي أحاول تحديد البقعة التي جلست فيها ذات يوم وهدَّأت من روع الليدي لولا مارشال الشابّة لأنّنا كنّا قد بدأنا عبور الجسر الثاني، ثم خفّضنا من سرعة السيّارة ونحن نتقدّم داخل موقف السيّارات الإسفلتي الممتدّ على طول البيت.

حمل مايكل حقيبتي داخل منطقة الاستقبال في الردهة القديمة. بدا لي غريبًا انهماكهم في مدٍّ بساط فوق البلاط الأسود والأبيض. أعتقد أنّ

الأصوات تشكّل دومًا مصدر إزعاج وإن لم أعترض عليها. موسم فيفالدي[١] يتناهى إلى الأسماع من بين مكبّرات صوت خفيّة. شاهدت مكتبًا جميلاً مصنوعًا من خشب الورد، وعليه شاشة حاسوب، وزهريّة ورود ودرعان على كلا الجانبين، ومن فوقهما اللوحة التي كانت معلّقة دومًا في غرفة الطعام والتي استوردها أبي كي يمنح الأسرة نسبها. منحت مايكل إكراميّة وتمنّيت له التوفيق من كلّ قلبي في حقوقه الخاصّة بالملكيّة والفقر. كنت أحاول أن لا أتفوّه بملاحظة سخيفة عن المحامين. وتمنّى لي بدوره عيد ميلاد سعيدًا، وصافحني ـ كانت قبضته رشيقة، خفيفة ـ ومضى في سبيله.

ناولتني من وراء المكتب فتاة صارمة الملامح ترتدي بذلة رسميّة مفتاح غرفتي، وأخبرتني أنّ المكتبة القديمة قد حُجزت كي تُستخدم من أجل حفلة عيد ميلادي.

القليلون الذين وصلوا الدار خرجوا للتنزّه قليلاً، إذْ كانت الخطّة تقضي بحضور الكلّ في الساعة السادسة لتناول المشروبات. وسيحضر حمّال لنقل حقيبتي إلى الطابق العلوي، فضلاً على وجود مصعد لكي أستخدمه دون تحمّل مشقّة صعود السلالم.

لا أحد في استقبالي وتحيّتي، ولكنّني كنت مرتاحة. فضّلت أن أكون بمفردي لأستمتع بمشاهدة ما حدث من تغييرات على المنزل قبل أن أضطرّ لأن أكون ضيفة شرف.

لجأت إلى المصعد للتوجّه إلى الطابق الثاني، ومررت بعدد من الأبواب الزجاجيّة التي تُستخدم عند الحريق، ومشيت على امتداد الدهليز الذي أصدرت أرضيّته الخشبيّة صريرًا معهودًا.

---

(١) أنطونيو فيفالدي (١٦٧٨ ـ ١٧٤١) Antonio Vivaldi: وُلد في البندقيّة، عازف كمان ومؤلّف موسيقي إيطالي له أُوبرات وسمفونيّات ومقطوعات دينيّة، من أشهرها الفصول الأربعة (المترجم).

الغريب أنّني وجدت الغرف موصدة وعليها أرقام، ومقفلة، ولم يدلّ رقم غرفتي، وهو الرقم سبعة، على أيّ شيء في نظري، لكنّني خمّنت أين سأنام. وعندما وقفت أمام الباب لم تستبدّ بي الدهشة. فهي ليست غرفتي القديمة بل غرفة العمّة فينوس التي تتمتّع بأفضل إطلالة على البحيرة والطريق الفرعي المؤدّي إلى المنزل والغابة والتلال المنتشرة من ورائها. كان تشارلز، وهو حفيد بياروت، والروح المنظّمة للحفل، قد حجزها لي.

مفاجأة مدهشة أن أخطو داخل المكان، الغرف الكائنة على كلا الجانبين أدمج بعضها ببعض لتصبح جناحًا واسعًا. على منضدة زجاجيّة واطئة مجموعة كبيرة من الأزهار. السرير العالي والضخم الذي كانت تنام عليه العمّة فينوس دون أن تتذمّر لم يعد له وجود، شأنه شأن خزانة الأدراج المزوّدة بالنقوش المحفورة والأريكة الحريريّة الخضراء، إذْ باتت كلّها ملكًا للابن الأكبر الذي أنجبته زوجة ليون الثانية، حيث وضعها في قلعة في مكان ما من المرتفعات الأسكتلنديّة. لكنّ الأثاث الجديد كان لطيفًا، كما أنّ غرفتي راقتني. وصلت حقيبتي، فطلبت بعدئذٍ إبريق شاي، وعلّقت ثوبي. تجوّلت في غرفة الجلوس التابعة لجناحي فوجدت فيها منضدة للكتابة ومصباحًا جيّدًا وأُعجبت بسعة الحمّام وكثرة المناشف التي وُضعت على حاجز دافئ، وارتحت كثيرًا عندما شاهدت أنّ كلّ شيء ينمّ عن حسن اختيار وذوق، خاصّة بعد أن أضحى غياب الذوق سمة العصر.

وقفت قرب النافذة لأنظر بإعجاب إلى ضوء الشمس المائل على ملعب الغولف، يصقل ببريقه الأشجار العارية من فوق التلول النائية. لم أستطع حقًّا أن أغضّ النظر عن غياب البحيرة، لكنّني فكّرت أنّ في الإمكان إعادتها من جديد يومًا ما، خاصّة بعد أن بات المكان يحتضن اليوم سعادة إنسانيّة أكبر ممّا كانت عليه الحال عندما كنت أقطن فيه بعد أن تحوّل إلى فندق.

اتّصل تشارلز هاتفيًّا بعد مرور ساعة في الوقت الذي بدأت فيه بالتفكير بارتداء ثيابي، واقترح أن يأتي ليصحبني وإيّاه في الساعة السادسة والربع، بعد

أن يكون الآخرون قد وصلوا. وهكذا دخلت الغرفة المترامية الأطراف المصمّمة على هيئة الحرف L برفقته، مرتدية ملابسي المصنوعة من الكشمير، فصفّق لي أقربائي الخمسون ورفعوا كؤوسهم عاليًا.

كان أوّل شيء لفت نظري هو أنّني لم أستدلّ على أيّ واحد منهم. لم أجد وجهًا مألوفًا! وتساءلت إن كان هذا اختبارًا أوّليًّا في عدم الفهم الذي وعدوني به. لكنّ الحاضرين بدأوا يحتلّون رويدًا رويدًا نقطة تركيزي، لا بدّ للمرء أن يُراعي السنوات والسرعة التي تحوّل فيها عمر الأطفال الرضَّع إلى عشر سنوات، وباتوا أكثر صخبًا وضجيجًا. لم أخطئ في الاستدلال على شقيقي الذي تكوّم وغطس في أحد جانبي الكرسي المتحرّك، ووضع منديلاً من تحت ذقنه ليتفادى انسكاب الشمبانيا التي كان أحد الحاضرين يعينه على احتسائها. وعندما انحنيت إلى أمام لأقبّل ليون، تمكّن من أن يبتسم ابتسامة صغيرة لاحت على النصف الذي لا يزال يتحكّم فيه من وجهه. ولم أستغرق وقتًا طويلاً في الاستدلال على بياروت الذي ضمر وذوى كثيرًا، وتألّقت صلعته التي أردت أن ألمسها بيدي، ولكنّه لا يزال يتلألأ كعهده، ويتّصف بصفات ربِّ الأسرة. وكان ثمّة اتّفاق على أن لا نأتي على ذكر شقيقته. تقدّمت من حول الغرفة صحبة تشارلز وهو يذكّرني بالأسماء. كم هو بهيج أن أكون في قلب مثل هذا الشمل الذي التأم عن طيب خاطر. تعرّفت من جديد على أولاد جاكسون وأبنائه وأحفاده وأبنائهم، وكان قد مضى على وفاته خمسة عشر عامًا. كانت الغرفة تحتشد بأولاد التوأمين، ولم يكن ليون أقلّ شأنًا منهما بزيجاته الأربع وتفانيه في الأبوّة. كانت أعمارنا تتراوح بين ثلاثة أشهر وتسعة وثمانين عامًا. الأصوات متباينة، تتراوح بين صوت حادّ وصوت أجشّ، فيما كان الخدم يطوفون بيننا وهم يوزّعون الشمبانيا والليموناضة. وحيَّاني الأطفال الكبار في السنّ الذين أنجبهم أقرباء أبعدون كأنّهم أصدقاء فقدتهم منذ زمن بعيد. وكان كلّ مخاطب يريد أن يخبرني بشيء ما عن مؤلّفاتي، وأخبرني عدد من المراهقين المفتونين بي أنّهم درسوا مؤلّفاتي في

المدرسة، ووعدت أن أقرأ مخطوطة رواية مكتوبة على الآلة الكاتبة ألَّفها ابن غائب لأحد الحاضرين.

ووضعت الملاحظات والبطاقات في يديَّ، وتكدّست على المنضدة في ركن الغرفة الهدايا التي كان يتعيّن عليَّ فتحها، كما قال لي عدد من الأولاد، قبل أن يخلدوا إلى النوم وليس بعده. وعدتهم وصافحتهم، وقبّلت وجناتهم وشفاههم، وداعبت الأطفال الرضَّع ودغدغتهم.

وفي الوقت الذي بدأت فيه بالتفكير برغبتي العارمة في الجلوس في مكان ما، تنبّهت إلى أنّ الكراسي انتظمت في صفوف باتّجاه واحد، ثم صفّق تشارلز وصاح وسط الضوضاء التي لم تهدأ بأنّ برنامجًا مسلّيًا سوف يسبق العشاء على شرفي، وطلب منَّا الجلوس.

اقتادوني إلى كرسي بيدين في الصفّ الأمامي، وجلس بجانبي بياروت العجوز الذي كان يتجاذب أطراف الحديث مع أحد الأقرباء الجالسين إلى يساره.

ثم استقرّ شيء من الصمت المتململ على الغرفة، وانبعثت من أحد أركانها همسات الأطفال القلقة التي خلت أنّ الأفضل تجاهلها.

وفيما كنّا ننتظر، خلوت إلى نفسي بعض الوقت كعهدي دائمًا. رنوت إلى أرجاء الغرفة وعندئذٍ أدركت إدراكًا تامًّا أنّ الكتب قد اختفت من المكتبة، واختفت معها الرفوف كلّها.

هذا هو السبب الذي جعل الغرفة تبدو فسيحة، مترامية الأطراف، أكبر ممّا أتذكّر.

الأشياء الوحيدة المقروءة هي المجلاّت الريفيّة، وقد صُفَّت قرب المدفأة. وبعد هنيهة، جذب خلالها أحدهم كرسيّه، وقف أمامنا صبي يضع عباءة سوداء فوق كتفيه. كان شاحب الوجه، يعلوه النمش، أحمر الشعر ـ لا بدّ أنّه أحد أبناء كوينسي.

خمّنت أنّه في التاسعة أو العاشرة من عمره، كان واهن الجسد، نحيفًا، فبدا رأسه كبيرًا، مضفيًا عليه مظهرًا روحيًّا. ولكنّه كان يبدو واثقًا وهو يسدّد نظراته من حوله منتظرًا الجمهور وهو يهدأ، وأخيرًا رفع ذقنه الشيطاني، ونفخ أوداجه وتكلّم بصوت واضح. تخيّلت حيلة سحريّة ولكنّ الذي سمعته منه انطوى على ما هو فوق طبيعي.

هذه هي حكاية أرابيلاّ العفويّة

التي هربت رفقة شابّ عرضي

فحزن أبواها لمّا رأيا ابنتهما البكر

تتلاشى من المنزل وتذهب إلى إيست بورن

دون إذن منهما، فيداهمها المرض وتمرّ بفاقة حتى لم يعد لديها سوى ستّة بنسات.

وعلى حين غرّة، وجدتها منتصبة أمامي، تلك الفتاة الصغيرة المغرورة المزدهية بنفسها، والمنشغلة دومًا، والتي لم تمت أيضًا لأنّ فؤادي الكليل ـ زهو يبعث على الضحك! ـ وثب وثبة صغيرة من بين ضلوعي عندما ضحك الحاضرون ضحكة مكتومة تنمّ عن الاستحسان لمّا سمعوا كلمة تلاشت.

وظلّ الصبي يتلو بصوت واضح يدعو إلى الإعجاب، تشوبه ما يسمّيها أبناء جيلي لهجة الكوكني، وإن لم تكن لديّ أيّة فكرة في هذه الأيّام عن أهمّيّة لفظ الحرف t المزماري.

كنت أعلم أنّ الكلمات هي كلماتي، لكنّني قلّما تذكّرتها، كما وجدت صعوبة في التركيز، فالأسئلة تحتشد في ذهني، شأنها شأن المشاعر والأحاسيس التي داهمتني.

أين وجدوا النسخة، وهل كانت هذه الثقة التي لا تمتّ للدنيا بصلة علامة أخرى من علامات عصر مختلف؟ رمقت جاري بياروت بنظرة، فوجدته

قد أخرج منديله وراح يداري به دموعه، لكنّني لا أخال هذا اعتزازًا يصدر عنه حسب، بل راودتني الشكوك في أنّ كلّ شيء من تدبيره، وهنا وصلت المقدّمة إلى ذروتها المعقولة:

فالفجر لاحت تباشيره أمام تلك الفتاة المحظوظة

كي تتزوّج أميرها المذهل، لكن حذارِ،

لأنّ أرابيلاّ لم تتعلّم إلاّ بعد فوات الأوان تقريبًا

أنّنا يجب أن نفكّر مليًّا قبل أن نحبّ.

وصفّقنا تصفيقًا صاخبًا، بل وانبعث أيضًا صفير معيب، ذلك المعجم، معجم أوكسفورد المختصر، أين هو الآن؟ شمال غربي أسكتلندا؟

أريد استعادته، انحنى الصبيّ مُحيّيًا وتراجع إلى الخلف مسافة ياردتين وانضمّ إليّ أربعة أطفال آخرين جاؤوا دون أن أتنبّه لهم، وانتظروا في فسحة الأجنحة.

وهكذا بدأت إذًا مسرحيّة محاكمات أرابيلاّ، بخروج الآباء الذين راودهم القلق وانتابهم الحزن، وعلى الفور عرفت البطلة تشلوي وهي ابنة حفيد ليون. يا لها من فتاة جميلة وهادئة، بصوتها الخفيت والعميق، ودماء أمّها الإسبانيّة. أتذكّر أنّني حضرت حفلة عيد مولدها الأوّل، فبدا ذلك لي كأنّه حدث قبل بضعة أشهر. رنوت إليها وهي تهوي إلى أحضان الفقر واليأس على نحو غاية في الإقناع، حالما هجرها الكونت الشرّير ـ الذي تفوّه بالاستهلال وكان مرتديًا العباءة السوداء. وفي أقلّ من عشر دقائق، انتهى العرض. أتذكّر أنّ المسرحيّة بدت لي عندما كنت طفلة أنّها بطول مسرحيّة من مسرحيّات شكسبير. ونسيت تمامًا أنّ أرابيلاّ والأمير الطيّب شبكا ذراعيهما بعد مراسم الزواج، وتكلّما معًا وخَطَوَا كلاهما إلى أمام ليوجّها إلى النظّارة آخر بيتين من المسرحيّة:

ها هو الحبّ يبدأ بعد أن انتهى مخاضنا

فوداعًا أيّها الأصدقاء الطيّبون فنحن راحلون نحو المغيب.

فكّرت بأنّ هذه الأبيات ليست هي أبياتي المفضّلة، لكنّ كلّ الحاضرين في الغرفة نهضوا يصفّقون باستثنائي أنا وليون وبياروت. لقد كان الأطفال قد تمرّنوا على المسرحيّة تمرينًا ممتازًا حتى نزول الستارة. وقفوا صفًّا واحدًا جنبًا لجنب، يدًا بيد، مستمدّين إشارة البدء من تشلوي، وتراجعوا خطوتين إلى الوراء، ثم تقدّموا إلى أمام، وانحنوا من جديد.

لم يتنبّه أحد، في غمرة الضوضاء، أنّ بياروت المسكين لم يتمكّن من المقاومة، وأنّه دفن وجهه بين يديه. أتراه يحيا ثانية هنا ذلك الزمان الرهيب لوحده بعد طلاق أبويه؟ كانا يرغبان في أن يكون لهما دور في المسرحيّة، التوأمان، في تلك الأمسية، في المكتبة، وها هي المسرحيّة أخيرًا، بعد مرور أربعة وستّين عامًا، وبعد أن مضى على وفاة أخيه التوأم زمن بعيد.

ساعدوني على النهوض من فوق الكرسي، فألقيت كلمة قصيرة عبّرت فيها عن شكري وامتناني، وحاولت، وأنا أجاهد كي يعلو صوتي فوق صوت بكاء طفل رضيع انبعث من مؤخّرة الغرفة، أن أستحضر ذلك الصيف الشديد القيظ من عام ١٩٣٥ عندما جاء أبناء الخالة من الشمال. التفتُّ إلى الممثّلين وأخبرتهم أنّ إخراجنا ما كان ليضاهي إخراجهم، فأومأ بياروت برأسه مؤكّدًا. وأوضحت لهم أنّ الإخفاق في إجراء التمرينات كان بسببي أنا لأنّني قرّرت في منتصف الطريق أن أتحوّل إلى كتابة الرواية. وهنا تعالت بعض الضحكات، وبعض التصفيق. أعلن تشارلز بعد ذلك أنّ العشاء جاهز.

وهكذا بدأت الأمسية البهيجة تتفكّك عراها ـ وجبة الطعام المفعمة بالضجيج التي شربت فيها قدرًا قليلاً من النبيذ، والآباء، وخلود الأطفال الصغار إلى النوم في حين ذهب إخوتهم وأخواتهم الأكبر سنًّا لمشاهدة التلفاز. وتلا ذلك حديث أثناء تناول القهوة وسط ضحكات نابعة من القلب، وبحلول الساعة العاشرة بدأت أفكّر في غرفة نومي الرائعة في الطابق العلوي.

لم يكن السبب في ذلك هو أنّني كنت متعبة، بل لأنّني شعرت بالتعب من وجود الآخرين وإيّاي ومن أنّني كنت موضع اهتمام الحاضرين الشديد على رغم رقّتهم وعطفهم.

انقضت نصف ساعة أخرى في تمنّيات بقضاء ليلة سعيدة وبالتوديع قبل أن يرافقني تشارلز وزوجته آني إلى غرفتي.

الوقت الآن هو الخامسة صباحًا ولا زلت جالسة من خلف منضدة الكتابة، أفكّر في اليومين الغريبين اللذين مررت بهما.

صحيح أنّ كبار السنّ ليسوا بحاجة إلى النوم ـ في الأقلّ ليس ليلاً ـ ولا يزال هناك الشيء الكثير أمامي الذي ينبغي لي معالجته. وعلى الفور، وربّما في غضون هذا العام، سأجد نفسي غير قادرة على التحكّم في ما سأفعل.

لقد فكّرت في روايتي الأخيرة، الرواية التي كان يتعيّن عليها أن تكون روايتي الأولى: النسخة الأولى ترقى إلى شهر كانون الثاني ١٩٤٠ والأخيرة ترقى إلى آذار ١٩٩٩، وبينهما نصف دزّينة من النسخ المتباينة.

النسخة الثانية تعود إلى شهر حزيران ١٩٤٧، والثالثة.. لكن من يهمّه أن يعرف؟ لقد انتهى واجبي الذي استمرّ تسعة وخمسين عامًا.

هناك جريمتنا ـ جريمة لولا وجريمة مارشال وجريمتي ـ وشرعت بوصفها بدءًا من النسخة الثانية.

ورأيت أنّ من واجبي عدم إخفاء أيّ شيء ـ لا الأسماء ولا الأماكن ولا الظروف الحقيقيّة ـ فوضعتها كلّها فيها لتكون سجلاً تاريخيًّا.

لكن من حيث الحقيقة القانونيّة، أخبرني عدد كبير من المحرّرين وعلى امتداد السنين بأنّ ذكرياتي الشرعيّة لا يمكن أن ترى النور ما دام بقيّة رفاقي في الجريمة على قيد الحياة، ولا يمكنك مقاضاة أحد سوى نفسك والأموات.

وكان آل مارشال منهمكين في المحاكم منذ أواخر الأربعينيّات، يدافعون عن أسمائهم بكلّ قوّة. وفي وسعهم أن يدمّروا دار نشر بأكملها بكلّ يسر وسهولة من خلال حساباتهم المصرفيّة الجارية.

قد يخال للمرء أنّ هناك شيئًا يريد أن يبقى في طيّ الكتمان.

فكّرِي، نعم، ولكن لا تكتبي وكانت المقترحات المقدّمة غاية في الوضوح ـ غيِّري المكان، فكّكي الأجزاء وأدخلي التغييرات، أنزلي الضباب الخاصّ بالخيال! ما هدف الروائيين؟ لا تكتبي إلاّ ما هو ضروري، أقيمي مخيّمًا على بعد بوصات من يد القانون.

لكن لا أحد يعلم هذه المسافات الدقيقة إلى أن يصدر الحكم، وإذا أراد المرء أن يكون في مأمن، فعليه أن يكون متواريًا عن الأنظار.

أعلم أنّني لا أستطيع النشر إلى أن يواريا الثرى، وابتداءً من هذا الصباح، يُخال لي أنّهما لن يموتا إلاّ بعد موتي.

لا فائدة من موت أحدهما، وحتى في حالة وجود وجه لورد مارشال الذي ضمرت عظام فكّه على صفحات الوفيّات في نهاية المطاف، فإنّ ابنة خالتي القادمة من الشمال لن تغفر أيّ اتّهام بالتواطؤ في ارتكاب جريمة.

* * *

هناك جريمة، وهناك عاشقان أيضًا. العاشقان ونهايتهما السعيدة لم يغيبوا عن فكري طوال الليل.

فنحن راحلون نحو المغيب، نسخة غير سعيدة. خُيّل إليَّ أنّني لم أسافر بعيدًا منذ أن كتبت مسرحيّتي الصغيرة، أو، أنّني انحرفت انحرافًا كبيرًا وعدت ثانيةً إلى نقطة البداية.

في هذه النسخة الأخيرة وحدها ينتهي المطاف بالعاشقين نهاية سعيدة، يقفان جنبًا لجنب فوق رصيف جنوبي لندن في وقت مضيت فيه في سبيلي.

كلّ النسخ والمسودات السابقة قاسية، عديمة الرحمة، لكنّني لم أعد

الآن بقادرة على التفكير في الهدف الذي يمكن أن تفيد به إذا ما حاولت، إن جاز التعبير، إقناع قارئي، بوسائل مباشرة أو غير مباشرة، بأنّ روبي تيرنر توفي حقًّا نتيجة التقيّحات التي أُصيب بها في براي ديونز في الأوّل من حزيران سنة ١٩٤٠ وأنّ سيسليا لقيت مصرعها في شهر أيلول من العام نفسه إثر انفجار قنبلة دمّرت محطّة قطار أنفاق بلهام، وأنّني لم أشاهدهما في ذلك العام قطّ، وأنّ سيري في أرجاء لندن انتهى بالكنيسة الكائنة في كلابهام كومون وأنّ بريوني الجبانة عادت أدراجها إلى المستشفى وهي تعرج، لا تستطيع مواجهة شقيقتها التي توفي حبيبها مؤخّرًا، وأنَّ الرسائل التي كتبها العاشقان محفوظة في المتحف الحربي.

كيف يمكن لكلّ هذه الأحداث أن تصنع نهاية رواية؟ ما الإحساس أو الهدف أو المرض الذي يمكن للقارئ أن يستمدّه من مثل هذه التفاصيل؟ من تراه يريد أن يصدّق أنّهما لم يلتقيا ثانية، وأنّ حبّهما لم يتحقّق؟ من تراه يريد أن يصدّق كلّ ذا إلاّ إذا كان يريد أن يخدم الواقعيّة الكئيبة؟ أنا شخصيًّا لم أستطع أن أفعل ذلك، فقد بلغت من الكبر عتيًّا، شديدة الخوف، أعشق ما تبقّى لي من الحياة. . إنّني أُواجه مدًّا من النسيان، ثم الزوال. لم أعد أملك شجاعة التشاؤم المعروف عنّي. فعندما أكون قد قضيت نحبي، وقضى آل مارشال نحبهما، وتكون الرواية قد نُشرت أخيرًا، فإنّنا لن نعيش إلاّ بصفتنا مبتكرات.

وستكون بريوني فانتازيا شأنها شأن العاشقين اللذين ناما في فراش واحد في بلهام وأثارا استياء صاحبة المنزل. ما من أحد سيهتمّ بالأحداث أو بالأفراد الذين أُسيء تصويرهم من أجل كتابة رواية.

أعلم جيّدًا أنّ هناك نمطًا معيّنًا من القرّاء الذين سوف يضطرّون إلى طرح السؤال: لكن ما الذي جرى حقًّا؟ الجواب في غاية البساطة: العاشقان على قيد الحياة. ما دام هناك نسخة واحدة، نسخة على الآلة الكاتبة من المسودة الأخيرة، فإنّ شقيقتي التلقائيّة والطبيعيّة وأميرها الطبيب يعيشان من أجل حبّهما.

لكنّ المشكلة في هذه السنوات التسع والخمسين هي كما يأتي: كيف يمكن للروائيّة أن تحقّق الكفَّارة في حين أنّها آلهة بكلّ ما تملكه من سلطة مطلقة في تقرير النتائج؟ ما من أحد، ولا من كينونة أو شكل أعلى يمكنها أن تلجأ إليه أو تتصالح وإيّاه أو يغفر لها. ما من شيء يكمن خارجها. فقد وضعت الحدود في مخيّلتها مثلما وضعت الشروط. لا كفَّارة للآلهة، أو الروائيين حتى إن كانوا ملحدين. طالما كانت هذه المهمّة مستحيلة، وهذا هو بيت القصيد، المشكلة مستهلكة بكلّ ما في الكلمة من معنًى.

إنّني أقف بجوار النافذة، أشعر بموجات التعب تضرب على البقيّة الباقية من قوّة جسدي. الأرضيّة تبدو متموّجة من تحت قدميَّ، أراقب خيوط الضوء الرمادي الأولى المنعكسة على البستان والجسرين الممتدّين فوق البحيرة التي لم يعد لها أيّ أثر، والطريق الفرعي الضيّق والطويل الذي اقتادوا منه روبي بعيدًا صوب البياض.

يروقني أن أتخيّل بأنّني عندما أدع العاشقين على قيد الحياة، وأجمع بينهما في نهاية المطاف، فإنّ ذلك لا يتأتّى عن ضعف أو مراوغة، بل إنّما هو عمل أخير من أعمال الإحسان، وهو موقف ضدّ النسيان واليأس.

لقد منحتهما السعادة، لكن هذا لا يفي بالغرض كي أجعلهما يغفران لي.

لا، ليس تمامًا، ولم يحن الوقت أيضًا، آه لو كانت لديّ المقدرة على استحضارهما في يوم عيد ميلادي، روبي وسيسليا، لو كانا على قيد الحياة حتى الآن، يحبّ أحدهما الآخر، يجلسان جنبًا لجنب في المكتبة ويبتسمان وهما يشاهدان محاكمات أرابيلاّ؟ ليس هذا مستحيلاً.

لكن ينبغي لي الآن أن أخلد إلى النوم.

(انتهت)



في يوم صيفي من عام ١٩٣٥، تُفاجأُ بريوني مراهقة الثلاثة عشر عامًا، بمشهد تقارب بين أختها الكبرى سيسيليا، وروبي، ابن الخادمة. إلّا أنّ خيال بريوني الخصيب وعدم قدرتها على فهم دوافع البالغين سوف يتسبّبان بارتكاب جريمة لا تُغتفر، جريمة ستحوّل مجرى حياتهم جميعًا...

«رواية استثنائيّة، قويّة مرهقة وسامية... ما من روائي يكتب باللغة الإنكليزيّة اليوم يتفوّق على إيان ماك إيوان».

ذا واشنطن بوست بوك وورلد

آيان ماك إيوان روائي بريطاني، له إحدى عشرة رواية، أبرزها رواية «أمستردام» الحائزة جائزة بوكر، الصادرة عن دار الآداب.

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-215-3

